
ايفان تورغينيف
المؤلفات المختارة
في خمس مجلدات
المجلد الثاني
رودين عش النبلاء

ايفان تورغينيف

المؤلفات المختارة
فى ٥ مجلدات

المجلد

٢

رودين
عش النبلاء



دار «رادوغا»
موسكو

ترجمة : غائب طعمة فرمان
رسوم اندري كوستين

И. С. Тургенев
ИЗБРАННЫЕ ПРОИЗВЕДЕНИЯ
В 5 ТОМАХ
ТОМ II
Рудин. Дворянское гнездо
На арабском языке

طبع فى الاتحاد السوفييتي

Т $\frac{4702010100-99}{031(01)-84}$ 076—85

كلمة الناشر

تتضمن روايات تورغينيف تاريخ المثقفين الروس الفريد خلال نصف قرن من العقد الرابع الى العقد الثامن من القرن التاسع عشر . لم يكن تورغينيف ، على الاطلاق ، مدونا هادئا للوقائع الموغلة في الماضي البعيد . كان يسرع في متابعة الاحداث ، مجبولا ليس فقط على التحسس الحاد للحياة المعاصرة ، بل وعلى تشوف المستقبل .

وروايات تورغينيف مشبعة بحقائق الايديولوجية والثقافة والفن التي يتعلم بها هذا الفنان حركة الزمن . ولكن الشيء الرئيسي بالنسبة لتورغينيف ظل دائما هو النموذج الجديد للانسان ، الخلق الجديد الذي يعكس ، بشكل مباشر ، تأثير الحقبة التاريخية على الشخصية الانسانية . والبحث عن البطل هو الذي يوجه هذا الروائي في تصويره للاجيال المختلفة للمثقفين الروس .

والبطل عند تورغينيف مطروح في اكثر الظواهر سطوعا . والحب ، والنشاط ، والكفاح ، والبحث عن مغزى الحياة ، والموت في الحالات التراجيدية هي اللحظات الاكثر اهمية تلك التي يظهر فيه خلق البطل ، وتحدد قيمته الانسانية .

كان تورغينيف باختلاطه بمعاصرين له من امثال ستانكيفيتش وباكونين ، ويفريموف ، وبوتكين ، وبيلينسكي يتقبل الافكار ، ويتحسس جو حلقات العقد الرابع من القرن التاسع عشر . وكان تورغينيف مشغوفا الى اقصى حد بشعر الرومانسية الالمانية ، والفلسفة المثالية الالمانية ، ولا سيما في سنوات «اكمال التعليم» في جامعة برلين ، وحياته في روما ، واتصاله وصداقته مع ستانكيفيتش وباكونين .

وحتى في عام ١٨٤٧ كان تورغينيف يعتبر ان «العصر الادبي والنظري والفلسفي والفنطازي للحياة الالمانية قد انتهى» . وحلّ اوان تقييم تاثيرها على العقول التقدمية للمثقفين الروس . وكان تورغينيف معدّا لهذا التقييم لا كمراقب على بعد ، بل وكسالك لنفس الطريق .. وكان يعرف «من الداخل» ليس فقط آراء اعضاء الحلقات الفلسفية للثلاثينيات واهتماماتهم الذهنية ، بل واشكال السلوك التي اتصفوا بها .

كانت التصورات عن الحياة ، وعن الناس المحيطين ، بل وفكرة الانسان عن نفسه ، وهو مبلور فى حلقة الثلاثينيات ، بتجريدية وتاملية عموماً . وكان عدم التطابق بين القصد والنتيجة ، والقول والفعل يظهر في كل خطوة . وكان تورغينيف يعرف بكل دقائق نفسية المثقف المتربي في محيط الذهنية الرومانسية الفلسفية .

استطاع تورغينيف ان يرسم صور شخصيات لجيل كامل ، في اكثر مظاهرهم تميّزا . والى جانب ذلك اعترف مرات كثيرة بانه لم يستطع قط ان يخلق من الذهن ، وقال : «فانا لكي أبرز شخصا متخيلا يلزمني ان اختار شخصا من الاحياء يقوم عندي مقام الخيط الموجه» .* ولكن النموذج الاصلي ليس الا نقطة انطلاق عند تورغينيف . وكلما تقدم العمل كان النموذج الأصلي يتخذ المزيد من ملامح النموذج الحياتي الذي تكوّن في ظروف اجتماعية وتاريخية معينة ، ويصبح تكوينا فنيا متكاملا بعيدا بنفس المسافة عن ان يكون نسخة طبق الاصل أو صورة كاريكاتورية .

كان تورغينيف يحس احساسا حادا بالبون بين المستوى الرفيع لفكر المثقفين التقدميين من جيله ، وبين تخلف روسيا التي كانت تتطلب تحولات جذرية وعملا لا يكل . والوعي بضرورة النشاط النافع نجده متغلغلا في الافكار القائلة بأن من الضروري قبل كل شيء «حرث الأرض . . . والسعي قدر الامكان الى حرثها احسن حراثة» . (هذه كلمات لافريتسكي في «عش النبلاء») . ولكن ابطال روايات تورغينيف يظلون غير متغلبين على التناقض بين

* «تورغينيف في ذكريات معاصريه» المجلد ٢ ـ دار «الادب الفني» موسكو ١٩٦٩ ص ٨٠

الفكر والفعل . ولا يصير حامل الافكار الرفيعة منهم ذا عقلية عملية في نفس الوقت .

لا نجد في روايات تورغينيف حلولا لجميع التساؤلات والتناقضات . فقد كان تورغينيف يرى ان عمل الفنان الرئيسي لا في ان يتعلّم ، بل في ان يفهم الحياة ، ويعبر عنها في ابداع فني .

ذكريات ماريا تولستايا عن تورغينيف (١)

(كما رواها ستاخوفيتش)

– اجل ، كنت على صلة ودية كبيرة مع ايفان تورغينيف . في احدى الفترات كنا نلتقي كل يوم . وبعد ذلـــك تراسلنا لمدة طويلة ، وتجمعت لديّ رسائل كثيرة منه ، ممتعة جدا ، ومكتوبة بشكل رائع . وقد ضاعت هذه الرسائل . ذلـــك لأن احد ذوي قرباي ، وهو ممن يتصرفون بلا كلفة ، زار ضيعتنا ، بعـد انتقالي الى الدير ، ورفع بالازميل اعلى منضدة الكتابة التي كنت احفظ فيها الرسائل بالمفتاح ، واخذها مع رسالتين لنكراسوف كنـت اعتز بهما جدا ، بل ويقال انه طبع احدى الرسائل ، او بعضها في احدى المجلات . ولعله اعتبر اعتكافي في الدير بمثابة موتي ، واعطـــى لنفسه حق الوراثة ، وتصرف كما شاء . . . وبطريقة ، ربما ، ما كنت انا نفسي سأتصرف بها قط .

لقد تعرفنا في وقت ابكر ، ولكن صداقتنا قويت جدا ، حين كان يعيش منفيا في سباسكويه ، على مسافة لا تتجاوز ١٨ فرسخا عن ضيعتنا بوكروفسكويه ، وكان يزورنا كل يوم . بل كان يؤكد انه يزورنا بارتجاف ، وبشعور بالذنب نحو ما هو محظور عليه . ذلك لأن بوكروفسكويه كانت تقـع في قضاء تشيرن ، بينما كان عليه ان لا يتجاوز حدود قضـــاء متسينسك ، وكان على الشرطة المحلية ان تضع رقابة دائمية على التزامه بمكان اقامتـــه ، وعلى ممارساته وسلوكه (٢) .

ولكنه كان يقول ذلك مزاحـــا . وكان ايفان سيرغييفيتش نفسه ، يقص علينا بشكل فكه كيف كانوا يبلغونه مرة في كـل شهر ان «الشرطي في الرواق . جاء للتحري» . وكان احيانا يصرفه في التو واللحظة ، حتى دون ان يجعله يراه ، واحيانا كان يجعله ينتظر عن سهو او لانشغاله او لتغيبه . وبعد ذلـــك يتذكره تورغينيف ويرسل ١٠ روبلات الى سجانـه العبوس معتذرا . فكان هذا الممثل الطيب النفس للسلطة البوليسيـــة ينصرف مسرعا ، وينحني عدة مرات متمنيا «دوام الرفاهية والنجاح في كـل الرغبات والمطامح» . وكان تورغينيف يضيف ضاحكا : الاول لم اعطف عليه انا ، والثاني لم يعطف عليه مَنْ ارسلوه !

وكان يتحدث ببساطة شديدة وبدون ضغينة عن مكوثـــه القصير في التوقيف في بطرسبورغ ، قبل نفيـــه الى سباسكويه . وكان يذكر ان الكثيرين في المدينة لم يكونوا اقل منه اندهاشـــا من العقوبة المفروضة على كاتب شهير ، بل هم اكثر دهشة مـــن ذريعة هذه العقوبة * .

وقد احتفظ تورغينيف بذكرى رهيبة عن بعض مـا كان يجري في المعتقل في تلك الايام . فقد كانت حجرته تجاور حجرة الجلد ، حيث كان يجلد الاقنان الخدم المذنبين الذين ارسلوا من قبل مالكيهم الى المعتقل . فكان صاحب «مذكرات صياد» مرغما على ان يسمـــع باشمئزاز وتأثر وقع عصوات الجلد ، وصراخ المجلودين .

اعتقد ان تورغينيف قضى عام ١٨٥٥ كله في سباسكويه (٣) ، وقد قويت عرى صداقتنا ، وصرنا اكثر قربا . ولكن زياراتنا له ، نحن اصحاب العوائل ، اندر من زياراته لنا ، وهو الوحيد ، واتذكر ان ما من يوم يمر دون لقاء بيننا . كان زوجـــي ايضا صيادا متحمسا ، مثل ايفان سيرغييفيتش . وكانا في العادة يعودان مـــن الصيد الى بيتنا ، ويقضيان المساء في القراءة والمحادثـــة . كان تورغينيف يجيد القراءة كثيرا ، يقرأ ببساطة وتركيز ، وكأنـــه يتحدث . ولكنه كان يميل الى قراءة كتابات الآخرين اكثر من ميله الى قراءة ما كتبه .

ومن مؤلفاته كان يقرأ ما كتبـه لتوه ، وحتى بدون تنقيح . وكان يقول : «في البيوتات الرصينـــة لا يجبرون الضيوف على ان يمتعوا انظارهم بأطفالهم . ربما يمكـــن ان يظهروهم عند التعميد ، وبعد هذا ليس هناك حاجة الى اظهارهم ، حتى يصيروا كبارا» .

---

* مقالة يؤبن فيهـــا غوغول الذي توفي في موسكـــو . (ملاحظة ستاخوفيتش) .

اتذكر كيف قرأ لنا «رودين» فاعجبنا بها انا وزوجي كثيرا . بهرتنا حيوية القصة حيوية لا مثيل لها آنذاك ، وغزارة ما في النقاشات من معان ودلالات ، وكان تورغينيف يخشى ان لا يكون رودين ذكيا حقا وسط الآخرين الذين يتظاهرون بالذكاء اكثر مما لديهم منه (٤) . والى جانب ذلك كان يعتبر طبيعيا بل وحتميا ان يرتبك هذا الرجل امام ناتاليا القوية جنانا ، والمتهيئة والقادرة على اتيان مأثرة في الحياة .

كانت مثل هذه الامسيات في هداة الريف ساحرة ، وكنت اعتز بها كل الاعتزاز . ولكن كلبته بولكا كانت تفسد عليّ فرحتي . كانت تريد ان تستريح ، بعد الصيد ، وتحتاج الى قسط من النوم . وكان تورغينيف يؤكد انها لكي تنال الكفاية من النوم ، تحتاج الى «Journal des Débats» . خطت لها مخدة على مقعد وثير ، وغطيته بجرائدنا ، ولكن هذه الكلبة المزعجة لم تنم ، وظلت تجفل من الذباب باستمرار ، وتصطاده ، وتتنرفز ، وتذهب الى صاحبها ، وكأنما تشكو اليه ، وتدعوه الى العودة الى البيت .

وكان تورغينيف يقول :

— ها انت ترين . . لا نوم بلا «Journal des Débats» . انا من اجلها مشترك في هذه المجلة .

وعلمت ان السر في ذلك راجع الى حجم هذه الجريدة الذي هو اكبر حجم لجريدة في ذلك الزمن ، فكان يغطي بولكا من كل الجهات . ومع ذلك فكنت اغضب على هذه الجريدة ، وعلى بولكا ، ولا يسلم صاحبها من ذلك احيانا .

ولكن مشاحناتنا من جراء العذول بولكا ، كما كنا نسميها آنذاك ، لم تعق لقاءاتنا اليومية . وكنا نتحدث طويلا ...

— اكنت تعرف ايفان سيرغييفيتش شخصيا ؟ اليس صحيحا انه نديم في الحديث لا شبيه له ؟ لا احد يفوقه في طلاوة الحديث . آنذاك كان يبدو لي ما من شيء لا يعرفه تورغينيف . كان يتكلم بلغات مختلفة لا بطلاقة (حسب التعبير الدارج) ، بل بطريقة مذهلة ، وبرشاقة رائعة ، لا يتحذلق ، لايقلد اللهجة القومية الشائعة ، بل ينطق بثقة وتماسك .

وكنا في الاغلب الأعم نتناقش في الاشعار . فانا منذ الطفولة لم احب الشعر ولم اقرأه . وكنت اتصور ، وهذا ما كنت اقوله ، ان

كل الاشعار تصنيفات مختلقة ، واسوأ من الروايات التي لم اكن اقرؤها تقريبا ، ولا احبها .

وكان تورغينيف ينفعل ، ويناقشني ، بل يكون «موغر الصدر» ايضا ولا سيما من جراء «فيت» الذي كان معجبا به آنذاك وغالبا ما كان يستشهد به مضيفا : «حتى بوشكين يمكن ان يوقّع تحت مثل هذه الاشعار . اتفهمين ؟ حتى بوشكين ! بوشكين نفسه !!»

وبفضل قراءته الرائعة ، وبتأثيره ، غيّرت ، خلال تطوري ذوقا وعقلا ، الكثير من نظراتي ، واعدت قراءة الكثير ، بل وتملكني الشغف . ولكنني بقيت لا اقدر فيت ، ولا افهم سحره .

ذات مرة احتدم النقاش الطويل بشدة ، حتى تتحول الى ملامات وامور شخصية . وكان تورغينيف يغضب ، ويترنم بصوته ، ويبرهن ، ويكرر ابياتا معينة ، ويصرخ ، ويتوسل . وكنت اعترض ، دون ان اتنازل عن شيء ، واضحك في سري . واذا بي ارى تورغينيف يهب واقفا ، ويتناول قبعته ، ويخرج ، دون كلمة وداع ، طالعا من الشرفة الى الحديقة ، لا الى البيت . ارتعبت كثيرا ، لان الشرفة لم تكن مزودة بدرج ، والارتفاع بمقدار ست او ثماني درجات . ولكن طول قامته ساعده في القفز دون اذى .

امر بتهيئة العربة ، واللحاق به ، وسار في الحقل في مشية غضبى .

اشفقت عليه ، ثم تكدرت .

وحين عاد زوجي الى البيت ، واراد ان يلحق به فورا ، اقنعته بان لا يفعل ذلك ، متظاهرة بالاستياء .

انتظرناه في حيرة بضعة ايام . ولم يأت تورغينيف .

ومثلما يحدث في الملاسنات يتعود الناس على الاساءة المفاجئة ، ويفتشون عن اساسها ، ويتحول التنافر العارض الى تبادل مشاعر ويتعزز وهكذا نحن ، كففنا عن انتظاره بعد اسبوعين او ثلاثة ، بل وتحاشينا الكلام عن المشاحنة . فقد صارت تنغيصا يثير غضبنا .

وفجاة وبدون توقع يصل تورغينيف ، منفعلا جدا ، جمّ الحيوية ، ولكن دون اي ظل للاستياء .

— لماذا لم تأت منذ زمان ؟

— اقول لكم . كان ذلك مخاتلة . لا تستجيب الكتابة لي بقدر

ما تستجيب ، وانا «موغر الصدر» ولا انكب على عمل ، بقدر ما انكب عليه ، وانا محنق . وقد شعرت بهذه الحالة تلك الساعة ، فاسرعت بالانصراف ، حتى لا اخفف من حمياها ، ولا افوتها . وكان عليّ منذ زمان ان اكتب شيئا معينا . وها انا قد كتبته . واذا اردتم قراته لكم في المساء .

وفي ذلك المساء قرا لنا هذه الرواية القصيرة . وقد سماها «فاوست» .

رودين (٥)

١

كان صباحا صيفيا هادئا . والشمس قد قطعت شوطا كبيرا في السماء الصافية . ولكن الحقل ما يزال يلتمع بالندى ، والطراوة الشذية تعبق من الوديان المستيقظه قبل قليل ، والطيور الباكرة تصدح في الغابة التي ما تزال رطبة وبلا ضجيج . وكانت ، ثمة قرية صغيرة تلوح على قمة تل يغطي الشوفان المتفتح لتوه منحدره الصبب من الاعلى الى الاسفل ، وكانت امراة شابة تسير نحو هذه القرية في درب ريفي ضيق ، ترتدي فستانا ابيض من الموسلين وتضع على راسها قبعة مستديرة من القش ، وتحمل مظلة في يدها . وكان صبي خادم يلاحقها من بعيد .

كانت تسير غير متعجلة ، وكانما تستمتع بنزهتها . وفي كل مكان حولها كانت تموجات طويلة تسرى بهسهسة ناعمة في الشوفان العالي المتمايل برقراق فضي اخضر تارة ، وضارب الى الحمرة تارة اخرى . وكانت القبرات تهدل على مرتفع من الارض . وكانت المرأة الشابة ، وتدعى الكسندرا بافلوفنا ليبينا ، قادمة من قريتها التي لا تبعد عن القرية الصغيرة اكثر من فرسخ . وكانت ارملة لم تنجب اولادا ، وهي على قدر كبير من الثراء ، تعيش مع اخيها سيرغي بافلوفيتش فولينتسيف ، المتقاعد برتبة نقيب في سلاح الفرسان . وكان اعزب ويدير ضيعتها .

بلغت الكسندرا بافلوفنا القرية ، وتوقفت عند كوخ على طرفها زري الهيئة جدا ، واطئ ، واستدعت خادمها الصغير ، وامرته بأن يدخل الكوخ ويسال عن صحة ربته . وعاد بعد قليل بصحبة ريفي شائخ ذي لحية بيضاء .

سالته الكسندرا بافلوفنا :

– كيف ؟

قال العجوز :

– ما تزال حيّة . . .

– هل الدخول ممكن ؟

– ولم لا ؟ ممكن .

دخلت الكسندرا بافلوفنا الكوخ . كان ضيقا موغر الهواء ، داخنا . . . تحرك شخص على سطح الموقد ، وراح يئن . التفتت الكسندرا بافلوفنا ، ورأت ، في الضوء الباهت ، رأس عجوز اصفر متغضنا ، والعجوز معتمرة بمنديل ذي مربعات ، ومغطاة الى صدرها بقفطان ثقيل ، فكانت تتنفس بعسر ، باسطة ذراعيها النحيلتين بوهن .

اقتربت الكسندرا بافلوفنا من العجوز ، ومسّت جبينها باصابعها . . . كان يلتهب حرارة . وسألت ، وهي تنحنى على سطح الموقد :

– كيف حالك ، يا ماترونا ؟

– اوه – تأوهت العجوز ممعنة النظر في الكسندرا بافلوفنا – سيئة ، حالي سيئة ، يا عزيزتي ! حانت منيتي ، يا حلوة !

– الله رحيم ، يا ماترونا : وربما تتشافين . . . هل تناولت الدواء الذي ارسلته لك ؟

توجعت العجوز ملتاعة ، ولم تجب . اذ لم تسمع السؤال .

قال العجوز الذي توقف عند الباب :

– تناولته .

توجهت الكسندرا بافلوفنا نحوه ، وسالته :

– الا يوجد لها احد غيرك ؟

– عندها فتاة ، هي حفيدتها ، ولكنها دائما متغيبة . متحركة ولا تستقر في مكانها . تتكاسل حتى من تقديم الماء لجدتها . بينما انا عجوز مثلها . فاين مني الاعتناء بها ؟

– ربما ننقلها عندي ، في المستشفى ؟

– لا ! لا حاجة الى المستشفى ! ليس امامها غير الموت . عاشت ما فيه الكفاية . والظاهر أنها ارادة الله . لن تنزل بعد من سطح الموقد . وما المستشفى بالنسبة لها ! ستموت حالما ينقلونها .

اخذت المريضة تئن :

– اوه ، يا سيدة ، يا حلوة . لا تتخلي عن يتيمتي . اسيادنا بعيدون ، وانت . . .

سكتت العجوز . كانت تتحدث بجهد . انبرت الكسندرا بافلوفنا تقول :

– لا تقلقي . سيتم كل شيء كما تشائين . ها انا قد جلبت لك شايا وسكرا . اشربي ، اذا رغبت – ونظرت الى العجوز واضافت : عندكم سماور ؟

– سماور ؟ ليس عندنا سماور ، ولكن الحصول عليه ممكن .

– احصل عليه ، والا فسأرسل سماوري . واطلب من الحفيدة ان لا تتغيب . قل لها ، هذا عيب .

لم يجب العجوز بشيء ، بل تناول لفّة الشاي والسكر بكلتا يديه .

قالت الكسندرا بافلوفنا :

– طيب ، وداعا ، يا ماترونا ! ساجيء اليك مرة اخرى ، ولا تجزعي ، وتناولي الدواء بانتظام . . .

رفعت العجوز راسها قليلا ، ومدت جسمها نحو الكسندرا بافلوفنا ، وغمغمت :

– اعطيني يدك ، يا سيدة .

لم تعطها الكسندرا بافلوفنا يدها ، بل انحنت ، وقبلت جبينها . وقالت للعجوز وهي تخرج :

– انتبه ، واعطها الدواء من كل بد ، وكما هو موصوف ، واسقها الشاي . . .

لم يجب العجوز هذه المرة ايضا ، واكتفى بان حياها بانحناءة .

تنفست الكسندرا بافلوفنا الصعداء ، وقد خرجت الى الهواء الطلق . فتحت مظلتها ، وهمت بالعودة الى البيت ، واذا برجل في نحو الثلاثين من العمر يستقل عربة ركوب خفيفة واطئة يبرز من وراء المنعطف فجاة . كان في معطف قديم من القماش القطني السميك الرمادي ، وقبعة من نفس القماش . اوقف حصانه ، حالما رأى الكسندرا بافلوفنا ، وادار اليها وجهه . كان وجهه العريض الخالي من التورد ، الحليق الشاربين ، بعينيه الصغيرتين الرماديتين الشاحبتين ، يناسب لون ملابسه.

– مرحبا – قال بتكشيرة كسول – ارجو ان أعرف مـــاذا تفعلين هنا ؟

– كنت ازور مريضة . . . وأنت من اين ، يا ميخايلـــو ميخايليتش ؟

نظر المسمى ميخايلو ميخايليتش في عينيها ، وعاد الى تكشيرته التهكمية . ومضى يقول :

– لطيف منك ان تزوري مريضة ، ولكن اليس من الافضل لك ان تنقليها الى المستشفى ؟

– هي ضعيفة للغاية ، فلا يجوز مسها .

– وانت ، الا تنوين تصفية مستشفاك ؟

– تصفيته ؟ ولماذا ؟

– هكذا .

– اية فكرة غريبة ؟ ما الذي جعلها تطرأ في راسك ؟

– انت تصاحبين لاسونسكايا على الدوام (٦) . يبدو أنك تحت تأثيرها . المستشفيات والمدارس ، حسب كلامهـــا ، ما هي الا توافه ، وبدع عديمة الجدوى . الانسان بنفسه يجب ان يـــؤدي الاحسان ، مثلما يجب ان يقوم نفسه بالتنوير . فان كل ذلك من عمل الذات . . . هذا تعبيرها على ما يبدو . حبذا لو اعرف مـــن هذا الذي تردد معزوفته (٧) ؟

اخذت الكسندرا بافلوفنا تضحك .

– داريا ميخايلوفنا امراة ذكية جدا ، وانا احبها كثيـــرا واحترمها . ولكنها قد تكون على خطأ ، فانا بدوري لا اصدق بكـل كلمة تقولها .

– نعمّ ماتفعلين – ردّ ميخايلو ميخايليتش ، وهو ما يزال في عربته – لأنها هي نفسها قليلة التصديق بكلماتها . انا مسرور جدا بأن القاك .

– وماذا هناك ؟

– سؤال لطيف ! وكان لقياك لا يبعث البهجة دائما ! انـت اليوم نضرة وحبيبة الى القلب كهذا الصباح .

ضحكت الكسندرا بافلوفنا مرة اخرى .

– ما الذي يضحكك ؟

– كيف ما الذي ! ليتك رأيت بأية سحنة فاترة باردة نطقتُ باطرائك ! عجيب كيف لم تتثاءب في آخر كلمة .

– بسحنة باردة . . . وانت تريدين نارا دائما . بينما لا جدوى من النار . فانها تشب ، وتدخن ، وتنطفئ .

فاستدركت الكسندرا بافلوفنا :

– وتدفئ .

– نعم . . . وتحرق .

– ولتكن ! ليس هذا مصيبة . على كل حال افضل من . . .

قاطعها ميخايلو ميخايليتش في ضيق :

– سارى هل ستقولين هذا ، حين تحرقك حرقا ممضا ، ولو مرة واحدة – وضرب الحصان بالعنان ، وقال : – وداعا !

صاحت الكسندرا بافلوفنا :

– ميخايلو ميخايليتش ، انتظر قليلا . متى ستزورونا ؟

– غدا . سلّمي على اخيك .

وسارت العربة .

نظرت الكسندرا بافلوفنا في اثر ميخايلو ميخايليتش .

وفكرت مع نفسها : «يا للكيس !» . وبالفعل كان يشبه كيس طحين كبيرا باحديداب ظهره ، واغبراره ، وقبعتـــه سارحة على علبائه ، تبرز من تحتها خصلات شعث من الشعر الاصفر .

سارت الكسندرا بافلوفنا في طريقها الى البيت متمهلة ، مطرقة العينين . جعلتها كركبة حصان قريبة تتوقف ، وترفع راسها . . . كان اخوها يسير في الاتجاه المقابل راكبا حصانا . والى جانبـــه سار شاب معتدل القامة يرتدي سترة فراك خفيفة محلولة الازرار ، وربطة عنق خفيفة ، وقبعة رمادية خفيفة ، والعصا في يده . وكان قد ابتسم لالكسندرا بافلوفنا منذ برهة طويلة ، رغم انه رآهـــا غارقة في التفكير لا تلحظ شيئا ، وحالما توقفت دنا منها ، وانبرى يحييها في فرحة ورقة تقريبا :

– مرحبا ، الكسندرا بافلوفنا ، مرحبا !

– آه ! قسطنطين ديوميديتش ! مرحبـــا ! – ردّت عليه – اقادم أنت من داريا ميخايلوفنا ؟

اسرع الشاب يقول بوجه متالق :

– بالضبط ، بالضبط ، يا سيدتي ، من داريا ميخايلوفنا .

وقد ارسلتني اليك ، فآثرت أن اقطع الطريق ماشيا . . . والصباح رائع جدا ، والمسافة لا تتجاوز اربعة فراسخ . وصلت ولم اجدك في البيت . ويخبرني اخوك بانك ذهبت الى سيمينوفكا ، وكان يتهيا للخروج للحقل ، فخرجت معه للقياك . نعم ، كم ممتع هذا !

كان الشاب يتحدث بلغة روسية صافية وسليمة ، ولكن بلكنة اجنبية ، ولو كان من الصعب معرفة لكنة اي قوم . كانت في ملامح وجهه مسحة آسيوية ، فقد كان انفه الطويل المحدودب ، وعيناه الواسعتان الجامدتان الجاحظتان ، وشفتاه الحمروان السميكتان ، وجبينه المنسرح ، وشعره الأسود الفاحم بلون القطران ، كل ذلك كان يشي بنسبه الشرقي ، ولكن الشاب كان يُلقب ببانداليفسكي ، ويسمي اوديسا مسقط راسه ، رغم أنه كان يتلقى تعليمه في بيلوروسيا على حساب أرملة غنية محسنة . بينما اسندت له ارملة اخرى وظيفة . والنساء المتوسطات السن ، بشكل عام ، كن يشملن قسطنطين ديوميديتش هذا بالرعاية ، فقد كان يحسن ان يبحث فيهن عن شيء ، ويحسن ان يجده . وهو في الوقت الحاضر يعيش عند صاحبة املاك ثرية ، هي داريا ميخايلوفنا لاسونسكايا ، كابن لها بالتبني أو كنزيل . كان رقيق الحاشية جدا خدوما ، ودودا ، شهوانيا في الخفاء ، وكان يتمتع بصوت عذب ، ويعزف على البيانو عزفا معتبرا ، وله عادة التفرس في عيني من يتحدث معه . كان نظيف الملبس جدا ، وكان يحافظ على لباسه فترة طويلة للغاية ، وكان يحلق ذقنه العريض بعناية ، ويصفف شعرة الى شعرة .

استمعت الكسندرا بافلوفنا الى كلامه حتى النهاية ، والتفتت الى اخيها .

– حظي اليوم في اللقاءات كبير . قبل قليل كنت اتحدث مع ليجنيف .

– آه ، معه ! هل كان ذاهبا الى مكان ما ؟

– نعم ، وتصوّر ، على عربة ركوب خفيفة ، لابسا ما يشبه كيسا من الكتّان ، ومسربلا كله بالغبار . . . غريب الاطوار حقا !

– نعم ، ربما ، ولكنه رجل لطيف ..

سأل بانداليفسكي كالمتعجب :

– من هذا ؟ السيد ليجنيف ؟

وردّ فولينتسيف :

– نعم ، ميخايلو ميخايلتش ليجنيف . على اية حال ، مع السلامة ، يا اختي ، حان وقت طلوعي الى الحقل ، فانهم يبذرون الحنطة السوداء هناك ، في حقلك . سيرافقك السيد بانداليفسكي الى البيت . . .

واطلق فولينتسيف العنان لفرسه .

– بفائق السرور !

هتف قسطنطين ديوميديتش ، وقدّم يده لالكسندرا بافلوفنا . اعطته يدها ، فاتجه الاثنان في طريقهما الى ضيعتها .

كان قسطنطين ديوميديتش يجد ، على ما يبدو ، متعة كبيرة في تابط ذراع الكسندرا بافلوفنا . كان يسير بخطى قصيرة ، مبتسما ، بل وان عينيه الشرقيتين تندتا ، وذلك ، بالمناسبة ، ما يحدث احيانا كثيرة . فما من شيء كان يكلف قسطنطين ديوميديتش تاثرا او ذرف دمعة . ثم مَنْ لا يطيب له ان يتابط ذراع امراة شابة حلوة ممشوقة القوام ؟ كانت ولاية . . . كلها تقول بالاجماع ان الكسندرا بافلوفنا فتنة ، وولاية . . . لم تكن على خطأ . انفها المستقيم المرفوع قليلا كان وحده كفيلا بأن يفقد ايا من الفانين عقله ، دع عنكم عينيها البنيتين المخمليتين ، وشعرها الكتاني الذهبي ، والغمّازتين على خديها المدورين ، ومحاسن اخرى . ولكن تعبير وجهها الحلو المحيّا كان اجمل ما فيها . وجه تشع منه السماحة والطيبة والوداعة ، فكان يحرك المشاعر ، ويجذب . كانت الكسندرا بافلوفنا ترنو وتضحك كطفل ، وكانت السيدات جاراتها يعتبرنها مفرطة في البساطة . . . فماذا يمكن لانسان ان يصبو الى اكثر من ذلك ؟

سألت بانداليفسكي :

– تقول ان داريا ميخايلوفنا ارسلتك لي ؟

– نعم ، ارسلتني – قال ناطقا بالسين «th» انكليزية – طلبت مني أن انقل رغبتها الحارة والاكيدة بان تتفضلي اليوم بتناول الغداء معها . . . انهن (كان بانداليفسكي ، حين يتكلم عن ضمير

الغائب ، ولا سيما المؤنث ، يستعمله بالجمع) انهن ينتظرن ان يزورهن ضيف جديد يودّن او تتعرفين به .

— من هو ؟

— شخص يدعو موفيل ، بارون ، وضابط حاشية من بطرسبورغ ، تعرفت داريا ميخايلوفنا عليه ، منذ وقت قصير ، في بيت الأمير غارين ، وهي تثني عليه طيب الثناء ، كشاب مهذب مثقف . كما ان سيادته يهتم بالأدب ، والافضل ان يقال . . . آه ، اية فراشة فاتنة ! ارجو ان تعيريها انتباهك . . . الأفضل ان يقال ، يهتم بالاقتصاد السياسي . وقد كتب مقالة عن موضوع ممتع جدا ، ويحب أن يطرحها على حكمة داريا ميخايلوفنا .

— مقالة في الاقتصاد السياسي ؟

— من حيث اللغة ، يا الكسندرا بافلوفنا ، من حيث اللغة . واظن انك تعرفين أن داريا ميخايلوفنا خبيرة في هذا ايضا . وجوكوفسكي (٨) كان يتشاور معها ، والمحسن اليّ ، الشيخ السامي الخلق روكسلان ميدياروفيتش (٩) ، الذي يعيش في اوديسا . . . لعلك سمعت باسم هذا الشخص ؟

— لم اسمع قط .

— لم تسمعي بهذا الرجل ؟ عجيب ! احببت ان اقول ان روكسلان ميدياروفيتش هذا كان دائما يشيد كثيرا بمعارف داريا ميخايلوفنا في اللغة الروسية .

سألت الكسندرا بافلوفنا :

— اليس هذا البارون متزمتا ؟

— لا ، ابدا . وداريا ميخايلوفنا تقول انه ، على العكس ، يبدو منذ الوهلة الاولى رجل مجتمعات راقية . وكان يتحدث عن بيتهوفن بحسن بيان ، جعل الأمير العجوز يشعر بغبطة شديدة . . . ليتني ، واعترف لك ، كنت بين مستمعيه . فهذا من اختصاصي . اسمحي لي ان اقدم لك هذه الزهرة البرية الجميلة .

تناولت الكسندرا بافلوفنا الزهرة ، وبعد عدة خطوات اوقعتها في الطريق . . . لم يبق على الوصول الى بيتها غير ما يقرب من مائتي خطوة ، لا اكثر . كان البيت قد عمّر وبيّض قبل وقت قصير ، فكان يطل في ترحاب بنوافذه العريضة الوضيئة من بين الخضرة الكثيفة لاشجار الزيزفون والقيقب المعمرة .

انشأ بانداليفسكي يقول ، متكدرا قليلا من مصير الزهرة التي قدمها لها :

— ماذا تامرين بأن ابلغ داريا ميخايلوفنا ؟ هل ستتفضلين الى الغداء ؟ انها تدعوك واخاك .

— نعم ، سنأتي بالتأكيد . ولكن كيف ناتاشا ؟

— ناتاليا الكسييفنا في صحة ، والحمد لله . . . ولكن ها نحن قد تجاوزنا المنعطف الى ضيعة داريا ميخايلوفنا . فائذني لي بالانصراف .

توقفت الكسندرا بافلوفنا . وسألت بصوت غير حازم :

— الا تتفضل فتدخل البيت ؟

— اود ذلك بكل قلبي ، ولكن اخشى ان اتأخر . تحب داريا ميخايلوفنا ان تسمع دراسة موسيقية جديدة لتالبرغ (١٠) ، ويجب الاستعداد لها والتمرن عليها . اعترف لك ، بالمناسبة ، بانني اشك في ان الحديث معي يمكن ان يمدك باية متعة .

— ولكن لا . . . لماذا . . .

زفر بانداليفسكي ، واطرق بعينيه بشكل معبر . وصمت قليلا وقال :

— الى اللقاء ، الكسندرا بافلوفنا !

وانحنى محييا ، وخطا خطوة الى الوراء .

استدارت الكسندرا بافلوفنا ، وذهبت الى البيت .

واتجه قسطنطين ديوميديتش ايضا الى البيت . نضب وجهه من الحلاوة كلها ، وظهر عليه تعبير معتد صارم تقريبا . وحتى خطو قسطنطين ديوميديتش قد تغيّر ، فهو الآن يخطو خطوات اعرض واثقل وطأة . سار حوالي فرسخين مؤرجحا عصاه باستهانة . واذا به يكشر من جديد ، فقد رأى قرب الطريق فتاة فلاحة على جانب كبير من الملاحة كانت تبعد العجول عن الشوفان . دنا قسطنطين ديوميديتش من الفتاة بحذر ، كالقط ، وراح يتحدث معها . لزمت الفتاة الصمت في بادئ الامر ، واحمرت ، وضحكت قليلا ، وفي آخر الامر غطت شفتيها بكمها ، واشاحت وجهها ، وغمغمت :

— اذهب ، يا سيد ، حقا . . .

توعدها قسطنطين ديوميديتش باصبعه ، وطلب منها ان تجلب له بعض زهور الاقحوان .

ردت الفتاة :

– ماذا تفعل بالاقحوان ؟ تضفر منه اكليلا ؟ طيب ، اذهب حقا . . .

شرع قسطنطين ديوميديتش يقول :

– اسمعي ، يا حسنائي اللطيفة . . .

قاطعته الفتاة :

– اوه ، اذهب . هاهما ابنا السيدة قادمان .

التفت قسطنطين ديوميديتش . فراى ، بالفعل ، فانيا وبيتيا ولدي داريا ميخايلوفنا يجريان في الطريق ووراءهما معلمهما باسيستوف . وهو شاب في الثانية والعشرين ، كان قد انهى دراسته لتوه . كان باسيستوف شابا ركينا ذا وجه بسيط ، وانف كبير ، وشفتين ضخمتين ، وعينين تشبهان عيني خنزير ، تعوزه الملاحة واتزان الحركات ، الا انه طيب ، نزيه ، ومستقيم . كان مهمل الهندام ، لا يحلق شعره ، لا عن غواية ، بل عن كسل . وكان يحب الطعام ، ويحب النوم ، ولكنه في الوقت ذاته ، كان يحب الكتاب الجيد ، والحديث الحار ، ويكره بانداليفسكي من كل قلبه .

كان ابنا داريا ميخايلوفنا شغوفين بباسيستوف ، ولا يخشيانه قط ، وكان على مودة مع سائر اهل البيت ، مما لم يرق للسيدة قط ، رغم كل اقوالها عن انها لا تميز بين الناس .

قال قسطنطين ديوميديتش :

– مرحبا ، يا عزيزيّ ! خرجتما اليوم للنزهة في وقت مبكر جدا ! اما انا – اضاف موجها خطابه الى باسيستوف – فقد خرجت منذ وقت طويل . هوايتي الاستمتاع بالطبيعة .

غمغم باسيستوف :

– رأينا كيف كنت تستمتع بالطبيعة .

– انت مادي ، وها انت الآن لا يعرف الا الله ما يدور في ذهنك من افكار ، انا اعرفك !

كان بانداليفسكي حين يتكلم مع باسيستوف او مع شاكلته من الناس ، ينفعل بسرعة ، وينطق بحرف السين بصفاء ، بل بقليل من الصفير .

قال باسيستوف محولا عينيه يمينا وشمالا :

– لعلك كنت تستفسر من الفتاة عن الطريق ؟

كان يحس بان بانداليفسكي يحدق في وجهه ، وهذا ما ينفره غاية التنفير .

– اكرر انك مادي ولا اكثر . وبالتاكيد انك لا ترى في كل شيء الا الجانب الدنيوي .

– يا اولاد ! – امر باسيستوف فجاة – انتما تريان شجرة الوزّال في المرجة هناك . لنر من يصل اليها اسرع . . . واحد ! اثنان ! ثلاثة !

وانطلق الولدان نحو الشجرة بكل طاقتهما . واندفع باسيستوف في اثرهما .

وفكر بانداليفسكي مع نفسه : «فلاح ريفي ! سيفسد هذين الولدين . . . فلاح خالص !»

وطوّق قوامه الرشيق المهندم بنظرة في شعور من الرضى عن النفس ، وضرب كمّ سترته مرتين باصابع متباعدة ، ونفض ياقته ، وتابع سيره . وحين عاد الى حجرته ارتدى رداءا منزليا قديما ، وجلس الى البيانو بوجه مهموم .

٢

كان بيت داريا ميخايلوفنا لاسونسكايا يكاد يعتبر الأول في ولاية . . . كلها . كان ضخما مبنيا بالحجارة وفق تصاميم راستريلي (١١) ، على ذوق القرن الماضي يشمخ بعظمة على قمة تل كان يجري على سفحه واحد من الانهار الرئيسية في وسط روسيا . وكانت داريا ميخايلوفنا لاسونسكايا نفسها سيدة غنية بارزة ارملة موظف برتبة مستشار سري . ورغم ان بانداليفسكي يقول انها تعرف كل اوربا ، كما ان اوربا تعرفها ، الا ان اوربا لاتعرفها الا قليلا ، وهي حتى في بطرسبورغ لم تلعب دورا مهما ، ومع ذلك فقد كان اهل موسكو كلهم يعرفونها ، ويزورونها . كانت من علية القوم معروفة على انها امراة غريبة الاطوار بعض الشيء ، ليست طيبة تماما ، ولكنها على جانب هائل من الذكاء . في شبابها كانت جميلة جدا ، نظم الشعراء عنها القصائد ، وعشقها الشبان ، وغازلها كبار



الناس . الا ان خمسة وعشرين عاما او ثلاثين عاما قد انقضت منذ ذلك الحين ، ولم يبق أثر لمفاتنها السابقة . وكان أي انسان يراها لأول مرة يجد نفسه مكرها على ان يسأل : «هل من المعقول أن هذه المرأة النحيلة الصفراء البشرة المدببة الانف ، والتي لم تبلغ الكبر بعد كانت حسناء فيما مضى ؟ هل من المعقول انها نفس المرأة التي عزفت لها القياثر ؟ . . .» وكان كل انسان يذهل في دخيلة نفسه من تغيّر كل ما هو أرضي . حقا ان باندليفسكي وجد أن عيني داريا ميخايلوفنا الرائعتين بقيتا ، كما هما ، بشكل مدهش ، ولكن باندليفسكي هذا كان يؤكد أن اوروبا كلها تعرفها .

كانت داريا ميخايلوفنا تسافر الى قريتها كل صيف مع اولادها (كان لها ثلاثة : ابنة تدعى نتاليا في السابعة عشرة ، وابنان ، احدهما في العاشرة والثاني في التاسعة) ، وكانت تحيا حياة على المكشوف ، اي أنها كانت تستقبل الرجال ، ولا سيما العزاب ، ولم تكن تطيق سيدات الاقاليم . وبالمقابل لقيت الامرّين من هؤلاء السيدات ! فهي ، حسب اقوالهن ، انوف ولا اخلاق لها ، مستبدة رهيبة ، واهم ما في الامر انها كانت تبيح لنفسها شطحات في الحديث ، هي الفظاعة بعينها ! وبالفعل لم تكن داريا ميخائيلوفنا تحب ان تضيق على نفسها في القرية ، فكانت تبدو على بساطتها المتحررة في المخالطة مسحة خفيفة من ازدراء لبوة من لبوات العاصمة للمخلوقات المحيطة بها ، الجاهلة الى حد كبير والتافهة . . . وحتى معارفها من اهل المدينة كانت تعاملهم باستهانة شديدة ، بل وبهزء ، ولكن بدون مسحة الازدراء .

وبالمناسبة ، الم تلحظ ، ايها القارىء أن الساهي بشكل غير اعتيادي في محيط مرؤوسيه لن تجده ساهيا مع الذوات العالية المقام ؟ فما مرجع هذا ؟ وعلى العموم لن تسفر مثل هذه الاسئلة عن شيء .

اتقن قسطنطين ديوميديتش دراسة تالبرغ اخيرا ونزل من غرفته النظيفة البهيجة الى غرفة الجلوس ، فوجد جميع اهل البيت مجتمعين . **والصالون** قد بدأ . كانت سيدة البيت قد اتخذت جلستها على اريكة عريضة ، وقد طوت رجليها تحتها ، وراحت تدير في يديها كراسة فرنسية جديدة . وعند النافذة جلست ، الى طرة التطريز ، ابنة داريا ميخائيلوفنا في جانب ، والى الجانب

الآخر ، والى طرة التطريز ايضا m-lle Boncourt* ، مدرسة الاطفال ، وهي آنسة عجوز يابسة العود ، في نحو الستين من العمر ، لها باروكة من الشعر الاسود تحت قلنسوة متعددة الالوان ، وفي اذنيها قطن . وفي ركن عند الباب جلس باسيستوف يطالع صحيفة ، وبالقرب منه بيتيا وفانيا يلعبان الداما ، بينما وقف سيد قصير القامة اشعث اشيب اسمر الوجه ذو عينين سوداوين حركتين ، وقد اتكأ على الموقد ، واضعا يديه وراء ظهره . انه افريكان سيميونيتش بيغاسوف .

والسيد بيغاسوف هذا رجل غريب الاطوار . فهو مغتاظ من كل شيء ومن الجميع ، لاسيما النساء ، فكان يشتم من الصباح حتى المساء ، فيصيب الهدف احيانا ، ويطيش كثيرا في احيان أخرى ، ولكن بتلذذ دائما . وكان اغتياظه يصل الى الصبيانية . فتبدو ضحكته ، وصوته ، وكل كيانه مشبعة بالصفراوية . كانت داريا ميخايلوفنا تستقبل بيغاسوف برضى ، فقد كان يسريها بنزواته التي كانت ، هي الاخرى ، مسلية حقا . وكان هواه ان يضخم كل شيء . فمثلا اية مصيبة حكيت بحضوره ، سواء اقالوا له أن الرعد احرق قرية ، وأن الماء اجتاح طاحونة ، وان فلاحا قطع يده بفاس كان يسأل في كل مرة وبقسوة مركزة «وما اسمها ؟» ، اي ما اسم المرأة التي نجمت عنها تلك المصيبة لأن المرأة ، حسب تاكيداته ، سبب كل مصيبة ، اذا مُحص في الأمر جيدا . ذات مرة ركع امام سيدة لا يعرفها تقريبا الحت عليه بالاستضافة فاخذ يتضرع اليها دامع العينين ، ولكن بضراوة مرتسمة على وجهه ، بان ترحمه ، وبانه لم يذنب في حقها بشيء ، وأنه في المستقبل لن يزورها ابدا . ذات مرة اندفع حصان على منحدر التل باحدى غسالات داريا ميخايلوفنا ، والقاها في اخدود ، وكاد يقتلها . ومن ذلك الحين لم يعد بيغاسوف يسمي هذا الحصان الا بالجواد الكريم ، بينما اعتبر التل والاخدود مكانين جميلين للغاية . لم يوفق بيغاسوف في حياته فجلب لنفسه هذه الحماقة نتيجة لذلك . كان ينحدر من ابوين فقيرين . اشتغل والده في وظائف صغيرة مختلفة ، وكان قليل التعليم ، فلم يهتم بتربية ولده ، كان يطعمه

---

* الآنسة بونكور (بالفرنسية في الاصل)

ويلبسه ولا غير . وكانت امه تدلله ، ولكنها سرعان ما توفيت . فعلّم بيغاسوف نفسه بنفسه ، واختار لنفسه مدرسة في مركز قضاء ، ثم مدرسة ثانوية ، وتعلم اللغة الفرنسية والالمانية ، وحتى اللاتينية ، فتخرج من المدرسة الثانوية بشهادة ممتازة ، وسافر الى ديربت ، حيث قارع العوز باستمرار ، بل استطاع ان ينهي دورة من ثلاث سنوات . لم تكن قابليات بيغاسوف تتخطى رتبته الاعتيادية . كان يتميز بالصبر والاصرار ، ولكن شعور الغرور والرغبة في الانضمام الى مجتمع جيد وعدم التخلف عن الآخرين كان قويا في نفسه بشكل خاص ، نكاية بالقدر وقد جعله هذا الغرور يدرس باجتهاد ، ويدخل جامعة ديربت . وكان الفقر يُحنقه وينمي فيه روح الملاحظة والشيطنة . كان يتكلم بطريقة متفردة ، ومنذ شبابه اتقن لنفسه لونا خاصا من ذلاقة اللسان الصفراوية المغتاظة . ولم تكن افكاره ترتفع عن المستوى العام ، ولكنه كان يتكلم بطريقة تجعله يبدو رجلا ذكيا جدا ، وليس ذكيا فقط . وعندما حصل على درجة مرشح عزم على ان يكرس نفسه للعلم . فقد ادرك انه لن يستطيع في اي مجال آخر ان يجاري رفاقه (كان يسعى الى ان يختارهم من وسط رفيع ، ويحسن كسب ثقتهم ، بل ويتزلف لهم ، رغم انه كان يشتمهم باستمرار) ولكن مهارته هنا ، واذا قلنا ببساطة ، لم تكن تكفي . فان تعليمه لنفسه لم يكن عن حب للعلم ، فكان بيغاسوف ، في جوهر الأمر ، يعرف النزر اليسير جدا . فسقط سقوطا ذريعا في النقاش ، بينما الطالب الآخر الذي كان معه في غرفة واحدة ، والذي كان بيغاسوف يضحك منه باستمرار ، وهو رجل محدود الافق للغاية ، ولكنه حاصل على تعليم سليم ومتين انتصر انتصارا تاما . واثار هذا الاخفاق جنون بيغاسوف ، فالقى كل كتبه وكراريسه في النار ، واشتغل في وظيفة . ومضى الامر فى البداية بشكل لابأس به . فكان موظفا موفقا على الرغم من انه لم يكن حسن الادارة ، ولكنه كان واثقا من نفسه للغاية ، سليطا . غير انه احب أن يشق طريقه الى الترقية اسرع ، فتورط ، وتعثر ، واضطر الى الاستقالة . وقضى حوالي ثلاثة اعوام في قريته الصغيرة التي كسبها من موارده ، واذا به يتزوج من مالكة اراض غنية نصف متعلمة اصطادها بشص طرائقه الاستخفافية الساخرة . الا أن طبع بيغاسوف كان قد احتد للغاية وحَمُز ،

وثقلت عليه الحياة الزوجية . . . عاشت زوجته معه عدة سنين ، وسافرت الى موسكو سرا وباعت ضيعتها لنّصاب حاذق ، في حين ان بيغاسوف كان قد بنى لتوه دارا فيها . هزته هذه الضربة الاخيرة من الاساس فرفع دعوى على زوجته ، ولكنه لم يكسب منها شيئا . . . فظل يقضي بقية حياته وحيدا ، ويسافر الى الجيران الذين كان يشتمهم في غيابهم ، وحتى في حضورهم ، والذين كانوا يستقبلونه بقهقهة مستترة متوترة ، رغم انه لم يكن يثير فيهم فزعا جديا . لم يتناول كتابا في يده قط . وكان يملك زهاء مائة من الاقنان ، وفلاحوه لم يكونوا بؤساء .

— آ ! Constantin ! — قالت داريا ميخايلوفنا حالما دخل بانداليفسكي غرفة اللجوس — هل ستاتي Alexandrine ؟

— طلبت الكسندرا بافلوفنا ان اشكرك نيابة عنها على المتعة الخاصة التي ستحظى بها ، — ردّ قسطنطين ديوميديتش ، وهو ينحني في جميع الجهات ، ماسا شعره الممشط في روعة بيده البدينة والبيضاء مع ذلك ، باظافرها المقلّمة على شكل مثلث .

— وفولينتسيف ، هل سياتي ايضا ؟

— نعم .

تابعت داريا ميخايلوفنا قولها مخاطبة بيغاسوف :

— وكيف ، يا افريكان سيميونيتش ، جميع الاوانس في رأيك غير طبيعيات ؟

التوت شفتا بيغاسوف الى جنب ، واهتز كوعه بعصبية . وشرع يقول بصوت متوان :

— انا اقول — وكان في اشد نوبات القساوة يتكلم ببطء ووضوح — انا اقول ان الاوانس بشكل عام ، وطبيعي انني اسكت عن الحاضرات . . .

قاطعته داريا ميخايلوفنا :

— ولكن ذلك لا يمنعك من التفكير فيهن ايضا .

كرر بيغاسوف :

— اسكت عنهن . جميع الاوانس غير طبيعيات في اعلى درجة ، غير طبيعيات في التعبير عن مشاعرهن . فالانسة ، مثلا ، سواء أن ارتعبت ، او فرحت بشيء ، او اكتأبت ، لا بد أن تحني جسمها ، في البداية ، مثل هذه الانحناءة الرشيقة او غيرها — وطوى بيغاسوف

قوامه بشكل قبيح ، وابرز ذراعيه – ثم تصيح : آه ، او تضحك او تبكي . ومع ذلك (وهنا ابتسم بيغاسوف برضى عن النفس) فقد وفقت ذات مرة على انتزاع تعبير حقيقي صادق من آنسة غير طبيعية بشكل رائع !

– باية طريقة ؟

التمعت عينا بيغاسوف :

– وخزتها في جنبها من الخلف بوتد من شجر الحور . فارسلت زعقة ، فقلت لها : مرحى ! مرحى ! هذا صوت الطبيعة ، وكانت صيحة طبيعية . وفي المستقبل ايضا تصرفي هذا التصرف دائما .

ضحك كل الحاضرين في الغرفة .

وهتفت داريا ميخايلوفنا :

– ما هذه السفاسف التي تقولها ، يا افريكان سيميونيتش ! ليس من الممكن ان اصدق بانك تدفع فتاة من جنبها بوتد !

– والله ، بوتد ، ووتد كبير جدا كتلك التي تستخدم في الدفاع عن قلعة .

زعقت m-lle Boncourt، وهي تنظر الى الطفلين الضاحكين متوعدة :

• Mais c'est une horreur ce que vous dittes là, monsieur

قالت داريا ميخايلوفنا :

– ولكن لا تصدقي به . هل معقول أنك لا تعرفينه ؟

ظلت الفرنسية المستاءة وقتا طويلا غير قادرة على أن تهدىء نفسها ، وبقيت طوال الوقت تتمتم بشيء مع نفسها .

وتابع بيغاسوف بصوت بارد :

– يمكنكم الا تصدقوني . ولكن اؤكد انني قلت حقيقة واقعة . ومَنْ يعرف بها ، اذا لم يكن انا ؟ وبعد هذا اخشى ان لاتصدقوني اذا قلت ان جارتكم تشوبوزوفا ، يلينا انتونوفنا ، نفسها ، لاحظوا ، قالت لي نفسها كيف اماتت ابن عمها اللح ؟

– انت تختلق ايضا !

– اسمحوا ! اسمحوا ! استمعوا ، واحكموا بانفسكم . ليكن في بالكم انني لا اود الافتراء عليها ، بل انا احبها ، بقدر ما يمكن ان

---

* ولكن فظاعة ان تقول ذلك ، يا سيد (بالفرنسية في الاصل) .

تحب امراة عموما . في بيتها كله لا يوجد كتاب واحد ، ما عدا التقويم ، ولا تستطيع ان تقرأ الا بصوت مسموع ، وهذا الجهد يشعرها بتصبب العرق ، وتشكو بعد ذلك بان عينيها برزتا من محجريهما . . . باختصار انها امراة طيبة ، وخادماتها بدينات . فلماذا افتري عليها ؟

– اها ! – قالت داريا ميخايلوفنا – ركب افريكان سيميونيتش بغلته ، ولن ينزل عنها حتى المساء .

– بغلتي . . . للنساء ثلاث بغلات بالتمام لا ينزلن عنها الا اذا اوين الى النوم .

– وما هي هذه البغلات الثلاث ؟

– اللوم ، والغمز ، والتقريع .

قالت داريا ميخايلوفنا :

– اتعرف ، يا افريكان سيميونيتش ، ليس حنقك على النساء بهذا الشكل ، دون سبب . لعل احدى النساء . . .

قاطعها بيغاسوف :

– تريدين ان تقولي اساءت اليّ ؟

ارتبكت داريا ميخايلوفنا قليلا ، فقد تذكرت زواج بيغاسوف المنكود . . . فاكتفت بان هزّت راسها .

قاطعها بيغاسوف :

– بالضبط ، اساءت اليّ احدى النساء ، رغم انها كانت طيبة ، وطيبة جدا .

– من هذه ؟

خفض بيغاسوف صوته ، وقال :

– امي .

– امك ؟

– باي شيء اساءت اليك ؟

– بانها ولدتني . . .

غضنت داريا ميخايلوفنا حاجبيها ، وانشأت تقول :

– يبدو لي ان حديثك يتخذ منعطفا غير مبهج . . . Constantin ، اعزف لنا دراسة تالبرغ الجديدة . . . فلعل اصوات الموسيقى تهدىء من ثائرة افريكان سيميونيتش . كان اورفيوس (١٢) يهدىء بنغماته الوحوش الضارية .

جلس قسطنطين ديوميديتش الى البيانو ، وعزف الدراسة عزفا مقبولا جدا . في بادىء الأمر اصغت ناتاليا الكسييفنا باهتمام ، ثم عادت ثانية الى شغلها .

قالت داريا ميخايلوفنا :

– Merci, c'est charmant * . انا احب تالبرغ .

** Il est si distingué مايشغل بالك ، يا افريكان سيميونيتش ؟

شرع بيغاسوف يقول ببطء :

– اعتقد ان هناك ثلاثة اصناف من الانانيين : هناك انانيون يعيشون ويتركون الآخرين يعيشون (١٣) ، وانانيون يعيشون هم ولا يتركون الآخرين يعيشون ، وانانيون لا يعيشون ولا يتركون الآخرين يعيشون . . . والنساء في معظمهن ينتمين الى الصنف الثالث .

– ما اعذب كلامك ! لا يدهشني الا شيء واحد ، يا افريكان سيميونيتش ، وهو أن لك مثل هذا الاقتناع الذاتي في آرائك ، وكانما لا يمكن ان تخطىء ابدا .

– من يقول ! انا ايضا اخطىء . الرجل ايضا قد يخطىء ولكن الا تعرفين اي فرق بين خطأ الرجل وخطأ المرأة ؟ لا تعرفين ؟ الفرق هذا : الرجل يستطيع ان يقول ، مثلا ، ان مرتين اثنين ليست اربعة بل خمسة او ثلاثة ونصف ، بينما المرأة تقول مرتين اثنين هي شمعة الستيارين .

– اظنني قد سمعت ذلك منك قبلا . . . ولكن اسمح لي ان اسأل : ما هي علاقة فكرتك عن اصناف الانانيين الثلاثة بالموسيقى التي سمعتها قبل لحظات ؟

– لا توجد ، كما انني لم اسمع موسيقى .

– أوه ، كفاك ، يا ابتي ، لا ارى صلاحا لك ، مهما فعلنا بك

– ردّت داريا ميخايلوفنا محرفة بيت غريبويدوف (١٤) قليلا – ماذا تحب اذن ، اذا كانت الموسيقى نفسها لا تروق لك ؟ الأدب ؟

– انا احب الأدب ، ولكن ليس ادب اليوم .

– ولماذا ؟

– اشرح لك السبب . قبل مدة قصيرة كنت اعبر نهر اوكا

* شكرا ، هذا شيء ساحر (بالفرنسية في الاصل) .

** انه مرهف جدا (بالفرنسية في الاصل) .

على عبّارة مع احد السادة . فانجرفت العبّارة الى موضع شديد الانحدار . وكان على الملاحين ان يرفعوا العربات بايديهم . وكان لهذا السيد في العبارة عربة ثقيلة جدا . وطوال ما كان عمال العبّارة يرفعون العربة ، دافعين اياها الى الشاطىء كان السيد يولول وهو واقف على العبّارة ، ولولة تدفع حتى الى الرثاء له . . . فقلت لنفسي : هذا التطبيق الجديد لنظام تقسيم الاعمال . وهكذا الحال في ادب اليوم : الآخرون يحملون ، ويقومون بالعمل ، أما الادب فيولول .

ابتسمت داريا ميخايلوفنا . وتابع بيغاسوف الذي لا يتعب :

– وهذا يسمى انعكاس الحياة المعاصرة ، التعاطف العميق مع القضايا الاجتماعية ، وشيئا ما آخر . . . آه ، يالها من هذه الكلمات الطنانة !

– ولكن النساء اللوائي تهاجمهن بهذا الشكل لا يستخدمن الكلمات الطنانة .

هزّ بيغاسوف كتفيه .

– لا يستخدمنها ، لانهن لا يحسنّ ذلك .

احمرت داريا ميخايلوفنا قليلا ، وقالت بابتسامة متكلفة :

– بدات تتجاسر في الكلام ، يا افريكان سيميونيتش .

وران الصمت على الحجرة .

وفجاة سأل احد الصبيين باسيستوف :

– اين تقع زولوتونوشا ؟

اسرع بيغاسوف يجيب :

– في ولاية بولتافا ، يا اعز عزيز ، في اوكرانيا نفسها (وقد سرّ بفرصة تغيير موضوع الحديث) ثم تابع :

– كنا نتحدث عن الادب . لو كنت املك نقودا فائضة ، لصرت في الحال شاعرا اوكرانيا .

قالت داريا ميخايلوفنا :

– واي شيء بعد ؟ تصلح شاعرا ! معقول انك تعرف اللغة الاوكرانية ؟

– ولا النزير القليل منها . ولكن لاحاجة حتى الى معرفتها .

– كيف لا حاجة ؟

– ببساطة ، لاحاجة . لا يقتضي الأمر غير أن تؤخذ ورقة ،

ويكتب في اعلاها «خاطرة» ، ويستهل على النحو التالي : «آه ، يـا حظي ، يا حظي !» او «القوزاقي ناليفايكو جالس على رابية» وبعد ذلك «عبر السفـح ، وعبر الخضرة ، ها ، ها !» * او شيء من هذا القبيل . ويتم الأمر . وما عليك الا ان تطبعه وتنشره وسيقـراه الاوكراني ، ويوسد خده على يده ، ويبكي ، لا محالة . فان لـه مثل هذه النفس السريعة التأثر !

هتف باسيستوف :

– رحماك ! ما هذا الذي تقولـه ؟ لا يجمعه جامع باي شيء . لقد عشت في اوكرانيا ، وانا احبها ، واعرف لغتها . كلامك «عبر السفح ، عبر الخضرة ، عبر» لامعنى له على الاطلاق .

– ممكن ، ومـع ذلك فالاوكرانـي سيبكي . انت ذكرت اللغة . . . ولكن هل من المعقول أن هناك لغـة اوكرانية ؟ ذات مرة طلبت من اوكراني ان يترجم العبارة التالية التي اخذتها لا على التعيين «النحو هو فن القراءة والكتابة السليمتين» . فترجمهـا بتشويه تلفظها ، لاغير . فهل هذه لغـة ، حسب رأيك ؟ لغة مستقلة ؟ افضل أن يدق احسن صديق لي في هاون على ان اوافـق على ذلك . . .

همّ باسيستوف ان يعترض . غير ان داريا ميخايلوفنا قالت :

– اتركه . تعرف انك لن تسمع منه غير المغالطات .

ابتسم بيغاسوف ابتسامة سامة . دخل خادم واعلن عن وصول الكسندرا بافلوفنا واخيها .

نهضت داريا ميخايلوفنا لاستقبال ضيفيها . قالت وهي تتقدم من ضيفتها :

– مرحبا Alexandrine! حصافة منك انك اتيت . . . مرحبا ، سيرغي بافليتش !

صافح فولينتسيف داريـا ميخايلوفنا ، وتقدم من ناتاليـا الكسييفنا .

سأله بيغاسوف :

– هل سيأتي البارون ، صاحبك الجديد ؟

---

* يستغل بيغاسوف التشابه الشديد بين اللغتين الروسية والاوكرانية وينسج على منواله ، كلمات مصفوفة من ارتجاله . **(المعرب)** .

– نعم ، سيأتي .

– يقال انه فيلسوف عظيم تراه دائما يطفح بهيغل .

لم تقل داريا ميخايلوفنا شيئا . اجلست الكسندرا بافلوفنا على الاريكة ، وجلست بالقرب منها . وتابع بيغاسوف قوله :

– الفلسفة اعلى وجهة نظر ! تقتلني وجهات النظر العليا هذه . وماذا يمكن ان ترى من الأعلى ؟ فانت لو اردت ان تشتري حصانا ، فلا اظن انك ستتفحصه من اعلى برج .

سألت الكسندرا بافلوفنا :

– اهذا البارون اراد ان يجلب لك مقالة ؟

– نعم ، مقالة – اجابت داريا ميخايلوفنا باستخفاف مضخّم – عن علاقات التجارة بالصناعة في روسيا . . . ولكن لا تخافي . لن نقراها هنا . . . لم ادعك لهذا الغرض . Le baron est aussi aimable que savant*. C'est un vrai torrent... il vous entraîne ** ويتكلم الروسية جيدا !

دمدم بيغاسوف :

– يتكلم الروسية جيدا جدا بحيث انه يستحق ثناء فرنسيا .

– دمدم ، افريكان سيميونيتش ، دمـدم . . . فهذا يتلاءم كثيرا مع تصفيفة شعرك المنفوشة . . . ولكن لماذا لا يأتي ؟ – ثم اضافت داريا ميخايلوفنا ، وهي تتلفـت فيما حولها – دعوني اقول لكم *** messieurs et mesdames لنخرج الى الحديقة . . . ما يزال هناك نحو ساعة على وقت الغداء ، ثم ان الطقس بهي .

نهض جميع الحضور ، واتجهوا الى الحديقة .

كانت حديقة داريا ميخايلوفنا تمتد حتى النهـر . وفيها طرق كثيرة معرشة باشجار الزيزفون المعمرة ، ذهبية داكنة ، شذية ، وفي اطرافها فسحات زمردية ، والكثير من ظليلات الاقاسيـا والليلق .

توغل فولينتسيف مـع ناتاليـا و m-lle Boncourt الى اقصى الحديقة . سار الى جانب ناتاليا صامتا . و m-lle Boncourt تتبعهمـا على مبعدة .

---

* البارون مهذب ، مثلما هو عالم (بالفرنسية في الاصل) .

** انه سيل حقيقي ، وسيجذبك (بالفرنسية في الاصل) .

*** ايها السادة والسيدات (بالفرنسية في الاصل) .

واخيرا سأل ، وهو يجذب طرفي شاربه الكتاني الداكن البديع :

– ماذا فعلتم اليوم ؟

كانت ملامح وجهه شديد الشبه باخته ، ولكن التعبير المرتسم عليها أقل تعابثا وحياة ، وكان في عينيه الجميلتين الحنونين شيء من الحزن .

اجابت ناتاليا :

– لا شيء . سمعت كيف يشتم بيغاسوف ، وطرزت على الطرة ، وقرأت .

– ماذا قرأت ؟

قالت ناتاليا بقليل من التلعثم :

– قرأت . . . تاريخ الحملات الصليبية .

نظر فولينتسيف اليها . ثم قال اخيرا :

– آه . لابد ان ذلك ممتع .

قطع غصنا ، واخذ يديره في الهواء . وقطعا حوالي عشرين خطوة اخرى ، وعاد فولينتسيف يسأل :

– مَنْ هذا البارون الذي تعرفت عليه امك ؟

– ضابط حاشية من بطرسبورغ . تمتدحه maman كثيرا .

– امك شخصية سريعة الانجذاب .

قالت ناتاليا معلقة :

– وهذا يثبت أنها ما تزال شابة جدا بقلبها .

– نعم . سارسل لك حصانك قريبا . انه الآن مدرّب على الركوب كليا تقريبا . احب ان ينطلق من مكانه في عدو سريع ، وساحقق ذلك .

– Merci . . . ومع ذلك فانا اشعر بحراجة . فانت نفسك تدربه . . . يقولون ان التدريب صعب جدا .

– انت تعرفين ، يا ناتاليا الكسييفنا ، انني مستعد لان اوفر لكم اقل متعة . . . انا . . . وليس مثل هذه التوافه . . .

وضحك فولينتسيف .

رمقته ناتاليا بنظرة ودود ، وقالت Merci مرة اخرى .

وبعد فترة صمت طويلة تابع سيرغي بافليتش قوله :

– انت تعرفين ، لا يوجد شيء اعجز عن عمله لاجلك . . . ولكن ما لي اقول هذا ! فانت تعرفين كل شيء .

في تلك اللحظة رنّ جرس في البيت . فهتفت m-lle Boncourt

— Ah! la cloche du dîner! rentrons. *

وفكرت هذه الفرنسية العجوز مع نفسها ، وهي تصعد درجات الشرفة في اثر فولينتسيف وناتاليا :

«Quel dommage, quel dommage que ce charmant garçon ait si peu de ressourses dans la conversation. . .» **

مما يمكن ان يترجم الى الروسية كالآتي : انت ، يا عزيزي ، لطيف ، ولكنك سيء قليلا .

لم يصل البارون عند الغداء . انتظروه نصف ساعة . ولم ينعقد الحديث وراء المائدة . كان سيرغى بافليتش لا يفتأ يرنو الى ناتاليا التي كانت جالسة قربه ، ويصب الماء في قدحها مرة بعد اخرى . وكان باندالیفسكي يسعى جاهدا الى اشغال جارته الكسندرا بافلوفنا ، وقد فاض بمعسول الكلام ، اما هي فتثاءبت او كادت .

وكان باسيستوف يدحرج كرات الخبز الصغيرة ، ولا يفكر في شيء . وحتى بيغاسوف لزم الصمت ، وحين ذكرت داريا ميخايلوفنا له بانه اليوم جاف جدا ، اجابها وعقا : «ومتى كنت غير جاف ؟ ليس هذا من شاني . . . – وكشر عن ابتسامة ساخرة مرة ، واضاف – تحملي قليلا . فانا كفاس ، كفاس روسي *** du prostoi ، اما صاحبك ضابط حاشية . . .»

صاحت داريا ميخايلوفنا :

– مرحى ! بيغاسوف يغار ، يغار قبل الاوان !

ولكن بيغاسوف لم يرد عليها بشيء ، واكتفى بان نظر اليها جهم الاسارير .

دقت الساعة السابعة ، فعاد الجميع الى حجرة الجلوس .

* آه ، هذا جرس الغداء ! لنعد (بالفرنسية في الاصل) .

** يا خسارة أن هذا الشاب الساحر غير شاطر في المحادثة (بالفرنسية في الاصل) .

*** بروستوى – كلمة روسية «بسيط» ملفوظة بالشكل الفرنسي . **(المعرب)** .

قالت داريا ميخايلوفنا :
– يبدو انه لن ياتي .
ولكن كركبة عربة ترددت في اللحظة التالية ، ودخلت الفناء عربة صغيرة ، وبعد بضع لحظات ، دخل الخادم حجرة الجلوس ، وقدم لدرايا ميخايلوفنا رسالة على صحن صغير من الفضة . مررت بصرها على الرسالة حتى نهايتها ، وسالت ملتفتة الى الخادم :
– واين السيد الذي جلب هذه الرسالة ؟
– جالس في العربة . هل تامرين باستقباله ؟
– ليتفضل .
خرج الخادم . ومضت داريا ميخايلوفنا تقول :
– تصوروا اي خسارة . تلقى البارون مذكرة بالعودة الى بطرسبورغ حالا . فارسل لي مقالته مع سيد يدعى رودين ، هو صديقه . وكان البارون يريد ان يقدمه لي . امتدحه كثيرا . ولكن يا للخسارة ! كنت آمل أن يقيم هنا قليلا . . .
اعلن الخادم :
– دميتري نيقولايفيتش رودين .

٣

دخل رجل في نحو الخامسة والثلاثين من العمر ، طويل القامة ، مرفوع الكتفين محني الظهر قليلا ، اجعد الشعر ، اسمر البشرة ، وجهه غير متناسق ، ولكنه معبّر وذكي ، وعيناه الزرقاوان الداكنتان السريعتان فيهما لمعة رقراقة ، وانفه مستقيم عريض ، وشفتاه مرسومتان بشكل جميل . وكان لباسه غير جديد وضيقا ، وكانما صار صغيرا عليه .
تقدم مندفعا نحو داريا ميخايلوفنا ، حياها بانحناءة قصيرة ، وقال لها انه منذ زمان كان يوّد ان يتشرف بتقديم نفسه لها ، وان صديقه البارون اسف كثيرا لانه لم يستطع ان يأتي اليها بنفسه مودّعا .
لم تكن رنة صوت رودين تتناسب مع طول قامته ، واتساع صدره .

– تفضل اجلس . . . انا مسرورة جدا .
قالت داريا ميخايلوفنا ، وعرفته بجميع الحاضرين ، وسالته هل هو من هذه المنطقة ، ام وافد عليها .
اجاب رودين وهو يمسك قبعته على ركبتيه :
– ضيعتي في ولاية ت. . . وقد جئت الى هنا في مهمة منذ مدة قصيرة ، ونزلت في المدينة ، مركز قضائكم .
– عند مَنْ ؟
– عند الدكتور . انه اقدم رفيق لي في الجامعة .
– آها ! عند الدكتور . . . الناس يثنون عليه . يقولون انه يعرف اسرار مهنته . وهل تعرفت مع البارون منذ زمان ؟
– التقيت به في موسكو في هذا الشتاء ، والآن قضيت في بيته زهاء اسبوع .
– البارون رجل ذكي جدا .
– اجل .
شمّت داريا ميخايلوفنا لفة منديل جيب مشبّع بماء الكولونيا . وسالت :
– هل انت في وظيفة ؟
– مَنْ ؟ أنا ؟
– نعم .
– لا . . . انا متقاعد عن الخدمة .
ساد صمت قصير . ثم استؤنف الحديث .
توجه بيغاسوف الى رودين قائلا :
– هل لي ان اسأل عما اذا كنت تعرف محتوى المقالة التي ارسلها السيد البارون ؟
– اعرف .
– هذه المقالة تعالج علاقات التجارة ، اولا ، سهوتُ ، علاقات الصناعة بالتجارة في وطننا . . . نعم ، هكذا ، على ما يبدو ، اليس كذلك ، يا داريا ميخايلوفنا ؟
– نعم ، عن هذا الموضوع . . .
قالت داريا ميخايلوفنا ، ووضعت يدها على جبينها .
وتابع بيغاسوف يقول :
– انا ، بالطبع ، حكَم سيئ في هذه الأمور . ولكن يجب ان

اعترف بان عنوان المقالة نفسه يبدو لي غاية في . . . كيف يمكن التعبير بشكل الطف ؟ . . غاية في الابهام والشربكة .

– ولم يبدو لك كذلك ؟

ضحك بيغاسوف ضحكة ساخرة مقتضبة ، وانزلقت نظراته على داريا ميخايلوفنا .

– وهل هو واضح لك ؟ – قال ، وعاد يدير وجهه الثعلبي نحو رودين .

– لي ؟ واضح .

– حم . . . بالطبع انت تعرف ذلك احسن .

سالت الكسندرا بافلوفنا داريا ميخايلوفنا :

– هل عندك صداع ؟

– لا . هذا ما يحدث . . . C'est nerveux. *

وعاد بيغاسوف يقول بصوت أنفي :

– هل لي ان اسأل عما اذا كان صاحبك السيد البارون موفيل . . . هذا اسمه ، على ما يبدو ؟

– بالضبط .

– عما اذا كان السيد البارون موفيل مختصا بدراسة الاقتصاد السياسي ، أم يكرس لهذا العلم الممتع ساعات فراغه فقط ، تلك التي تتبقى من بين متع الحياة الدنيوية واشغال الوظيفة ؟

تفرس رودين بيغاسوف ، واجاب محمرا قليلا :

– البارون هاو في هذا الموضوع . ولكن المقالة تحتوي على الكثير من الاشياء المحقة والمثيرة للاهتمام .

– لا استطيع ان اجادلك ، وانا لا اعرف المقالة . . . ولكن اجرؤ على ان اسأل ربما ان كتابة صاحبك ، البارون موفيل ، تتبع الافكار العامة اكثر من الحقائق ؟

– فيها حقائق وافكار مستندة على حقائق .

– اها ، اها . لاعرض لك رأيي . . . على اية حال انا استطيع ان اقول كلمتي عند الضرورة . لقد قضيت في ديربت ثلاثة اعوام . . . ان كل ما يسمى بالافكار العامة ، والفرضيات ، والانظمة . . . ارجو المعذرة ، فانا من الاقاليم واقول الحقيقة

* حالة عصبية (بالفرنسية في الاصل) .

ولا اداور . . . لا ينفع في شيء . كل ذلك من الذهن ، وبه يضللون الناس لا غير . اوردوا حقائق ، ايها السادة . وكفى .

ردّ رودين :

– هذا صحيح . لكن ، هل ينبغي ايراد معنى الحقائق ؟

استمر بيغاسوف يقول :

– الافكار العامة ! موتي هذه الافكار العامة ، عروض ، استنتاجات ! كل ذلك قائم على ما يسمى بالمعتقدات . وكل يتحدث عن معتقداته ، وعلاوة على ذلك يطالب بان نحترمها ، ويدللها . . . ايه !

وهزّ بيغاسوف قبضته في الهواء . وضحك بانداليفسكي .

قال رودين :

– رائع ! يعني لا توجد معتقدات ، في رأيك ؟

– لا ، لا توجد .

– اهذا معتقدك ؟

– نعم .

– وكيف تقول لا وجود لها ؟ ها قد سجلت نقطة واحدة للبداية .

ابتسم جميع مَنْ في الحجرة ، وتبادلوا النظرات .

شرع بيغاسوف يقول :

– اسمحوا لي ، اسمحوا لي ، على كل حال . . .

الا ان داريا ميخايلوفنا اخذت تصفق ، هاتفة : «مرحى ، مرحى ، بيغاسوف انهزم ، انهزم !» وسلّت القبعة من يدي رودين على مهل .

– لا تتعجلي باظهار الفرح ، يا سيدة . امامك وقت ! – قال بيغاسوف في ضيق – لا يكفي قول كلمة لاذعة ، بمظهر التفوق ، بل يجب الاثبات ، يجب دحض ما قيل قبلا . . . خرجنا عن موضوع النقاش .

قال رودين ببرود اعصاب :

– اسمح لي . القضية بسيطة جدا . انت لا تؤمن بفائدة الافكار العامة ، ولا تؤمن بالمعتقدات . . .

– لا اؤمن ، لا اؤمن ، لا اؤمن باي شيء .

– لطيف جدا . انت متشكك .

– لا ارى ضرورة في استخدام هذه الكلمة العلمية . على العموم . . .

تدخلت داريا ميخايلوفنا قائلة :

– لا تقاطع !

«انهش ، انهش ، انهش !» قال باندالفسكي في سره في تلك اللحظة ، وكشّر تكشيرة عريضة .

ومضى رودين يقول :

– هذه الكلمة تعبر عن فكرتي . وانت تفهمها . فلماذا لا استخدمها ؟ انت لا تؤمن بشيء . . . فلماذا تؤمن بالحقائق ؟

– لماذا ؟ شيء رائع ! الحقائق شيء معروف ، والجميع يعرفون ما هي الحقائق . . . وانا احكم عليها بالتجربة ، باحساسي الخاص .

– وكان الاحساس لا يمكن ان يخدعك ! الاحساس يقول لك ان الشمس تدور حول الأرض . . . او ، ربما انت لا تتفق مع كوبيرنيك ؟ ربما لا تصدق به ؟

سرت الابتسامات على جميع الوجوه مرة اخرى ، وتوجهت الانظار كلها الى رودين . وفكر كل من الحاضرين : «شخص لا يعوزه الذكاء !»

قال بيغاسوف :

– انت تجعل من كل شيء مزحة . بالطبع ، هذا شيء اصيل جدا ، ولكنه لا ينسجم مع الفعل .

اعترض رودين عليه قائلا :

– ما قلته حتى الآن فيه قليل جدا من الاصالة مع الاسف . جميعه معروف منذ زمن بعيد جدا ، وقيل الف مرة . ليست المسألة في . . .

– فيم ، اذن ؟ – سأل بيغاسوف دون ان يخلو من وقاحة .

كان بيغاسوف في النقاش يمازح الخصم في بادئ الأمر ، وبعد ذلك يصير خشنا ، وفي آخر الأمر تنتفخ اوداجه ، ويصمت .

مضى رودين يقول :

– المسألة ، هي انني ، واعترف بذلك ، لا يمكن الا ان اشعر بالأسف الصادق ، حين يهاجم الاذكياء بحضوري . . .

قاطعه بيغاسوف قائلا :

– الانظمة ؟

– نعم ، في ظني ، الانظمة على الاقل . لماذا تخيفك هذه الكلمة بهذا الشكل ؟ كل نظام قائم على معرفة القوانين الاساسية ، اسس الحياة . . .

– ولكن من المستحيل معرفتها ، اكتشافها . . . ارجو المعذرة !

– على مهلك . انها ، بالطبع ، ليست تحت متناول كل انسان ، والانسان مجبول على الخطا . وعلى اية حال ، لعلك تتفق معي على ان نيوتن ، مثلا ، اكتشف بعض هذه القوانين الاساسية على الأقل . ولنقل انه كان عبقريا ، ولكن اكتشافات العباقرة عظيمة ، لكونها ايضا تصبح ملكا للجميع . ان السعي الى البحث فالكشف عن الاسس العامة في الظواهر الخاصة هو احدى الصفات الجذرية للعقل الانساني ، وكل ما لمعارفنا من سعة . . .

قاطعه بيغاسوف بصوت ممطوط :

– الى هذا الحد توغلت ! انا رجل عملي ، ولا أتعمق في كل الدقائق الميتافيزيقية هذه ، ولا اريد ان اتعمق .

– حسن ! هذه مشيئتك . ولكن لاحظ ان رغبتك في ان تكون رجلا عمليا كليا هي بحد ذاتها نظام ، نظرية من نوعها الخاص . . .

التقط بيغاسوف كلمة رودين :

– تقول سعة المعارف ! هذا شيء آخر تريد ان تثير الاعجاب به ! لا حاجة ، البتة ، الى سعة المعارف الممدوحة هذه ! سعة معارفك هذه لن اشتريها بفلس .

– على كل حال ، ما اردأ نقاشك ، يا افريكان سيميونيتش !

– قالت داريا ميخايلوفنا وهي في دخيلتها مرتاحة جدا لهدوء زائرها الجديد وتهذيبه الرقيق ، ونظرت الى وجه رودين باهتمام ودي ، وقالت لنفسها * « c'est un homme comme il faut» ، وآخر كلمات قالتها بالروسية في سرها هي : «تجب معاملته بلطف» .

صمت رودين قليلا ، ومضى يقول :

– لن ادافع عن سعة المعارف . فهي ليست بحاجة الى دفاع . انت لا تحبها . . . ولكل ذوقه . الى جانب ذلك قد يبعدنا هذا

* هذا رجل راق (بالفرنسية في الاصل) .

كثيرا . اسمح لي فقط ان اذكرك بمثل قديم : «انت غاضب ، يا جوبيتر ، فمعنى ذلك انت مذنب» . اردت ان اقول ان كل هذه التهجمات على الانظمة ، على الافكار العامة ، وغير ذلك ، محزنة بشكل خاص لأن الناس حين ينكرون الانظمة ينكرون معها المعرفة عموما والعلم والايمان به ، ومعنى ذلك انهم ينكرون ايضا الايمان بانفسهم ، بقواهم . بينما الناس بحاجة الى هذا الايمان ، ولا يجوز لهم ان يعيشوا على الانطباعات فقط ، ومن الخطيئة لهم ان يخافوا الفكر ولا يثقوا به . ان مذهب الشك يتميز دائما بالعقم والعجز . . .

تمتم بيغاسوف :

– هذه مجرد كلمات !

– يجوز . ولكن اسمح لي ان انبهك الى أننا حين نقول «هذه مجرد كلمات !» غالبا ما نرغب بانفسنا في ان نتنحى عن ضرورة قول شيء اكثر كفاءة من الكلمات المجردة .

سأل بيغاسوف :

– ماذا ؟

وقلّص عينيه .

– انت فهمت ما كنت اريد ان اقوله لك – ردّ رودين بنفاد صبر لاارادي كبحه على الفور – واكرر ، اذا كان الانسان لا يملك اساسا قويا يؤمن به ، ولا ارضا يقف عليها بثبات ، فكيف يمكن له ان يعي حاجات شعبه واهميته ومستقبل ايامه ؟ كيف يمكن له ان يعرف ما يجب ان يقوم به بنفسه ، اذا كان . . .

قال بيغاسوف بتوقف :

– شرف ومكان !

وانحنى ، وانتبذ ناحية ، دون ان ينظر الى أحد .

نظر رودين اليه ، وابتسم ابتسامة ساخرة خفيفة ، وصمت .

قالت داريا ميخايلوفنا :

– اها ! لجأ الى الهرب ! لا تقلق ، يا دميتري . . . اعذرني – اضافت بابتسامة خفيّة – ما اسم ابيك ؟

– نيقولايتش .

– لا تقلق ، يا دميتري نيقولايتش الكريم ! انه لم يخدع احدا منا . يرغب في التظاهر بأنه لا يريد الاستمرار في الجدال . . .

يشعر بعدم قدرته على الجدال معك . الافضل ان تجلس اقرب الينا ، وتتابع الكلام .

نقل رودين مقعده الى مكان اقرب .

ومضت داريا ميخايلوفنا تقول :

– كيف لم نتعرف قبل الآن ؟ هذا يدهشني . . . هل قرأت هذا الكتاب ؟ * C'est de Tocqueville, vous savez? (١٥)

وقدمت داريا ميخايلوفنا الكراسة الفرنسية الى رودين .

تناول رودين الكتيب ، وقلّب بعض صفحاته ، واعاده الى موضعه على المنضدة ، واجاب انه لم يقرأ هذا المؤلف بالذات للسيد توكفيل ، ولكنه كثيرا ما فكر في المسألة التي عالجها . وانعقد الحديث . في البداية كان رودين كالمتردد ، فلم يجرأ ان يفصح عن افكاره ، لم يجد الكلمات ، الا أن الحماس غلبه اخيرا ، فراح يتحدث . وبعد ربع ساعة كان صوته وحده يتردد في الحجرة . وتجمهر الجميع متحلقين حوله .

وبقي بيغاسوف وحده منعزلا في ركن قرب الموقد . تكلم رودين بذكاء وحرارة وكفاءة ، وكشف عن كثير من المعرفة ، وكثير من المطالعة . لم يتوقع احد ان يجد فيه شخصا ممتازا . . . كان معتدل الملبس كثيرا ، لم يسمع احد عنه غير القليل جدا من الشائعات . وبدا غير مفهوم للجميع وغريبا ان يظهر مثل هذا الاريب في القرية بهذه الصورة . على الاخص وقد ادهش الجميع ، ويجوز القول انه سحرهم ابتداء من داريا ميخايلوفنا . . . افتخرت هذه بلقطتها ، وراحت تفكر مسبقا كيف تقدم رودين الى المجتمع الراقي . كان في انطباعاتها الاولى الكثير مما يقرب من الطفولة ، رغم تقدم سنها . ولم تفهم الكسندرا بافلوفنا ، والحق يقال ، غير القليل من كل ما قاله رودين ، ولكنها اندهشت كثيرا وسرت ، وكذلك اندهش اخوها . وكان باندليفسكي يراقب داريا ميخايلوفنا والحسد في قلبه . وفكر بيغاسوف مع نفسه : «ساعطي خمسمائة روبل ، لأجد لكم شحرورا أفضل !» ولكن باسيستوف وناتاليا كانا اكثرهم انبهارا . كان باسيستوف متقطع الانفاس ، فاغر الفم طوال الوقت ، مبحلق العينين ، يصغي ويصغي بصورة لم يصغ بها لاحد منذ مولده .

* انه توكفيل ، هل تعرفه ؟ (بالفرنسية في الاصل) .

وتغشى وجه ناتاليا بنقاب من الحمرة ، وبصرها مصوّب الى رودين لا يريم ، وقد دكن والتمع . . .

همس فولينتسيف لها :

– له عينان رائعتان !

– نعم ، لطيفتان .

– خسارة ان يديه كبيرتان وحمراوان .

ولم تجب ناتاليا بشيء .

وقدم الشاي . واشتركت في الحديث اطراف اكثر ، ولكن كان من الممكن الحكم على قوة التاثير الذي يحدثه رودين في جميع الحاضرين من مجرد الصمت الفجائي الذي كان يعمهم جميعا ، حالما يفتح فمه . استولت على داريا ميخايلوفنا رغبة مفاجئة في أن تتاكد بيغاسوف . تقدمت منه ، وقالت بصوت خافض : «لماذا أنت ساكت لا نرى منك غير ابتسامة مسمومة ؟ حاول ان تشتبك معه ثانية» ، ودون ان تنتظر الجواب دعت رودين باشارة من يدها .

وقالت له ، وهي تشير الى بيغاسوف :

– ما يزال هناك شيء واحد ما تزال لا تعرفه عنه . انه يمقت النساء بشكل مريع ، ويهاجمهن بلا هوادة . ارجوك أن تعيده الى الصراط المستقيم .

نظر رودين الى بيغاسوف . . . من فوق ، رغما عنه ، فقد كان اطول منه بمقدار راسين ، وكاد بيغاسوف يتلوّى من شدة الغيظ ، وامتقع وجهه الصفراوي .

انشأ يقول بصوت متخلخل :

– داريا ميخايلوفنا مخطئة . انا لا اهاجم النساء وحدهن ، انا عازف عن الجنس البشري كله .

سأل رودين :

– ما الذي جعلك تكوّن هذا الراى السيئ عنه ؟

نظر بيغاسوف في عينيه تماما .

– اغلب الظن من دراستي لقلبي الذي اكتشف فيه كل يوم اكثر فاكثر من النجس . وانا احكم على الآخرين بما اراه في نفسي . ربما هذا غير منصف ، وانا اسوأ كثيرا من الآخرين ولكن ماذا تأمر ان افعل ؟ عادة !

رد رودين :

– انا افهمك ، واتحسس شعورك . فاية روح نبيلة لم تعان من ظمأ ادانة نفسها بنفسها ؟ ولكن لا ينبغي البقاء في هذا الوضع المسدود .

قال بيغاسوف :

– شكري الجزيل على منحك نفسي شهادة النبل . ولكن وضعي لا باس به ، غير سيئ ، وحتى اذا كان فيه مخرج ، فلا يهمني . فانني لن ابحث عنه .

– ولكن ذلك يعني – واعذرني على التعبير – تفضيل ارضاء حب الذات على الرغبة في ان تنضوي وتعيش في الحقيقة . . .

هتف بيغاسوف :

– طبعا ! حب الذات انا افهمه ، وآمل أنك ايضا تفهمه ، واي انسان يفهمه . ولكن الحقيقة ، ما هي الحقيقة ؟ اين هي ، هـذه الحقيقة ؟

قالت داريا ميخايلوفنا ملاحظة :

– انت تكرر نفسك . أنبهك .

رفع بيغاسوف كتفيه :

– وما الضير في ذلك ؟ انا اسأل : اين الحقيقة ؟ حتى الفلاسفة لا يعرفون ما هي . كانت يقول : هي كذا ، وهيغل يقول لا ، انت تكذب ، هي كذا .

سأله رودين دون ان يرفع صوته :

– وهل تعرف ماذا يقول هيغل عنها ؟

واصل بيغاسوف كلامه محتدا :

– اكرر انني لا استطيع ان افهم ما هي الحقيقة . أعتقـد لا وجود لها في الدنيا على الاطلاق . الاسم موجود ، ولكن المسمّى غير موجود .

صاحت داريا ميخايلوفنا :

– خي ! خي ! كيف لا تخجل من هذا الكلام ، أيها الآثـم العجوز ! لا توجد حقيقة ؟ ولأجل اي شيء تعيش في الدنيا بعد هذا ؟

ردّ بيغاسوف في ضيق :

– ولكن اعتقد ، يا داريا ميخايلوفنا ، ان حياتك بدون حقيقة ستكون ، في كل الاحوال ، أسهل عليك من أن تكون بدون طباخك ستيبان الخبير جدا بتحضير حساء اللحم ! قولي من فضلك مـا

حاجتك الى الحقيقة ؟ فالانسان لا يمكن ان يفصّل منها قلنسوة .
قالت داريا ميخايلوفنا :

– النكتة ليست اعتراضا ، لا سيما حين تنحدر الى افتراء . . .

– لا اعرف فيما يتعلق بالحقيقة ، ولكن الحق يوخز العيون .

تمتم بيغاسوف ، وانتحى جانبا مضطرم القلب .

وبدأ رودين يتحدث عن حب الذات . وتحدث بجدية كبيرة . كان يثبت أن الرجل ضئيل الاهمية بلا حب لذاته ، وأن حب الذات هو عتلة ارخميدس التي يمكن ان نرفع الارض بها من مكانها ، ولكن الذي يستحق اسم الانسان هو ، في نفس الوقت ، من يستطيع ان ياخذ بزمام حبه لذاته ، مثلما ياخذ الفارس بزمام حصانه ، مَنْ يضحي بشخصه في سبيل الخير العام . . .

وانتهى الى القول :

– حب الذات هو انتحار . والرجل المحب لذاته يجف كشجرة وحيدة عقيمة ، ولكن حب الذات ، كسعي نشيط نحو الكمال ، هو ينبوع كل ما هو عظيم . . . اجل ، يجب على الانسان أن يحطم الانانية العنود لشخصيته ، لكي يعطي هذه الشخصية حق الافصاح عن نفسها !

خاطب بيغاسوف باسيستوف :

– الا تعيرني قلما ؟

لم يفهم باسيستوف في الحال سؤال بيغاسوف له . واخيرا قال :

– وما حاجتك الى قلم ؟

– اريد ان اكتب هذه العبارة الاخيرة التي قالها السيد رودين . اخشى ان انساها اذا لم اكتبها ! انتم معي بان مثل هذه العبارة على اية حال مثل ربح الخزنة كلها في لعبة ورق واحدة .

قال باسيستوف بحماس :

– هناك اشياء من الأثم الضحك منها والمساس بها ، يا افريكان سيميونيتش .

وتنحى عن بيغاسوف .

وفي غضون ذلك تقدم رودين من ناتاليا ، فنهضت ، وعلا وجهها الارتباك .

ونهض فولينتسيف ايضا ، وكان جالسا جنبها .

وشرع رودين يقول بنعومة ورقة ، كالامير السائح :

– ارى بيانو . الست التي تعزفين عليه ؟

قالت ناتاليا :

– نعم ، اعزف ، ولكن ليس عزفا جيدا جدا . ولكن هذا قسطنطين ديوميديتش يعزف افضل مني بكثير .

اظهر باندالیفسكي وجهه ، وكشف عن اسنانه بتكشيرة .

– ما كان لك ان تقولي هذا ، يا ناتاليا الكسييفنا ، فعزفك ليس اسوأ من عزفي ابدا .

سأل رودين :

– هل تعرف * « Erlkönig » لشوبرت (١٦) ؟

اسرعت داريا ميخايلوفنا تقول :

– يعرفها ، يعرفها ! اجلس ، يا Constantin . . . وأنت يا ديميتري نيقولايتش ، هل تحب الموسيقى ؟

اكتفى رودين بانحناءة صغيرة من رأسه ، ومرر يده على شعره ، وكأنما يستعد للاستماع . . . وبدأ باندالیفسكي يعزف .

وقفت ناتاليا قرب البيانو ، قبالة رودين تماما ، ومن الصوت الأول اكتسى وجهه تعبيرا جميلا ، وهامت عيناه الداكنتا الزرقة ببطء ، لتقعا على ناتاليا من حين لآخر . وانتهى باندالیفسكي من العزف .

لم يقل رودين شيئا ، وتقدم من النافذة المفتوحة ، كان غسق شذي يخيم على الحديقة كنقاب خفيف ، والاشجار القريبة تفوح طراوة ناعسة ، والنجوم ترسل ضوءها الخافت بهدوء ، والليل الصيفي يهنأ ، ويهنئ الناس . حدق رودين في الحديقة المظلمة ، والتفت وقال :

– ذكرتني هذه الموسيقى ، وهذه الليلة بأيامي ، حين كنت طالبا في المانيا ، باجتماعاتنا والحان السيريناد .

سألت داريا ميخايلوفنا :

– أكنت في المانيا ؟

– قضيت سنة في هايدلبيرغ وحوالي سنة في برلين .

– ولبست زي الطلبة ؟ يقال ان لهم زيا خاصا هناك .

* «قيصر الغابة» (بالالمانية في الاصل) .

– في هايدلبيرغ كنت البس حذاء طويل الرقبة بمهمازين ، وسترة هنغارية باشرطة ، وقد ارسلت شعري حتى كتفيَّ . . . وفي برلين كان الطلبة يلبسون كما يلبس الناس الآخرون .

قالت الكسندرا بافلوفنا :

– حدثنا شيئا عن حياتك الجامعية .

وشرع رودين يروي . ولم يكن موفقا في روايته تماما ، فقد كانت اوصافه خالية من التلاوين . لم يكن يحسن التفكه . وعلى اية حال فقد انتقل بعد قليل من قصص تجوالاته في الخارج ، الى افكار عامة عن اهمية التثقيف والعلم ، وعن الجامعات ، والحياة الجامعية بشكل عام . وبخطوط عريضة جريئة وسم لوحة هائلة . استمع الجميع اليه باهتمام عميق . كان يتكلم بمهارة وتشويق ، وبلا وضوح تام . . . ولكن هذا الوضوح غير التام اضفى على احاديثه سحرا خاصا .

كانت غزارة الافكار تعيق رودين عن التعبير عنها بدقة وعلى وجه التحديد . كانت الصور تتابع ، والتشابيه تتعاقب جريئة تارة بشكل غير متوقع ، وصادقة تارة بشكل مذهل . وكان ارتجاله العجول لا ينم عن حذلقة رضى عن النفس لمتحدث محنك ، بل عن الهام . لم يكن يبحث عن الكلمات متقصدا ، بل كانت الكلمات ترد بنفسها على لسانه طائعة سلسة ، وكانت كل كلمة تنسكب لوحدها من روحه ، وتغمر الجميع بحرارة اليقين . كان رودين يمتلك البلاغة الموسيقية التي تكاد ان تكون ارفع سر . وكان يحسن ، بالضرب على اوتار القلب وحدها ، ان يجعل كل الاوتار الأخرى تهتز وترن رنينا مبهما . وربما ان احدا من المستمعين لم يكن يفهم بالدقة ما كان يتحدث عنه ، ولكن صدره قد امتلأ بالهواء ، وانزاحت اسدال عن عينيه ، وتراءى امامه شيء ساطع .

بدت افكار رودين موجهة كلها الى المستقبل ، مما اضفى عليها طموحا وفتوة . . . كان يتحدث وهو واقف عند النافذة دون ان يوجه بصره الى احد على وجه التحديد ، محفزا بمشاركة الجميع له بالعاطفة ، وبالاهتمام ، وقرب امرأتين شابتين منه ، وجمال الليل ، مغمورا بسيل احاسيسه ، فكان يسمو الى البلاغة ، الى سماء الشعر . . . وكانت رنة صوته نفسها المكثفة الهادئة تضخم جاذبيته ، وبدا وكأن شيئا رفيعا غير متوقع له نفسه يجري على شفتيه

تلقائيا . . . كان رودين يقول انه يولي اهمية خالدة لحياة الانسان الزائلة .

وختم رودين حديثه كالآتي :

– اتذكر اسطورة اسكندنافية تقول ان قيصرا كان يجلس مع محاربيه حول نار في سقيفة طويلة مظلمة . وكان ذلك في ليلة شتائية . وفجأة يدخل طائر صغير من باب مفتوح ، ويخرج من آخر . فيقول القيصر ان هذا الطائر مثل الانسان في الدنيا ، يأتي من ظلام ويطير الى ظلام ، ولا يلبث في الدفء والنور الا قليلا . . . فيعترض اكبر محاربيه سنا ، قائلا : «ايها القيصر ، الطائر في الظلام لا يهلك ، بل ويجد عشا له . . .» وكذلك حياتنا بالضبط سريعة وضئيلة . ولكن كل ما هو عظيم يتحقق على ايدي الناس . ان وعي الانسان بكونه اداة لتلك القوة السامية يجب أن يعوضه عن كل المسرات الاخرى . فيجد في الموت نفسه حياته ، عشه . . .

توقف رودين ، واطرق ببصره بابتسامة ارتباك لاارادي .

قالت داريا ميخايلوفنا بصوت خافض :

– Vous êtes un poète *

ووافقها الجميع في سرهم ، الجميع ما عدا بيغاسوف . لم ينتظر ان يتم رودين خطبته الطويلة ، حتى تناول قبعته خلسة ، وهمس مغيظا وهو ينصرف ، لبانداليفسي الذي كان واقفا قرب الباب :

– لا ! لأذهب الى الحمقى !

وعلى اية حال ، لم يبقه احد ، ولم يلحظ غيابه أحد .

وقدم طعام العشاء وبعد نصف ساعة انصرف الجميع ماشيين او راكبين . رجت داريا ميخايلوفنا رودين ان يبقى ليقضي الليلة في بيتها . واثناء عودة الكسندرا بافلوفنا الى البيت مع اخيها ابدت عجبها وانبهارها غير مرة من عقل رودين غير الاعتيادي . وافقها فولينتسيف ، ولكنه لاحظ أن تعابيره احيانا ملتبسة قليلا . . . واضاف : يعني ينقصها الصفاء ، وهو يريد ، على ما يبدو ، ان يوضح فكرته ، الا ان الكآبة علت وجهه ، واتجه ببصره الى ركن العربة ، فبدا اكثر كآبة .

---

* انت شاعر (بالفرنسية في الاصل) .

وقال باندالیفسكي بصوت مسموع ، وهو يخلع علاّقة بنطاله المطرزة بالحرير ليأوى الى فراشه : «رجل بارع جدا !» ، ونظر الى خادمه الشخصي نظرة صارمة ، واذا به يأمره بالخروج . ولم ينم باسيستوف الليل كله ، ولم يخلع ملابسه ، وظل حتى الصباح يكتب رسالة الى رفيق له في موسكو . اما ناتاليا ، فعلى الرغم من انها خلعت ملابسها ، واوت الى فراشها ، الا انها لم تغف دقيقة واحدة ، بل ولم تغمض عينيها . اسندت رأسها على يدها ، وراحت تتفرس في الظلمة ، وتسارعت نبضات عروقها بشكل محموم ، وظل صدرها غالبا ما يصعّد زفرة عميقة .

٤

ما كاد رودين يرتدي ملابسه في صباح اليوم التالي حتى جاء اليه رسول من داريا ميخايلوفنا يدعوه بالتفضل الى حجرة مكتبها ، وتناول الشاي معها . وجدها رودين لوحدها . حيّته بلطف جم ، واستفسرت هل قضى ليلة طيبة ، وصبت له قدح شاي بنفسها ، بل وسألت : هل السكر كاف ، وقدمت له سيكارة ، وكررت مرتين او اكثر ان ما يدهشها أنها لم تتعرف عليه منذ زمان . كان رودين قد جلس على مبعدة قليلة منها ، الا أن داريا ميخايلوفنا اشارت له الى اريكة صغيرة كانت الى جانب مقعدها ، ومالت قليلا الى ناحيته ، وراحت تسأله عن عائلته ، عن ما ينتويه وما يخطط له مستقبلا . كانت تتحدث بقلة اكتراث ، وتستمع شاردة الذهن ، ولكن رودين ادرك حق الادراك بانها تلاطفه ، وتكاد تتزلف اليه . فليس عبثا انها هيأت هذا اللقاء الصباحي ، وليس عبثا أنها كانت ترتدي ملابس بسيطة ، ولكنها انيقة * à la madame Récamier . وعلى اية حال فان داريا ميخايلوفنا سرعان ماكفت عن الاستفسار عنه ، واخذت تتحدث عن نفسها ، وعن شبابها ، وعن الناس الذين كانت تعرفهم . اصغى رودين الى اطنابها بتعاطف ، رغم أن داريا

* على طريقة مدام ريكاميه (بالفرنسية) . وكان لمدام ريكاميه صالون في باريس يؤمه كل مشاهير من الفنانين والادباء . (المعرب) .

ميخافلوفنا – ويا للغرابة ! – كانت تبقى وحدها في الصدارة مهما يكن الشخص الذي تتحدث عنه ، اما ذلك الشخص فكان ينزوي ويختفي . وبالمقابل ذلك عرف رودين بالتفصيل ما كانت داريا ميخايلوفنا تقوله لهذا او ذاك من الوجهاء ، والتأثير الذي كانت تمارسه على هذا او ذاك من الشعراء . ومن حكايات داريا ميخايلوفنا يمكن ان يفكر المرء ان جميع المشاهير في السنين الخمس والعشرين الاخيرة لم يحلموا الا برؤيتها وكسب الحظوة عندها . كانت تتحدث عنهم ببساطة وبدون كثير من الانشراح والثناء ، مثلما تتحدث عن اهل بيتها ، واصفة بعضهم بغرباء الاطوار . كانت تتحدث عنهم ، وكما يحيط اطار ثمين بحجر كريم كانت اسماؤهم كحاشية لامعة تحيط بالاسم الرئيسي – اسم داريا ميخايلوفنا . . .

وكان رودين يصغي ، ويدخن ، ويلتزم الصمت ، ومن حين لآخر فقط ، كان يدخل بعض الملاحظات الصغيرة في حديث السيدة المثرثرة . كان يحسن ويحب الكلام ، ولكن لم تكن من طبعه سياقة الحديث ، غير أنه كان يحسن الاصغاء ايضا . وكل من كان يسلم من رهبته في البداية ، كان ينطلق بالحديث في حضوره عن ثقة ، اذ كان رودين يتابع خيط حديث الآخرين عن طيب خاطر واستحسان . كان فيه الكثير من دماثة النفس ، تلك الدماثة المعينة التي يتشبع بها اولئك الذين تعودوا على ان يحسوا بانفسهم اعلى من الآخرين . وفي النقاشات كان نادرا ما يترك خصمه يعرب عن رايه ، كان يخنقه بجدليته النزاعة الجياشة بالعاطفة .

كانت داريا ميخايلوفنا تعبّر باللغة الروسية ، وتتبختر بمعرفتها للغتها القومية ، رغم أن سمات اللغة الفرنسية والكلمات الفرنسية كانت ترد في كلامها كثيرا . وكانت تتقصد استخدام التعابير الشعبية ، ولكن ليس بنجاح دائما . لم تجرح برقشة الكلام الغريبة على لسان داريا ميخايلوفنا اذن رودين ، ومن المستبعد ان يعيرها اذنا .

تعبت داريا ميخايلوفنا اخيرا ، والقت رأسها على وسادة المقعد الخلفية ، وثبتت عينيها في رودين ، وصمتت .

وشرع رودين يقول :

– انا افهم الآن ، افهم لماذا تسافرين الى القرية كل صيف ، فان هذه الاستراحة ضرورية لك . فالهدوء الريفي ، بعد حياة العاصمة

ينعشك ويقويك . انا واثق من أنك لا محالة تحسين بمحاسن الطبيعة .

حدجته داريا ميخايلوفنا بنظرة من طرف عينيها .

– الطبيعة . . نعم . . نعم . . . بالطبع . . . أحبها حبا هائلا . ولكن ، لعلك تعرف يا دميتري نيقولايتش ، حتى في الريف يتعذر العيش بدون الناس . ولا يوجد أحد هنا تقريبا . وبيغاسوف اذكى انسان هنا .

سأل رودين :

– اهو ذلك العجوز الغاضب الذي كان يوم أمس ؟

– نعم ، هو . بالمناسبة ، حتى هو ينفع في القرية . على الاقل يُضحك .

رد رودين :

– رجل لا يعوزه الذكاء . ولكنه سائر في طريق زائف . ولا ادري هل ستتفقين معي ، يا داريا ميخايلوفنا ، اذا قلت ان في الرفض ، في الرفض التام والشامل لا يوجد نعيم . اذا رفضت كل شيء استطعت بسهولة أن يذاع عنك أنك ذكية . هذه شطارة معروفة . والطيبون مستعدون في الحال الى أن يستنتجوا انك ارفع من الذي ترفضينه . وهذا غير صحيح في كثير من الاحيان . اولا من الممكن ان تجدي لطخات في كل شيء ، وثانيا حتى اذا ما تقولينه صحيحا ، فذلك اسوأ ، معنى ذلك أن عقلك المتجه الى الرفض فقط يفتقر ويجف . فانت في تطمينك لحب ذاتك تحرمين نفسك من متع التامل الحقيقية . والحياة ، جوهر الحياة ، يفلت من ملاحظتك الضئيلة الصفراوية ، وينتهي الأمر بك الى ان تنبحي وتضحكي الناس . لا يحق الرفض والشتم الا لمن يحب .

قالت داريا ميخايلوفنا : « Voi là m-r Pigassof enterré » * – ما امهرك في تشخيص الانسان ! على العموم ، ما كان بيغاسوف سيفهمك ، في اغلب الظن . انه لا يحب الا نفسه .

فأكمل رودين قائلا :

– ويشتمها ليحق له شتم الآخرين .

* هذا قضاء على السيد بيغاسوف (بالفرنسية في الاصل) .

ضحكت داريا ميخايلوفنا .

– كيف يقول المثل : من المذنب على البريء . بالمناسبة ما رايك في البارون ؟

– في البارون ؟ انه رجل فاضل ، طيب القلب ، وعليم ولكن ليست له شخصية . . . وسيظل طوال عمره نصف متعلم ، نصف راق ، اي سطحي المعرفة ، يعني بصريح العبارة ، لا شيء . . وهذا مؤسف !

قالت داريا ميخايلوفنا :

– لي نفس الرأي . قرأت مقالته . . . Entre nous... cela a assez peu de fond. *

سأل رودين بعد أن صمت برهة :

– ومن عندكم هنا ايضا ؟

نفضت داريا ميخايلوفنا الرماد من سيكارتها بخنصرها .

– لا احد تقريبا . ليبينا ، الكسندرا بافلوفنا التي رأيتها يوم امس لطيفة جدا ، ولكن هذا وحسب . واخوها ايضا شخص رائع un parfait honnête homme. ** وانت تعرف الامير غارين . ولا احد غيرهم . بقى هناك جاران او ثلاثة ، ولكنهم لا شيء على الاطلاق . اما أن تراهم يتبخترون ، اذ لهم ادعاءات طويلة عريضة ، واما أن ينزوون ، او يتوقحون ، في غير ما مناسبة . وانا لا أرى سيدات من المنطقة ، كما تعرف . وهناك جار آخر ، يقال انه مثقف جدا ، بل وعالم ، ولكنه غريب الأطوار بشكل فظيع ، من فرسان الأحلام . و Alexandrine تعرفه ، واظنها ليست بدون اكتراث له . . . حبذا لو تهتم بها ، يا دميتري نيقولايتش ، انها مخلوقة حبيبة الى القلب ، ينبغي فقط ان تطوّر قليلا ، من كل بد ينبغي ان تطور !

قال رودين :

– انها لطيفة جدا .

– طفلة تماما ، يا دميتري نيقولايتش ، طفلة حقا . كانت متزوجة ، mais c'est tout comme. *** ولو كنت رجلا لما احببت غير مثل هؤلاء النساء .

* ما بيننا ، انها ليست عميقة جدا (بالفرنسية في الاصل) .

** شخص معتبر جدا (بالفرنسية في الاصل) .

*** ولكن ليس لذلك اهمية (بالفرنسية في الاصل) .

– معقول ؟
– بالتأكيد . مثل هؤلاء النساء نضرات على اقل تقديـــر ، والنضارة لا يمكن ان تُصنَع .
– والتصنّع ممكن في كل الاشياء الأخرى ؟
سأل رودين ، وضحك ، وهذا نادرا جدا ما كان يحدث لـه . وحين كان يضحك كان وجهه يكتسب تعبيرا غريبا يقرب مـــن الشيخوخة ، وعيناه تنكمشان ، وأنفه يتغضن . . .
وسأل :
– ومن ذلك الغريب الاطوار الذي تقولين ان السيدة ليبينا ليست بدون اكتراث له ؟
– شخص من اهل الريف هنا يدعى ميخايلو ميخايليتشـــ ليجنيف .
ظهرت الدهشة على رودين ، ورفع راسه ، وسأل :
– ليجنيف . ميخايلو ميخايليتش ؟ هل هو جارك ؟
– نعم ، وهل تعرفه ؟
صمت رودين .
– كنت اعرفه من قبل . . . من زمان – واضاف ، وهو يتلمس بيده مخمل المقعد – يبدو لي انه رجل ثري ؟
– نعم ، ثري ، ولو انه يهمل لباسه بشكل فظيع ، ويركـب عربة خفيفة ، مثل وكيل اعمال . وددت ان اقرّبه مني ، يقال انـه ذكي ، ولي شغل معه . . . فهل تعرف انني ادير ضيعتي بنفسي ؟
احنى رودين رأسه . وتابعت داريا ميخايلوفنا تقول :
– نعم ، بنفسي . لن استخدم اي حماقات اجنبية ، بل اعتمد على ما هو روسي ، وها انت ترى ان لاامور ماشية بشكل لا بأس به .
اضافت ذلك ، وادارت ذراعها فيما حولها .
قال رودين بأدب :
– كنت موقنا دائما بالظلم الصارخ الذي يرتكبه اولئك الناس الذين ينكرون على النساء فكرهن العملي .
ابتسمت داريا ميخايلوفنا بارتياح ، وقالت :
– انت سَمِح جدا . ولكن ، اوه ، ماذا كنت اريد ان اقول ؟ عم كنا نتحدث ؟ نعم ، عن ليجنيف . لي شغل معه في رسم حدود

الارض . دعوته عدة مرات ليزورني ، وحتى اليوم انا في انتظاره ، ولكنه لا يأتي ، والله يعلم السبب . . . انه غريب الاطوار بهذا الشكل !
انزاحت الستارة امام الباب بتؤدة ، ودخل رئيس الخدم ، وهو رجل طويل اشيب اصلع في سترة فراك سوداء وربطة عنق بيضاء ، وصدار أبيض .
سألته داريا ميخايلوفنا :
– ماذا وراءك ؟ – والتفتت الى رودين قليلا ، واضافت بصوت خافض – * N'est-ce pas, comme il ressemble à Canning? (١٧)
اعلن رئيس الخدم :
– وصل ميخايلو ميخايليتش ليجنيف . فهل تأمرين باستقباله ؟
هتفت داريا ميخايلوفنا :
– اوه ، يا الهي ! مَنْ تذكره تجده ، ليتفضل !
خرج رئيس الخدم .
– انظر الى غرابة اطواره ، وصل اخيرا ، وليس في الوقـت المناسب . قطع حديثنا .
نهض رودين من مكانه ، الا ان داريا ميخايلوفنا ابقته .
– الى اين ؟ يمكن ان نتحـــدث بحضورك ايضا . بودي لو تشخصه مثلما شخصت بيغاسوف . عندما تتكلم vous gravez comme avec un burin ** ابق في مكانك .
اراد رودين ان يقول شيئا ، ولكنه فكر قليلا ، وبقي .
دخل غرفة المكتب ميخايلو ميخايليتش الذي تعرف عليه القارئ من قبل . كان يرتدي نفس المعطف الرمادي ، ويحمل في يديــه الملوحتين نفس القبعة القديمة . انحنى لداريا ميخايلوفنا بهدوء ، وتقدم من مائدة الشاي .
قالت داريا ميخايلوفنا :
– واخيرا ، تكرمت بالمجيء ، مسيو ليجنيف ! تفضل اجلس . انتما متعارفان ، كما سمعت .
تابعت قولها ، وهي تشير الى رودين .

---

* يشبه كانينغ حقا ؟ (بالفرنسية في الاصل) .
** كأنك تنحت بازميل (بالفرنسية في الاصل) .

رمق ليجنيف رودين بنظرة ، وابتسم ابتسامة لاحت غريبة . وقال بانحناءة صغيرة :

– انا اعرف السيد رودين .

فذكر رودين بصوت خافض :

– كنا في الجامعة سوية .

وخفض بصره . فقال ليجنيف ببرود :

– والتقينا بعدها ايضا .

نظرت داريا ميخايلوفنا الى كليهما بشيء من الدهشة ، ورجت ليجنيف ان يجلس . فجلس .

وشرع يقول :

– هل رغبت في ان تريني بشأن رسم الحدود ؟

– نعم ، بشأن رسم الحدود . ولكن وددت لو اراك عموما . فنحن جاران قريبان ، ولنا رابطة قربى .

قال ليجنيف :

– انا شاكر لك جدا . اما بخصوص رسم الحدود ، فانا ومدير اعمالك انتهينا منه تماما . انا موافق على كل اقتراحاته .

– كنت اعرف ذلك .

– سوى انه قال لا يجوز التوقيع على الوثيقة بدون لقائي معك شخصيا .

– نعم ، هذا ما جريت عليه . بالمناسبة ، اسمح لي ان أسأل : هل ان كل فلاحيك يعملون باللزمة ؟

– بالضبط .

– وانت بنفسك تنشغل برسم الحدود ؟ هذا شيء يستحق الثناء .

صمت ليجنيف ، ثم قال :

– وها انا قد حضرت للالتقاء بك شخصيا .

ضحكت داريا ميخايلوفنا ضحكة ساخرة .

– ارى انك قد حضرت . انت تقول ذلك بهذه اللهجة . . . يبدو انك اكرهت نفسك كثيرا على ان تقصدني .

ردّ ليجنيف بفتور :

– انا لا اقصد اي مكان .

– اي مكان ؟ ولكنك تقصد الكسندرا بافلوفنا ؟

– اعرف اخاها منذ زمان .

– اخاها ! على العموم انا لا الزم احدا . . . ولكن اعذرني ، يا ميخايلو ميخايليتش ، انا اكبر منك سنا ، واستطيع ان اجور عليك قليلا : ما الذي يحدو بك الى ان تعيش منعزلا ؟ أم ان بيتي لا يعجبك ؟ وانا لا اعجبك ؟

– انا لا اعرفك ، داريا ميخايلوفنا ، ولهذا من غير الممكن الا تعجبيني . بيتك رائع ، ولكنني اعترف لك بصراحة انني لا احب ان اضيق على نفسي . ليست لي بدلة فراك معتبرة ، ولاقفازات ، ثم انني لا انتمي الى وسطكم .

– انت تنتمي الينا بالولادة وبالتربية ، ميخائيلو ميخايليتش ! vous êtes des nôtres. *

– دعي الولادة والتربية جانبا ، داريا ميخايلوفنا ! ليست المسألة . . .

– يجب ان يعاشر المرء الناس ، ميخائيلو ميخايليتش ! ما هذا الهوس في القعود ، مثل ديوجينس في البرميل (١٨) ؟

– اولا كان ديوجينس يطيب له العيش كثيرا فيه ، وثانيا لماذا تعتقدين انني لا اعاشر الناس ؟

عضت داريا ميخايلوفنا شفتيها .

– هذا شيء آخر ! يتبقى لي فقط ان آسف على انني لم اتشرف في ان اكون في عداد من تعاشرهم .

تدخل رودين قائلا :

– يبدو ان مسيو ليجنيف يبالغ في الشعور المحمود جدا ، وهو حب الحرية .

لم يجب ليجنيف بشيء ، واكتفى بأن رمق رودين بنظرة . ورانت برهة صمت قصيرة . وقال ليجنيف ، وهو ينهض :

– اذن ، استطيع ان اعتبر قضيتنا منتهية ، واطلب من مدير اعمالك ان يرسل لي الاوراق .

– تستطيع . . . رغم انك ، واعترف بهذا ، لست لطيفا جدا . . . كان ينبغي ان امتنع عنك .

– ولكن رسم الحدود هذا انفع لك بكثير مما هو لي .

* انت من وسطنا (بالفرنسية في الاصل) .

هزت داريا ميخايلوفنا كتفيها . وسألت :

– لا تريد حتى ان تفطر على مائدتي ؟

– اشكرك جزيل الشكر . انا لا اتناول الفطور ابدا ، ثم انني استعجل الذهاب الى البيت .

نهضت داريا ميخايلوفنا ، وقالت ، وهي تقترب من النافذة :

– انا لا اعيقك ، ولا اجرؤ على اعاقتك .

اخذ ليجنيف ينحني مودعا .

– مع السلامة ، مسيو ليجنيف اعذرني على ازعاجك .

– لا شيء ، تفضلي .

قال ليجنيف ذلك ، وخرج .

سألت داريا ميخايلوفنا رودين :

– هل رأيت ؟ سمعت انه غريب الاطوار ، ولكنه فاق تماما !

قال رودين :

– انه يعاني من نفس العلة التي يعاني منها بيغاسوف – الرغبة في أن يكون متفردا . ذلك يمثّل ميفيستوبل ، وهذا يمثل كلبيا . وفي هذا كله الكثير من الانانية ، والكثير من حب الذات ، والقليل من الحقيقة ، القليل من الحب . وهذا ايضا تدبير من نوع خاص . فاذا ارتدى انسان ما قناع اللامبالاة والكسل ، فلربما سيقول الناس عنه : كم قتل هذا الانسان من مواهب في نفسه ! ولو تطلعوا اليه باهتمام اكبر ، لما وجدوا فيه اية مواهب .

قالت داريا ميخايلوفنا :

– Et de deux! * . أنت رجل رهيب في التشخيص . لا يمكن أن يختفي انسان عنك .

قال رودين :

– أتظنين ذلك ؟ . . – ثم اضاف – على اية حال ، في الحقيقة ما كان ينبغي عليّ ان اتحدث عن ليجنيف ، فقد كنت احبه ، احببته كصديق . . . ولكن فيما بعد ، ونتيجة مختلف انواع سوء التفاهم . . .

– تزاعلتما ؟

– لا ، ولكن افترقنا ، وافترقنا الى الابد ، على ما يبدو .

* وهذا هو الثاني (بالفرنسية في الاصل) .

– هذا ما لاحظته . طوال زيارته ، كنت وكأنك في غير وضعك الطبيعي . . . وعلى اية حال ، انا اشكرك عظيم الشكر على هذا الصباح . فقد قضيت وقتا ممتعا جدا . والآن كفى . ساطلقك حتى الفطور ، وسأذهب أنا لاداء اشغالي ، ربما سكرتيري في انتظاري الآن ، انت تعرفه – Constantin c'est lui qui est mon secrétaire, * اوصيك به . فهو شاب ممتاز خدوم ، ومفتون بك تماما . الى اللقاء ، cher ** دميتري نيقولايتش . كم انا ممتنة للبارون لأنه عرفني بك .

ومدّت داريا ميخايلوفنا يدها الى رودين . صافحها في البداية ، ثم رفعها الى شفتيه ، وخرج الى القاعة ، ومن القاعة الى الشرفة . وفي الشرفة التقى ناتاليا .

٥

ربما لم تكن ناتاليا الكسييفنا ابنة داريا ميخايلوفنا لتروق لأحد من الوهلة الأولى . فهي لم تلحق أن تنضج . كانت نحيلة سمراء ، تحني ظهرها قليلا . الا أن قسمات وجهها كانت جميلة ، وسليمة ، ولو أنها اكبر بكثير بالنسبة لفتاة في السابعة عشرة . وكان جميلا بشكل خاص جبينها الصافي السَبط فوق حاجبيها الدقيقين المشطورين في الوسط ، كما يبدوان . كانت قليلة الكلام ، تصغي وتنظر بانتباه ، وامعان تقريبا ، وكأنما كانت تريد ان تنفذ الى كل شيء . وكثيرا ما تقف بلا حراك ، مسبلة الذراعين ، مستغرقة في تفكير ، وعند ذاك كان يرتسم على وجهها جهد الافكار من الداخل . . . وفجأة تظهر على شفتيها ابتسامة لا تكاد تلحظ ، وتختفي . وترفع عينيها الداكنتين الوسيعتين بهدوء . . . تسألها m-lle Boncourt «Qu'avez-vous ? »*** وتشرع بالنعي عليها قائلة انه لا يليق بآنسة شابة أن تستغرق ، ويلوح عليها شرود

* قسطنطين هو سكرتيري (بالفرنسية في الاصل) .
** العزيز (بالفرنسية في الاصل) .
*** ماذا بك ؟ (بالفرنسية في الاصل) .

الذهن . ولكن ناتاليا لم تكن شاردة الذهن ، بل على العكس ، كانت تدرس بإجتهاد ، وتقرأ وتعمل عن طيب خاطر . وكانت مشاعرها عميقة وقوية ، ولكنها مكتومة ، وكانت تبكي حتى في طفولتها نادرا جدا . اما الآن فحتى ارسال الحسرات نادرا ما تقوم به ، بل تشحب فقط ، حين يغمها شيء . وكانت امها تعتبرها فتاة حسنة السلوك ، راجحة العقل ، وتسميها مزاحا : * mon honnête homme de fille ولكن لم يكن لها راي رفيع جدا في قابلياتها العقلية . كانت تقول : «من حسن الحظ ان ابنتي ناتاشا باردة ، ولا تشبهني . . . وهذا افضل . ستكون سعيدة» . وكانت داريا ميخايلوفنا مخطئة ، وعلى العموم نادرة هي الأم التي تفهم ابنتها .

كانت ناتاليا تحب أمها داريا ميخايلوفنا ، ولا تثق بها تمام الوثوق .

ذات مرة قالت داريا ميخايلوفنا لها :

— ليس لك ما تخفينه عني والا فلعلك تتكتمين . انت ، على اية حال ، من ذوات الافكار الخفية .

نظرت ناتاليا في وجه امها ، وفكرت في سرها : «لماذا لا اكون ذات الافكار الخفية ؟»

حين التقاها رودين على الشرفة دخلت هي و m-lle Boncourt الحجرة لترتدي قبعتها ، وتخرج الى الحديقة . وكانت دروسها الصباحية قد انتهت . لم تعد ناتاليا تعامل كفتاة صغيرة ، وقد كفت m-lle Boncourt منذ زمان عن اعطائها دروسا في الميثولوجيا والجغرافية . ولكن كان على ناتاليا ان تقرأ كل صباح امامها كتبا في التاريخ والسياحة ومؤلفات أخرى تثقيفية . وكانت داريا ميخايلوفنا تختارها لها ، وكأنها تراعي نظامها الخاص بها . بينما في واقع الحال كانت تقتصر على ان تقدم لها كل ما يرسله لها بائع كتب فرنسي من بطرسبورغ ، ما عدا روايات دوماس الابن وشركائه (١٩) . وكانت داريا ميخايلوفنا نفسها تقرأ هذه الروايات . كانت m-lle Boncourt تنظر من خلال نظارتها بصرامة شديدة وتذمر ، حين كانت ناتاليا تقرأ الكتب التاريخية ، فان التاريخ ، حسب مفاهيم هذه الفرنسية العجوز ، مملوء باشياء غير

* ابنتي صبي شريف (بالفرنسية في الاصل) .

مسموح بها ، رغم أنها نفسها كانت لسبب ما لا تعرف من عظماء التاريخ القديم غير قمبيز ، ومن الازمنة الحديثة غير لويس الرابع عشر (٢٠) ، ونابليون الذي لم تكن تطيقه . ولكن ناتاليا كانت تطالع ايضا كتبا لم يراود m-lle Boncourt شك في انها موجودة . فقد كانت تحفظ بوشكين كله عن ظهر قلب .

احمرّت ناتاليا قليلا حين التقت برودين . سألها :

— اذاهبة للتنزه ؟

— نعم ، نحن خارجتان الى الحديقة .

— وهل ممكن ان اذهب معكما ؟

نظرت ناتاليا الى m-lle Boncourt ، فاسرعت هذه الآنسة العانس لتقول :

— * Mais certainement, monsieur, avec plaisir

تناول رودين قبعته ، وخرج معهما .

في البداية كانت ناتاليا تجد حراجة في السير جنب رودين على درب واحد ، ثم خفّ عليها الأمر قليلا . اخذ يسألها عن دراستها ، وعن رأيها في القرية . وكانت اجوبتها لاتخلو من تهيب ، ولكن بدون ذلك الانكماش العجول الذي غالبا ما يعتبر خجلا . وكان قلبها يخفق بشدة .

سأل رودين ، وهو يحدجها بنظرة جانبية :

— الاتستوحشين في القرية ؟

— وكيف يمكن ان استوحش في القرية . انا مسرورة جدا في وجودنا هنا ، وسعيدة جدا .

— انت سعيدة . . . هذه كلمة عظيمة . وعلى اية حال ذلك مفهوم ، فانت شابة .

لفظ رودين الكلمة الاخيرة بشيء من الغرابة . فكأنه يحسد ناتاليا ، أو يرثي لها . اضاف :

— نعم ! الشباب ! غاية العلم كلها هي التوصل عن وعي الى ان الشباب يوهب بلا مقابل .

كانت ناتاليا تمعن النظر في رودين . اذ لم تفهمه . تابع يقول :

* بالتاكيد ، يا سيدي ، مع السرور (بالفرنسية في الاصل) .



– قضيت صباح اليوم كله في التحدث مع والدتك . انها امرأة فريدة . أنا افهم لماذا كان شعراؤنا جميعا يعتزون بصداقتها – ثم اضاف بعد صمت قصير – وانت ، هل تحبين الشعر ؟

فكرت ناتاليا مع نفسها : «انه يمتحنني» ، وقالت :

– نعم ، احبه كثيرا .

– الشعر لغة الآلهة . أنا ايضا احب الشعر ، ولكن الشعـــر ليس في القصائد وحدها . انه يتدفق في كل مكان ، انه حولنا . . . تمعني في هذه الاشجار ، في هذه السماء . الجمال والحياة يعبقان في كل مكان . واينما كان الجمال والحياة كان الشعر ايضا .

ومضى يقول :

– لنجلس هنا ، على هذه المسطبة . نعم ، هكذا . لا ادري لماذا يبدو لي اننا حين تألفينني (ونظر الى وجهها مبتسما) ستكون صديقين . ما رأيك ؟

وعادت ناتاليا تفكر مع نفسها : «انه يعاملني كفتاة صغيرة» ، وسألته ، وهي لا تعرف بماذا ترد عليه : هل ينوي البقاء في القرية طويلا .

– الصيف كله ، والخريف ، وربما الشتاء . لست غنيا كما تعرفين . اعمالي انهارت ، ثم انني ضجرت من التنقل من مكان الى آخر . حان اوان الراحة .

اندهشت ناتاليا ، وسألت بتهيب :

– هل معقول انك ترى أن اوان راحتك قد حان ؟

ادار رودين وجهه الى ناتاليا :

– ماذا تريدين أن تقولي بهذا ؟

قالت في شيء من الارتباك :

– اريد ان اقول ان الآخرين يمكن ان يستريحـــوا ، أما أنت . . . فعليك أن تكدح ، وتجاهد لان تكون نافعا . . . ومن غيرك اذا لم تكن أنت . . .

قاطعها رودين :

– شكرا على رأيك المُطري . . . من السهل القول أن اكون نافعا ! (ومرر يده على وجهه) : ان اكون نافعا ! – اضاف ذلك – حتى وان كانت لدي قناعة صلبة : كيف استطيع ان اكون نافعا –

حتى ولو كنت مؤمنـــا بقواي – أين اجد القلوب الصادقـــة المتعاطفة ؟ . .

وهزّ رودين ذراعه بيأس شديد ، واطرق راسه بحزن ظاهر حتى أن ناتاليا سالت نفسها بشكل لاارادي : كفى ، ترى هل ان الاقوال المتحمسة المفعمة بالآمل التي سمعتها مساء امس اقواله ؟

وفجاة هز ناصية شعره الشبيهة بلبدة اسد ، واضاف :

– ليس الأمر كذلك ، على العموم . هراء هذا ، وانت على حق . اشكرك ، ناتاليا الكسييفنا ، اشكرك باخلاص . (لم تعرف ناتاليا اطلاقا على اي شيء يشكرها .) كلمتك وحدها ذكرتني بواجبي ، ودلتني على طريقي . . . نعم ، يجب أن اعمل واؤثر . لا ينبغي ان اخفي موهبتي ، اذا كانت لي موهبة ، ولا ينبغي ان أبدد قواي على الكلام فقط ، على الكلام الفارغ عديم النفع ، على الكلمات فقط . . .

وبدأت كلماته تتدفق كنهر . تحدث بروعة وحرارة واقناع عن عار خمول النفس والكسل ، وعن ضرورة القيام بعمل . وأمطر نفسه بالملامات ، وكان يثبت ان الضرر الذي يسببه المرء حين يطرح مسبقا ما يريد ان يفعله مثل الضرر الذي يسببه حين يوخز ثمرة مترعة بدبوس فيؤدي ذلك الى تبديد القوى والعصـــارات لا غير . واكد ان اية فكرة نبيلة لا بد أن تجد لها تعاطفا ، وان هؤلاء الذين ما يزالون لا يعرفون ما يريدون ، والذين لا يستحقون ان يفهمهم الناس ، هم وحدهم يظلون غير مفهومين . تحدث طويلا ، وختم كلامه بان شكر ناتاليا الكسييفنا مرة أخرى ، وضغط على يدها بمفاجاة تامة ، ولفظ : «انت مخلوقة رائعة نبيلة !»

اذهل رفع الكلفة هذا m-lle Boncourt التي كانت رغم اقامتها في روسيا اربعين عاما تفهم اللغة الروسية بصعوبة ، ولاتفتـــأ تندهش من سرعة الكلام وسلاسته على لسان رودين . وعلى كل حال فقد كان ، في نظرهـــا ، بارعا بشيء ما ، على ما يبدو ، أو ممثلا ، ومن المستحيل مطالبة مثل هؤلاء الناس بالحشمة ، حسب مفاهيمها .

نهضت ، وعدّلت ثوبها بحركة متنرفزة ، واعلنت لناتاليا ان أوان العودة الى البيت قد حان لا سيمـــا أن monsieur Volinsoff (كانت تسمي فولينتسيف بهذا الشكل) اراد أن يحضر عند الفطور .

– وها هو قادم !



اضافت ، بعد ان القت نظرة الى احد الطرقات المعرشة المؤدية الى البيت .

وبالفعل لاح شخص فولينتسيف غير بعيد .

تقدم بخطوات مترددة ، وحيّا الجميع من بعيد ، وخاطب ناتاليا، وعلى وجهه مسحة مرض .

— آه ! تتنزهون ؟

ردت ناتاليا :

— نعم . ونحن في طريقنا الى البيت الآن .

لفظ فولينتسيف :

— اها ! فلنذهب اذن .

واتجه الجميع الى البيت .

— كيف صحة اختك ؟

وجه رودين هذا السؤال الى فولينتسيف بصوت بادى الرقة . وكان في اليوم البارح جم اللطف معه ايضا .

— شكرا جزيلا . انها بخير . وربما ستأتي اليوم . . . يبدو انكم كنتم تتناقشون في شيء ، عندما اقبلت .

— نعم جرى حديث بين ناتاليا الكسييفنا ، وبيني . قالت لي كلمة اثرت فيّ تأثيرا قويا . . .

ولم يسأل فولينتسيف عن هذه الكلمة ، وعاد الجميع الى بيت داريا ميخايلوفنا مستغرقين بصمت عميق .

انعقد الصالون مرة اخرى قبيل الغداء . الا أن بيغاسوف لم يحضر . ولم يكن رودين متحمسا لدخول نقاش . ظل طوال الوقت يدفع بانداليفسكي لعزف موسيقى بيتهوفن . واعتصم فولينتسيف بالصمت ، واطرق ببصره الى الارض . ولازمت ناتاليا أمها مستغرقة الفكر تارة ، منشغلــــة في تطريزها تارة اخرى . ولم يصرف باسيستوف بصره عن رودين ، منتظرا طيلة الوقت أن يقول شيئا ذكيا . ومضت حوالى ثلاث ساعات على هذا المنوال الكئيب . لم تأت الكساندرا بافلوفنا الى الغداء ، اما فولينتسيف ، فما ان نهضوا

من وراء المائدة ، حتى طلب اعداد عربته ، وانسل دون أن يودع احدا .

كان يشعر بضيق في النفس . فقد احب ناتاليا منذ زمن بعيد ، وظل طوال الوقت يتهيأ لخطب يدها . . . وكانت تميل اليه ، الا ان قلبها اضحى مطمئنا ، وقد راى ذلك بوضوح . وهو لم يكن يأمل في ان يثير فيها شعورا أرق ، ولم ينتظر الا تلك اللحظة التي تألفه فيها كليا ، وتقترب منه . فمـــا الذي كان من الممكن ان يقلقه ؟ وما هو التغير الذي لحظه في هذين اليومين ؟ فان ناتاليا كانت تعامله كما كانت تعامله من قبل . . .

فهل تسرب الى ذهنه انه ، وربما ، لا يعرف ناتاليا البتـــة ، وانها غريبة عليه اكثر مما كان يظن ، وهل استيقظت الغيرة في صدره ، وتوجس شيئا منحوسا . . . ولكنه كان يتعذب فقط ، مهما طمأن نفسه .

عندما دخل على اخته ، كان ليجنيف جالسا معها .

سألته الكسندرا بافلوفنا :

— لماذا عدت في هذه الساعة المبكرة ؟

— هكذا . استوحشت .

— ورودين هناك ؟

— نعم .

القى فولينتسيف قبعته ، وجلس .

توجهت الكسندرا بافلوفنا اليه بحيوية :

— سيرغي ، ارجوك ، ساعدني في اقنــــاع هذا الرجل العنود (واشارت الى ليجنيف) بأن رودين رجل ذكي بشكل غير اعتيادي وبليغ .

حمحم فولينتسيف بشيء ما . وشرع ليجنيف يقول :

— ولكنني لا اجادلك في ذلك . انا لا اشك في ذكاء السيـــد رودين وبلاغته ، غير اني اقول فقط انه لا يعجبني .

سأل فولينتسيف :

— وهل رأيته ؟

— نعم ، رأيته اليوم عند داريا ميخايلوفنا . فهو الآن وزير كبير عندها . سيمضي وقت وتفترق عنه ايضا . انها لن تفتـــرق عن بانداليفسكي فقط ، ولكن السيادة له الآن . نعم ، رأيته ،

وكيف لا ! كان جالسا معها ، واشارت الي له ، وكأنها تقول : انظر اليه ، يا ابتي ، اي غرباء اطوار عندنا . وانا لست حصانا اصيلا ، ولم اتعود على الانقياد . فلملمت نفسي ، وخرجت .

— ولكن لماذا كنت عندها ؟

— حول رسم الحدود ، ولكن ذلك هراء . مجرد أنها كانت تريد ان ترى سحنتي . سيدة ، هذا واضح !

قالت الكسندرا بافلوفنا بحرارة :

— تفوقه يجعلك تحس بالاهانة ، هذا بالذات ما لا تستطيع ان تسامحه عليه . انا واثقة من ان قلبه ايضا ممتاز ، لابد ، وليس عقله فقط . انظر الى عينيه ، حين . . .

فبادر ليجنيف يقول :

— «يتحدث عن النزاهة السامية» (٢١) . . .

— انت تغضبني ، فانا ابكي . انا آسفة من كل قلبي على انني لم اذهب الى داريا ميخايلوفنا ، وبقيت معك . انت لا تستحق ذلك . كفاك اغاضة لي — اضافت بصوت شاك — الافضل ان تحدثني عن شبابه .

— عن شباب رودين ؟

— نعم . فقد قلت لي انك تعرفه جيدا ، وانتما متعارفان منذ زمان .

نهض ليجنيف ، وتمشى في الغرفة . وانشأ يقول :

— نعم ، انا اعرفه جيدا . تريدين ان احدثك عن شبابه ؟ تفضلي . ولد في ت . . . من ابوين من اصحاب الاراضي الفقراء . توفي ابوه سريعا ، وبقي مع امه . كانت امراة غاية في الطيبة ، تحبه حبا جما . كانت تقتات على دقيق الشوفان فقط ، وتنفق عليه جميع ما عندها من نقود . تلقى تعليمه في موسكو ، في البداية على نفقة عم ما ، وبعد ذلك ، حين كبُر وتضلّع ، على حساب امير غني تواطأ معه . . . طيب ، ارجو المعذرة . . . صادقة . ثم دخل الجامعة ، وفيها عرفته ، وصاحبته عن قرب شديد . سأحدثك عن حياتنا في ذلك الحين ، ولكن فيما بعد ، لا استطيع الآن . وبعد ذلك سافر الى الخارج . . .

ظل ليجنيف يذرع الغرفة ، وكانت الكسندرا بافلوفنا تتابعه ببصرها . ومضى ليجنيف يقول :

— من الخارج كان رودين لا يراسل امه إلا نُدرة ، ولم يزرها إلا مرة واحدة ، ولعشرة أيام . . . وتوفيت العجوز بغيابه ، بين أيدي غريبة ، ولكنها لم تصرف بصرها عن صورته حتى وفاتها . كنت ازورها ، حين كنت اعيش في ت . . . كانت امراة طيبة ، ومضيافة جدا ، كانت تضيّفني دائما على مربى الكرز . كانت مغرمة بابنها ميتيا * الى حد الذهول . ان السادة من مدرسة بيتشورين (٢٢) سيقولون لك اننا نحب دائما الذين هم أنفسهم قليلو القدرة على الحب . بينما يبدو لي أن الامهات جميعا يحببن اولادهن ، لا سيما الغائبين منهم . وبعد ذلك التقيت رودين في الخارج . وقد تعلقت به هناك سيدة من جاليتنا الروسية ، وهي إمراة فاقدة الانوثة ، ناذرة نفسها للعلوم ، تخطت سن الشباب ، ولم تكن جميلة ، تماما ككل اللواتي يماثلنها . ظل منشغلا بها زمنا طويلا ، واخيرا نبذها . . . أو ، لا . . . سهوت ، وارجو المعذرة ، هي التي نبذته . وعندئذ نبذته انا ايضا ، وهذا كل ما في الأمر .

صمت ليجنيف ، ومرّر يده على جبينه ، وانهدّ على المقعد كالمتعب .

قالت الكسندرا بافلوفنا :

— هل تعرف ، يا ميخايلو ميخايليتش ، أرى انك رجل حقود ، حقا لست افضل من بيغاسوف . أنا واثقة من أن كل ما قلته صحيح ، وانك لم تلفق شيئا ، ومع ذلك فقد عرضت كل هذا من خلال روح غير ودية ! تلك العجوز المسكينة ، وتفانيها ، وموتها وحيدة ، وتلك السيدة . . . لم كل هذا ؟ اتعرف ان تصوير حياة افضل انسان بمثل هذه الالوان ، وبدون اضافة اي شيء ، يمكن ان يدخل الرعب في كل قلب ! وهذا ايضا نوع معين من الافتراء !

نهض ليجنيف ، وعاد يذرع الغرفة مرة اخرى . ثم تكلم اخيرا :

— لم أرد قط أن ارعبك ، يا الكسندرا بافلوفنا . لست مفتريا . وعلى العموم — اضاف ذلك ، بعد صمت قصير — بالفعل هناك نصيب من الحقيقة فيما قلته . انا لم افتر على رودين ،

---

* صيغة التحبب من دميتري **المعرب** .

ولكن – من يدري ! – ربما استطاع ان يتغير خلال فترة افتراقنا ، ربما كنت غير محق معه .

– اها ! صحيح كلامي اذن . اعدني بأن تستأنف تعارفك معه ، واعرفه جيدا ، وبعدئذ اخبرني برأيك النهائي فيه .

– طيب . . . ولكن لماذا انت صامت ، يا سيرغي بافليتش ؟

جفل فولينتسيف ، ورفع رأسه ، وكأنما اوقظ من غفوة .

– وماذا عليّ ان اقول ؟ انا لا اعرفه . وفضلا عن ذلك اعاني اليوم من صداع .

قالت الكسندرا بافلوفنا ملاحظة :

– بالضبط ، انت اليوم ممتقع الوجه . هل تشكو من توعك ؟

كرر فولينتسيف :

– عندي صداع .

وخرج .

شيعته الكسندرا بافلوفنا وليجنيف ببصريهما ، وتبادلا النظرات ، ولكن لم يقل احدهما للآخر شيئا . فالذي كان يعتمل في قلب فولينتسيف لم يكن سرا ، لاليجنيف ، ولالها .

٦

انقضى اكثر من شهرين ، خلال هذه الفترة كلها لم يكد رودين يبارح داريا ميخايلوفنا . وما كانت هي لتستغني عنه . فقد صارت بحاجة مستديمة إلى أن تحدثه عن نفسها ، وتستمع الى افكاره . ذات مرة اراد ان يغادر بحجة أن نقوده كلها قد نفدت . فاعطته خمسمائة روبل . كما استدان من فولينتسيف حوالي مائتي روبل . وصارت زيارات بيغاسوف لداريا ميخايلوفنا اقل بكثير من ذي قبل . فقد كان رودين يضيّق عليه بحضوره . وعلى العموم لم يكن بيغاسوف وحده يعاني من هذا التضييق .

كان يقول :

– انا لا احب هذا اللوذعي . يتكلم بشكل غير طبيعي ، تماما كشخصية من قصة روسية . يقول : «انا» ، ومن التأثر يتوقف . . . «انا ، يعني ، انا . . .» طوال الوقت يستخدم كلمات

طويلة . واذا عطست فسيثبت لك في الحال لماذا عطست بالذات ، ولم تسعل . . . ويمتدحك ، وكأنما يمنحك ترقية . . . ويبدأ بلوم نفسه ، ويلطخها بالوحل ، فتتصور أنه لن يستطيع ان يواجه الناس بعد الآن . لا ، مطلقا ! بل تراه منشرحا ، وكأنما قد ضيّف نفسه على قدح من الفودكا المرة .

وكان بانداليفسكي يخاف من رودين ، ويرعاه على حذر . وكان فولينتسيف على علاقة غريبة معه . كان رودين يسميه الفارس ، ويشيد به في حضوره وغيابه ، ولكن فولينتسيف لم يقدر ان يحبه ، فيحس بنفاد صبر لا ارادي وضيق ، كلما شرع رودين في حضوره بتعداد مناقبه . وكان يفكر مع نفسه : «العله يسخر مني ؟» ويضطرب قلبه في صدره كراهية . جاهد فولينتسيف أن يتغلب على نفسه ، ولكنه كان يغار منه على ناتاليا ، ثم ان رودين نفسه لا يكاد يميل اليه ، رغم انه كان يحييه دائما بصخب ، ويسميه الفارس ، ويستدين منه النقود . وكان من العسير ان يحدد بالضبط ما كان يحس به هذان الرجلان ، حين ينظر احدهما بعيني الآخر ، عندما تضغط يد على يد في مصافحة . . .

وبقي باسيستوف يُجِلُّ رودين ، ويلتقط كل كلمة منه . وكان رودين قلّما يعيره التفاتا . ذات مرة قضى معه صباحا بكامله ، وتحدث معه عن اهم القضايا والمهمات العالمية ، وأثار فيه بالغ الاعجاب ، ولكنه نبذه في آخر الأمر . . . والظاهر انه بالاقوال فقط كان يبحث عن الاشخاص النزيهين الاوفياء . اما ليجنيف الذي اخذ يتردد على داريا ميخايلوفنا ، فلم يدخل رودين حتى في نقاش معه ، وكان يبدو وكأنما يتحاشاه . وليجنيف ايضا كان يعامله ببرود ، وعلى اية حال ، لم يكن يبدي رأيه النهائي فيه ، مما اربك الكسندرا بافلوفنا كثيرا . فقد كانت تجل رودين ، وتثق بليجنيف ايضا . وكان الجميع في بيت داريا ميخايلوفنا يستجيبون لنزوات رودين . وينفذون حتى اصغر رغباته . وكان نظام الاهتمامات اليومية تتوقف عليه . وما من * partie de plaisir تجري بدونه . وعلى العموم لم يكن كثير الشغف باية سفرة مفاجئة ولهو ، فكان يشترك فيها مثلما يشترك الراشدون في العاب

* نزهة ترفيه (بالفرنسية في الاصل) .

الاطفال ، بلفتة رقيقة ضجرة . وإلا انه كان يتدخل في كل شيء : يتكلم مع داريا ميخايلوفنا عن الاجراءات بشأن الضيعة ، عن تربية الاطفال ، عن الشؤون الاقتصادية ، وعن الاعمال عموما . وكان يستمع الى فرضياتها ، ولا يستثقل حتى الصغائر ، ويقترح اعادة التنظيم واستخداما جديدا . وكانت داريا ميخايلوفنا تبدي اعجابها ولكن بالكلام فقط . فقد كانت تراعي في الشؤون الاقتصادية نصائح مدير اعمالها ، وهو رجل اوكراني كهل ذو عين واحدة ، طيب القلب ، ومحتال ماكر . كان يقول : «القديم بدين ، والحديث نحيل» وهو يرسل ضحكة تهكم مقتضبة ، ويرمش بعينه الوحيدة .

وكانت ناتاليا تاتي في الترتيب الثاني بعد داريا ميخايلوفنا في طول الوقت الذي يصرفه رودين في التحدث معها ، وكثرة المرات ايضا . كان يقدم لها الكتب سرا ، ويسر لها بمشاريعه ، ويقرأ لها الصفحات الأولى من مقالات ومؤلفات كان ينوي ان يكتبها . وغالبا ما تتعسر على ناتاليا فكرة هذه المقالات والمؤلفات . وعلى اية حال لم يكن رودين يهتم كثيرا في ان تفهمها ، بل ان تصغي له فقط . ولم يكن تقربه من ناتاليا ليروق داريا ميخايلوفنا تماما . فكانت تقول لنفسها : «طيب ، لتثرثر معه في القرية . فهي تسليه كفتاة ، وليس من ضرر كبير ، وعلى اية حال فهي تزداد ذكاء . . . وفي بطرسبورغ ساغير كل ذلك . . .»

وكانت داريا ميخايلوفنا على خطأ . فلم تكن ناتاليا تتحدث مع رودين كفتاة ، بل كانت ترتشف اقواله بظمأ ، وتسعى الى ان تنفذ الى معانيها ، وتعرض على حكمه افكارها ، وشكوكها ، فقد كان مرشدها ، قائدها . والآن ، رأسها وحده هو الذي كان يغلي . . . ولكن الرأس الفتي لا يظل وقتا طويلا يغلي وحده . واية لحظات حلوة تذوقتها ناتاليا حين كان رودين يقرأ لها على المسطبة في الحديقة تحت ظل شجرة الدردار الخفيف المرقّط «فاوست» لغوته ، وهوفمان ، او «رسائل» بيتينا ، او نوفاليس (٢٣) ، متوقفا دائما ، وشارحا ما كان غامضا عليها ! كانت تتكلم الالمانية بشكل رديء ، مثل جميع آنساتنا تقريبا ، ولكنها كانت تفهمها جيدا ، وكان رودين منغمرا بكليته في الشعر الالماني ، والعالم الرومانسي والفلسفي الالماني ، فكان يجذبها وراءه الى تلك الاقطار المحرّمة . فتتكشف امام بصرها اليقظ مبهمة

رائعة . وكانت الصور العجيبة ، والافكار الجديدة الوضاءة تنهمر من صفحات الكتاب الذي كان رودين يمسكه بيده لتنسكب دفقات رقراقة في روحها ، في قلبها المهزوز بالفرح النبيل للاحاسيس العظيمة ، وتنقدح شرارة الغبطة المقدسة ، وتضطرم . . .

ذات مرة بادرته قائلة ، وهي جالسة عند النافذة ، وراء طرة التطريز :

— خبرني ، دميتري نيقولايتش ، هل ستسافر في الشتاء الى بطرسبورغ ؟

كان رودين يتصفح كتابه ، فانزله الى ركبتيه ، واجاب : — لا ادري . اذا دبّرت نقودا ، فسأسافر .

كان يتكلم بفتور ، فقد كان يشعر بالتعب ، ولا يمارس شيئا منذ الصباح .

— يبدو لي ، كيف لا تستطيع ان تدبر النقود ؟

هزّ رودين رأسه :

— هذا ما يبدو لك !

ونحّى بصره بدلالة .

همّت ناتاليا أن تقول شيئا ، واحجمت .

— انظري — قال واشار لها بيده الى النافذة — انت ترين شجرة التفاح تلك . انها تهدلت من ثقل ثمارها وكثرتها . شعار العبقرية الاكيد . . .

قالت ناتاليا :

— تهدّلت لانه لم يكن لها سَنَد .

— انا افهمك ، ناتاليا الكسييفنا ، ولكن ليس من السهل على الانسان أن يجده ، يجد هذا السَنَد .

— يبدو لي تعاطف الآخرين . . . وعلى كل حال ، الوحدة . . .

تلعثمت ناتاليا قليلا ، واحمرت . ثم سارعت تضيف :

— وماذا ستفعل في القرية شتاء ؟

— ماذا سافعل ؟ انهي مقالتي الكبيرة ، انت تعرفينها ، عن المأساوي في الحياة وفي الفن . حدثتك اول أمس عن خطتها ، وسأرسلها لك .

— وستنشرها ؟

— لا .

– كيف لا ؟ فلمَنْ تكدح اذن ؟
– لك ، على الأقل .
غضّت ناتاليا بصرها .
– هذا ليس في حدود طاقتي ، دميتري نيقولايتش !
كان باسيستوف جالسا على مبعدة ، فسأل بتواضع :
– هل تسمح ان اسأل : عم هذه المقالة ؟
كرر رودين :
– عن المأساوي في الحياة والفن . سيقرأها السيد باسيستوف ايضا . على العموم ، لم اهيمن بعد على الفكرة الاساسية . انا لحد الآن لم اوضح لنفسي بشكل كاف المعنى المأساوي للحب .
كان رودين يتحدث عن الحب بشغف وفي احيـــان كثيرة . في بادئ الأمر كانت m-lle Boncourt ، عند ذكر كلمة الحب ، تجفل ، وتشرع اذنيها ، مثل فرس فوج سمعت صوت البوق ، ثم تعودت ، فكانت احيانا تكتفي بزم شفتيها ، وتشم التبغ بين الفينة والفينة .
قالت ناتاليا بتهيب :
– يبدو لي ان المعنى المأساوي للحب هو الحب الفاشل .
رد رودين :
– لا ، على الاطلاق ! هو بالأحرى الجانب الكوميدي للحب . . . يجب طرح هذه المسألة بشكل مختلف تماما . . . يجب استيعابها على نحو اعمق . . . – وتابع يقول – الحب ! كل السر كامن في الحب : كيف يحصل ، كيف يتطور ، وكيف يتلاشى . مرة يظهـــر فجأة حقيقيا بهيجا كالنهار ، ومرة يتأرث وقتا طويلا كالجمر تحت الرماد ، ويطلع لهبا في النفس ، حين يكون كل شيء قد تحطم ، ومرة يتسلل الى القلب كالافعى ، ومرة ينسل منه فجأة ويغيب . . . نعم ، نعم ، هذه مسألة مهمة . ثم مَنْ يحب في زماننا ؟ مَنْ يجرؤ على الحب ؟
واستغرق رودين في تفكير . وسأل فجأة :
– لماذا لا يأتي سيرغي بافليتش منذ زمان ؟
توهجت ناتاليا ، وانكبت على طرة التطريز ، وهمست .
– لا ادري .
– يا له من انسان رائع ونبيل ! – قال رودين ذلك وهو ينهض – انه واحد من افضل نماذج الاشراف الروس الاصيلين . .

نظرت m-lle Boncourt اليه من خلال عينيهـــا الفرنسيتين الصغيرتين .
وراح رودين يذرع الحجرة .
قال وهو يستدير على كعبيه بحدة :
– هل لاحظت ان الاوراق القديمة على شجرة البلوط – وشجرة البلوط قوية – لا تسقط الا حين تبدأ الاوراق الجديدة بالظهور ؟
قالت ناتاليا ببطء :
– نعم ، لاحظت .
– وهذا بالضبط ما يحصل ايضا للحب القديم في قلب قوي . انه قد انطفأ ، ولكن يظل في مكانه صامدا ، ولا يقدر على ازاحته الا حب آخر جديد .
لم ترد ناتاليا بشيء .
وفكرت مع نفسها : «ما يعني هذا ؟»
وقف رودين قليلا ، ودفع شعر رأسه ، وانصرف .
وذهبت ناتاليا الى غرفتها . وظلت جالسة على سريرها وقتا طويلا في حيرة من امرها ، واطالت التفكير في كلمـــات رودين الاخيرة . وفجأة عصرت يديهـــا ، وانفجرت تبكي بمرارة . ولكن الله يعلم عم كانت تبكي ! وهي نفسها لم تكن تعرف لم فاضت دموعها فجأة . مسحتها ، ولكنها كانت تسيل من جديد ، مثل الماء من ينبوع طافح .

في ذلك اليوم ذاته كان الحديث عن رودين يجري كذلك بين الكسندرا بافلوفنا وليجنيف . في البداية كان ليجنيف طوال الوقت يعتصم بالصمت ، الا ان الكسندرا بافلوفنا عزمت ان تستوضح رأيه . قالت له :
– ارى ان دميتري نيقولايتش ما يزال لا يعجبك . أنا لحد الآن تقصدت ان لا اسألك ، ولكنك الآن لحقت ان تتيقن فيما اذا كان قد حدث تغير فيه ، وأنا اود ان اعرف لماذا لا يعجبك .
رد ليجنيف بفتوره المعهود :
– تفضلي ، اذا كان صبرك قد نفد بهذا الشكل ، فقط إياك أن تغضبي . . .

– طيب ، إبدأ ، إبدأ .
– واتركيني اتم كلامي الى النهاية .
– تفضل ، تفضل ، ابدأ .
– اذن – شرع ليجنيف يقول ، وهو يهبط على الاريكة ببطء .
– اخبرك ان رودين لا يعجبني بالفعل . انه رجل ذكي . . .
– لم يبق الا ان تنكر هذا ايضا !
– انه رجل ذكي بشكل مدهش ، رغم انه في حقيقة الأمر فارغ . . .
– من السهل قول ذلك !
كرر ليجنيف :
– رغم انه في حقيقة الأمر فارغ ، ولكن ليس ذلك طامة كبرى . فنحن جميعا فارغون . بل ولا اتهمه بانه مستبد في قرارة نفسه ، كسول ، وغير واسع الاطلاع . . .
ضربت الكسندرا بافلوفنا كفا بكف ، وهتفت :
– غير واسع الاطلاع ! رودين !
– غير واسع الاطلاع – كرر ليجنيف بنفس الصوت – ويحب العيش على حساب الآخرين ، ويُمثل ، وغير ذلك . . . وكل ذلك طبيعي ، ولكن السيئ انه بارد كالثلج .
قاطعته الكسندرا بافلوفنا :
– هو ، تلك النفس الملتهبة ، بارد !
– نعم ، بارد كالثلج وهو يعرف ذلك ويتظاهر بانه ملتهب – ومضى ليجنيف يقول متحمسا شيئا فشيئا – والسيئ انه يلعب لعبة خطيرة ، وخطيرة ليست عليه ، بالطبع ، فهولا يضع في اللعبة كوبيكا واحدا ، ولا شعرة واحدة . بينما الآخرون يضعون ارواحهم . . .
قالت الكسندرا بافلوفنا :
– عمن ، عم تتحدث ؟ انا لا افهمك .
– السيئ انه غير نزيه . انه ذكي ويجب ان يعرف قيمة كلماته ، بينما يطلقها ، وكأنها تكلفه شيئا ما . . . لا جدال في انه بليغ ، سوى ان بلاغته ليست روسية . نعم ، واخيرا ، جميل الكلام يُعذر للشاب ، ولكن من العيب في سنه هذه أن يلهو بصخب اقواله ، من العيب أن يتصنع !

– يبدو لي ، يا ميخايلو ميخايليتش ، أن المستمع لايهمه هل تتصنع ام لا . . .
– اعذريني ، يا الكسندرا بافلوفنا ، بل يهمه . شخص يقول لي كلمة فينفذ بها الى نفسي كلها ، وشخص آخر يقول نفس الكلمة ، وحتى اجمل منها ، فلا أعير له اذنا . فمن اي شيء هذا ؟
قاطعته الكسندرا بافلوفنا :
– يعني **انت** لا تعيره اذنا .
قال ليجنيف :
– نعم ، لا اعيره ، رغم ان لي اذنين كبيرتين ، ربما . وجوهر الأمر ان كلمات رودين تظل كلمات ، ولن تصير فعلا ابدا ، بينما قد تثير هذه الكلمات بالذات قلبا فتيا ، وقد تهلكه .
– ولكن عمن تتحدث ، يا ميخايلو ميخايليتش ؟
توقف ليجنيف .
– اتحبين ان تعرفي عمن اتحدث ؟ عن ناتاليا الكسييفنا .
ولبرهة اضطربت الكسندرا بافلوفنا ، إلا أنها أرسلت في الحال ضحكة هازئة مقتضبة . وقالت :
– رحماك ، ان لك افكارا غريبة دائما . ما تزال ناتاليا طفلة ، ثم ، اخيرا ، لو كان هناك شيء ، فهل من المعقول ان تتصور ان داريا ميخايلوفنا . . .
– داريا ميخايلوفنا ، اولا ، انانية ، وتعيش لنفسها ، وثانيا انها واثقة بقدرتها على تربية الاطفال الى حد ان القلق عليهم لا يخطر ببالها . المعاذ ! كيف يمكن هذا ! ايماءة واحدة ، نظرة مهيبة واحدة، ويسير كل شيء على ما يرام . هكذا تفكر تلك السيدة التي تعتبر نفسها راعية ادب وفن ، وثاقبة الذهن ، وما الى ذلك من الصفات الأخرى التي لا يعرفها الا الله ، بينما هي ، في واقع الأمر ، ليست الا عجوزا من الذوات . اما ناتاليا فليست طفلة ، وثقي بانها تدرك اكثر واعمق مني ومنك . ومن المؤسف ان تعثر هذه النفس النقية العاطفية الحامية على مثل هذا الممثل ، على هذا الغَنج ! ولكن ، هذه من طبيعة الاشياء ايضا .
– غنج ! إنه هو الذي تسميه بالغنج ؟
– بالطبع ، هو . . . طيب ، خبريني انت اي دور يلعبه في بيت داريا ميخايلوفنا ؟ ان يكون صنما في البيت ، ناطقا بحكمة

الدهور ، يتدخل في الأمر والنهي ، في القيل والقال في العائلـة ، في صغائر الأمور . وهل يليق ذلك بالرجل ؟

نظرت الكسندرا بافلوفنا في وجه ليجنيف بانذهال ، وقالت :

– انا لا اعرفك ، يا ميخايلو ميخايليتش . احمررت ، وانفعلت . لا بدّ ان شيئا آخر يختفي وراء ذلك . . .

– نعم ، هكذا دائما ! انت تقول شيئا فعليا للمرأة ، تقوله بموجب قناعتك . ولكنها لن تهدأ حتى لا تخترع سببا خارجيا صغيرا يجعلك تتحدث بهذا الشكل ، وليس بشكل آخر .

انتاب الكسندرا بافلوفنا الغضب .

– مرحى ، مسيو ليجنيف ! ها قد اخذت تتعقب النساء لا اسوأ من السيد بيغاسوف ، ولكن لك ان تقول ما تشاء ، الا انه مهمـا تكن ثاقب الذكاء فمن الصعب ان تقنعني ، بانك خلال هذه الفترة القصيرة من الوقت استطعت ان تفهم الجميع وكل شيء . يبدو لي انك على خطأ . فانت ترى رودين طرطوف من نوع ما (٢٤) .

– بل ولا يصل الى طرطوف . فان طرطوف ، على الاقل ، كان يعرف ما كان يبتغي ، بينما هذا ، رغم كل عقله . . .

– ماذا ، ماذا هو ؟ اكمل كلامك ، انت غير منصف ، رجـل مقزز !

نهض ليجنيف . وشرع يقول :

– اسمعي ، يا الكسندرا بافلوفنا ! انت غير منصفة ، ولست انا . انت تتضايقين مني على انتقاداتي الحادة لرودين . ولي الحق في ان اتحدث عنه بحدة ! ولعلي لم اشتر هذا الحق بثمن بخس . انا اعرفه جيدا ، وقد عايشته وقتـا طويلا . انت تذكرين انني وعدتك بان احدثك يوما ما عن حياتنا في موسكو . والظاهر سيتعيّن عليّ ان افعل ذلك الآن . ولكن هل سيتيسّر لـك الصبر لتصغي اليّ ؟

– تحدث ، تحدث !

– طيب ، تفضلي .

وشرع ليجنيف يذرع الغرفة بخطى بطيئة ، متوقفا من حين لآخر ، دافعا رأسه الى الاسفل . وانشأ يتحدث .

– لعلك تعرفين او ربمـا لا تعرفين انني تيتمت في وقت

مبكر ، وفي السابعة عشرة لم يكن لي راس عائلة . عشت في بيت عمتي في موسكو ، وكنت افعل ما كنت اريده . كنت صبيا فارغا بما فيه الكفاية ، ومحبا لذاتي ، احب التعالي والتبجح . وبعد دخولي الجامعـة كنت اتصرف كتلميذ ، وسرعان ما حصلت لي قصة لن احدثك بها ، لا تستحق الحديث عنها . كنت اكذب ، واكذب بشكل مقرف جدا . . . فكشفوا عن سري ، وفضحوني ، واخجلوني . . . فأُسقط في يدي ، وانفجرت باكيا كالطفل . وقد حدث ذلك في شقة احد معارفي ، وبحضور الكثيرين من رفاقي . واخذ الجميع يضحكون مني ، الجميع باستثناء طالب ، كان – ولاحظي ذلك – اكثرهـم حنقا عليّ حتى كففت عن عنادي ، واعترفت بكذبي . وربما أَسِفَ عليّ ، فتأبط ذراعي ، وقادني الى غرفته .

سألت الكسندرا بافلوفنا :

– اكان هذا رودين ؟

– لا ، لم يكن رودين . . . كان انسانا . . . وهو الآن قد مات . . . كان انسانا غير اعتيادي يدعى بوكورسكي . وليس في قدرتي ان اصفه بكلمات قليلـة . واذا بدأت الحديث عنه ، فلا احب التحدث عن شخص آخر . كان نفسـا سامية نقية ، لم التق بعده بمثل رجاحة عقلـه . كان بوكورسكي يسكن حجرة صغيرة واطئة في عُلية بيت خشبي قديم . كان فقيرا جدا ، يقيم اوده ، على نحو ما ، باعطاء الدروس . وكان احيانا لا يستطيع ان يضيّف زائره على قدح شاي . واريكته الوحيدة قد تقوضت ، حتى صارت تشبه القارب . ولكن رغم كل رثاثة حجرته كان ياتي اليه اناس كثيرون . كان الجميع يحبونه ، كان يجذب اليه الافئدة . انت لا تصدقينني حين اقول كـم كان الجلوس في حجرته البائسة ملذا ومبهجا ! وعنده تعرفت برودين . وكان آنذاك قد قطع صداقته مع اميره .

سألت الكسندرا بافلوفنا :

– ماذا كان يميّز بوكورسكي هذا ؟

– ماذا اقول لك ؟ الشعر والحقيقة هما ما كانا يجذبان الجميع اليه . وهو بالاضافة الى عقله الواضح الواسع كان حبيبا الى القلب ، مسليا كالطفل . وما تزال ترن في اذني ضحكتـه الوضاءة وهو في الوقت ذاته :

كان يتوهج مثل سراج منتصف الليل
امام قدس الخير . . .

على حد تعبير شاعر نصف مجنون ورقيق للغاية في حلقتنا (٢٥)
وسألت الكسندرا بافلوفنا من جديد :

– وكيف كان يتكلم ؟

– كان يتكلم بشكل جيد ، حين يكون رائق المزاج ، ولكن ليس بشكل مذهل . ورودين حتى في ذلك الحين كان افصح منه بعشرين مرة .

توقف ليجنيف ، وصالب ذراعيه .

– لم يكن بوكورسكي ورودين يشبه احدهما الآخر . كان رودين يفوقه كثيرا باللمعان والضجيج ، واكثر منه عبارات ، واكثر حماسة ، على ما اظن . كان يبدو اكثر موهبة من بوكورسكي الى حد كبير ، ولكنه في واقع الحال كان بائسا بالمقارنة به . كان رودين يطوّر اية فكرة بشكل رائع ، ويجادل بمهارة ، ولكن افكاره لم تتولد في رأسه ، بل كان يأخذها من الآخرين ، لا سيما بوكورسكي . كان بوكورسكي في مظهره هادئا وناعما ، بل وضعيفا ، وكان يحب النساء الى حد الجنون ، ويحب مجالس الشرب ، ولا يسمح لأحد باهانته . وكان رودين يبدو مفعما بالتوقد والجراة والحياة ، بينما في روحه بارد ، ومتخوف تقريبا ، الى ان تجرح عزة نفسه ، فيتلظى غيظا . وكان يسعى ، بكل وسيلة ، الى ان يخضع الناس له ، يخضعهم باسم الاسس والافكار العامة ، وبالفعل كان يملك نفوذا قويا على الكثيرين . حقا ، لم يكن احد يحبه ، وربما انا وحدي كنت متعلقا به . كانوا يحملون نيره . . . بينما كان الجميع يستسلمون لبوكورسكي من تلقاء انفسهم . والى جانب ذلك كان رودين لا يرفض الكلام قط ، ويجادل عند اللقاء الأول . . . لم يطالع الكثير جدا من الكتب ، ولكن على اية حال اكثر بكثير من بوكورسكي ، واكثر منا جميعا ، وفضلا عن ذلك كان له ذهن منهجي ، وذاكرة هائلة ، وهذا بالضبط يؤثر في الشباب ! فالشباب بحاجة الى استدلالات ، ونتائج وان كانت غير صحيحة ، ولكنها نتائج على اية حال ! والانسان النقي الضمير كليا لا يصلح لذلك . حاولي ان تقولي للشباب انك لا تستطيعين أن تقدمي له الحقيقة الكاملة ، لأنك لا تملكينها . . . سيكف الشباب عن سماعك . كما

انك لا تستطيعين خداعه ايضا . يجب ان تكوني نفسك واثقة نصف وثوق على الاقل ، بانك تملكين الحقيقة . . . ونتيجة لذلك بالذات كان رودين يؤثر على شاكلتنا بتلك القوة . لقد قلت لك قبل حين انه لم يطالع كتبا كثيرة ، ولكنه كان يقرأ كتبا فلسفية ، وذهنه مبني على ان يستخرج في الحال مما قرأه كل ما هو عمومي ، ويمسك بجذر المسألة ، وفيما بعد يمدّ منه الى جميع الجوانب خيوط الفكرة الوضاءة الصحيحة ، ويكشف عن الافاق الروحية . كانت حلقتنا تتالف آنذاك ، واقولها باخلاص ، من صبيان ، ومن صبيان لم يكملوا تعليمهم . وكانت الفلسفة ، والفن ، والعلم ، والحياة نفسها ، بالنسبة لنا ، مجرد كلمات ، بل وربما مفاهيم مغرية رائعة ، ولكنها مشتتة ، مفككة . ولم نكن نعي العلاقة المشتركة لهذه المفاهيم ، القانون العام الشامل ، لم نكن نحسه ، ولو كنا نتحدث عنه بغموض ، ونجاهد لأن ندركه . . . وعندما استمعنا الى رودين ، بدا لنا ، لاول مرة ، اننا امسكنا ، اخيرا ، بتلك العلاقة المشتركة ، حتى انزاح الستار اخيرا ! ولنفرض انه كان يتحدث بما ليس منه فلاضير في ذلك ! ولكن نظاما منسقا تثبت في كل ما كنا نعرف ، وتوحد جميع ما كان مبعثرا حولنا ، وترتب ، وبرز امامنا كالمبنى ، وتنور كل شيء ، وانتعشت الروح في كل مكان . . . لا شيء ظل بلا معنى ، وعارضا : في كل شيء تجلت الضرورة المعقولة والجمال ، وكل شيء اكتسب دلالة واضحة وخفية في الوقت نفسه ، وصدحت كاللحن كل ظاهرة منفصلة من ظواهر الحياة ، واحسسنا بنوع من الرعب القدسي للاجلال ، وبارتعاشة قلب حلوة ، كأننا اوعية حية للحقيقة الخالدة ، وادواتها المدعوة الى شيء عظيم . . . اليس كل ذلك مضحكا لك ؟

قالت الكسندرا بافلوفنا ببطء :

– لا ، مطلقا . ولماذا تظن ذلك ؟ انا لا افهمك كل الفهم ، ولكن ذلك ليس مضحكا لي .

ومضى ليجنيف يقول :

– وبالطبع ، تسنى لنا ، بعد تلك الفترة ، ان نعقل بعض الشيء . وكل ذلك يمكن ان يبدو لنا طفوليا . . . ولكنني اكرر ، كنا آنذاك مدينين لرودين بالكثير . وكان بوكورسكي ارفع منه بما لا يقاس ، وبدون جدال . كان بوكورسكي يبث فينا جميعا النار

والقوة ، ولكنه احيانا كان يفتر ، ويصمت . كان رجلا عصبيا عليلا ، ولكن حين كان ينشر اجنحته ، كان يحلق عاليا عاليا ! في عمق العمق ، في لازوردية السماء ! بينما كان في رودين ، في هذا الشاب الوسيم الممشوق ، الكثير من التوافه ، بل كان ينشر الاقاويل ، ويغرم في التدخل في كل شيء ، يعين ويوضح كل شيء . ونشاطه المحموم لم يهدأ قط . . . خلق سياسي ! واذا اتحدث عنه كما كنت اعرفه آنذاك . ومن سوء الحظ انه لم يتغيّر . ولكنه لم يتغيّر في معتقداته ايضا . . . وعمره خمس وثلاثون سنة ! . . . وليس كل انسان بقادر ان يقول ذلك عن نفسه .

قالت الكسندرا بافلوفنا :

— اجلس ، فلماذا تروح وتجيء في الغرفة ، كالبندول ؟

ردّ ليجنيف :

— ذلك احسن لي . طيب ، لاخبرك ، يا الكسندرا بافلوفنا ، انني بعد انضمامي لحلقة بوكورسكي ، وُلدت من جديد تماما . خلدت الى السكينة ، ورحت اطرح الاسئلة ، واتعلم ، وافرح ، واجلّ ، وباختصار ، كنت كمَنْ دخل الى معبد . نعم ، هذا ما كان حقا ، وكم اتذكر اجتماعاتنا ، قسما بالله ، كم كان فيها من اشياء جيدة بل ومؤثرة . تصوري اجتماع خمسة او ستة صبيان ، على شمعة من الشحم تضيئ لهم ، ويقدم لهم الشاي الرخيص ومعه بقسماط كريه الطعم قديم للغاية ، وليتك نظرت الى وجوهنا جميعا ، واستمعت الى احاديثنا ! في عيني كل واحد نشوة فرح ، وفي وجنتيه توهج ، وفي قلبه وجيب ، ونحن نتحدث عن الله ، وعن الحقيقة ، وعن مستقبل الانسانية ، وعن الشعر ، ونتفوه احيانا هراء ، ونعجب بالسفاسف ، ولكن اي ضير في ذلك ! . . وبوكورسكي جالس ، وقد طوى ساقيه تحته ، واسند خده الشاحب على يده ، بينما عيناه تضيئان ساطعتين . ورودين واقف في وسط الحجرة ، وهو يتحدث ، يتحدث حلو الكلام ، تماما كديموستينس الشاب امام البحر الصاخب (٢٦) ، والشاعر المنفوش سوبوتين يصدر ، من حين لآخر ، آهات التعجب متقطعة ، وكأنه يحلم ، وشيللر ابن القس الارثذوكسي الالماني ، الطالب ابن الاربعين عاما ، الذي كنا نعتبره مفكرا متعمقا ، بسبب صمته الدائم الذي لا يعكره شيء يعتصم بصمت مهيب ، وشيتوف المرح نفسه ،

اريستوفانس * اجتماعاتنا ، يخلد الى الهدوء ، ولا تبدر منه غير ابتسامات قصيرة ساخرة ، ومستجدان او ثلاثة يصغون بتلذذ متهلل . . . والليل يسري بهدوء وسلاسة ، وكأنه محمول على اجنحة . ثم يلوح الصباح رماديا ، ونتفرق ، متأثرين ، مبتهجين ، انقياء ، صاحين (لم تكن للخمرة وجود بيننا آنذاك) وفي النفس تعب مُلذّ . . . اتذكر انني كنت اسير في الشوارع الخالية يغمرني الحنان ، وحتى الى النجوم كنت انظر واهبا لها ثقتي ، وكأنها صارت اقرب ، وايسر على الفهم . . ايه ! اي زمان مجيد كان ذاك ، حتى انني لا اريد أن اصدق بأنه ضاع جزافا ! ولكنه لم يضع جزافا ، لم يضع حتى بالنسبة لاولئك الذين شوهتهم الحياة فيما بعد . . . وكم من مرة صادف وان التقيت بهؤلاء الناس ، الرفاق السابقين ! ولكان الرجل منهم صار وحشا تماما ، ولكن ما ان يذكر اسم بوكورسكي بحضوره ، حتى تتململ كل بقايا المشاعر النبيلة فيه ، وكأنما رفعت السدادة عن قارورة عطر منسية في حجرة قذرة مظلمة . . .

سكت ليجنيف ، وتورّد وجهه الكالح .

قالت الكسندرا بافلوفنا ، وهي تنظر الى ليجنيف باندهاش :

— ولكن لأى شيء . . . متى تخاصمت مع رودين ؟

— لم اتخاصم معه ، بل افترقت عنه ، حين عرفته كليا في الخارج . ولكن حتى في موسكو كان في امكاني ان اتخاصم معه ، اذ حتى في ذلك الحين عمل معي فعلة سيئة .

— ما هي ؟

— هي كالآتي . . . انا . . . كيف يمكن ان اعبر عن ذلك ؟ . . ذلك لا يتناسب مع شخصي . . . ولكن كنت دائما مؤهلا جدا للوقوع في الحب .

— انت ؟

— انا ، وهذا شيء غريب ، أليس صحيحا ؟ ولكن هذا ما كان في الواقع . . . طيب ، كنت في ذلك الوقت مغرما جدا بفتاة كثيرة العذوبة . . . ولكن ، لماذا تنظرين اليّ بهذا الشكل ؟ في وسعي ان اخبرك عني بشيء اعجب من ذلك بكثير .

* كاتب مسرحيات كوميدية في اليونان القديمة ، وتورغينيف عكس في شخصية شيتوف بعض صفات احد اساتذته في صباه . **المعرب** .

– هل تفضلت واخبرتني ما هو هذا الشيء ؟

– على الأقل هذا . . . كنت في ذلك العهد في موسكو اخرج في الليالي الى لقاء غرامي . . . مع من في رايك ؟ مع شجرة زيزفون فتية في نهاية حديقتي . احتضن جذعها الدقيق الممشوق ، فاتصور انني احتضن الطبيعة كلها ، فيتسع قلبي ، ويرتعش ، وكان الطبيعة كلها تنصب فيه فعلا . . . بهذا الشكل كنت انا ! . . وليس هذا كله ! ربما تظنين انني لم اكن اكتب شعرا ؟ كتبت ، بل والّفت مسرحية درامية كاملة ، مقلّدا «مانفريد» (٢٧) . وكان من بين شخصياتها شبح على صدره دم ، ولكن ليس دمه ، ولاحظي ذلك ، بل دم الانسانية كلها . . . نعم ، نعم ، ولا حاجة للاستغراب . . . ولكن كنت قد بدات الكلام عن حبي . كنت قد تعرفت على فتاة . . .

سالت الكسندرا بافلوفنا :

– وتوقفت عن لقائك الغرامي مع شجرة الزيزفون ؟

– توقفت . وكانت هذه الفتاة مخلوقا في غاية اللطف والصباحة ، لها عينان مرحتان صافيتان ، وصوت صداح .

فقالت الكسندرا بافلوفنا بابتسامة تهكم مقتضبة :

– انت حسن الوصف .

فرد ليجنيف قائلا :

– وانت ناقدة شديدة الصرامة . طيب ، كانت هذه الفتاة تعيش مع ابيها العجوز . . . على اية حال ، لن استرسل في التفاصيل . وكل ما اقوله لك ان تلك الفتاة كانت في غاية اللطف حقا . اذا طلبت نصف قدح شاي صبت لك ثلاثة ارباع قدح ، بالتاكيد ! . . وبعد ثلاثة ايام من لقائي الاول معها كنت اضطرم حبا ، وفي اليوم السابع لم احتمل ، واعترفت بكل شيء لرودين . والعاشق الشاب لابد ان يبوح بذات صدره ، فاعترفت لرودين بكل شيء . وكنت ، آنذاك ، تحت تاثيره التام ، وكان هذا التاثير ، واقولها بكل صراحة ، نافعا في اشياء كثيرة . انه اول من لم يستنكف مني ، وهذبني . كنت احب بوكورسكي كثيرا ، واحس بشيء من الخوف ازاء نقائه الروحي ، اما رودين فكنت اقرب اليه . وعندما عرف بحبي ابتهج بشكل لا يوصف ، وهنأني ، وعانقني ، وطفق على الفور يقنعني ، ويشرح كل اهمية وضعي الجديد . فاعطيت

له اذنا صاغية . . . وانت تعرفين كيف يجيد الكلام . اثرت كلماته فيّ تاثيرا كبيرا . فانتابني احترام منذهل مفاجئ نحو نفسي ، والتزمت مظهر الجد ، ولم اعد اضحك . بل اتذكر انني اخذت اسير باحتراس اشد ، وكأن في صدري وعاء مملوءا بسائل ثمين كنت اخاف ان يتناثر رشاشه . . . كنت سعيدا جدا ، لا سيما وانا موضع ود واضح . رغب رودين بأن يتعرف على فتاتي ، كما انني كدت اصر على ان اقدمه لها .

قاطعته الكسندرا بافلوفنا قائلة :

– طيب ، طيب ، الآن وَضُح الامر لي . انتزع رودين منك فتاتك ، وانت حتى الآن لا تستطيع ان تغفر له . . . انا اراهن على انني صائبة فيما ذهبت اليه .

– ستخسرين رهانك ، يا الكسندرا بافلوفنا ، انت مخطئة . لم ينتزع رودين فتاتي مني ، كما لم يرد ان ينتزعها ، ومع ذلك فقد حطم هنائي ، ورغم انني ، بعد التفكير بهدوء اعصاب مستعد الآن الى ان اقول له شكرا على ذلك . ولكنني آنذاك كدت افقد اعصابي . لم يرد رودين قط ان يؤذيني ، بل على العكس ! ولكن بنتيجة عادته اللعينة في تدبيس كل حركة للحياة ، حياته وحياة الآخرين ، بكلمة مثلما تدبّس فراشة بدبوس ، اخذ يشرح لكلينا مَنْ نحن ، وما هي علاقاتنا ، وكيف يجب ان نتصرف ، وكان يجبرنا باستبداد على ان نتمعن في عواطفنا وافكارنا ، ويمتدحنا ، ويلومنا ، بل وصار يراسلنا ، فتصوري ! . . والخلاصة اضلّنا كلينا ! وما كان من المحقق ان اتزوج آنستي آنذاك (على قدر ما تبقى لديّ من الادراك السليم) ولكن ربما كنا سنقضي ، على اية حال ، بضعة شهور رغيدة ، مثل بول وفرجيني (٢٨) ، لو لم تحصل ضروب من سوء التفاهم ، ومختلف التوترات ، وبكلمة قصيرة لو لم تحصل سفاسف انتهت بأن رودين في احد الأيام اقتنع بانه ، كصديق ، يرى من واجبه المقدس ان يوضح للاب العجوز كل شيء ، وقد فعل ذلك .

هتفت الكسندرا بافلوفنا :

– امعقول ذلك ؟

– نعم ، ولاحظي انه فعل ذلك بموافقتي . وهذا الشيء الغريب ! وانا حتى الآن اتذكر اية فوضى كانت في راسي ، آنذاك .

كان كل شيء يدور تماما ويتقلب ، كما في الحجرة المظلمة * ، فكان الابيض يبدو اسود ، والاسود ابيض ، والكذب حقيقة ، والفنطازيا واجبا . . . ايه ! حتى الآن اشعر بالخجل حين اتذكر ذلك ! اما رودين فلم يكن يجزع . . . واين منه الجزع ! كان ينطلق وسط كل انواع الحيَر والملابسات ، مثل السنونو فوق بركة .

– وهكذا افترقت عن فتاتك ؟

سألت الكسندرا بافلوفنا ، وقد امالت راسها جانبا بسذاجة ورفعت حاجبيها .

– افترقت . . . وافترقت بشكل غير لطيف ، مهين ، ومحرج ، وعلانية ، بعلانية لا حاجة لها . . . بكيت ، وبكت هي ، والشيطان يعرف ماذا حصل . عقدة هوردي (٢٩) انعقدت لنا ، وكان يجب شقها ، وكان موجعا ! وعلى اية حال فكل شيء في العالم يسير نحو الاحسن . تزوجت من رجل طيب ، وهي في رَغَد الآن . . .

قالت الكسندرا بافلوفنا :

– اذن ، فانت تعرف ، على اية حال ، بانك ما كان في مستطاعك ان تسامح رودين . . .

قاطعها ليجنيف :

– بالعكس ! لقد بكيت كالطفل حين ودعته لدي سفره الى الخارج . الا انني اعترف بأن بذرة انزرعت في داخل روحي آنذاك . وحين التقيته في الخارج ، فيما بعد . . . طيب ، كنت قد كبرت . . . وتبدّى لي رودين على حقيقته . . .

– وماذا اكتشفت فيه ، بالضبط ؟

– كل ما حدثتك به خلال ساعة من الزمن . على العموم كفانا كلاما عنه . ربما سيسير كل شيء بخير . لم ارد سوى ان اثبت لك انني ، حين اقاضيه بصرامة فليس ذلك لانني لا اعرفه . . . اما بخصوص ناتاليا الكسييفنا ، فلن اضيع كلمات زائدة ، ولكن انتبهي الى اخيك .

---

* تسمية حرفية منقولة عن اللاتينية (camera obscura) وهي عبارة عن صندوق لا ينفذ اليه الضوء ، في ضلعه الامامي فتحة صغيرة تتشكل في الجانب المقابل منها صورة مقلوبة للاشياء . وقد اقيم في بناء آلات التصوير مبدأ الحجرة المظلمة . **المعرب** .

– الى اخي ! وماذا في الامر ؟

– ولكن انظري اليه . هل من المعقول أنك لا تلحظين شيئا ؟

غضّت الكسندرا بافلوفنا بصرها . ونطقت :

– انت محق ، بالضبط . . . اخي . . . منذ زمن وانا اراه قد تغير . . . ولكن هل معقول انك تظن . . .

همس ليجنيف :

– على مهلك ! اظنه قادما الى هنا . ثم صدقيني بان ناتاليا ليست طفلة ، رغم أنها ، لسوء الحظ ، بلاخبرة ، كالطفل . سترين ان هذه الفتاة ستدهشنا كلنا .

– باية صورة ؟

– بالصورة التالية . . . اتعرفين أن مثل هؤلاء الفتيات بالذات يقدمن على اغراق انفسهن ، وتناول السم ، وما الى ذلك ؟ لا تلتفتي الى هدوئها . فان عواطفها قوية ، وهواها مشبوب !

– يبدو لي أنك الآن تنحو نحو الشعر . وربما انا ايضا بركان لرجل بارد مثلك .

قال ليجنيف مبتسما :

– لا ، ابدا . ليس لك هوى اطلاقا ، والحمد لله .

– وما هذه الوقاحة ؟

– هذه ؟ اعظم اطراء ، ولامؤاخذة .

دخل فولينتسيف ، ونظر الى ليجنيف والى اخته بارتياب . وكان قد نحف في الاونة الاخيرة . شرع كلاهما يتحدث معه ، ولكنه كان يرد على نكاتهما بابتسامات لا تكاد ترى ، وبدا كالارنب الحزين ، على حد التعبير الذي اطلقه بيغاسوف عليه ذات مرة . وعلى اية حال ربما لم يكن في العالم بعد ، انسان لم يبد ، ولو لمرة في حياته ، اسوأ من ذلك . كان فولينتسيف يحس بان ناتاليا تنأى عنه ، ومعها ، كانت الارض ايضا تبدو وكأنها تجري من تحت قدميه .

٧

كان اليوم التالي يوم أحد . واستيقظت ناتاليا في ساعة متأخرة . يوم امس كانت صموتا جدا حتى المساء . كانت على استحياء من دموعها خفيةً ، ونامت نوما مزعجا جدا . جلست الى بيانوها الصغير ،

وهي لم تلبس ثيابهـا كاملة ، وراحت تارة تعزف نغمات لا تكاد تسمع ، خوفا من ان توقظ m-lle Boncourt ، وتارة تضع جبينها على مفاتيح البيانو الباردة ، وتظل جامدة وقتا طويلا . ظلت تفكر طول الوقت ، وليس في رودين ذاته ، بل في كلمة قالها ، وغرقت كليا في افكارها . واحيانا كان فولينتسيف يخطر على بالها ، وكانت تعرف انه يحبها . ولكن فكرهـا كان يطرحه في الحال . . . كانت تشعر بقلق غريب . في الصباح لبست ثيابها على عجل ، ونزلت الى الاسفل ، وسلّمت على امهـا ، وانتهزت فرصة سانحة ، وخرجت الى الحديقة لوحدها . . . كان نهارا حارا ، وضيئا ، متألقا وهاجـا رغم زخات المطر المتقطعة . وكانت سحب واطئة وكالدخان ، تسري منسابة في السماء الصافية ، دون ان تحجب الشمس ، ومن حين لآخر تنهمر على الحقل شآبيب غزيرة من وابل عاجل خاطف . وكانت قطرات كبيرة متلألئة تتناثر بسرعة ، وبصخب جاف ، كحجر الماس ، والشمس تمرح من خلال شبكتها المتواضعة ، والعشب الذي اثارته الريح قبل ، ينتصب بلاحراك ، ويرتشف الماء بعطش ، والاشجار المرتوية تحف باوراقها الصغيرة كلها بونى ، والطيور لا تكف عن الغناء ، يسر الاذن سماع زقزقتها السريعة عند هبوب نسمة طرية ، ودمدمة المطر النازل . وكانت الطرق المتربة داخنة ، تتبرقش قليلا تحت الضربات الحادة للرشاش المتسـارع . الا ان تلك السحابة قد انقشعت ، وهب نسيم ، واخذ العشب يتماوج زمردا وابريزا . . . وراحت اوراق الاشجـار تشعشـع ملتصقة واحدة بالأخرى . . . وارتفعت رائحة قوية من كل مكان . . .

عندما طلعت ناتاليا الى الحديقة ، كانت السماء قد صفت كليا تقريبا ، ونفحت طراوة وسكينة وديعة وهانئة ، هي تلك السكينة التي يتجاوب معها قلب الانسان بلوعـة حلوة ، لوعة التعاطف الخفي ، والرغبات المبهمة . . .

سارت ناتاليا في طريق معرش باشجار الحور الفضية ، على طول البركة ، وفجاة برز رودين امامها ، وكانه نبع من الأرض .

ارتبكت . نظر رودين في وجهها ، وسأل :

— هل انت وحدك ؟

اجابت ناتاليا :

— نعم ، وحدي . على العموم خرجت لدقيقة . . . والآن أعود الى البيت .

— سارافقك .

وسار الى جنبها . ونطق :

— كانك حزينة ؟

— انا ؟ بينما اردت ان اذكر لك انك أنت متعكر المزاج ، كما يبدو لي .

— ربما . . . هذا يحدث لي . وأنا معذور في هذا اكثر مما انت معذورة .

— لماذا ؟ هل تتصور ما من سبب يجعلني حزينة ؟

— في مثل عمرك يجب الاستمتاع بالحياة .

سارت ناتاليا عدة خطوات صامتة . وقالت بعدها :

— يا دميتري نيقولايتش !

— ها ؟

— انت تذكر . . . المقارنـة التي عقدتها يـوم أمس . . تذكر . . . المقارنة بشجرة البلوط .

— نعم ، اذكر . وما في ذلك ؟

اختلست ناتاليا نظرة الى رودين .

— لمَ . . . ماذا كنت تريد ان تقول بهذه المقارنة ؟

— ناتاليا الكسييفنا !

خاطبها بتلك اللهجة المتحفظة الدالة المجبول عليها ، والتي كانت تجعل سامعه دائما يظن ان رودين لا يفصح حتى عن عُشر ما يزخر في نفسه . وعاد يقول :

— ناتاليا الكسييفنا ! استطعت ان تلحظي انني قليل الكلام عن ماضيّ . وهناك بعض الاوتار لم أمسها قط . قلبي . . . مَنْ بحاجة الى ان يعرف ما كان يحصل فيه ؟ وكشفه كان يبدو لي دائما تدنيسا للحرمات . ولكنني معك صريح . فانت توحين لي بالثقة . . . لا استطيع ان اخفي عنك انني احببت وتعذبت كالجميع . . . متى وكيف ؟ لا داعي للحديث عن ذلك ، ولكن قلبي ذاق الكثير من المسرات والكثير من الاشجان . . .

وصمت رودين قليلا ، ثم تابع يقول :

— لعل ما قلته لك يـوم أمس ينطبق ، الى درجة ما ، عليّ

وعلى وضعي الراهن . ولكن لا داعي للحديث عن ذلك ايضا . ان هذا الجانب من الحياة قد انقضى بالنسبة لي . يبقى امامي الآن ان اجرجر نفسي على الطريق القائظة المتربة من محطة الى اخرى في عربة مخلخلة . . . والله يعلم متى ساصل وهل ساصل . . . الافضل لنتحدث عنك .

قاطعته ناتاليا قائلة :

— هل معقول ، يا دميتري نيقولايتش ، انك لا تنتظر شيئا من الحياة ؟

— اوه ، لا ! انتظر الكثير ، ولكن ليس لنفسي . . . انا لا امتنع ابدا عن النشاط ، عن هناءة النشاط ، ولكنني امتنعت عن الاستمتاع . لا علاقة بين آمالي ، احلامي وبين سعادتي الشخصية . . . والحب (وهزّ كتفيه على هذه الكلمة) . . . الحب ليس لي . . . انا لا استحقه . والمراة التي تحب تطلب ، وهي محقة في ذلك ، ان يكون الرجل كله لها ، بينما انا لا استطيع ان اتخلى عن نفسي كلها . ثم ان الاعجاب يخص الصبيان ، وانا عجوز جدا . فاين مني تدويخ رؤوس الآخرين ؟ ليساعدني الله على ان احفظ راسي على كتفي !

قالت ناتاليا :

— انا افهم ان مَنْ يسعى الى غاية عظيمة لا يجوز ان يفكر في نفسه . ولكن هل حق أن المراة غير قادرة على تقدير مثل هذا الانسان ؟ ارى العكس من ذلك ، المراة بالاحرى تنفر من الاناني . . . وجميع الشباب ، اولئك الصبيان ، كما تسميهم ، جميعهم انانيون ، وجميعهم لا يهمهم غير انفسهم ، حتى حين يحبون. صدقني ان المراة قادرة ليس فقط على فهم التضحية بالنفس ، بل وتستطيع هي ان تضحي بنفسها .

وتوردت وجنتا ناتاليا قليلا ، والتمعت عيناها . قبل تعرفها على رودين لم تلق قط كلاما طويلا كهذا ، ولا بمثل هذه الحماسة .

ردّ رودين وهو يبتسم ابتسامة متسامحة :

— لقد سمعت غير مرة رايي في رسالة المراة . وانت تعرفين ان جان دارك لوحدها استطاعت ، في اعتقادي ، انقاذ فرنسا . . . ولكن ليست هذه هي المسالة . اردت ان اتحدث عنك . انت ما تزالين على عتبة الحياة . . . ومناقشة مستقبلك شيء مبهج ولا

٥

يخلو من نفع . فاسمعيني : انت تعرفين انني صديقك ، واتعاطف معك تعاطف ذوي القربى تقريبا . . . ولهذا آمل الا تجدي سؤالي غير متواضع : قولي لي : هل أن قلبك ما يزال خاليا كليا لحد الآن ؟

توهجت ناتاليا تماما ، ولم تقل شيئا . توقف رودين وتوقفت هي . فسالها :

— الا تغضبين عليّ ؟

قالت :

— لا ، ولكن لم اكن اتوقع . . .

تابع يقول :

— على اية حال ، يمكنك الا تجيبي . فان سرك معروف لي .

نظرت ناتاليا اليه بما يشبه الهلع .

— نعم . . . نعم . انا اعرف مَنْ هو موضع اعجابك . ويجب ان اقول : ما كان في امكانك ان تقعي على احسن من هذا الاختيار . فهو رجل رائع ، وهو قادر على ان يقدرك التقدير اللائق ، وهو لم تفسده الحياة . بسيط وصاف في روحه . . . انه سيحقق سعادتك . . .

— عمن تتحدث ، يا دميتري نيقولايتش ؟

— كانك لا تفهمين عمن اتحدث ؟ عن فولينتسيف ، بالطبع ، ماذا ؟ اليس ذلك صحيحا ؟

صدّت ناتاليا عن رودين قليلا . وذُهلت ذهولا تاما .

— الا يحبك ؟ عفوك ! انه لا يصرف بصره عنك ، ويتابع كل حركة من حركاتك ، ثم اخيرا ، هل ممكن حقا ان يُخفى الحب ؟ وانت ايضا ، الا تميلين اليه ؟ وبقدر ما اسعفتني الملاحظة ان امك ايضا معجبة . . . بخيارك . . .

— دميتري نيقولايتش ! — قاطعته ناتاليا ، ومن ارتباكها مدت يدها الى اجمة قريبة منها — حقا انني اشعر بحراجة شديدة في التحدث عن ذلك ، ولكنني اؤكد لك . . . انك مخطئ .

كرر رودين :

— مخطئ ؟ لا اظن . . . انا لم اتعرف عليك الا قبل وقت قصير ، ولكنني الآن اعرفك جيدا . ما يعني هذا التغير الذي اراه

فيك ، واراه بوضوح ؟ ايعقل انك كما رايتك قبل ستة اسابيع ؟ لا ، يا ناتاليا الكسييفنا . قلبك ليس خاليا .

اجابت ناتاليا بصوت لايكاد يسمع :

– ربما . ولكنك مخطئ ، على اية حال .

سأل رودين :

– كيف هذا ؟

– اتركني ، ولا تسألني !

ردّت ناتاليا ، واتجهت الى البيت بخطى سريعة .

لقد وجدت نفسها مرعوبة من كل ما احسته في نفسها فجاة .

لحق رودين بها ، واوقفها . وقال :

– ناتاليا الكسييفنا ، لا يمكن ان ينتهي هذا الحديث بهذا الشكل ، فهو مهم جدا لي ايضا . . . كيف عليّ ان افهمك ؟

كررت ناتاليا قولها :

– اتركني .

– ناتاليا الكسييفنا ، بحق الرب !

وارتسم الانفعال على وجه رودين ، وعلاه الشحوب .

قالت ناتاليا :

– انت تفهم كل شيء ، ويجب ان تفهمني ايضا !

وانتزعت يدها منه ، وسارت دون ان تلتفت .

صاح رودين في اثرها :

– كلمة واحدة فقط !

توقفت ، ولكنها لم تلتفت .

– كنت قد سألتني : ما كنت اريد ان اقوله بمقارنتي يوم امس . اعلمي انني لا اريد خداعك . كنت اتحدث عن نفسي ، عن ماضيّ ، وعنك ايضا .

– كيف ؟ عني ؟

– نعم ، عنك ، واكرر انني لا اريد خداعك . . . والآن تعرفين عن اي عاطفة ، عن اي عاطفة جديدة كنت اتحدث عندئذ . . . وحتى هذا اليوم ما كان لي ان اجرؤ . . .

فجاة غطت ناتاليا وجهها بيديها ، وهرعت صوب البيت .

كانت ذاهلة اشد الذهول من تلك الخاتمة غير المتوقعة لحديثها مع رودين ، حتى انها لم تلحظ فولينتسيف ، وهي تمر به ، راكضة.

كان فولينتسيف واقفا بلاحراك ، متكئا بظهره الى شجرة . وكان قد وصل الى بيت داريا ميخايلوفنا قبل ربع ساعة ، ووجدها في غرفة الجلوس ، وتكلم بضع كلمات ، وانسل دون ان يُلحظ ، واتجه يبحث عن ناتاليا . اتجه الى الحديقة قدما مدفوعا بتلك الحاسة التي يتصف بها العشاق ، وعثر عليها وعلى رودين ، في تلك اللحظة التي انتزعت ناتاليا فيها يدها من رودين . غامت عينا فولينتسيف . شيّع ناتاليا ببصره ، وابعد ظهره عن الشجرة ، ومشى خطوتين ، غير عارف الى اين ولِمَ . رآه رودين ، وحاذاه . نظر كلاهما في عين صاحبه ، وانحنيا بالتحية ، وافترقا صامتين .

وفكر كلاهما : «لن ينتهي هذا بهذه الصورة» .

سار فولينتسيف الى نهاية الحديقة . كان يحس بالمرارة والقرف ، وبثقل الرصاص على قلبه ، ومن حين لآخر كان دمه يتصاعد غيظا . اخذ المطر ينث من جديد . عاد رودين الى حجرته . وهو ايضا لم يكن هادئ النفس . كانت الافكار تدور في داخله كالزوبعة . فان اي انسان قد يقلق منْ مس نفس شابة نزيهة ذلك المسّ المفاجئ الصريح .

خلال الغداء كان الجو غير طبيعي . كانت ناتاليا بادية الشحوب لا تكاد تستقر على مقعدها ، ولم تكن ترفع عينيها . وكان فولينتسيف ، على مألوف العادة ، جالسا الى جانبها ، ومن حين لآخر كان يتكلف مبادرتها الحديث . وصادف ان جاء بيغاسوف ليتناول طعام الغداء عند داريا ميخايلوفنا في ذلك اليوم . فكان اكثر الجميع كلاما حول المائدة . وبالمناسبة راح يثبت أن الناس ، كالكلاب ، يمكن تقسيمهم الى ذوي الذيول القصيرة ، وذوي الذيول الطويلة . ويقول : «هناك اناس ذوو ذيول قصيرة بالولادة ، او بتقصير منهم . وهؤلاء تسوء حالتهم ، فهم لا يوفقون ، اذ ليست لهم ثقة بالنفس . اما الذي له ذيل طويل ، كثيف الشعر فهو الحسن الحظ . وقد يكون اسوا واضعف من ذي الذيل القصير ، الا انه واثق من نفسه ، اذا نشر ذيله اعجب الجميع به . ولكن ما يثير الدهشة ان الذيل هو جزء من الجسم غير نافع بالمرة ، وانتم توافقونني على ذلك . فماذا يمكن ان ينفع الذيل ؟ بينما الجميع يحكمون على مناقبك بما لك من ذيل» .

واضاف بحسرة :

– انا من ذوي الذيول القصيرة ، والأنكد من كل شيء انني انا الذي قطعت ذيلي .

فقال رودين بتوان :

– يعني تريد ان تقول ما قاله لاروشفوكو ، وبالمناسبة منذ زمان طويل قبلك ، وهو : اذا كنت واثقا من نفسك وثق الآخرون بك (٣٠) . لا افهم لماذا ادخلت الذيل في الموضوع .

قال فولينتسيف بحدة وتوهجت عيناه :

– اسمح لكل انسان ان يعبر عن نفسه بالطريقة التي يرتئيها . يتكلمون عن الاستبداد . . . لا اظن ان هناك اسوأ من استبداد مَنْ يسمون بالاذكياء . اللعنة عليهم !

اذهلت الجميع فورة فولينتسيف ، وسكتوا جميعا . نظر رودين اليه ، ولكنه لم يتحمل نظرته ، فانصرف عنه ، وابتسم ولم يفتح فمه .

فكر بيغاسوف مع نفسه «اها ! وانت قصير الذيل ايضا !» وجمّد الذعر قلب ناتاليا . ونظرت داريا ميخايلوفنا طويلا الى فولينتسيف بحيرة ، واخيرا كانت هي اول من تكلم . بدأت تتحدث عن كلب عجيب لصديقها وزير نن . . .

غادر فولينتسيف بعد الغداء بوقت قصير . ولدى وداعه لناتاليا لم يتحمل ، وقال لها :

– لماذا انت مرتبكة بهذا الشكل ، وكأنك مذنبة ؟ لا يمكن ان تكوني مذنبة ازاء اي انسان ! . .

لم تفهم ناتاليا شيئا ، فشيعته ، بنظرتها لا غير . وقبيل شرب الشاي اقترب رودين منها ، وانحنى على المائدة ، وكأنه يجمع الجرائد ، وهمس :

– كل ذلك كالحلم ، اليس ذلك حقا ؟ بي حاجة ماسة الى ان اراك على انفراد . . . ولو لدقيقة – وتوجه الى m-lle Boncourt وقال لها – هذه هي المقالة الساخرة التي كنت تبحثين عنها – وانحنى ثانية على ناتاليا ، واضاف هامسا – حاولي ان تكوني نحو الساعة العاشرة قرب السطيحة في تعريشة الليلك . ساكون في انتظارك . . .

كان بيغاسوف بطلا في حفلة المساء . تخلى رودين له عن ساحة المعركة . اضحك داريا ميخايلوفنا كثيرا ، في البداية تحدث عن احد جيرانه الذي ظل خانعا لزوجته قرابة ثلاثين عاما ، حتى انه في

احدى المرات حين اراد ان يعبر بركة صغيرة ، بحضور بيغاسوف ، دفع ذراعه الى الوراء ، وازاح ذيل سترته الفراك الى جنب ، كما تفعل النساء بتنوراتهن . ثم عرّج بحديثه على مالك اراض آخر كان ماسونيا في البداية ، ثم سوداويا ، ثم رغب في ان يكون مصرفيا .

فساله بيغاسوف :

– كيف كنت ماسونيا ، يا فيليب ستيبانيتش ؟

– معروف كيف : كنت اطيل اظفر خنصري .

ولكن داريا ميخايلوفنا ضحكت على الاكثر ، حين أخذ بيغاسوف يناقش عن الحب ، ويؤكد ان النساء كن يتلهفن عليه ايضا ، وان المانية ملتهبة سمته حتى «الافريقي المشهى وصاحب الصوت الابح» .

ضحكت داريا ميخايلوفنا ، ولكن بيغاسوف لم يكن يكذب ، فقد كان له الحق فعلا بالتباهي بانتصاراته . وكان يؤكد بأنه لا اسهل من ان توقع في غرامك اية امراة ترتضيها . وما عليك الا ان تكرر عشرة ايام تباعا أن في شفتيها الجنة ، وفي عينيها ينبوع نعيم ، وأن سائر النساء ازاءها مجرد خِرقٍ ، وفي اليوم الحادي عشر ستقول هي نفسها ان في شفتيها الجنة ، وفي عينيها ينبوع نعيم ، وستقع في حبك . وكل شيء يحصل في هذه الدنيا . من يعرف ؟ ربما يكون بيغاسوف على حق .

وفي الساعة التاسعة والنصف كان رودين في التعريشة . كانت النجوم الصغيرة قد طلعت لتوها في قلب السماء البعيد الشاحب ، والمغرب ما يزال مضرّجا ، والقبة السماوية هناك تبدو اوضح واصفى . وكان الهلال يتلألأ ذهبيا من خلال الشبكة السوداء لشجرة بتولا دامعة . اما الاشجار الاخرى فقد كانت تقف كجبابرة متجهمة بالاف من طرر الشمس الشبيهة بالعيون ، او تندمج في كتل متماسكة كئيبة . واوراق الشجر ساكنة لاحراك لأية واحدة منها ، والغصون العليا لاشجار الليلك والاقاصيا تبدو وكأنها تتسمع الى شيء ، مشرئبة في الهواء الدافئ . والبيت يلوح داكنا عن كثب ترتسم عليه النوافذ الطويلة المضيئة بقعا من الضوء الضارب الى الحمرة . كان المساء وديعا ساجيا ، غير أن زفرة حرّى مكتومة كانت تبدو وكأنها تتغلغل في هذا السكون .

وقف رودين مصالبا ذراعيه على صدره ، يتسمع بانتباه رهيف . كان قلبه يخفق خفقانا شديدا ، فكان يحبس انفاسه بشكل لاارادي .

واخيرا بلغت سمعه خطوات خفيفة عجولة ، ودخلت ناتاليا التعريشة . اندفع رودين اليها ، وامسك يديها . كانتا باردتين كالجليد . بادرها يقول بهمس راعش :

— ناتاليا الكسييفنا ! اردت ان اراك . . . لم استطع الانتظار الى يوم غد . يجب ان اقول لك ما لم اكن قد حدسته ، لم اكن ادركه حتى صباح اليوم ، وهو انني احبك .

ارتعشت يدا ناتاليا في يديه قليلا . وعاد يكرر :

— انا احبك . كيف استطعت ان اخادع نفسي هذه المدة الطويلة ، وكيف لم افطن منذ زمان الى انني احبك ! . . وانت ؟ ناتاليا الكسييفنا ، قولي ، وانت ؟

انبهرت انفاس ناتاليا واخيرا قالت :

— ها انت ترى انني قد جئت الى هنا .

— لا ، بل قولي هل تحبينني ؟

همست :

— يبدو لي . . . نعم . . .

ضغط رودين على يديها اكثر ، واراد ان يضمها اليه . . . التفتت ناتاليا حولها بسرعة .

— اطلقني ، فانا خائفة . يخيل اليّ ان أحدا يتسمع الينا . . . من اجل الرب ، كن على حذر . ان فولينتسيف يحدس .

— لا تكترثي له ! انت رأيت انني لم ارد عليه اليوم . . . آه ، ناتاليا الكسييفنا ، كم أنا سعيد ! الآن لن يفرقنا شيء !

حدّقت ناتاليا في عينيه ، وهمست :

— اطلقني . عليّ ان اذهب .

بادرها رودين :

— لحظة واحدة . . .

— لا ، اطلقني ، اطلقني . . .

— كأنك تخافينني ؟

— لا ، بل حان وقت عودتي . . .

— اعيدي ذاك مرة اخرى ، على الاقل . . .

سألت ناتاليا :

— تقول انك سعيد ؟

— أنا ؟ ما من انسان في العالم اسعد مني ! هل معقول انك تشكين ؟

رفعت ناتاليا رأسها قليلا . جميلا كان وجهها الشاحب النبيل ، الفتي ، والمنفعل ، في ظل التعريشة الغامض ، وفي الضوء الباهت الساقط من السماء الليلية . قالت ناتاليا :

— اعلم اذن ، انني ساكون لك .

هتف رودين :

— يا الهي !

الا ان ناتاليا تنحت ، وانصرفت . وقف رودين قليلا ، ثم خرج من التعريشة ببطء . كان القمر ينير وجهه بوضوح ، وكانت الابتسامة تطوف على شفتيه . قال بصوت خافت :

— أنا سعيد ، نعم ، أنا سعيد .

كرر وكأنما يريد ان يقنع نفسه .

رفع قامته ، ودفع خصلات شعره ، وذهب ناشطا الى الحديقة ، هازا ذراعيه بمرح .

وخلال ذلك ازيحت اغصان الاجمة بهدوء في تعريشة الليلك ، وظهر بانداليفسكي . تلفت فيما حوله باحتراس ، وهزّ راسه ، زمّ شفتيه ، وقال بمغزى :

«هكذا اذن . يجب ان يصل هذا الى علم داريا ميخايلوفنا» . واختفى .

٨

عندما عاد فولينتسيف الى البيت رأته اخته بادي الحزن والجهامة ، يستكره الاجابة عن اسئلتها ، وسرعان ما اختلى في غرفته ، حتى انها عزمت ان تبعث رسولا ليدعو ليجنيف . وكانت تلجأ اليه في كل الاحوال الصعبة . اخبر ليجنيف الرسول بانه سيأتي في اليوم التالي .

وظل فولينتسيف على حالته في الصباح ايضا . اراد ان يخرج بعد الشاي ، الى اعماله ، الا انه بقي ، وانطرح على الاريكة ، واخذ يقرأ كتابا ،وهو أمر لم يكن يحصل له غالبا . لم يكن فولينتسيف ينجذب الى الادب ، أما الشعر فكان يخشاه تماما . وكان يقول :



«هذا غير مفهوم مثل الشعر» وتاكيدا لكلامه اورد الابيات التاليـة للشاعر آيبولات (٣١) .

وحتى نهاية أيام الحزن
لن تفتت الخبرة الشماء ولا الحصافة
زهيرات * الحياة المترعة بالنسغ

نظرت الكسندرا بافلوفنا الى اخيها بقلق ، ولكنها لم تضايقه بالاسئلة . وصلت عربة الى مدخل البيت ، ففكرت هي مع نفسهـا «آها ، ليجنيف وصل ، والحمد لله . . .» دخل الخادم يعلن وصول رودين .

رمى فولينتسيف الكتاب على الارض ، ورفع راسه . وسأل :

– مَنْ وصل ؟

كرر الخادم :

– رودين ، دميتري نيقولايتش .

نهض فولينتسيف . وقال :

– ليتفضل .

ثم توجه نحو الكسندرا بافلوفنا ، واضاف :

– اما انت ، يا اخت ، فاتركينا وحدنا .

قالت :

– ولكن لماذا ؟

قاطعها في احتداد مزاج :

– أنا اعرف . ارجوك .

دخل رودين . انحنى فولينتسيف له ببرود واقفا وسط الحجرة ، ولم يمد له يده .

قال رودين :

– لم تتوقعني ، واعترف بذلك .

ووضع قبعته على النافذة .

كانت شفتاه ترتعشان ارتعاشا خفيفا . وكان يشعر بالحراجة . ولكنه جاهد ليخفي ارتباكه .

قال فولينسيف :

– بالضبط ، لم اكن اتوقعك ، والاصح أنني ، بعد يوم أمس كنت انتظر احدا بالنيابة عنك .

* في النص : ازهار «لا تنسني» او «آذان الفار» . **المعرب** .

قال رودين ، وهو يجلس :

– أنا فاهم ما تريد ان تقوله . ومسرور جدا بصراحتك . هذا افضل بكثير . وقد جئت اليك بصفتك رجلا شهما .

ذكر فولينتسيف :

– الا يجوز التخلي عن الاطراءات ؟

– احب أن اوضح لك لماذا جئت .

– نحن متعارفان فما المانع من المجيء اليّ ؟ ثم ان هذه ليست المرة الأولى التي تشرفني بزيارتك .

كرر رودين :

– جئت كرجل شهم الى رجل شهم . واريد الآن ان احتكم اليك . . . وانا اثق بك كليا . . .

– ولكن ما القضية ؟

قال فولينتسيف ، وهو لحد الآن ما يزال واقفا في وضعه السابق ينظر الى رودين بتقطيب ، جاذبا طرفي شاربه من حين لآخر .

– اسمح لي . . . لقد جئت لاوضح لك ، بالطبع . ولكن هذا لا يمكن راسا ، على اية حال .

– ولماذا لا يمكن ؟

– يوجد طرف ثالث . . .

– اي طرف ثالث ؟

– سيرغي بافليتش ، انت تفهمني .

– دميتري نيقولايتش ، أنا لا افهمك البتة .

– تود . . .

اسرع فولينتسيف يلتقط كلمته :

– اود أن تتكلم بلا لف ودوران !

فقد اخذ يغضب عن جد .

قطّب رودين حاجبيه .

– تفضل . . . نحن لوحدنا . . ويجب ان اقول لك ، على العموم لعلك تحدس الآن (هزّ فولينتسيف كتفيه بنفاد صبر) – يجب ان اقول لك انني احب ناتاليا الكسييفنا ، ولي الحق في ان افترض انها هي ايضا تحبني .

امتقع وجه فولينتسيف ، ولكنه لم يجب بشيء ، ابتعد الى النافذة ، وادار وجهه اليها . ومضى رودين يقول :



— انت تفهم ، يا سيرغي بافليتش ، لو لم اكن واثقا . . .

اسرع فولينتسيف يقاطعه :

— اعوذ بالله ! انا لا اشك البتة . . . ليكن ! بالعافية ! وما يدهشني فقط اي شيطان ادخل في راسك ان تتكرم وتاتي اليّ بهذا الخبر . . . ما شاني انا ؟ ما يعنيني مَنْ تحب ومن يحبـك ؟ لا استطيع ان افهم ابدا .

ظل فولينتسيف ينظر في النافذة . وكان صوته فاقد الرنين .

نهض رودين :

— ساقول لك ، سيرغي بافليتش ، لماذا قررت المجيء اليك ، ولماذا لم اعط لنفسي الحق حتى في الاخفاء عنك . . . ودّنـا المتبادل . انا احترمك من اعمـاق قلبي ، ولهذا جئت . انا لم ارد . . . نحن كلانـا لم نرد ان نمثل امامك كوميديا . كانت عاطفتك نحو ناتاليا الكسييفنا معروفة لي . . . صدقني انني اعرف قيمة نفسي ، واعرف قلة استحقاقي لأن احل محلك في قلبها ، ولكن اذا كان هذا قد قُدر له ان يحدث ، فهل من المعقول ان التحايل والخداع والتظاهر افضل ؟ هل يعقل ان يكون الافضـل التعرض لالوان من سوء التفاهم ، او حتى احتمال حدوث مشهد كذلك الذي حـدث يوم امس على الغـداء ؟ سيرغي بافليتش ، احكـم انت ؟

صالب فولينتسيف يديه على صدره ، وكأنه يشدد من ضبط نفسه .

وتابع رودين يقول :

— سيرغي بافليتش ! لقد غممتك ، وانا احس بذلك . . . ولكن ارجو ان تفهمنا . . . تفهم انعدام اية وسيلة اخرى لدينـا لنثبت احترامنا لك ، لنثبت أننا نعرف تقدير شهامتك المستقيمة . والصراحة ، والصراحة التامة مع اي انسـان آخر ستكون في غير محلها ، ولكنها معك تصبح الزاما . ويطيب لنا التفكير بأن سرنا بين يديك . . .

قهقه فولينتسيف بتكلف ، وصاح :

— شكرا على الثقة ! رغم انني ، وارجو ان تلحظ ذلك ، لم ارغب لا في أن اعرف سرك ، ولا في ان اكشف لك عن سري ، لتتصرف به كملك لك . ولكن اسمح لي ، كانك تتحدث عن لسان مشترك .

يعني استطيع ان افترض ان ناتاليا الكسييفنا تعرف بزيارتك ، وبالغرض من هذه الزيارة ؟

ارتبك رودين قليلا .

— لا ، انا لم اخبر ناتاليا الكسييفنا بنيتي ، ولكنني اعرف انها تشاطرني طريقتي في التفكير .

صمت فولينتسيف قليلا وقال :

— كل ذلك رائع — وراح ينقر باصابعه على الزجاج — رغم انه سيكون من الافضل ، واعترف لك بذلك ، لو احترمتني اقل . انني ، والحق يقال ، لست بحاجة البتة الى احترامك . ولكن ماذا تريد مني الآن ؟

— انا لا اريد شيئا . . . او ، لا ! اريد شيئا واحدا . انا اريد الاتعتبرني خسيسا وماكرا وان تفهمني ، . . آمل انك الآن لا يمكن ان تشكك في صراحتي . . . انا اريـد ، يا سيرغي بافليتش ، أن نفترق صديقيـن . . . وأن تمد لي يـدك ، كالسابق . . .

واقترب رودين من فولينتسيف .

— اعذرني ، يا حضرة المحترم — قال فولينتسيف ، وقـد استدار ، وتراجع خطوة — انا مستعد الى ان اقدر مقاصدك حق التقدير ، كل ذلك رائع ، بل ولنقل رفيع ، ولكننا اناس بسطاء ، ناكل ما يقسم الرب ، ولسنا قادرين على ان نتابع تحليق العقول العظيمة كعقلك . . . وما يتراءى لك صريحـا يبدو لنا تطفلا وصلافة . . . وما هو بسيط وواضح لك هو معقد وغامض بالنسبة لنا . . . انت تتباهى بما نخفيه نحن ، فاين منا ان نفهمك ! ارجو المعذرة . انا لا استطيع ان اعتبرك صديقـا ، ولن امدّ لك يدي . . . ربما هذا شيء تافه ، ولكن انا نفسي تافه .

تناول رودين القبعة من النافذة . وقال في اسى :

— سيرغي بافليتش ، وداعـا . لقد خُدعت في توقعاتي . زيارتي ، بالفعل ، غريبة الى حد كبير ، ولكن كنت آمل بأنك (اتى فولينتسيف بحركة تدل على نفاد الصبر) . . . اعذرني لن اتحدث عن هذا بعد الآن . بعـد أن تمثلت كل شيء أرى بالضبط انك على حق ، ولا يمكن ان تتصرف غير هذا التصرف . وداعا ، واسمح

لي مرة اخرى ، على الاقل ، للمرة الاخيرة ان اؤكد لك نقاء مقاصدي . . . انا متأكد من تواضعك .

صاح فولينتسيف ، وهو يهتز غيظا :

— هذا فاق الحد ! لم يخطر في بالي قط ان استجدي ثقتك . . . ولهذا ليس لك حق في التعويل على تواضعي !

همّ رودين ان يقول شيئا ، الا انه بسط ذراعيه فقط ، وانحنى ، وخرج . وارتمى فولينتسيف على الاريكة ، وادار وجهه الى الحائط .

وتردد صوت الكسندرا بافلوفنا عند الباب :

— هل ممكن ان ادخل عليك ؟

لم يجب فولينتسيف في الحال ، ومرر يده على وجهه خلسة . وقال بصوت متغيّر قليلا :

— لا ، يا ساشا * . انتظري بعض الوقت .

بعد نصف ساعة عادت الكسندرا بافلوفنا فتقدمت من الباب مرة اخرى ، وقالت :

— وصل ميخايلو ميخايليتش ، فهل تريد ان تراه ؟

اجاب فولينتسيف :

— اريد . ارسليه الى هنا .

دخل ليجنيف . وسأل ، وهو يجلس على كرسي قرب الاريكة :

— هل أنت متوعك ؟

رفع فولينتسيف جسمه قليلا ، واستند على كوعه ، ونظر الى وجه صديقه نظرة طويلة ، وفي الحال نقل اليه كل حديثه مع رودين كلمة بكلمة . وكان حتى ذلك الحين لم يلمح لليجنيف قط بعواطفه نحو ناتاليا ، رغم انه كان يحدس بانها ليست خافية عليه .

— اوه ، يا اخ ، اذهلتني — قال ليجنيف حالما انتهى فولينتسيف من قصته — كنت اتوقع منه الكثير من الغرائب ، ولكن هذا . . . على اية حال ، ليس في ذلك شيء جديد .

فقال فولينتسيف منفعلا :

— اعذرني ، ولكن هذه صفاقة تماما ! كدت ارميه من

---

* صيغة التحبب من الكسندرا . **المعرب** .

الشباك . هل كان يريد أن يتباهي أمامي ام جبن ؟ ولكن لاي غرض ؟ كيف يعزم المرء على أن يزور رجلا . . .

والقى فولينتسيف يديه على رأسه وصمت .

قال ليجنيف بهدوء :

— ليس الأمر كذلك ، يا اخ . انت لا تصدقني ، اذا قلت انه فعل ذلك عن نية حسنة . حقا . . . ذلك سلوك نبيل وصريح ، كما اتيحت له فرصة للكلام ، لاظهار ذلاقة اللسان . وهذا ما نحتاج اليه بالذات ، وبدونه لا نقدر ان نعيش . . . اوه ، لسانه عدوه . . . ولكن يقدم له خدمات ايضا .

— لا يمكن ان تتصور تلك العظمة التي دخل فيها وتكلم !

— طيب ، ولاغنى عن هذا ايضا . انه يزرر سترته وكأنه يؤدي واجبا مقدسا . ليتني انزله في جزيرة غير مأهولة ، وانظر اليه من مكان خفي لأرى كيف سيدبر امره هناك . فهو طوال الوقت يتحدث عن البساطة !

سأل فولينتسيف :

— ولكن قل لي ، يا اخ ، بحق الرب ما هذا ؟ أهو فلسفة ؟

— ماذا اقول لك ؟ من ناحية اظن انه فلسفة بالضبط . ومن ناحية اخرى انه مختلف تماما . ثم لا لزوم لان يعتبر كل هراء فلسفة .

رمقه فولينتسيف بنظرة .

— ما رأيك ، الم يكن يكذب ؟

— لا ، يا ابني ، لم يكن يكذب . على العموم ، اتدري ؟ كفانا نقاشا في هذا . تعال ، يا اخي ، نشعل غليونينا ، ونسأل الكسندرا بافلوفنا ان تأتي الى هنا . . . بحضورها الكلام افضل ، والسكوت أسهل . وستسقينا شايا .

قال فولينتسيف :

— بالتأكيد — ثم نادى — ساشا ، ادخلي !

دخلت الكسندرا بافلوفنا . فاختطف يدها ، وضغطها على شفتيه بقوة .

عاد رودين الى البيت في حالة نفسية مضطربة وغريبة . كان في ضيق من نفسه ، يؤنبها على تهوّر لا يغفر ، وعلى الصبيانية . وليس جزافا ان قال احد الناس : ما من شيء اثقل على النفس من الاعتراف بحماقة ارتكبت على التو .

كان الندم ينخر في رودين .

همس من خلال اسنانه : «الشيطان وسـوس لي لاذهب الى الملاك هـذا ! خطرت عليّ فكرة ! لم اجلـب لنفسي غير السفاهة» .

كان شيء غير اعتيادي يجري في بيت داريا ميخايلوفنا . لم تظهر ربة البيت نفسها الصباح كله ، ولم تخرج ايضا عند الغداء . كانت تشكو صداعا ، حسب تأكيد بانداليفسكي ، الشخص الوحيد المسموح له بالدخول الى غرفتها . كما ان رودين لم يكد يرى ناتاليا ايضا ، فقد اعتكفت في حجرتها مع m-lle Boncourt . . . وعندما التقته في غرفـة الطعام نظرت اليه بحزن شديد جفل له قلبه . تغيّر وجهها ، وكأن مصيبة نزلت بها ، منذ يوم أمس . بدأت لوعة من الهواجس المبهمة تبرّح قلب رودين . ولكي يتلهى انشغل بباسيستوف يتحدث معه طويلا ، فوجد فيـه شابا حيّـا ملتهبا ذا آمال متهللة ، وايمان لم يمس بعد . وعند المساء ظهرت داريا ميخايلوفنا في غرفة الطعام وظلت هناك ساعة او ساعتين . وكانت لطيفة مع رودين ، الا انها كانت تبدو مفصولة عن الآخرين ، ومع ذلك فهي تضحك تارة ، وتعبس أخرى ، وتتكلم من أنفها ، وبتلميحات في الغالب . . . تماما مثل سيدة من سيدات القصر . في المدة الأخيرة بدت وكأنها بردت قليلا مع رودين . فكر هذا ، وهو ينظـر بطرف عينيـه الى رأسهـا المطروح : «اي لغز هذا ؟» .

ولم ينتظر طويلا لحل هذا اللغز . في عودته الى حجرتـه في حوالى الحادية عشرة ليلا سار في ممر مظلم . واذا بشخص يدس في يده ورقة . التفت ، فرأى فتاة تبتعد عنه ، هي خادمة ناتاليـا ، كما بدا له . وصل الى حجرته ، وصرف خادمه ، ونشر الورقة ، وقرأ السطور التالية التي سطرتها يد ناتاليا :

«تعال غدا في الساعة السابعة صباحا ولا تتاخر ، الى بركـة افديوخا ، وراء غابـة البلوط . وكل وقت ما عداه مستحيل .

سيكون ذلك لقاءنا الاخير ، وسينتهي كل شيء ، اذا . . . تعال . يجب ان نعزم . . .

ملاحظة : اذا لم اجئ ، فمعنى ذلك لن يرى احدنا الآخر بعد الآن . عندئذ سأعلمك . . .»

استغرق رودين يفكر ، وقلّب الورقة في يديه ، ووضعها تحت الوسادة ، وخلع ثيابه ، واستلقى ، ولكنه لم يغف بسرعة ، ونام نوما خفيفا ، واستيقظ قبل حلول الخامسة صباحا .

٩

بركة افديوخا التي ضربت ناتاليا عندها موعدا لرودين ، لم تعد بركة منذ زمن طويل . فقبل ثلاثين عاما اكتسحت سدتهـا ، فهُجرت منذ ذلك الحين . ولم يبق منها غير قاع منخفض مستو مسطح كان في وقت ما مكسوا بالغرين اللزج ، وبقايا السدة ، وبذلك فقط يمكن ان يحدس المرء أن بركة كانت موجودة في هذا المكان . كما كانت هناك ضيعة ايضا اختفت منذ زمن بعيد ، تذكّر بها شجرتا صنوبر ضخمتان . وكانت الريح تعصف على الدوام ، وتدوي عبوسا في خضرتهما العالية النحيلة . . . وكانت اشاعات غامضة تجري بين الناس عن جريمة رهيبة زُعم انها ارتكبت عند جذورهما . وكان يقال ايضا ان واحدة لن تسقط منهـا ، دون ان تسبب في موت احد ، وان شجرة صنوبرة ثالثة كانت قائمة هنا من قبل ، وسقطت اثناء عاصفة ، وسحقت فتاة . والمكان كله قرب البركة القديمة كان يعتبر منحوسا . مكان خال اجرد ، ولكنه موحش كئيب حتى في يوم مشمس ، كان يبدو اكثر كآبة وايحاشا لقربه من غابة البلوط البائسة ، الميتة الجافة منذ زمان . كانت الهياكل الرمادية الضاوية لتلك الاشجار الضخمة ترتفع كاشباح مقبضة فوق الاجمات الواطئة . والنظر اليها يثير الرهبة في النفس ، فقد كانت تبدو مثل شيوخ اشرار اجتمعوا ليتواطؤا على عمل خبيث . وكان درب ضيق لا يكاد يبين يمتد في ناحية . فما كان من احد يمر ببركة افديوخا اذا لم تكن له هناك حاجة ماسة . وقد اختارت

ناتاليا هذا المكان المعزول عن قصد . والمسافة بينه وبين بيت داريا ميخايلوفنا لا تزيد عن نصف فرسخ .

عندما وصل رودين الى بركة افديوخا كانت الشمس قد طلعت منذ وقت طويل ، ولكن الصباح لم يكن بهيجا . كانت السماء كلها تتغطى بسحب متكاثفة بلون الحليب ، كانت الريح تسوقها بسرعة صافرة مصوتة . اخذ رودين يتمشى جيئة وذهابا على السدة المغطاة بالارقطيون الشائك والقرّاص المسوّد . لم يكن هادئ البال ، فقد كانت هذه المواعيد ، هذه الاحاسيس الجديدة تشغل باله ، بل وتقلقه ، لا سيما بعد قصاصة يوم أمس . كان يرى الخاتمة تقترب ، فكان يعاني من اضطراب نفسي خفي ، رغم ان احدا ما كان سيتصور ذلك ، وهو يراه يصالب ذراعيه على صدره بعزيمة مركزة ، ويدير عينيه فيما حوله . وليس جزافا ان بيغاسوف قال عنه ذات مرة ان راسه كراس صنم صيني صغير يؤرجح باستمرار . ولكن يصعب على المرء ، براس واحد ، مهما كان هذا الراس ضليعا ، أن يعرف حتى ما يجري داخل نفسه . . . ان رودين الذكي ، رودين الثاقب لم يكن قادرا على ان يقول في اغلب الظن هل هو يحب ناتاليا حقا ، وهل هو يتعذب ، وهل سيتعذب ، اذا افترقا . فلماذا غرر بهذه الفتاة المسكينة ، حتى دون أن يتظاهر بانه زير نساء — مع ان هذه المنقبة ينبغي ان تعطى له ؟ ولِمَ كان ينتظرها بارتعاش خفي ؟ لهذا جواب واحد : لا احد غير العديمي العواطف ، يولع بهذه السهولة .

كان يتمشى على السدة ، بينما كانت ناتاليا تغذّ الخطى نحوه ، عبر الحقل ، على العشب الرطب .

كانت خادمتها ماشا تقول لها ، وهي لا تكاد تلحق بها :

— آنسة ! آنسة ! ستبللين قدميك .

لم تصغ ناتاليا لها ، وراحت تركض دون ان تلتفت .

كانت ماشا تكرر :

— آه ، اخشى ان يرانا أحد . بل العجيب كيف استطعنا ان نخرج من البيت . اخشى ان تكون المدموزيل قد استيقظت . . . لطيف ان المسافة غير بعيدة . . . انه ينتظر — اضافت ، حين رأت قامة رودين الممشوقة ، في وقفته المزهوّة على السدة — فقط ما كان عليه ان يقف هكذا على مرتفع . حبذا لو نزل الى المنخفض .

توقفت ناتاليا .

قالت :

— انتظري هنا ، ماشا ، عند الصنوبرتين .

ونزلت هي الى البركة .

اقترب رودين منها ، وتوقف منذهلا . لم يلحظ من قبل مثل ذلك التعبير على وجهها . حاجباها متقاربان ، وشفتاها مطبقتان ، وعيناها تنظران باستقامة وصرامة .

انشأت تقول :

— دميتري نيقولايتش . ليس لنا وقت نضيعه . جئت لخمس دقائق . وعليّ ان اقول لك ان امي تعرف كل شيء . تلصص السيد باندليفسكي علينا قبل ثلاثة أيام ، واخبرها بلقائنا . كان دائما جاسوس امي . وامس استدعتني اليها .

هتف رودين :

— يا الهي . هذا فظيع . . . ماذا قالت امك ؟

— لم تحتد عليّ ، ولم تشتمني ، ولكنها عاتبتني على استخفافي .

— فقط ؟

— نعم ، واعلنت لي أنها تفضل ان تراني ميتة على ان تراني زوجتك .

— معقول انها قالت ذلك ؟

— نعم ، واضافت كذلك انك نفسك لا ترغب البتة في الزواج مني ، بل انك غازلتني بسبب الضجر لاغير ، وان ذلك لم تكن تتوقعه منك ، وانها ، على اية حال ، هي الملومة ، فلماذا سمحت لي بان تتقابل بهذه الكثرة . . . وانها تعول على حصافتي ، وأنني ادهشتها كثيرا . . . ثم لا اذكر كل ما قالته .

قالت ناتاليا كل ذلك بصوت مسترسل يكاد يخلو من اية رنة .

سأل رودين :

— وانت ، يا ناتاليا الكسيفنا ، بم رددت عليها ؟

اعادت ناتاليا سؤاله :

— بم رددت عليها ؟ ماذا تنوي **انت** ان تفعل الآن ؟

قال رودين :

— يا الهي ، يا الهي ! هذه قسوة ! ما اسرع ذلك ! . . اية ضربة مباغتة ! . . . وامك بلغت هذا الحد من الحنق ؟

– نعم . . . نعم . . . لا تريد ان تسمع بك .

– هذه فظاعة ! يعني بلا اي امل ؟

– بلا .

– لمَ نحن تعيسان بهذا الشكل ! باندليفسكي هذا خسيس ! . . تسالينني ، يا ناتاليا الكسييفنا ، ماذا انوي ان افعل ؟ راسي يدور ، ولا استطيع ان افكر في شيء . . . لا اشعر الا بتعاستي . . . ويدهشني كيف تحتفظين انت بهدوء اعصابك ! . .

قالت ناتاليا :

– هل تظن ان الامر سهل عليّ ؟

شرع رودين يتمشى على السدة . لم تصرف ناتاليا عينيها عنه . واخيرا قال رودين :

– الم تستفسر امك عنك ؟

– سالتني هل احبك .

– طيب . . . وماذا قلت ؟

صمتت ناتاليا قليلا .

– لم اكذب عليها .

امسك رودين يدها .

– انت دائما نبيلة وشهمة في كل شيء ! آه ، قلب هذه الفتاة من ذهب خالص ! ولكن هل من المعقول ان امك اعلنت مشيئتها القطعية بخصوص استحالة زواجنا ؟

– نعم ، القطعية . لقد قلت انها واثقة من انك أنت لا تفكر في الزواج بي .

– يعني ، انها تعتبرني مخادعا ! لمَ اكافأ هذه المكافاة ؟

وامسك رودين راسه . قالت ناتاليا :

– دميتري نيقولايتش ! نحن نضيّع الوقت جزافا . تذكر انني اراك للمرة الاخيرة . لم اجئ الى هنا لابكي او اتشكى – انت ترى انني لا ابكي – جئت للنصيحة .

– ولكن اية نصيحة استطيع ان اسديها لك ، يا ناتاليا الكسييفنا ؟

– اية نصيحة ؟ انت رجل ، وقد تعودت على التصديق بك ، وساظل اصدق بك الى النهاية . قل لي ماذا تنوي ان تفعل ؟

– ماذا انوي ؟ اغلب الظن أن أمك سترفضني من بيتها .

– ربما . فقد اعلنت لي يوم أمس انها تنهي تعارفها بك . . . ولكنك لا تجيب عن سؤالي .

– اي سؤال ؟

– ماذا ينبغي علينا ان نفعل الآن ، حسب رأيك ؟

رد رودين :

– ماذا علينا ان نفعل ؟ ان نذعن ، بالطبع .

– ان نذعن .

كررت ناتاليا ببطء ، وغاض الدم من شفتيها .

فتابع رودين يقول :

– نذعن للقدر . لاحيلة لنا ! انا اعرف حق المعرفة ان ذلك مرير ، ومرهق ، ولا يطاق ، ولكن احكمي بنفسك ، يا ناتاليا الكسييفنا ، فانا فقير . . . حقا استطيع ان اعمل ، ولكن حتى لو كنت غنيا ، فهل انت قادرة على ان تتحملي الانفصال الجبري عن عائلتك ، وغضب امك ؟ . . لا ، يا ناتاليا الكسييفنا . لا داعي حتى للتفكير في هذا . يبدو انه لم يكتب لنا أن نعيش سوية ، والسعادة التي حلمت بها لم تخلق لي !

وفجاة غطت ناتاليا وجهها بيديها ، وانخرطت تبكي . دنا رودين منها . وراح يقول بحرارة :

– ناتاليا الكسييفنا ! ناتاليا الحبيبة ! لا تبكي ، بحق الرب ، لا تمزقيني ، وتجملي بالسلوان . . .

رفعت ناتاليا راسها . وشرعت تقول :

– تقول لي تجملي بالسلوان – والتمعت عيناها من خلل الدموع – انا لا ابكي على ما تتصوره في ذهنك . . . ليس هذا ما يؤلمني ، بل يؤلمني انني خدعت بك . . . ما هذا ! جئت لطلب النصيحة منك ، وفي مثل هذه اللحظة ، واول كلمة لك هي نذعن . . . نذعن ! بهذا الشكل ، اذن ، تطبق احاديثك عن الحرية ، عن التضحيات التي . . .

وتقطع صوتها . فشرع رودين يقول مرتبكا :

– ولكن ، تذكري ، يا ناتاليا الكسييفنا . . . انا لا اتبرأ من كلماتي . . . فقط . . .

مضت تقول بزخم جديد :

– سالتني ماذا اجبت امي ، حين اعلنت لي أنها تفضل موتي

على زواجي بك . اجبتها افضل الموت على ان اتزوج رجلا آخر . . . وانت تقول : تذعن ! يعني انها كانت مصيبة في رأيها . مزحت معي لانه ليس لديك ما تعمله ، بسبب الضجر بالضبط . . .

راح رودين يكرر :

– اقسم لك ، ناتاليا الكسييفنا . . . اؤكد لك . . .

ولكنها لم تصغ اليه .

– فلماذا لم توقفني ؟ لماذا انت نفسك . . . ام لم تأخذ بحسبانك العقبات ؟ اخجل ان اتحدث عن ذلك . . . ولكن كل ذلك قد انتهى الآن .

شرع رودين يقول :

– يجب ان تهدئي ، يا ناتاليا الكسييفنا . يجب علينا نحن الاثنين ان نفكر اي تدابير . . .

قاطعته قائلة :

– غالبا ما كنت تتحدث عن التضحية بالذات . ولكن هل تعرف لو انك قلت لي اليوم ، الآن : «انا احبك ، ولكن لا استطيع ان اتزوج ، فانا لا اضمن المستقبل ، فاعطيني يدك ، واتبعيني» ، هل تعرف انني كنت سالحق بك ، هل تعرف انني عزمت على كل شيء ؟ ولكن يبدو ان الكلام ما يزال بعيدا عن الفعل ، وقد جبنت الآن ، تماما كما جبنت امام فولينتسيف على الغداء قبل ثلاثة ايام !

تدفق الدم على وجه رودين . بهره تحمس ناتاليا غير المتوقع . ولكن كلماتها الاخيرة جرحت عزة نفسه . انشأ يقول :

– انت الآن منزعجة اكثر من اللازم ، يا ناتاليا الكسييفنا . ولا تستطيعين ان تفهمي كم تهينني بقسوة . وآمل بأنك ستنصفينني بمرور الزمن . ادركي كم كلفني التخلي عن السعادة التي ، كما تقولين انت ، لم تضع على عاتقي اية التزامات . وهدوءك اعز عليّ من كل شيء في العالم ، ساكون اوضع انسان ، لو كنت قد عزمت على ان استغل . . .

قاطعته ناتاليا :

– ربما ، ربما ! ربما انت على حق . انا لا اعرف ماذا اقول . ولكنني صدقت بك حتى الآن ، صدقت بكل كلمة من كلماتك . . . في المستقبل ، ارجوك ان تزن كلماتك ، ولا تطلقها للريح . عندما قلت لك انني احبك ، كنت اعرف ما تعني هذه الكلمة . كنت

مستعدة لكل شيء . . . والآن يبقى لي ان اشكرك على الدرس ، واستأذن بالانصراف .

– توقفي ، بحق الرب ، يا ناتاليا الكسييفنا ، اتوسل اليك . انا لا استحق ازدراءك ، اقسم لك . كوني انت ايضا في وضعي . انا مسؤول عنك وعن نفسي . لو لم اكن احبك اوفى الحب ، وربي ! لاقترحت عليك الآن الهرب معي . . . ان امك ستغفر لنا عاجلا او آجلا . . . وعندئذ . . . ولكن قبل ان يفكر المرء بسعادته . . .

وتوقف . اربكته نظرة ناتاليا المتفرسة به .

قالت ناتاليا :

– انت تحاول ان تثبت لي انك رجل نزيه ، يا دميتري نيقولايتش . وانا لا اشك في ذلك . ليس في مقدورك ان تتصرف عن منفعة ، ولكن هل كنت ارغب في ان اقتنع بذلك ، هل جئت لاجل هذا الى هنا . . .

– لم اتوقع ، يا ناتاليا الكسييفنا . . .

– اها ! وعند ذاك افضت بالحقيقة ! نعم ، كنت لا تتوقع كل ذلك . كنت لا تعرفني . لا تقلق . . . انت لا تحبني ، وانا لا افرض نفسي على احد .

هتف رودين :

– انا احبك !

رفعت ناتاليا هامتها .

– ربما ، ولكن كيف تحبني ؟ انا اتذكر كل كلماتك ، يا دميتري نيقولايتش . هل تذكر انك قلت لي انه لا حب بدون التكافؤ التام . . . انت رفيع جدا ، بالنسبة لي . ليس على مقامي . . . انا عوقبت عن استحقاق . امامك مهمات مؤهلة لك اكثر . انا لن انسى هذا اليوم . . . وداعا . . .

– اذاهبة انت ، يا ناتاليا الكسييفنا ؟ هل معقول أن نفترق بهذا الشكل ؟

مدّ اليها يديه . توقفت . وبدا وكأن صوته الضارع جعلها تتردد . ولكنها قالت اخيرا :

– لا . اشعر أن شيئا في داخلي قد تصدع . . . جئت الى هنا ، وتحدثت معك كمن اصابتها حمى . يجب ان افيق على نفسي .

لا يجوز ان يكون هذا ، انت نفسك قلت هذا ، ولن يكون هذا . يا الهي ، عندما جئت الى هنا ، ودّعت في ذهني بيتي ، وماضيّ . وبعد ذلك ؟ بمن التقيت هنا ؟ برجل خائر العزيمة . . . كيف عرفت انني لا اقوى على تحمل فراق عائلتي ؟ «امك غير موافقة . . . هذا فظيع !» هذا كل ما سمعته منك . اهذا انت ، اهذا انت ، رودين ؟ لا ! وداعا . . . آه ! لو كنت تحبني لشعرت بذلك الآن ، في هذه اللحظة . . . لا ، لا . . . وداعا ! . .

واستدارت بسرعة ، وركضت نحو ماشا التي اخذت تقلق منذ وقت طويل ، وتومئ لها .

صاح رودين في اثر ناتاليا :

– **انت تجبنين ، لا أنا !**

لم تعره التفاتا ، واسرعت الى بيتها عبر الحقـــل . عادت الى مخدعها بسلام ، ولكنها ما كادت تتجاوز العتبة ، حتى خانتها قواها ، فوقعت بين يدي ماشا مغشيا عليها .

اما رودين فقد ظل واقفا على السدة ، حتى جفل اخيرا ، ووصل الى الدرب بخطى بطيئة ، وسار فيـــه بهدوء . كان يحس بالخزي الشديد . . . والغم . فكر مع نفسه :«هكذا هي ؟ في الثامنـــة عشرة ! لا ، انا لم اكن اعرفها . . . انها فتاة رائعـــة . وما اقوى ارادتها ! . . هي على حق . لا تستأهل الحب الذي كنت اشعر بـه نحوها . ...كنت اشعر به ؟ . . – ساءل نفسه – أمعقول انني لم اعد اشعر بحب ؟ هكذا اذن كان يجب ان ينتهي كل شيء ! كم كنت هزيلا وتافها امامها !»

ورفع رودين بصره على كركبة خفيفة لعربة ركوب . في الجهـة المقابلة كان ليجنيف يقل العربة يجرها حصانه الاميـــن . تبادل رودين واياه انحناءة التحية صامتا ، وتنكب عن الطريق كمن بهرته فكرة مفاجئة ، واسرع يحث خطاه صوب بيت داريا ميخايلوفنا .

انتظر ليجنيف حتى يبتعد رودين عنه ، وشيّعـــه ببصره ، وبعد تفكير قصير ، ادار هو الآخر حصانه وعاد الى فولينتسيف ، حيث قضى الليلة عنده . وجده نائما ، فلم يأمر بايقاظه ، وجلس في الشرفة ، بانتظار الشاي ، واشعل غليونه .

١٠

استيقظ فولينتسيف في نحو العاشرة ، ولما علم بأن ليجنيف جالس في شرفة بيته ، اندهش كثيرا ، وطلب أن يرجى بالتفضل الى غرفته .

ساله :

– ما الذي حدث ؟ فقد كنت تريد الذهاب الى البيت .

– نعم . كنت اريد ، ولكنني صادفت رودين . . . يسير في الحقل وحده ، ووجهه مغموم جدا . فاستدرت وعدت .

– عدت لأنك التقيت رودين ؟

– اذا اردت الحقيقة ، انا نفسي لا اعرف لماذا عدت . مـن المحتمل لانني تذكرتك . فرغبت في ان اجلس معك قليلا ، وسالحق ان اعود الى بيتي .

ابتسم فولينتسيف ابتسامة تهكم مريرة .

– نعم ، لا يجوز الآن التفكير في رودين دون التفكير فيّ ايضا . . . يا خادم ! – صاح بصوت عال – قدم الشاي لنا .

اخذ الصديقان يحتسيان الشاي . شرع ليجنيف يتحدث عـن شؤون الزراعة ، وعن الطريقة الجديدة في تغطيـــة عنابر الحبوب بالورق . . .

وفجأة وثب فولينتسيف من مقعده ، وضرب المائدة بقوة ، حتى أن الاقداح والصحون اخذت ترن . وصاح :

– لا ! لم اعد اقوى على تحمل ذلك اكثر ! سادعو ذلك الذكي الى مبارزة ، فاما ان يرميني ، واما أن اغرز انا رصاصة في جبينه العالم .

غمغم ليجنيف :

– ما هذا ، ما هذا ، ارجـــوك ! كيف يمكن ان تصرخ هذا الصراخ ! اوقعت الشبُق . . . ماذا بك ؟

– لا اطيق حتى سماع أسمه دون انزعاج . كل دمي يفور .

قال ليجنيف ، وهو يرفع الغليون من الارض :

– كفى ، يا اخ ، كفى ! كيف لا تخجل من نفسك ! دعك ! وليول ! . .

مضى فولينتسيف يقول ، وهو يذرع الحجرة :

— انه اهانني . نعم ! اهانني . انت نفسك يجب ان توافقني على ذلك . في الوهلات الاولى لم اكن اعي الموقف ، فقد صعقني . ثم مَنْ كان يستطيع ان يتوقـع ذلك ؟ ولكنني ساثبت له ان المزاح معي لا يجوز . . . سارميه ، ارمي هذا الفيلسوف اللعين ، كما ارمي الحَجَل .

— بالطبع ، هل ستربح من ذلك كثيرا ! ودع عنك اختك . واضح انت منجرف بعاطفتك . . . فاين منك التفكيـر باختك ! ثم في علاقتك بالطرف الآخر هل تتصور انك ستسـوي امورك بقتل الفيلسوف ؟

انهدّ فولينتسيف على الكرسي .

— سارحل الى مكان ما ! والا فان الوحشة ستسحق قلبي هنا تماما ، لا استطيع اطلاقا ان اجد مكانا اهدأ فيه .

— سترحل . . . هذا شيء آخر . . . على ذلك انا موافق . ثم هل تدري ماذا اقترح عليك ؟ لنسافر سوية الى القوقاز ، او لاوكرانيا على الأقل ، ونأكل طعاما اوكرانيا . شيء رائع ، يا اخ !

— نعم ، ولكن لمن نترك اختي ؟

— ولماذا لا تسافر الكسندرا بافلوفنا معنا ؟ سيكون ذلك ممتازا . سأعتني بها ، انا اتعهد بذلك ! ولن يعوزها شيء . واذا ارادت اقمت انا كل مساء سريناد * تحت نافذتها . واضمخ الحوذية بماء الكولونيا ، واغرز الزهور في الطريق . اما نحن فسنولد من جديد ، يا اخ . ونستمتع استمتاعا عظيما ، وسنعود ولنا كروش ، فلا ينفذ فينا اي حب !

— انت دائما تمزح ، يا ميشا !

— لا امزح على الاطلاق . انها فكرة لامعة خطرت في ذهنك .

صاح فولينتسيف ثانية :

— لا ! هراء ! اريد ان ابارزه ، ابارزه ! . .

— عدت من جديد ! انت اليوم ذو مزاج عنيد ، يا اخ !

دخل الخادم يحمل رسالة .

سأل ليجنيف :

* قطعة موسيقية تعزف في الهواء الطلق ، غرامية في العادة . المعرب .

— ممن ؟

— من رودين ، دميتـري نيقولايتش . حملهـا خادم آل لاسونسكايا .

كرر فولينتسيف :

— من رودين ؟ لمن ؟

— لكم .

— لي . . . اعطها .

اختطف فولينتسيف الرسالة ، وفض ختمها بسرعة ، واخـذ يقرأ . اخذ ليجنيف يمعن النظر فيه . ارتسمت على وجه فولينتسيف دهشة غريبة فرحة تقريبا . وارخى ذراعيه .

سأل ليجنيف :

— ما هذا ؟

قال فولينتسيف بصوت خافض :

— اقرأ .

ومدّ له الرسالة .

شرع ليجنيف يقرأ . وهذا ما كتبه رودين :

«حضرة السيد سيرغي بافلوفيتش !

اليوم ساغادر بيت داريا ميخايلوفنـا ، واغادره الى الابد . اغلب الظن ان هذا سيدهشك ، على الاخص ، بعد ما جرى يوم امس . ليس بوسعي أن اشرح لك السبب الفعلي الذي يجعلني اتصرف هذا التصرف ، ولكن يبدو لي ، لسبب ما ، ان عليّ ان ابلغك برحيلي . انت لا تحبني ، بـل وتحسبني رجـلا لئيما . ولا انوي ان ابرر نفسي . سيبررني الزمن . واعتقـد من غير اللائق بالرجل ، وبلاجدوى ايضا ان يثبت لانسان متحامل جور تحامله . ومنْ يريد ان يفهمني سيعذرني ، ومَنْ لا يريد ان يفهمني او لا يقدر لا تؤثر فيّ اتهاماته . لقد اخطأت فيك . ستظل في عيني ، كالسابق ، انسانا نبيلا ، ونزيها ، ولكنني كنت اظن انك سترتفع عن الوسط الذي نشأت فيه . . . وكنت على خطأ . فما العمل ؟! ليس للمرة الاولى ولا الاخيرة . اكرر لك انني راحل . واتمنى لك السعادة . وارجو ان توافقني على ان هذا التمني نزيه تماما ، وآمل ان تكون الآن سعيدا . ولربما ستتغير ، مع الزمن ،



رايك فيّ . ولا ادري هل سنلتقي يوما ما ، ولكنني في كل الاحوال ساظل المحترم لك باخلاص

د . ر .» .

«حاشية : سارسل لك المائتي روبل اللتين اقترضتهما منك حالما اصل الى قريتي في ولاية ت . . . كما ارجو منك ان لا تخبر داريا ميخايلوفنا بهذه الرسالة» .

«حاشية اخرى . عندي رجاء أخير ، ولكنه مهم : بما انني راحل الآن ، فانني آمل ان لا تذكر زيارتي لك بحضور ناتاليا الكسييفنا . . .»

سأل فولينتسيف حالما فرغ ليجنيف من قراءة الرسالة :

– طيب ، بماذا تعلّق ؟

قال ليجنيف :

– هذا لا يحتاج الى تعليق ! كل ما يمكن فعله هو ان تهتف على الطريقة الشرقية «الله ! الله !» وتضع على الفم اصبع الدهشة . انه يرحل . . . طيب ! الى حيث . ولكن ما يثير الفضول انه اعتبر كتابة هذه الرسالة **واجبا** ، وزارك بدافع الواجب . . . عند هؤلاء السادة في كل خطوة واجب ، كل شيء واجب – وديون * – اضاف ليجنيف بضحكة هازئة مشيرا الى الحاشية .

هتف فولينتسيف :

– واية عبارات يطلق ! اخطأ فيّ . كان يتوقع ان ارتفع عن وسط ما . . . ما هذا الهراء ، يا رب ! اسوأ من الشعر !

لم يجب ليجنيف بشيء . عيناه ابتسمتا فقط . نهض فولينتسيف . وقال :

– اريد ان اذهب الى داريا ميخايلوفنا . اريد ان اعرف ما يعني كل هذا . . .

– انتظر ، يا اخ . دعه ينقلع . ما حاجتك الى ان تصطدم به مرة اخرى ؟ انه سيختفي ، فماذا تريد اكثر ؟ الافضل ان تستلقي وتنام . فانك ، على ما اظن ، قضيت الليل كله تتقلب من جنب الى جنب . والآن امورك ستتعدل . . .

– مم تستنتج ذلك ؟

* هناك طباق في هذه الجملة . فان كلمة «دولغ» الروسية تعني الواجب وتعني الدين . **المعرب** .

– هذا ما يتراءى لي . حقا ، ثم قليلا . اما انا فسأذهب الى اختك ، واجلس معها بعض الوقت .

قال فولينتسيف ، وهو يعدل اذيال معطفه :

– لا اريد ان انام مطلقا . ولم أنام ! . . الافضل ان اذهب واتفقد الحقل .

– وهذا ايضا جيد . اذهب ، يا اخ ، اذهب وتفقد الحقل . . .

وتوجه ليجنيف الى جناح الكسندرا بافلوفنا .

وجدها في حجرة الاستقبال . رحبّت به في رقة . كانت دائما تسر بمجيئه . الا ان وجهها بقي حزينا . فقد كانت زيارة رودين يوم أمس تقلقها .

سألت ليجنيف :

– اقادم من اخي ؟ كيف هو اليوم ؟

– لا بأس . خرج ليتفقد الحقل .

صمتت الكسندرا بافلوفنا قليلا .

قالت وهي تتمعن في حاشية منديل الجيب :

– قل لي ، من فضلك ، الا تعرف لماذا . .

التقط ليجنيف جملتها :

– جاء رودين ؟ اعرف . جاء ليودع .

رفعت الكسندرا بافلوفنا رأسها .

– كيف : ليودع ؟

– نعم ، ألم تسمعي ؟ انه يرحل من داريا ميخايلوفنا .

– يرحل ؟

– والى الابد . على الأقل هو الذي يقول ذلك .

– ولكن المعذرة ، كيف يفهم ذلك بعد كل الذي . . .

– هذا شيء آخر ! مستحيل فهم ذلك ، ولكن هذا الحاصل . ربما حدث شيء ما عندهم . لعله شدّ الوتر اكثر من اللازم ، فانقطع .

قالت الكسندرا بافلوفنا :

– ميخايلو ميخايليتش ، انا لا افهم شيئا ، اظن أنك تضحك مني . .

– لا ، وحق الرب . . اقول لك سيرحل ، بل ويعلن عن ذلك لمعارفه خطيا . وهذا ، اذا شئت ، غير سيىء ، من بعض



وجهات النظر . ولكن سفره اعاق تحقيق مشروع مدهش بدأنا الحديث عنه انا واخوك .

— ما هو ؟ اي مشروع ؟

— هو كالآتي . اقترحت على اخيك ان نقوم برحلة للترفيه ، وناخذك معنا . وقد تعهدت انا بالذات بالاعتناء بك . . .

هتفت الكسندرا بافلوفنا :

— رائع ! انا اتصور كيف ستعتني بي . ستجعلني اموت جوعا .

— تقولين ذلك ، يا الكسندرا بافلوفنا ، لأنك لا تعرفينني . تظنينني دماغا ناشفا ، متخشبا تماما ، خشبة ، ولكن هل تعرفين انني قادر على ان اذوب ، كالسكر ، واركع على ركبتي اياما ؟

— هذا ما بودي لو اتاكد منه ، اعترف لك !

نهض ليجنيف فجاة .

— ولكن تزوجيني ، يا الكسندرا بافلوفنا ، وسترين كل ذلك .

احمرت الكسندرا بافلوفنا حتى اذنيها .

وكررت بارتباك :

— ما هذا الذي قلته ، يا ميخايلو ميخايليتش ؟

اجاب ليجنيف :

— ما قلته كان على طرف لساني الف مرة ، ومنذ زمن بعيد . واخيرا نطقت به ، ويمكنك ان تتصرفي كما تعرفين . ولكي لا اضيق عليك ، ساخرج الآن . اذا اردت ان تكوني زوجتي . . . انسحب اذا كنت لا تمانعين فما عليك الا ان تأمري باستدعائي . وسأفهم ...

ارادت الكسندرا بافلوفنا ان تبقي ليجنيف ، الا انه خرج حثيث الخطى ، واتجه الى الحديقة حاسر الرأس ، واتكأ على باب السياج ، واخذ ينظر باتجاه ما .

تردد صوت الخادمة وراءه :

— ميخايلو ميخايليتش ! تفضل عند السيدة . امرتني باستدعائك .

التفت ميخايلو ميخايليتش ، واخذ رأس الخادمة بكلتا يديه ، وسط دهشتها العظيمة ، وقبلها من جبينها ، وذهب الى الكسندرا بافلوفنا .

١١

عاد رودين الى البيت بعد لقائه بليجنيف مباشرة ، وقفل عليه حجرته ، وكتب رسالتين ، احدهما لفولينتسيف (والقارئ قد اطلع عليها) والاخرى الى ناتاليا . وقد عكف وقتا طويلا جدا على الرسالة الثانية ، فقد ظل ينقح و يعدل فيها اشياء كثيرة ، وبعد أن استنسخها بعناية على ورقة بريد رقيقة ، طواها على اصغر ما يمكن ، ووضعها في جيبه . وسار في الغرفة جيئة وذهابا عدة مرات ، والحزن مرتسم على وجهه ، وجلس على مقعد امام النافذة مرتفقا على يده . واطلت دمعة على رموشه بهدوء . . . نهض ، وزرر جميع ازرار سترته ، واستدعى الخادم ، وامره بأن يسأل داريا ميخايلوفنا عما اذا كان من الممكن ان يراها .

وبعد قليل عاد الخادم ، واعلن ان داريا ميخايلوفنا امرته بأن يتفضل . وذهب رودين اليها .

استقبلته في غرفة مكتبها ، كما في المرة الأولى ، قبل شهرين . ولكنها لم تكن وحدها في هذه المرة ، بل كان عندها بانداليفسكي المتواضع ، الغض ، النظيف ، الرقيق الحاشية ، كما هو دائما .

استقبلت داريا ميخايلوفنا رودين بلطف ، وسلّم رودين عليها بلطف ايضا ، ولكن اي امرئ ، ولو كان له قليل من التجربة كان من الممكن ان يدرك من النظرة الأولى الى وجهيهما المبتسمين كليهما ان بينهما حدث شيء غير مُرض ، وان لم يُعلن . كان رودين يعرف ان داريا ميخايلوفنا غاضبة عليه ، وكانت داريا ميخايلوفنا ترتاب في انه يعرف كل شيء الآن .

ازعجها كثيرا ما نقله بانداليفسكي اليها . تحرك فيها شموخها كسيدة رفيعة المقام . ان رودين الفقير ، الذي لا يملك منصبا كبيرا ، والمغمور حتى الآن تجاسر على تحديد موعد غرامي مع ابنتها ، ابنة داريا ميخايلوفنا لاسونسكايا ! !

كانت تقول :

— لنفرض انه ذكي ، عبقري ! ولكن ماذا يثبت ذلك ؟ أيعني هذا ان اي رجل يمكنه ان يأمل بأن يكون صهري ؟

فساندها بانداليفسكي قائلا :

– ظللت وقتا طويلا لا اصدق عيني . استغرب كيف لا يعرف مقامه !

كانت داريا ميخايلوفنا منفعلة جدا ، ونالت ناتاليا منها نصيبها من التقريع .

رجت رودين ان يجلس . جلس ، ولكن ليس كرودين السابق ، الذي كان كالسيد في البيت ، بل ولا كاحد المعارف القريبين ، بل كضيف ، وليس ضيفا مقربا . كل ذلك حدث في لحظة واحدة . هكذا يتحول الماء فجأة الى جليد صلب .

اخذ رودين يقول :

– جئت اليك ، يا داريا ميخايلوفنا ، لاشكرك على حسن ضيافتك . تلقيت اليوم اخبارا من قريتي ، ويجب ان اغادر اليوم الى هناك من كل بد .

نظرت داريا ميخايلوفنا الى رودين نظرة متفرسة . وفكرت مع نفسها :

«سبقني ، لعله يحدس . هذا يعفيني من المكاشفة الثقيلة ، وربما افضل . يحيا الاذكياء !»

قالت بصوت مسموع :

– معقول ؟ اوه ، كم مؤسف هذا ! ولكن ، ما العمل ! آمل ان اراك في الشتاء القادم في موسكو . نحن ايضا سنغادر عن قريب .

– لا ادري ، يا داريا ميخايلوفنا ، هل ساتمكن مَن زيارة موسكو . ولكن اذا دبّرت المال ، فساجد من الواجب زيارتكم .

وفكر بانداليفسكي بدوره : «آها ، يا اخ ! قبل حين كان لك الأمر والنهي هنا . والآن اضطررت ان تغير من لهجتك !»

وقال بوقفاته المعتادة :

– يعني استلمت اخبارا غير سارة من قريتك ؟

ردّ رودين بجفاف :

– نعم .

– ربما ، رداءة المحاصيل ؟

– لا . . . شيء آخر – واضاف – ثقي ، يا داريا ميخايلوفنا انني لن انسى ابدا الاوقات التي قضيتها في بيتكم .

– وانا ايضا ، يا دميتري نيقولايتش ، ساتذكر دائما بسرور تعارفنا بك . . . متى ستسافر ؟

– اليوم ، بعد الغداء .

– بهذه السرعة ! . . حسنا ، ارجو لك سفرا ميمونا . على العموم اذا لم تؤخرك اعمالك فلربما ستجدنا ما نزال باقين هنا .

– لا اظنني سالحق – قال رودين ونهض ، واضاف – اعذريني ، لا استطيع الآن ان اسدد ديني لك ولكن حالما اصل الى القرية . . .

قاطعته داريا ميخايلوفنا :

– كفاك ، يا دميتري نيقولايتش ! كيف لا تستحي ! . . ولكن كم الساعة الآن ؟

اخرج بانداليفسكي من جيب صداره ساعة ذهبية مزخرفة بالمينا ، ونظر فيها ، مميلا خده الوردي بحذر على ياقته البيضاء الصلبة وقال :

– الساعة الثانية وثلاث وثلاثون دقيقة .

فقالت داريا ميخايلوفنا :

– حان وقت ارتداء ملابسي . الى اللقاء ، يا دميتري نيقولايتش !

نهض رودين . كان لمجمل حديثه مع داريا ميخايلوفنا صبغة خاصة . وبهذا الشكل يتدرب الممثلون على ادوارهم ، ويتبادل الدبلوماسيون في المؤتمرات العبارات المتفق عليها سلفا . . .

خرج رودين . لقد عرف الآن بالتجربة كيف أن ذوي المقام الرفيع لا يتخلون فقط عمن لم يعودوا بحاجة اليه ، بل يسقطونه ، مثل قفاز بعد حفلة راقصة ، مثل ورقة لفت بها قطعة ملبسّ ، مثل ورقة يانصيب خاسرة .

جمع حاجياته على عجل ، وراح ينتظر لحظة السفر بلهفة . دهش كل من في البيت ، حين عرفوا بنيته . بل ان الخدم راحوا ينظرون اليه بحيرة . لم يخف باسيستوف اساه . وتحاشت ناتاليا رودين بشكل واضح . جاهدت الا يلتقي بصرها ببصره . ومع ذلك استطاع ان يدس رسالته في يدها . وكررت داريا ميخايلوفنا على الغداء انها تامل ان تراه قبل سفرها الى موسكو ، ولكن رودين لم يجبها بشيء . وكان بانداليفسكي اكثر مَنْ كان يبادله الحديث . وقد راودت رودين رغبة قوية اكثر من مرة في ان يهجم عليه ، ويقع

بالضرب على وجهه الزاهر المتورد . وكانت m-lle Boncourt تنظر مرارا الى رودين ، وفي عينيها تعبير ماكر غريب يمكن احيانا ان يلحظ لدى كلاب الصيد الشائخة والذكية جدا . وبدا وكأنها تقـول في سرها : «اها ! هذا ما جنيته على نفسك !»

واخيرا حلّت الساعة السادسة ، واُستحضِرت عربة رودين . اخذ يودع الجميع باستعجال . ونفسه متعكرة جدا . لم يكن يتوقع ان يغادر هذا البيت بهذا الشكل ، فكأنما طُرِد منه . . . «كيف حصل كل هذا ! وما الحاجة الى العجالة ؟ على كل حال النهاية واحدة» دار ذلك في خلده ، وهو يوزع الانحناءات في كل الجهات وعلى ثغره ابتسامة متكلفة . نظر الى ناتاليا للمرة الاخيرة ، وخفق قلبه . كانت عيناها تحدقان فيه بتقريع حزين مودّع .

نزل الدرج خفيفا ، وقفز الى العربة . تبرع باسيستوف بان يوصله الى اول محطة ، وجلس معه .

وما ان خرجت العربة من الفناء الى الطريق العريضة المعرشة باشجار التنوب حتى بادره رودين قائلا :

— هل تذكر قول دون كيخوت لتابعه ، حين خرج من قصر الدوقة ؟ قال : «الحرية هو ، يا صديقي سانتشو ، واحد من أغلى ممتلكات الانسان ، وسعيد ذلك الذي تهبه السماء قطعة خبز ، ومَنْ ليس بحاجة الى ان يكون مدينا من اجله لاحد !» (٣٢) وما شعر به دون كيخوت آنذاك اشعر به انا الآن . . . عسى الله ان يجعلك ، يا صديقي باسيستوف الطيب ، تحس بهذا الشعور في وقت ما !

شدّ باسيستوف على يد رودين ، وصار قلب هذا الشاب النزيه يخفق في صدره الرقيق بشدة . ظل رودين حتى المحطة يتحدث عن كرامة الانسان ، وعن اهمية الحرية الحقيقية — تحدث بحرارة ونبل وصدق — وحين حلّت لحظة الفراق ، لم يتحمل باسيستوف وارتمى على رقبته ، وانفجر يبكي . وسالت دموع رودين ايضا ، ولكنه لم يبك لفراق باسيستوف ، كانت دموعه دموع الاعتزاز بالنفس .

اختلت ناتاليا في غرفتها ، وقرأت رسالة رودين .

كتب لها :

«ناتاليا الكسييفنا الكريمة .

قررت الرحيل . وليس لي مخرج آخر . قررت الرحيل قبل ان يقال لي بجلاء انقلع . وبرحيلي سينتهي كل ما هو موجود من سوء التفاهم . ولا اظن ان احدا سيأسف عليّ . وماذا انتظر ؟ . . هذا ما حصل . ولكن لماذا اكتب لك ؟

افارقك الى الأبد ، في اغلب الظن ، وسيكون أمرّ بكثير لو تركت لك ذكرى عني اسوأ جدا من الذكرى التي استحقها . ولهذا اكتب لك . انا لا اريد ان ابرر نفسي ، ولا أن اتهم احدا غير نفسي . اريد ان اوضح نفسي قدر الامكان . . . احداث الايام الاخيرة كانت على درجة كبيرة من المباغتة والمفاجأة . . .

ولقاء اليوم سيكون لي درسا لا ينسى . نعم . كنتِ على حق . انا لم اكن اعرفك ، بينما كنت اتصور انني اعرفك ! وخلال حياتي كانت لي علاقات مع مختلف الناس ، وكنت قريبا الى العديد من النساء والفتيات ، ولكن لقائي بك كان لاول مرة لقاء بنفس صافية ومستقيمة **تماما** . ولم يكن ذلك مألوفا لي ، ولم استطع ان اقيمك . وقد احسست بميلي اليك منذ اليوم الاول لتعارفنا . وقد استطعت ان تلحظي ذلك . قضيت معك ساعات وساعات ولكنني لم اعرفك ، بل وما كدت احاول معرفتك . . . وتجرأت على ان اتصور انني قد احببتك !! والآن عوقبت على هذا الاثم .

في الماضي ايضا احببت امرأة ، واحبتني . . . وكانت عاطفتي نحوها معقدة ، مثل عاطفتها نحوي ، ولكنها لما كانت هي نفسها غير بسيطة ، فقد صار ذلك في محله . ولم تَلُحْ لي الحقيقة آنذاك . وانا لم اعرفها الآن ايضا ، حين تتراءى لي . . . واخيرا عرفتها ولكن في وقت متأخر جدا . . . والماضي لن يعود . . . وكان من الممكن ان تندمج حياتانا ، ولن تندمجا ابدا . وكيف اثبت لك انه كان من الممكن ان احبك حبا حقيقيا — حب القلب لا حب الخيال — وانا نفسي لا اعرف هل انا قادر على مثل هذا الحب !

لقد وهبتني الطبيعة الكثير ، وانا اعرف ذلك ، ولا اريد ان اتواضع امامك بسبب خجل كاذب ، لا سيما الآن ، في مثل هذه اللحظات المريرة ، والمخجلة بالنسبة لي . . . اجل ، وهبتني الطبيعة الشيء الكثير ، ولكنني سأموت دون ان اصنع شيئا لائقا بقواي ، ولا أبقي ورائي اي اثر نافع . . . وسيضيع كل غناي

سُدى ، اذ لن أري ثمار بذوري . . . يعوزني شيء . . . وانا نفسي لا استطيع ان اعين ماذا يعوزني بالذات . . . ربما يعوزني الشيء الذي لاغنى عنه لتحريك قلوب الناس ، للاستحواذ على قلب امرأة ، بينما السيطرة على العقول فقط ليست ثابتة ، ولا مفيدة . ان مصيري غريب وهزلي تقريبا . انا اهب نفسي كلها ، بجشع ، وبالتمام ، ولا استطيع ان اصبها . وسانتهي بان اضحي بنفسي لسفاسف لا اؤمن بها حتى . . . يا الهي ! أنا في الخامسة والثلاثين وما ازال انوي ان افعل شيئا ! . .

وانا لم افصح نفسي لحدُ الآن بهذا الشكل امام اي شخص . وهذا اعترافي .

ولكن كفى كلاما عن نفسي . احب ان اتكلم عنك ، واقدم لك بعض النصائح : فانا لا اصلح لغير ذلك . . . انت مـــا تزالين في مقتبل الشباب ، وبقدر ما تعيشين اتبعي دائما ما يوحيه قلبك ، ولا تخضعي لعقلك ولا لعقل غيرك . وثقي كلما كانت الدائرة التي تدور فيها الحياة بسيطة وضيقة كان احسن ، فليست المسألة ان تبحثي فيها عن جوانب جديدة ، بل في ان تحصل كل تحولاتها في اوانها . «متعم ذلك الذي كان منذ شبابه شابا . . .» (٣٣) ولكنني الاحظ ان هذه النصائح تنطبق عليّ اكثر بكثير مـــا تنطبق عليك .

اعترف لك ، يا ناتاليا الكسييفنا ، بانني اشعر برهق شديد . لم اخدع نفسي قط بمزية الشعور الذي اوحيته لداريا ميخايلوفنا ولكنني كنت آمل بانني وجدت مرسى مؤقتـــا ، على الأقل . . . والآن يتعيّن عليّ من جديـد ان اجوب العالم . ولكن مـــا الذي يعوضني عن حديثك ، عن حضورك ، عن نظرتك الثاقبة الذكية ؟ . . الذنب عليّ . ولكن وافقيني على ان القدر ضحك منا ، عن عمـد كما يبدو . قبل اسبوع ما كدت انا نفسي اخمن انني احبك . وقبل ثلاثة ايام ، في المساء ، سمعت منك في الحديقة ، لاول مرة . . . ولكن ما الفائدة من تذكيرك بما قلتِه ذات مرة . . . وها انا اليوم ارحل ، ارحل مجللا بالعار ، بعد مكاشفة قاسية معك ، غير حامل معي اي امل . . . وانت لا تعرفين بعد الى اي درجة انا مذنـــب ازاءك . . . ان فيّ حماقة بصراحة ، ميلا الى الثرثرة . . . ولكن لاحاجة الى الكلام عن ذلك ! انا راحل الى الأبد .

(وهنا روى رودين لناتاليا زيارته لفولينتسيف ، ولكنه فكر ، ولطّخ كل هذا الموضع ، واضاف لرسالة فولينتسيف الحاشيـــة الثانية) .

ساظل وحيدا على الأرض لكي اكرس نفسي ، كما قلت اليوم صباحا ، بضحكة تهكمية قاسية ، لمهمات مؤهل لها اكثر . آواه ! لو كنت حقا قادرا على ان اكرس نفسي الى هذه المهمات ، واتغلب اخيرا على كسلي . . . ولكن لا ! ساظـل نفس المخلوق الناقص الذي كنته لحد الآن . . . ومع اول عقبة انهار كليا . وقد اثبت لي ذلك ما حدث لي معك . على الاقل لو ضحيت بحبي لقضيتـــي المقبلة ، لرسالتي ، ولكنني ارتعبت من المسؤولية التي وقعت على عاتقي لا غير ، ولهذا السبب بالذات لست جديرا بك بالضبط . لست استحق ان تنتزعي من محيطك من أجلي . . . على اية حال ، ربما في كل ذلك خير اعم . فلربمـا اخرج من هذا الامتحان انقى واقوى .

اتمنى لك السعادة التامة . وداعا . تذكريني من حين لآخر . وآمل ان تسمعي عني في المستقبل .

رودين» .

ارخت ناتاليا رسالة رودين لتقع على ركبتيها ، وظلت لوقت طويل ساكنة بلاحراك ، مصوبة بصرها الى ارض الغرفة . ان هذه الرسالة اثبتت لها ، اكثر من كل الاستنتاجات المحتملة ، على أنها كانت على حق ، حين فارقت رودين في الصباح ، وقد وجدت نفسها تصيح انه لا يحبها ! ولكن ذلك لا يخفف عليها مصابها . جلست لا تريم . وكان يخيل اليها أن امواجا قاتمة تنطبق بلا صوت فوق راسها ، وانها تغوص الى القاع خامدة متخدرة ، وخيبة الامل الاولى تثقل على اي انسان ، ولكنها لا تكاد تطاق بالنسبة لنفس مخلصة ، لم ترد تضليل ذاتها ، وغريب عليها الاستخفاف والمبالغة . تذكرت ناتاليا طفولتها ، حين كانت ، اذا خرجت للتنزه مساء ، تحاول ان تسير باتجاه حافة السماء المضيئة ، حيث يشتعل الشفق ، وليس باتجاه الظلمة . والحياة الآن داكنة أمامها ، وظهرها للنور . . .

ترقرقت عينا ناتاليا بالدموع . والدموع ليست دائما مريحة . انها مفرحة وشافية حين تتجمع طويلا في الصدر ، وتفيض اخيرا

يجهد في بادىء الامر ، ثـم اخف والذ ، منبعثة من غـم اللوعة الاخرس . . . ولكن هناك دموعا باردة ، تنسكب شحيحة تقطرها من القلب قطرة قطرة محنة تكلكل عليه كوقر ثقيل لا يتزحزح . انها بلا فرحة ولا تجلب اي تنفيس . والضيق يبكي بهذه الدموع ، ومن لم يسكبها لم يعرف التعاسة بعد . فذاقت ناتاليا في هذا اليوم مرارتها .

انقضت ساعتان او نحوهما ، وجمعت ناتاليا شتات عزيمتها ، ونهضت ، ومسحت عينيها ، واشعلت شمعة ، واحرقت رسالـة رودين على لهيبها الى الاخر ، والقت الرماد وراء النافذة . ثم فتحت ديوانا لبوشكين تيمنا ، وقرات اول ما وقعت عليه من الابيات (وكانت غالبا ما تاخذ الفال به) . وهذا ما وقعت عليه :

ان مَنْ كان يحس هو مَنْ يرعبه
شبح الايام التي لا تعود . . .
ولم يعد له ما يسحره
وتلدغه افعى الذكريات
والندامة . . .

وقفت قليلا ، ونظرت الى نفسها في المرآة بابتسامة باردة ، وحركت راسها حركـة صغيرة من الأعلى الى الاسفل ، ونزلت الى حجرة الجلوس .

وحالما راتها داريا ميخايلوفنا قادتها الى مكتبها ، واجلستها قربها ، وربتت على خدها بحنان ، وفي الوقت ذاته راحت تحدق في عينيها بانتباه وبفضول تقريبا . كانت داريا ميخايلوفنا تحس بحيرة خفية ، فقد دار بخلدها لاول مرة انها في الواقع لا تعرف ابنتها معرفة حقيقية . وعندمـا سمعت من بانداليفسكي عن موعد ابنتها مع رودين لم تغضب بقدر ما دهشت من اقدام ناتاليـا الرشيدة على هذه الفعلة . ولكنها حين دعتها الى حجرتها ، واخذت تلومها — لا كما ينبغي التوقع من امراة اوربية اطلاقا ، بل بكثير من الزعيق وانعدام اللباقة — اربكتها ، بل ارعبتها اجوبة ناتاليا القوية ، وحزم نظراتها وحركاتها .

ازاح رحيل رودين المفاجىء وغير المفهوم كليا ثقلا كبيرا عن قلبها ، ولكنها كانت تتوقع دموعا ونوبات هيستيرية . . . ومرة اخرى بهرها هدوء ناتاليا الظاهري .

اخذت داريا ميخايلوفنا تقول :

— طيب ، يا طفلتي ، كيف انت اليوم ؟

نظرت ناتاليا الى أمها .

— صاحبك ، عاشقك . . . رحل . الا تعرفين لمـاذا استعد للسفر بهذه السرعة ؟

بدات ناتاليا تقول بصوت خافت :

— ماما ، اعطيك عهدا بانك ، اذا لا تذكرينه بنفسك ، لن تسمعي مني شيئا ابدا .

— يعني ، انت تقرين بأنك قصرت في حقي ؟

خفضت ناتاليا راسها ، وكررت :

— لن تسمعي مني شيئا ابدا .

ردت داريا ميخايلوفنا مبتسمة :

— طيب ، اياك ! انـا اصدق بك . وهل تذكرين أنك اول امس . . . طيب ، ساسكت عن ذلك . انتهى وانقضى ودفن . اليس صحيحا ؟ والآن اعرفك من جديد ، والا فقد كنت في طريق مسدود . حسنا ، قبليني ، يا ذكيتي !

رفعت ناتاليا يد داريا ميخايلوفنا الى شفتيها ، وقبلتها داريا ميخايلوفنا من راسها المحني . واضافت :

— اطيعي نصائحي دائمـا ، ولا تنسـي أنك من عائلـة لاسونسكايا ، وانك ابنتي . وستكونين سعيدة . والآن انصرفي .

خرجت ناتاليا صامتة . نظرت داريا ميخايلوفنا في اثرهـا ، وراحت تفكـر : «انهـا تشبهني ، وستغرم mais elle aura moins d'abandon. * . وغرقت داريا ميخايلوفنا في ذكريات الماضي . . . الماضي البعيد . . .

ثم امرت بأن ينادى على m-lle Boncourt ، واختلت بهـا ، وجلست معها طويلا . وبعد ان صرفتهـا دعت بانداليفسكي . فقد كانت ترغب رغبـة شديدة في ان تعرف السبب الحقيقي لرحيل رودين . . . ولكن بانداليفسكي طمأنها تماما . وكان ذلك من اختصاصه .

---

* ولكنها اكثر ضبطا لنفسها مني (بالفرنسية في الاصل) .

في اليوم التالي وصل فولينتسيف واخته عند الغداء . كانت داريا ميخايلوفنا دائما لطيفة معه جدا ، وفي هذه المرة عاملته برقة متناهية . وكانت ناتاليا في ضيق من امرها لا يحتمل . ولكن فولينتسيف كان معتبرا جدا ، تحدث اليها بتهيب شديد ، حتى انها في قرارة نفسها ما كان لها الا ان تشكره .

انقضى اليوم بهدوء ، ووحشة كبيرة ، ولكن الجميع احسوا وهم ينصرفون ، بانهم عادوا الى سابق عهدهم . وهذا يعني الكثير ، والكثير جدا .

اجل ، لقد عاد الجميع الى سابق عهدهم . . . الجميع ما خلا ناتاليا . ولما بقيت وحدها اخيرا ، جرجرت نفسها بصعوبة الى سريرها ، وسقطت ووجهها الى الوسادة متعبة مسحوقة . فقد بدا لها الاستمرار في الحياة مريرا جدا ، ومقززا ، ووضيعا ، وصارت تخجل كثيرا من نفسها ، ومن حبها ، ومن حزنها ، حتى انها ، في تلك اللحظة ، ربما كانت تقبل بالموت . . . وما زال امامها الكثير من الايام المرهقة ، والليالي المؤرقة ، والانفعالات المضنية . ولكنها كانت شابة ، والحياة بالنسبة لها في مستهلها ، والحياة ستاخذ مجراها ان عاجلا او آجلا . فالانسان مهما تلقى من ضربة ياكل في نفس اليوم او في اليوم التالي على الاكثر – وارجو المعذرة على فظاظة التعبير – وها هي تسريته الاولى . . .

كانت ناتاليا تتعذب عذابا مبرّحا ، وكانت تتعذب للمرة الاولى . . . ولكن العذابات الاولى ، كالحب الاول ، لا تتكرر ، والحمد لله !

١٢

مرّ ما يقرب من عامين . وجاءت ايام ايار الاولى . وكانت الكسندرا بافلوفنا جالسة في شرفة بيتها ، ولكنها لم تعد تحمل لقب عائلتها الأول ليبينا ، بل كانت تلقب بليجنيفا ، على لقب زوجها . وكان قد مضى اكثر من عام على زواجها من ميخايلو ميخايليتش . وكانت عذبة كالسابق ، سوى انها سَمِنَتْ قليلا في الآونة الاخيرة . وامام الشرفة التي كانت درجاتها تؤدي الى الحديقة كانت المرضعة تتمشى حاملة بين يديها طفلا مورّد الخدين ، وهو

في معطف قصير أبيض ، وقبعة ذات كرة صغيرة بيضاء . وكانت الكسندرا بافلوفنا تنظر اليه من حين لآخر . لم يكن الطفل يولول ، بل كان يمص اصبعه بعظمة ، وينظر فيما حوله بهدوء . وحتى منذ الآن كان يتظاهر فيه ابن ميخايلو ميخايليتش المعتبر شبيها بابيه .

وفي الشرفة كان يجلس صاحبنا القديم بيغاسوف الى جانب الكسندرا بافلوفنا . وكان قد شاب بشكل ملحوظ منذ ان تركناه ، واحدودب ، ونحل ، وراح يهس بصوته . فقد سقطت احدى اسنانه الامامية ، وهسيس صوته اضاف الكثير من السم الى احاديثه . . . ولم يخف ضغنه مع الزمن ، ولكن نكاته الحادة قد فترت ، وكان يكرر نفسه اكثر من السابق . وكان ميخايلو ميخايليتش متغيبا عن البيت ، يتوقعون وصوله في وقت احتساء الشاي . وكانت الشمس قد غربت . وعند مغربها كان يمتد شريط ذهبي شاحب ، بلون الليمون ، على طول منحدر السماء . وكان ثمة شريطان آخران في الجهة المقابلة اسفلهما ازرق ، والآخر ، الأعلى احمر ليلقي . وفي السمت كانت سحب خفيفة تتبدد . وكل شيء يَعِد بطقس غير متقلب .

وفجأة ضحك بيغاسوف . فسألت الكسندرا بافلوفنا :

– ما الذي يضحكك ، يا افريكان سيميونيتش ؟

– لا شيء . . . يوم امس سمعت أن فلاحا قال لزوجته ، وقد اسرفت في الثرثرة : «لا تصرصري ! . .» فاعجبني قوله كثيرا . لا تصرصري ! . . نعم ، فاذا اردت الواقع في اي شيء تستطيع المرأة أن تحاجج ؟ وانت تعرفين ، انني لا اتكلم ابدا عن الحاضرات . شيوخنا كانوا اذكى منا . الحسناء في حكاياتهم تجلس عند النافذة ، يشع النجم في جبينها ، ولا تنطق بشيء . وهذا ما ينبغي ان يكون . والا فاحكمي بنفسك . منذ ثلاثة ايام تقول لي عميدتنا ان **نزعتي** لا تروق لها ، مطلقة الكلام وكأنها تطلق النار على جبيني من مسدس . نزعة ! أما سيكون افضل لها وللجميع لو انها بامر نبيل من الطبيعة حرمت فجأة من استخدام لسانها ؟

– ما زلت كما كنت ، يا افريكان سيميونيتش . تهاجمنا نحن المسكينات . . . ان هذا نوع معين من التعاسة ، حقا . انا ارثي لك .

— تعاسة ؟ ماهذا الذي تقولينه ، وارجو المعذرة ؟ اولا ، في رأيي لا يوجد غير ثلاث تعاسات في الدنيا : قضاء الشتاء في شقة باردة ، ولبس حذاء طويـــل ضيق في الصيف ، والمبيت في غرفة يولول فيها طفل لا يمكن رشه بمسحوق قاتل الحشرات . وثانيا ، ولا مؤاخذة ، اصبحت انا الآن اودع انسان . مثالا لآداب السلوك ! اتصرف بخُلُق .

— واى تصرف هذا ! يـــوم امس فقط شكت لي يلينـــا انطونوفنا منك .

— هكذا اذن ! هل سمحت ان اعرف ماذا قالت لك ؟

— قالت انك طوال الصباح كنت ترد على اسئلتهـــا «ماذا ؟ ماذا ؟» وبصوت مصوصيء فضلا عن ذلك .

ضحك بيغاسوف :

— ولكنها فكرة جيدة ، الا توافقينني ، يا الكسندرا بافلوفنا ؟

— مدهشة ! وهل من المعقول أن يجوز للمرء ان يتصرف مع امراة هذا التصرف غير المؤدب ، يا افريكان سيميونيتش ؟

— كيف ؟ وهل تعتبرين يلينا انطونوفنا امراة ؟

— وما هي في رأيك ؟

— طبل ، وارجو المعذرة ، طبل اعتيادي من تلك الطبول التي يدق عليها بالعصوات . . .

— آه ، نعم — قاطعته الكسندرا بافلوفنا ، وهي تريد تغيير الحديث — يقال يمكن ان نهنئك ؟

— على اي شيء ؟

— على كسب الدعوى . بقيت مروج غلينوبه لك . . .

— نعم ، لي .

ردّ بيغاسوف بتجهم .

— قضيت سنين لتكسبها ، وانت الآن كانك غير راض .

قال بيغاسوف ببطء :

— ليكن في علمك ، يا الكسندرا بافلوفنا ، انه لا شيء يمكن ان يكون اسوأ واكثر تكديرا من سعادة تاتي متاخرة جدا . فهي ، في كل الاحوال ، لا يمكن ان تمدك بمتعة ، بينما هي تحرمك من حق ، وحق ثمين ، هو ان تتذمري وتلعني القدر . . . نعم ، يـــا مولاتي ، ان السعادة المتأخرة شيء مر ومكدر .

اكتفت الكسندرا بافلوفنا بأن هزّت كتفيها . ونادت :

— يا مربية ، اظن ان وقت نوم ميشا قد حان . هاتيه .

وانشغلت الكسندرا بافلوفنـــا بابنها ، وابتعد بيغاسوف الى الزاوية الاخرى من الشرفة ، وهو يدمدم .

وفجاة ظهر ميخايلو ميخايليتش على عربته الخفيفة ، غير بعيد ، على الطريق الممتد على طول الحديقة . كان كلبان ضخمان من كلاب الحراسة يجريان امام الحصان . احدهما اصفر ، والآخر رمادي . وكان ليجنيف اقتناهمـــا قبل وقت قصير . وكانـــا يتناوشان باستمرار ، ويعيشان في صداقة وثيقة . خرجت من البوابة للقائهما كلبة عجوز ، وفتحت فمها ، وكانها تهم بالنباح ، ولكنها تثاءبت ، وعادت ادراجها ، مبصبصة بذيلها مستأنسة .

صاح ليجنيف بزوجته من بعيد :

— انظري ، يا ساشا . بمَنْ جئتك . . .

لم تعرف الكسندرا بافلوفنا رأسا الشخص الجالس وراء ظهر زوجها . ولما عرفته هتفت اخيرا :

— آه ! السيد باسيستوف !

اجاب ليجنيف :

— نعم ، هو . واي اخبار سارة جلب لك ! انتظري ، ستعرفين حـــالا .

ودخل بعربته الى الفناء .

وبعد لحظات ، ظهر في الشرفة ومعه باسيستوف .

— هورا ! — هتف وعانق زوجته . سيرغي يتزوج !

سألت الكسندرا بافلوفنا بانفعال :

— بمن ؟

— بناتاليا ، بالطبع . . . صديقنا جلب هذا النبا من موسكو ، ولك رسالة ايضا . . . — واخذ ابنه في يديه ، واضاف — اتسمع ، يا ميشوك * ؟ خالك يتزوج ! . . اية بلغمية خبيثة ! وهذا يقلب عينيه لا غير !

قالت المربية :

— يريد ان ينام .

* صيغة تودد اخرى لميخائيل . **المعرب** .

وقال باسيستوف ، وهو يتقدم من الكسندرا بافلوفنا :

– نعم ! وصلت اليوم من موسكو في مهمة من لدن داريا ميخايلوفنا ، يا الكسندرا بافلوفنا . لمراجعة حسابات الضيعة . وها هي الرسالة .

اسرعت الكسندرا بافلوفنا تفض رسالة اخيها . وكانت مكونة من بضعة سطور . في سورة الفرح الاولى كان يخبر اخته انه عرض الزواج على ناتاليا ، وحصل على موافقتها وموافقة داريا ميخايلوفنا ، ووعد ان يكتب اكثر في اول بريد وعانق وقبل الجميع غيابيا . والظاهر انه كتب في فورة من العاطفة .

قدم الشاي . واقعدوا باسيستوف وامطروه بوابل من الاسئلة . وسُرّ الجميع ، وحتى بيغاسوف ، بالاخبار التي جلبها باسيستوف .

وللمناسبة قال ليجنيف :

– قل لي ، من فضلك . وصلتنا شائعات عن السيد كورتشاغين . يعني ، كانت الشائعات كاذبة ؟

(كان كورتشاغين شابا وسيما ، من المحظوظين في المجتمع الراقي ، منفوخا للغاية ، ومتعاظما ، فقد كان يشمخ شموخا غير اعتيادي ، فكانه لم يكن انسانا حيا ، بل تمثالا له ، نُصب باكتتاب عام) .

قال باسيستوف مبتسما :

– لا ، ليست كاذبة كليا . كان يتمتع بحظوة كبيرة لدى داريا ميخايلوفنا ، ولكن ناتاليا الكسييفنا لم تكن تحب حتى ان تسمع عنه .

فبادر بيغاسوف يقول :

– بالمناسبة ، انا اعرفه ، غبي راسخ في الغباوة ، غبي صارخ . . . وارجو المعذرة ! ولو كان كل الناس مثله ، لوجب اخذ فلوس اكثر ليوافق المرء على ان يعيش في هذه الدنيا . . . وارجو المعذرة .

قال باسيستوف :

– ربما ، ولكنه في المجتمع الراقي يلعب دورا ليس من الادوار الاخيرة .

هتفت الكسندرا بافلوفنا .

– لا فرق ، على اية حال ! اتركونا منه ! آه ، كم انا مسرورة لاخي ! . . وهل ناتاليا مبتهجة ، سعيدة ؟

– نعم . انها رصينة ، كما هي دائما ، فانت تعرفينها ، ولكن يبدو انها راضية .

وانقضى المساء كله في حديث ناشط لذيذ . وجلسوا الى العشاء . سأل ليجنيف باسيستوف ، وهو يصب له نبيذ «لافيت» الاحمر .

– نعم ، بالمناسبة . هل تعرف اين رودين ؟

– لا اعرف بالتاكيد اين هو الآن . في الشتاء الماضي كان في موسكو لفترة قصيرة ، ثم سافر مع عائلة من معارفه الى سيمبيرسك . وقد تبادلنا الرسائل بعض الوقت . وفي رسالته الاخيرة اخبرني انه سيغادر سيمبيرسك ، ولم يقل الى اين . ومنذ ذلك الحين لم اسمع شيئا عنه .

قال بيغاسوف مبادرا :

– لن يضيع ، انه الآن في مكان ما يرسل المواعظ . ان هذا السيد دائما يجد لنفسه معجَبين او ثلاثة سيسمعونه فاغري الافواه ، ويقرضونه نقودا . سترون انه سينتهي بان يموت في بلدة نائية بين يدي عانس هرمة تضع على رأسها شعرا مستعارا ، وتظنه اكبر عبقري في العالم . . .

قال باسيستوف بصوت خافض ، وباستياء :

– ان لك رأيا قاسيا فيه .

قال بيغاسوف :

– ليس قاسيا على الاطلاق ! بل عادل تماما . في رأيي انه ليس الا عالق صحون . نسيت ان اقول لك – اضاف متوجها الى ليجنيف – لقد تعرفت بترلاخوف الذي سافر رودين معه الى الخارج . بالطبع ! بالطبع ! انك لا تستطيع ان تتصور ما حكاه لي عنه . اضحوكة تماما ! الشيء الرائع ان جميع اصدقاء رودين واتباعه يصبحون اعداءه مع الزمن .

قاطعه باسيستوف بحماس :

– ارجو ان تستثنيني من مثل هؤلاء الاصدقاء .

– طيب ، انت امر آخر ! لا تُقصد مجرد قصد .

سألت الكسندرا بافلوفنا :

– وماذا حكى ترلاخوف لك عنه ؟

— حكى الكثير ، ولا يمكـــن ان اتذكـــر كل شـــيء . ولكن هذه الحادثة احسن ما وقع لرودين . رودين يتطـــور باستمرار (هؤلاء السادة يتطورون دائما . الآخرون ، مثلا ، يناموون ويأكلون لا غير ، بينما هم دائما في لحظة تطور النوم والاكل ، أليس كذلك ، يا سيد باسيستوف ؟ — لم يرد باسيستوف) . . . وهكذا وصل رودين بتطوره المستمر ، وعن طريق الفلسفة ، الى استنتاج ذهني بأن يجب عليه أن يكون معشوقا . في البداية بحث عن طرف يستحق هذا الاستنتاج الذهني المدهش . وابتسم لــه الحظ ، وتعرف على فرنسية هي خياطة ماهرة حلوة . وقد حدث هذا في مدينة المانية على الراين ، لاحظوا ذلك . واخذ يتردد عليها ، ويجلب لها مختلف الكتب ، ويحدثها عن الطبيعة وهيغل . اتستطيعون ان تتصوروا وضع الخياطة ؟ حسبته فلكيا . الا انه ، كما تعرفون ، شاب لا بأس به ، اجنبي ، روسي ، راق لها . وها هو ، اخيرا يحدد موعدا غراميا ، شاعريا جدا ، في جندول على النهر . ووافقت الفرنسية . لبست احسن ثيابها ، وتنزهت معه في الجندول ، حوالى ساعتين . ما رأيكم ، بماذا كان منشغلا طوال هذا الوقت ؟ كان يمسد رأس الفرنسية ، ويحدق في السماء مستغرقا في افكاره ، ويكرر عدة مرات انه يشعر نحوها بحنان ابوي . وعادت الفرنسية الى بيتها مهتاجة ، وفيما بعد قصت بنفسها كل شيء لترلاخوف . هكذا هو !

ضحك بيغاسوف .

فلاحظت الكسندرا بافلوفنا في كدر :

— يالك من كلبي عجوز . انـــا اتيقن اكثر فاكثر بانه حتى الذين يعيبون رودين لا يستطيعون ان يقولوا شيئا سيئا في حقه .

— لا يقولون شيئا سيئا ؟! اعذريني ، وعيشه الدائـــم على حساب الآخرين ، ديونه . . . ميخايلو ميخايليتش ! اغلب الظن كان يستدين منك ايضا ؟

انشأ ليجنيف يقول ، وقد اتخذ وجهه تعبيرا جادا :

— اسمع ، افريكان سيميونيتش ! اسمع قليلا : انت تعرف ، وزوجتي ايضا تعرف انني في الآونة الاخيرة لـم اشعر بميل كبير نحو رودين ، بل وغالبا ما كنت ادينه . مع كل هذا (وصب ليجنيف الشمبانيا في الاقداح) اقترح عليكم ما يلي : شربنا قبل حين في

صحة اخينا العزيز وخطيبته ، والآن اقترح عليكم ان نشرب في صحة دميتري رودين !

نظرت الكسندرا بافلوفنا وبيغاسوف الى ليجنيف باندهاش ، بينما اهتز باسيستوف بكل كيانـــه ، واحمر من الفرح ، وبحلق عينيه . وتابع ليجنيف يقول :

— انا اعرفه جيدا . ونقائصه معروفة لي جيدا . على الاخص وانها تطفح الى الخارج ، ولكن هو نفسه ليس رجلا ضئيلا .

انضم باسيستوف اليه قائلا :

— رودين شخصية عبقرية !

قال ليجنيف :

— اظن ان فيه صفة العبقرية . امـا الشخصية . . . فبليته كلها . . . اذ ليس لـــه شخصية بالذات . . . ولكن ليست هذه هي المسألة . اريد ان اقول ان فيه شيئا طيبا نادرا . فيه حماسة . وهذه ، وصدقوني ، انا الرجل الفاتر ، صفة من اثمن الصفات في زماننا . لقد اصبحنا جميعا متعقلين بشكل لا يطاق ، لا مبالين ، ورخوين . غفونا ، وفترنا ، فشكرا على ذلك الذي يحركنا ، يدفئنا ولو للحظة واحدة ! آن الاوان ! انت تذكرين ، يا ساشا ، انني تحدثت معك عنه ذات مرة ، واعبته على برودته . كنت على حق ، ولم اكن على حق آنذاك . ان برودته في دمه — وهو غير ملوم في ذلك — وليست في رأسه . انـه ليس ممثلا ، كما كنت اصفه ، ولا مخادعا ، ولا محتالا ، وهو يعيش على حساب الآخرين لا كدجال ، بل كطفل . . . اجل ، سيموت ، بالفعل ، في مكان ما في عوز وفاقة . ولكن هل من المعقول انني بسبب ذلك ارجمه بالحجارة ؟ انه لا يفعل شيئا لانه بالضبط ليست له شخصية ، ليس له دم . ولكن مَنْ يحق له ان يقول انه لا يجلب ولم يجلب نفعا؟ ألم تلق كلماته الكثير من البذور الطيبة في نفوس الشبان ، الذين لم تبخل عليهم الطبيعة ، كما بخلت عليـــه ، بقوة العمل ، بالقدرة على تحقيق مشاريعهم ؟ نعم ، انا نفسي ، انا اول مَنْ مرَّ بهذه التجربة . . . ساشا تعرف ماذا كان رودين بالنسبة لي في صباي . وانا اتذكر انني ايضا كنت اؤكد على ان اقوال رودين لا تستطيع ان تؤثر في الناس ، ولكن كنت اتحدث عندئذ عن اناس من مثلي ، في مثل سني الآن ، عن أناس عاشوا ، وضعضعتهم الحياة . صوت زائف



واحد في الكلام كفيل في ان يجعل كل انسجامه يتلاشى في اعيننا . من حسن الحظ ان حاسة السمع في الشاب لم تتطور بعد تطورا كبيرا ، لم تدلل كثيرا . واذا بدا له جوهر ما يسمعه رائعا ، فلا تهمه اللهجة التي قيل بها ! سيجد اللهجة بنفسه في نفسه .

هتف باسيستوف :

— مرحى ! مرحى ! ما أعدل كلامك ! امـا بخصوص تأثير رودين ، فاقسم لك ، على ان هذا الرجل كان قديرا ليس على ان يهزك فقط ، بل وعلى ان يحركك من مكانك . لا يدعك تتوقف ، ويقلبك من الاساس ، ويشعل النار فيك !

وواصل ليجنيف مخاطبا بيغاسوف :

— هل تسمع ؟ واي برهان آخر تحتاج ايضا ؟ انت تهاجم الفلسفة ، وحين تتحدث عنها لا تجد لها الكلمات المزدرية بقدر كاف ، انا نفسي لا احفل بها كثيرا ، ولا افهمها بشكل جيد . ولكن مصائبنا الرئيسية ليس من الفلسفة ! الحذلقات الفلسفية والمعميات لا تغري الروسي ابدا . فان له الكثير من التفكير السليم لكيلا يتقبلها . ولكن لا يجوز السماح ، باسم الفلسفة ، مهاجمة كل سعي شريف الى الحقيقة ، والى الوعي . ومصيبة رودين هي في انه لا يعرف روسيا ، وهذا بالضبط مصيبة كبيرة . وروسيا تستطيع ان تستغني عن اي واحد منا ، ولكن لا احد منا يستطيع ان يستغني عنها . والويل لمن يظن ذلك ، والويل مرتين لمن يستغني عنها بالفعل . الكوسموبوليتية هراء ، والكوسموبوليتي صفر ، اسوأ من الصفر ، ودون روح الشعب لا يوجد فن ، ولا حقيقة ، ولا حياة ، ولا شيء على الاطلاق . وبدون سحنة لا يوجد حتى وجه مثالي . بدون سحنة يمكن فقط ان يوجد وجه مبتذل . ولكني اقول مرة اخرى ان هذا ليس ذنب رودين ، بل هذا قدره ، قدر مرير وثقيل لن نلومه نحن بالذات ، عليه . وسننجرف بعيدا جدا ، اذا اردنا ان ننفذ الى اسباب ظهور امثال رودين عندنا . اما ما فيه من خير فسنشكره عليه . وهذا اسهل من ان نكون غير منصفين معه . وقـد كنا غير منصفين معـه . وعقابـه ليس من شأننـا ، كما لا حاجة لذلك . هو عاقب نفسه عقابـا اقسى بكثير مما كان يستحق . . . وسنحمد الله لو ان المصيبة انتزعت منه كل ما هو سيئ فيه ، وابقت كل ما هو جميل ! انا اشرب في صحة رودين !

اشرب في صحة رفيقي في افضل سنوات حياتي ، اشرب نخب الشباب ، نخب آماله ، نخب طموحاته ، نخب ثقته ، واخلاصه ، نخب كل ما خفقت له قلوبنا ونحن في العشرين من العمر ايضا ، وما لم نعرف احسن منه ، على اية حال ، ولن نعرف في الحيـــاة . . . اشرب نخبك ، ايها الزمن الذهبي ، اشرب في صحة رودين !

وقرع الجميع كؤوسهم مع ليجنيف . وكاد باسيستوف يكسر قدحه من شدة الحماس ، وأتى على ما فيه دفعة واحدة . اما الكسندرا بافلوفنا فقد صافحت يد ليجنيف .

قال بيغاسوف :

– انا ، يا ميخايلو ميخايليتش ، لم اكن اظن ان لك مثل ذلاقة اللسان هذه . إنها تليق حتى بالسيد رودين نفسه . اثرت حتى فيّ .

قال ليجنيف ولهجته لا تخلو من ضيق :

– لست ذلق اللسان ابدا . واظن التأثير فيك صعب . على العموم كفى حديثا عن رودين . تعالوا نتحدث عن شيء آخر . . . – واضاف مخاطبا باسيستوف – اما يزال . . . كيف غاب اسمه عن بالي ؟ . . . بانداليفسكي يعيش عند داريا ميخايلوفنا ؟

– طبعا ، عندها طوال الوقت ! سمعت له فحصل على وظيفة مربحة جدا .

ابتسم ليجنيف ابتسامة تهكم .

– هذا الذي لا يموت في الفاقة . يمكن ان اتكفل بهذا .

انتهى العشاء . وتفرق الضيوف . ولما بقيت الكسندرا بافلوفنا وحدها مع زوجها ، نظرت في وجهه مبتسمة . وقال وهي تداعب جبينه بيدها :

– ما الطفك اليوم ، يا ميشا ! كيف تحدثت بذكاء ونبل ! ولكن اعترف بأنك انحزت قليلا الى جانب رودين ، مثلما كنت تنحاز ضده من قبل . . .

– المهزم لا يقسى عليه . . . كنت آنذاك اخشى ان يفقدك رشدك .

اعترضت الكسندرا بافلوفنا ببساطة نفس :

– لا . كان دائمـــا يبدو لي متبحّرا جدا في العلم ، وكنت

اخافه ولا اعرف ماذا اقول في حضوره . الا تعترف ان بيغاسوف سخر منه اليوم بضغن شديد ؟

قال ليجنيف :

– بيغاسوف ؟ لقد دافعت عن رودين بتلك الحرارة ، بسبب وجوده بالذات . انه يجرؤ على نعت رودين بعالق صحون ! بينما ارى ان دوره ، دور بيغاسوف اسوأ بمائة مرة . انه في وضع مستقل ويسخر من كل شيء ، بينما هو نفسه يتودد للاشراف والاثرياء بلا حدود ! هل تعرفين ان بيغاسوف هذا الذي يشتم كل شيء وكل الناس بمثل هذا الحنق ، ويهاجم الفلسفة والنساء ، هل تعرفين انه حين كان في الخدمة ، اخذ الرشاوى ، وما اكثرها ! ها ! هذا هو بالضبط !

هتفت الكسندرا بافلوفنا :

– معقول ؟ لم اتوقع ذلك قط ! اسمع ، ميشا – اضافت بعد صمت قصير – اريد ان اسالك . . .

– ماذا ؟

– ماذا تظن ، هل سيكون اخي سعيدا مع ناتاليا ؟

– ماذا اقول لك . . . كل الاحتمالات موجودة . . . ستتولى هي القيادة ولا حاجة الى الاخفاء بيننا – انها اذكى منه . الا أنه رجل لطيف ، ويحبها من كل قلبه . وماذا اكثر من ذلك ؟ فنحن مثلا يحب احدنا الآخر ، وسعيدان . اليس كذلك ؟

ابتسمت الكسندرا بافلوفنا ، وضغطت على يد ميخايلـــو ميخايليتش .

في نفس اليوم الذي وقع كل ما رويناه في بيت الكسندرا بافلوفنا كانت عربة مهودجة بائسة مغطاة بقماش خشن تجرها ثلاثة خيول مستأجرة تجرجر نفسها في شدة القيظ في احدى الطرق الكبيرة لاحدى ولايات روسيا النائية . وعلى مقعد الحوذي برز ريفي صغير اشيب في معطف متقب مصالبا قدميه على عمود العربة الافقي ، جاذبا من حين لآخر الاعنة المصنوعة من الحبال ، ملوحـــا بالسوط ، وفي العربة نفسها جلس على حقيبة هزيلة رجل طويل في سدارة ، وممطار

قديم مغبر . انه رودين . جلس مطوي الرأس ، وقد اسدل حافة سداراته على عينيه . كانت رجات العربة ترميه من جنب الى جنب ، وكان يبدو فاقد الحس تماما ، وكأنما غط في نعاس . واخيرا رفع قامته .

سأل رودين الرجل الجالس على مقعد الحوذي :

– متى سنصل الى المحطة ؟

بادره الرجل ، وهو يجذب الاعنة بقوة اشد :

– المسالة ، يا أبتي ، اذا صعدنا المرتفع الصغير لا يبقى امامنا غير حوالى فرسخين ، لا اكثر . . . – واضاف قائلا بصوت نحيل ، وهو يسوط الحصان على الجانب الايمن – يالك ! سرحت . . . ساعلمك كيف تسرح .

ذكر له رودين :

– يبدو لي انك بطيء جدا . منذ الصباح ، ونحن نجرجر ولا نستطيع ان نصل . على الاقل لو غنيت شيئا .

– اليد قصيرة ، يا ابتي . الخيول ، كما ترى ، منهكة . . . والقيظ من جديد . . ولا نستطيع ان نغني . لسنا سواقي عربات البريد . . . – وصاح الريفي فجاة مخاطبا مارا يرتدي جلبابا بنيا وخفين مستهلكين من الليف – خروف . . يـــا خروف ! تنح عن الطريق .

غمغم المار في اثره وتوقف :

– فوه عليك . . . حوذي ! فضالة موسكو !

اضاف بصوت مفعم تقريعا ، وهزّ رأسه ، وسار في سبيله .

– جسارة منك ! – ردّ عليه الحوذي مقطعا الكلمة جاذبا الحصان الوسط – آخ منك ، يا ماكر ! حقا ماكر . . .

واخيرا وصلت الخيول المنهكة نزل البريد بعد جهد جهيد . خرج رودين من العربة ، ودفع للحوذي (الذي لم ينحن له ، وراح يزن النقود في كفه طويلا ، يبدو ان القليل منها بقي للفودكا) ، وحمل الحقيبة بنفسه الى حجرة المحطة .

ان احد اصحابي ، وكان في زمانه قد تنقل في روسيا كثيرا ، ابدى ملاحظة ، وهي اذا كانت جدران حجرة المحطة مزينة بلوحات تصور مشاهد من «اسير القوقاز» او جنرالات روسيا ، فمعناه ان من الممكن الحصول على خيول سريعا ، ولكن لو كانت اللوحات تصور

حياة المقامر المعروف جورج دي جرماني (٣٤) ، فليس من امـــل للسائح في مغادرة سريعة ، وسيكون له متسع من الوقت ليتمعن في خصلة المقامر الشاب المبرومـــــة وصداره الابيض المحلول ، وبنطاله الضيق للغاية ، والقصير ، في الصورة التي تمثل شبابه ، وفي سحنته الممسوحة ، حين يقتل ابنه ، بعد ان صار عجوزا ، ملوحا بكرسي في كوخ ريفي صغير منحدر السطح . وفي الحجرة التي دخلها رودين كانت هاتان اللوحتان بالذات من «ثلاثون عاما او حياة مقامر» معلقتين على جدرانها . جاء ناظر المحطة على صيحة رودين ، والنوم عالق في اهدابه (وبالمناسبة هل راى احد ناظر محطة لم يكن النوم عالقا في اهدابه ؟) وحتى قبل ان ينتظر سؤال رودين اعلن بصوت فاتر : لا توجد خيول .

قال رودين :

– كيف تقول لا توجد خيول ، وانت لا تعرف حتى الى اين انا مسافر ؟ لقد وصلت الى هنا على عربة مستأجرة .

اجاب ناظر المحطة :

– ليست لدينا اية خيول . ولكن الى اين انت مسافر ؟

– الى . . . سك .

كرر ناظر المحطة :

– لا توجد خيول .

وانصرف .

اقترب رودين من النافذة بضيق ، والقى سدارته على الطاولة . لم يتغير كثيرا ، ولكنه اصفر قليلا في السنتين الاخيرتين . واخذت خيوط فضية تلمع في خصلاته الجعد هنا وهناك ، وعيناه اللتان ما تزالان جميلتين ، بدتا كامدتين قليلا ، وظهرت قرب جبينه ، وعلى خديه ، وصدغيه غضـــون صغيرة هي آثار مشاعر مريرة ومقلقة .

كان لباسه مستهلكا وقديما . وملابسه الداخلية لا تلوح في اى موضع من جسمه والظاهر ان زمن ازدهاره قد ولّى . وعلى حد تعبير البستانيين ذهبت الزهرة وبقيت البذرة .

واخذ يقرأ الكتابات المنقوشة على الجدران . . . وهي تسلية معروفة للمسافرين الضجرين . . . وفجأة فُتح الباب ، ودخل ناظر المحطة . وقال :

– لا توجد خيول الى . . . سك ، وستظل الحال كذلك وقتا طويلا . ولكن توجد خيول عائدة الى . . . وف .

قال رودين :

– الى . . . ســـوف . لا قطعـــا ! ليست على طريقي بالمرة . انا ذاهب الى بنزا بينما . . . ســـوف تقع باتجاه تامبوف ، على ما يبدو .

– وماذا في ذلك ؟ يمكنك ان تسافر من تامبوف ، او تتحول من . . . ســـوف ، بطريقة ما .

فكر رودين . وقال اخيرا .

– طيب ، هذا ما اظن . مُرْ بشد الخيول . لافرق عندي ، ساسافر الى تامبوف .

واعدت الخيول بسرعة ، وحمل رودين حقيبتـــــه ، وصعد الى العربة ، وجلس ، انكمش كالسابق ، وكان جسمه المطوي يوحي بشيء من العجز والحزن والخنوع . . . وانطلقت العربة في خبب غير سريع ، ترن باجراس خيولها الثلاثة رنينا متقطعا .

الخاتمة

مرّت عدة سنوات اُخَر .

وكان يوما خريفيا باردا . ودنت عربة ركوب من مدخل الفندق الرئيسي لمركز الولاية مدينة س . . . وخرج منها سيد لم يكتهل بعد ، ولكنه لحق ان يكسب لجسده تلك السمنة التى تعودنا على وصفها بالمحترمة . خرج من العربة متمطيا مولولا ، وارتقى السلم الى الطابق الثاني ، وتوقف في مدخـــــل ممر عريض ، ولما لم ير احدا امامه ، طلب له غرفة بصوت عال . ودق باب ، وخرج خادم طويل من وراء حاجز واطىء ، وسار في المقدمة بمشية خفيفـــــة جانبية ، وومض في الممر شبه المظلم ظهره اللامع وردناه المطويان . وعندما دخل المسافر الحجرة اسرع في الحال بالقاء معطفه الرسمي ولفاحه عنه ، وجلس على الاريكة ، واسند قبضتيه على ركبتيه ، وراح في البداية يجيل بصره فيما حوله ، كمن لم يفق من نومه تماما ، ثم امر باستدعاء خادمه . اتى الخادم حركة تملّص ، واختفى . لم يكن

هذا المسافر غير ليجنيف . فقد استدعـــاه التجنيد من القريـــة س . . . .

دخل الحجرة خادم ليجنيف ، وهو شاب اجعد الشعر ، مورّد الوجنتين ، يرتدي معطفا رسميا رماديا محزما بنطاق ازرق ، وحذاء لباديا طويلا لينا .

قال ليجنيف :

– ها نحن قد وصلنا ، يا اخ . وانت طوال الوقت تخشى ان يخرج اطار المطاط من العجلة .

قال الخادم وهو يجاهد ليبتسم من خلال ياقة المعطف المرفوعة .

– ولماذا لم يخرج هذا الاطار . . .

ترامى صوت من الممر :

– ايوجد احد هنا ؟

جفل ليجنيف ، واخذ يتسمع . وكرر الصوت :

– اي ! مَنْ هنا ؟

نهض ليجنيف ، وذهب الى الباب ، وفتحه بسرعة .

كان امامه رجل طويل ، اشيب تماما تقريبا ، محدودب الظهر ، في سترة قديمة من المخمل القطني ذات ازرار برونزية . وعرفـــه ليجنيف على الفور .

هتف بانفعال :

– رودين !

التفت رودين . ولم يستطع ان يتبين ملامح ليجنيف الذي كان يقف وظهره الى النور ، ونظر اليه بحيرة .

قال ليجنيف :

– الا تعرفني ؟

– ميخايلو ميخايليتش !

هتف رودين ، ومدّ يده ، ولكنه ارتبك ، واسترجعها .

اسرع ليجنيف فاختطفها بكلتا يديه ، وقال لرودين :

– ادخل ، ادخل غرفتي !

وقاده الى غرفته . وبعد صمت قصير ، قال وقد خفض صوته لاارادیا :

– كم تغيرت !

قال رودين ، وهو يطوّف بصره في الغرفة :

– نعم ، يقولون ! السنون . . . بينما انت لا بأس . كيف صحة الكسندرا . . . عقيلتك ؟

– شكرا لك . انها بخير . ولكن اية اقدار جاءت بك الى هنا ؟

– جاءت بي ؟ هذا ما يطول الحديث عنه . واذا اردت الحقيقة دخلت الى هنا مصادفة . كنت ابحث عن صاحب لي . على اية حال انا مسرور جدا . . .

– اين ستتغدى ؟

–انا ؟ لا اعرف . في احدى الحانات . يجب عليّ ان ارحل اليوم من هنا .

– يجب ؟

ضحك رودين ضحكة مقتضبة ذات مغزى .

– نعم ، يجب . انهم يرسلونني الى قريتي للاقامة .

– تغد معي .

نظر رودين في عيني ليجنيف لاول مرة ، وقال :

– تعرض عليّ ان اتغدى معك ؟

– نعم ، يا رودين ، على ايام زماننا ، رفيقا مع رفيق . أتريد ؟ لم اتوقع ان التقي بك ، والله يعلم متى سنلتقي مرة اخرى . ولا يجوز ان نفترق بهذا الشكل !

– تفضل ، انا موافق .

صافح ليجنيف رودين ، ونادى الخادم ، واوصى على الغداء ، وامر بأن توضع زجاجة شمبانيا في الثلج .

خلال الغداء ظل ليجنيف ورودين يتحدثان طوال الوقت ، عن فترة دراستهما وكأنما كان ذلك على اتفاق مسبق – وراحا يتذكران اشياء كثيرة واناسا كثيرين امواتا واحياء . في باديْ الامر كان رودين يتحدث في غير ما رغبة ، ولكنه شرب بضعة كؤوس من النبيذ ، والتهب الدم في شرايينه . واخيرا جلب النادل الطبق الاخير . نهض ليجنيف ، وقفل الباب ، وعاد الى المائدة ، وجلس قبالة رودين تماما ، واسند ذقنه على كلتا يديه بهدوء ، وشرع يقول :

– طيب ، والآن ارو لي كل ما حدث لك منذ ان فارقتك .

نظر رودين الى ليجنيف .

وفكر ليجنيف مع نفسه مرة اخرى : «يا الهي ، كم تغير هذا المسكين !»

تغيرت ملامح رودين قليلا ، لا سيما منذ ان رأيناه في المحطة ، رغم ان ختم الشيخوخة المقتربة لحق ان ينطبع عليها . الا ان تعبيرا آخر كان يطل منها . ولم تعد للعينين نظراتهما السابقة . كان في كيانه كله ، وفي حركاته المتباطئة احيانا ، والمندفعة بلا رباط احيانا اخرى ، وفي كلامه الذي بَرُد ، وكأنما قد تهشم ضنى نهائي ، وأسى خفي هادئ يختلف كثيرا عن ذلك الحزن شبه المتصنّع الذي كان يتنطّع فيه ، كما يتنطع عموما الشباب الزاخرون بالآمال والاعتزاز بالنفس الواثق بالآخرين .

بدأ يقول :

— اروي لك كل ما حصل لي ؟ لا يمكن ان اروي كل شيء ، كما لا يستحق ان يُروى . . . عانيت كثيرا ، وتسكعت لا بجسدي فقط ، بل وتسكعت بروحي ايضا . وكم خاب ظني في الاشياء ، وفي الناس ، وربي ! وكم صادقت مع كثيرين ! نعم ، مع كثيرين ! — كرر رودين ، وقد لاحظ ان ليجنيف يحدق في وجهه بتعاطف خاص — وما اكثر ما صارت كلماتي كريهة لي ، وانا لا اقصد فقط تلك التي طلعت من شفتي ، بل وتلك التي طلعت من شفاه الذين كانوا يشاطرونني ارائي ! وكم من مرة تحولت من سرعة تهيج الطفل ، الى لاحساسية الحصان البلهاء ، ذلك الحصان الذي لم يعد يحرك حتى ذيله حين يُساط . . . كم من مرة فرحت ، وأمّلت ، وعاديت واهنت نفسي عبثا ! كم من مرة حلّقت كالنسر ، وعدت زحفا كحلزون حطمت قوقعته ! . . اي ارض لم تطأها قدماي ، وفي اي طرق لم أسر ! . . وهناك طرق قذرة ايضا . — اضاف رودين ، واشاح وجهه قليلا ، وتابع يقول : — هل تعرفون . . .

قاطعه ليجنيف :

— اسمعوا . . كنا في وقت ما يخاطب احدنا الآخر بصيغة المفرد . . . هل تريد* ؟ نعيد سيرة الماضي . . . نشرب نخب صيغة المفرد .

* كان رودين طوال الوقت يخاطب ليجنيف بضمير الجماعة احتراما على الطريقة الروسية . وقد بادره ليجنيف باستخدام صيغة المفرد بـ«هل تريد ؟» وبعد ذلك بدأ الاثنان يتحدثان بها فقط . **المعرب** .

اضطرب رودين ، ورفع جسمه قليلا ، ولمع في عينيه شيء لا تستطيع الكلمة ان تصفه . وقال :

— لنشرب . شكرا لك ، يا اخ ، لنشرب .

شرب كل من ليجنيف ورودين قدحا .

وعاد رودين يتكلم مؤكدا على ضمير المفرد ، ومبتسما :

— هل تعرف ، في داخلي دودة تقرض بي ، وتقضم ، ولا تدعني اهدأ الى النهاية . وهي تدفعني الى الناس . وهم في اول الامر يقعون تحت تأثيري ، وفيما بعد . . .

ومرر رودين ذراعه في الهواء :

— ومنذ ان فارقتك . . . عانيت وخبرت الكثير . . . كنت ابدأ العيش ، واشرع في شيء جديد عشرين مرة . وها انا كما ترى !

قال ليجنيف كالمخاطب نفسه :

— لم يكن لك صمود .

— كيف تقول لم يكن لك صمود ! . . لم اقدر قط على ان ابني ، ثم ان البناء صعب ، يا اخ ، حين لا تجد ما تقف عليه ، حين يلزمك ان تقيم اساسك بنفسك ! ولن اصف لك كل مغامراتي ، اي اخفاقاتي ، بتعبير ادق . . . سأنقل لك حادثتين او ثلاثا ، من حياتي ، حين بدا وكأن النجاح كان يبتسم لي ، او ، لا ، حين كان الامل في النجاح يبدأ بمراودتي ، وهما حالتان ليستا متشابهتين تماما . . .

دفع رودين الى الخلف شعره الاشيب الذي قد خفّ الآن ، بنفس تلك الحركة من يده ، التي كان يدفع بها ، في يوم ما ، خصلاته الجعد السود الكثيفة . وانشأ يقول :

— طيب ، اسمع . تصادقت في موسكو بسيد غريب بما فيه الكفاية . كان غنيا جدا ، يملك اراضي واسعة ، ولم ينخرط في الخدمة . وكان ولعه الرئيسي الوحيد هو حب العلم ، العلم بشكل عام . وحتى الآن لا استطيع ان اتفهم لماذا نشأ هذا الولع عنده ! لم يكن يناسبه ، مثلما لا يناسب السرج البقرة . وكان يجهد نفسه ليستوعب عقله شيئا وكان لا يجيد الكلام تقريبا ، فكان يدير عينيه المعبرتين ويهز رأسه لا غير . انا ، يا اخ ، لم التق بطبيعة أفقر واجدب موهبة من طبيعته . . . في ولاية سمولينسك توجد اماكن لا يوجد فيها غير الرمال ، وعشب هزيل يعاف أكله اي

حيوان . لم تكن يداه لتستطيعا ان تقبضا على شيء ، فكل شيء كان يتسرب مبتعدا عنه قدر الامكان . وكان ايضا مجنونا في ان يجعل كل شيء سهل صعبا . ولو كان الامر يتعلق بمشيئته لجعل الناس ياكلون باعقابهم . كان يعمل ويكتب ويقرا دون تعب . وكان يرعى العلم باصرار عنود ، وبصبر رهيب . وكانت عزة النفس فيه هائلة ، وخلقه حديديا . كان يعيش وحيدا واشتهر بغرابة اطواره . تعرفت به ، و . . . رقت له . واعترف بانني فهمت طبيعته بسرعة ، ولكنني تاثرت بتحمسه . الى جانب انه كان يملك من الاموال والامكانيات ما تتيح ان يُصنع عن طريقه الكثير من الخير ، والفائدة الحقيقية . . . نزلت في بيته ، وسافرت معه ، اخيرا ، الى قريته . كانت لي ، يا اخ ، خطط ضخمة . كنت احلم بتحسينات مختلفة وترتيبات جديدة . . .

قال ليجنيف مبتسما بابتسامة لطيفة :

– كما عند لاسونسكايا ، تذكر .

– لا ، ابدا ! عندها كنت اعرف في قرارة نفسي ، ان كلماتي لا تسفر عن شيء ، اما هنا . . . تكشف امامي ميدان آخر تماما . . . جلبت معي كتبا في الشؤون الزراعية . . . حقا ، حتى النهاية لم اقرا اي واحد منها . . . طيب ، وشرعت في العمل . في البداية لم يتقدم العمل ، كما كنت اتوقع ، ثم بدا وكانه يتقدم . كان صديقي الجديد يلتزم الصمت دائما ، ويعاين ، ولم يكن يعيقني ، يعني لم يكن يعيقني الى درجة معينة . كان يتقبل اقتراحاتي ، وينفذها ، ولكن بتعنت ، وتضييق وارتياب خفي . وكان طوال الوقت يميل الى رايه . كان يعتز بكل فكرة من افكاره غاية الاعتزاز . يجهد جهده ليرتقي اليها مثلما تصعد دعسوقة على طرف عشبة ، وتقعد عليها وتقعد ، وتبدو طوال الوقت وكانها تنشر جناحيها ، وتتهيأ للطيران ، وتسقط فجاة ، ثم تعود الى الزحف على ساق العشب . . . لا تندهش بهذه التشابيه . كانت تغلي في روحي حتى في ذلك الحين . وهكذا صارعت حوالى سنتين . وسار العمل بشكل سيئ ، رغم كل مساعيّ . واخذت اتعب ، وسئمت من صديقي ، فصرت السعه ، وكان يضغط عليّ مثل حشية الريش . وتحول عدم ثقته الى نرفزة صماء ، واستولى شعور عدائي علينا كلينا ، فلم نعد نستطيع ان نتحدث عن شيء . صار يحاول عن طريق خفي ، ولكن بلا انقطاع ، ان يثبت لي انه

لا يخضع لتاثيري . وكانت اوامري اما ان تشوه ، او تلغى اطلاقا . . . وفطنت اخيرا الى انني اعيش لدى السيد مالك الاراضي بصفة تابع في قسم التمارين الذهنية . وصار مريراً عليّ ان اضيع وقتي وقواي هباء ، وشعرت شعورا مريرا بانني ، مرة اخرى ، خدعت بتوقعاتي . كنت اعرف جيدا ما اخسره في رحيلي عنه ، ولكن لم استطع ان اروض نفسي ، وفي احد الايام ، ونتيجة مشهد صعب يثير الاستياء ، كنت قد شهدته ، واظهر لي صاحبي في الكفة الخاسرة تماما ، تشاجرت معه كليا ، ورحلت ، وتركت السيد المتزمت المعجون من الدقيق الخشن المحلي بمربى المانية .

– يعني تركت كفاف خبزك .

قال ليجنيف ، ووضع كلتا يديه على كتفي رودين .

– نعم ، ووجدت نفسي مرة اخرى خفيفا وعاريا في الفضاء الرحب . فاذهب الى حيث القت . . . آه ، لنشرب !

قال ليجنيف :

– في صحتك !

ورفع جسمه ، وقبّل رودين من جبينه وقال :

– في صحتك ، ولذكرى بوكورسكي . هو ايضا قدر ان يظل معدما .

بعد قليل قال رودين :

– هاقد رويت لك الرقم الاول من مغامراتي . فهل اتابع ؟

– تابع ، من فضلك .

– اما ! ولكنني لا ارغب في الكلام . تعبت من الكلام ، يا اخ . . . طيب ، فليكن . بعد ان طرقت مختلف الابواب . . . بالمناسبة ، بوسعي ان اروي لك كيف صرت سكرتيرا لوجيه موال للسلطة ، وماذا نجم عن ذلك ، ولكن هذا سيذهب بنا بعيدا جدا . . . بعد ان طرقت مختلف الابواب قررت ان اكون اخيرا . . . لا تضحك ، ارجوك ، رجل عمل ، رجلا عمليا . وقد صادف ان تصادقت مع رجل . . . ربما سمعت به . . . مع رجل يدعى كوربييف . . . الم تسمع به ؟

– لا ، لم اسمع به . ولكن اعذرني ، يا رودين ، كيف لم تفطن ، وانت بعقلك هذا ، ان عملك لا علاقة له . . . واعذرني على الجناس . . . بأن تصير رجل عمل ؟

— اعرف ، يا اخ ، انه لا يتعلق بذلك ، وعلى ايــة حال بم يتعلق ؟ . . ولكن ليتك رأيت كوربييف ! ارجوك لا تتصوره غاوي كلام فارغا . يقال عني انني كنت ، في زمن ما ، ذلق اللسان . ولكنني امامه لا شيء على الاطلاق . كان انسانا عالمــا بشكل مدهش ، عقلا عارفا خلاقا ، يا اخ ، يفهم في قضايا الصناعـــة والمشروعات التجارية . كان ذهنه يمور بأجرأ المشاريع ، وابعدها عن ان تخطر ببال . اتحدنا ، وقررنا استخدام قوانا في مشروع مفيد للمجتمع . . .

— ما هو ، لو سمحت ان اعرف ؟

اطرق رودين ببصره :

— ستضحك .

— ولِمَ ؟ لا ، لا اضحك .

قال رودين بابتسامة حرجة :

— قررنا ان نحوّل نهرا في ولايـــة ك . . . الى نهر صالح للملاحة .

— هكذا ! يعني ان كوربييف هذا راسمالي ؟

قال رودين :

— كان اكثر فقرا مني .

وخفّض راسه الاشيب بهدوء .

ضحك ليجنيف ، ولكنه توقف فجــأة ، وتناول يد رودين . وقال :

— سامحني ، يا اخ ، ارجوك . ولكنني لم اكن اتوقع ذلك مطلقا . طيب ، يعني مشروعكما ذلك بقي كما هو ، على الورق ؟

— ليس تماما . بدانا بالتنفيذ . استأجرنا شغيلـــة . . . طيب ، وبدانا . . . ولكننا اصطدمنا بعقبات مختلفة . اولا ، لم يرد اصحاب الطواحين ان يفهمونا ، بالاضافة الى ذلك ، لم نكن قادرين على الماء دون الماكنة ، بينما ليس لنا من النقود ما يكفي لها . عشنا ستة أشهر في اكواخ ترابية . وكان كوربييف يقتات على الخبز فقط ، وانا ايضا لم اكن انال شبعى . على العموم لست نادما على ذلك . الطبيعة هناك مذهلة . صارعنا وصارعنا ، وحاولنا استمالة التجار ، وكتبنا الرسائل والخطابات الى كل المؤسسات . وانتهى الامر بأن انفقت على هذا المشروع آخر فلس لديّ .

قال ليجنيف :

— طيب ! اظن ليس صعبا ان تنفق آخر فلس لك .

— ليس صعبا ، بالضبط .

حدق رودين في النافذة :

— بينما لم يكن المشروع سيئا ، والله . وكان من الممكن ان يجني فوائد جمة .

سأل ليجنيف :

— واين ذهب كوربييف هذا ؟

— كوربييف ؟ انه الآن في سيبيريا ، وقد اصبح مستخرجا للذهب . وسترى أنه سيجمع ثروة . انه لن يهلك .

— ربما ، ولكنك لن تجمع ثروة بالتأكيد .

— انا ؟ لا حيلة لي ! على العموم كنت دائمــا رجلا فارغا في نظرك .

— انت ؟ كفى ، يا اخ ! . . حقا ، كان زمن لم اكن التفت فيه الا لجوانبك القاتمــة . ولكنني الآن ، وثق بي ، تعلمت ان اقيمك . انت لن تجمع ثروة لك . . . ولكنني احبك من اجـــل هذا . . . هذا بالذات !

ابتسم رودين ابتسامة هزء خفيفة .

— احقا ؟

كرر ليجنيف :

— احترمك على ذلك . هل تفهمني ؟

صمت كلاهما . وسأل رودين :

— طيب ، هل سانتقل الى الرقم الثالث ؟

— اعمل معروفا .

— تفضل . الرقم الثالث والاخير فرغت منه لتوي . ولكن الم اضجرك ؟

— تكلم ، تكلم .

شرع رودين يقول :

— طيب ، اسمــع . ذات مرة فكرت في اوقات فراغي . . . اوقات فراغي كانت كثيرة دائمــا . . . فكرت : معلوماتي كثيرة

وكذلك رغباتي في الخير . . . اسمع ، اظنك لن تنكر عليّ رغبات الخير ؟

— طبعا !

— وفي جميع المجالات الاخرى سقطت بهذه الدرجة او تلك . . . فلماذا لا اصير مربيا ، او بعبارة ابسط ، معلما . . . افضل من تضييع العيش جزافا . . .

توقف رودين وتنهد :

— اليس افضل من العيش جزافا ان احاول ان انقل الى الآخرين ما اعرفه . فلربما سيستقون من معارفي ولو شيئا من الفائدة . فان قابلياتي بارزة ، وانا ، اخيرا ، فصيح اللغة . . . فقررت ان اهب نفسي لهذه القضية الجديدة . كان يصعب عليّ ان اجد عملا ، كما لم ارد اعطاء دروس خصوصية ، وليس لي ما افعله في المدارس الابتدائية . واخيرا وفقت في الحصول على وظيفة مدرس في مدرسة ثانوية هنا .

سال ليجنيف :

— مدرس اية مادة ؟

— مدرس الآداب الروسية . دعني اقول لك : لم ابتدر لقضية بهمة كما ابتدرت بهذا الأمر . حمستني فكرة التاثير في الشبيبة . قضيت ثلاثة اسابيع في وضع المحاضرة الافتتاحية .

قاطعه ليجنيف :

— اليست معك ؟

— فقدت في مكان ما . طلعت غير سيئة ، وحظيت بالاعجاب . وانا لحد الآن ارى وجوه المستمعين اليّ ، وجوها خيرة ، فتية عليها تعبير الانتباه المخلص ، والمشاركة ، بل والدهشة . صعدت المنصة ، وقرات المحاضرة كالمحموم . كنت اتصور انها ستدوم اكثر من ساعة ، بينما فرغت من قراءتها في عشرين دقيقة . وكان المفتش جالسا هناك — وهو عجوز يابس العود يضع نظارة فضية ، وباروكة قصيرة — وكان من حين لآخر يميل راسه صوبي . وعندما فرغت من الالقاء ، قفز من مقعده ، وقال لي : «جيدة ، سوى انها عالية المستوى قليلا ، وغامضة بعض الشيء ، كما انها لم تتحدث عن الموضوع الاصلي الا قليلا» . ولكن الطلبة ، كانوا يتابعونني بانظارهم باحترام . . . حقا ، والشبيبة نفيسة بهذا الشيء !

والمحاضرة الثانية قراتها مكتوبة ، والثالثة ايضا . ثم اخذت ارتجل .

فسال ليجنيف :

— ولقيت نجاحا ؟

— لقيت نجاحا كبيرا . كان المستمعون ياتون افواجا . وقد قدمت لهم كل ما في روحي . وكان بينهم ثلاثة او اربعة صبيان رائعين حقا ، وكان الآخرون يفهمونني بشكل سيئ . وعلى العموم يجب الاعتراف بانه حتى اولئك الذين كانوا يفهمونني كانوا احيانا يربكونني باسئلتهم . ولكنني لم اكن اجزع . اما من ناحية الحب ، فقد كان الجميع يحبونني ، ففي مراجعات الدرس ، كنت اضع للجميع درجات كاملة . ولكن دسيسة اخذت تحاك ضدي . . . او ، لا . لم تكن هناك اية دسيسة ، بل مجرد انني وجدت نفسي في غير وسطي . كنت اضايق الآخرين ، وهؤلاء يضايقونني . كنت القي على تلاميذ الثانوية ، بطريقة لا يجد طلبة الجامعات دائما مثلها لدى بعض الاساتذة . وكان المستمعون لي يخرجون من محاضراتي بالشيء القليل . . . فانا نفسي لا اعرف الحقائق جيدا . فضلا عن انني لم اكن اكتفي بدائرة الاعمال التي عهدت اليّ . . . وهذه ، كما تعرف ، موضع ضعفي . كنت اريد تحولات جذرية ، واقسم لك ان هذه التحولات كانت فعّالة وسهلة . وكنت آمل بأن احققها عن طريق المدير ، وهو رجل طيب تقي كان لي في البداية تاثير عليه . وكانت زوجته تساعدني . وانا في حياتي ، يا اخ ، لم التق كثيرا بمثلها من النساء . وكانت تناهز الاربعين من العمر ، ولكنها كانت تؤمن بالخير ، وتحب كل ما هو جميل ، مثل فتاة في الخامسة عشرة ، ولم تكن تخاف ان تعلن عن قناعاتها امام اي كان . وانا لن انسى قط روحها الجذلى ، ونقاوتها . وبناء على نصيحتها كتبت خطة . . . ولكنهم في هذا الوقت دسوا عليّ ، وراحوا يسودون صفحتي امامها . وقد اضر بى ، بشكل خاص ، مدرس الرياضيات ، وهو رجل صغير الجرم ، حاد ، صفراوي ، لا يؤمن بأي شيء ، مثل بيغاسوف ، سوى انه اكفأ منه بكثير . بالمناسبة ، هل بيغاسوف حي ؟

— حيّ ، ثم تصوّر انه تزوج من امرأة من اهل المدينة ، يقال انها تضربه .

– يستحق . طيب ، وناتاليا الكسييفنا ، في صحة وعافية ؟
– نعم .
– سعيدة .
– نعم .

صمت رودين قليلا .

– راح من بالي ، عم كنت اتحدث . . . اها ! عن مدرس الرياضيات . كان يكرهني كرها شديدا ، ويشبه محاضراتي بالالعاب النارية البراقة ، ويلتقط في الحال كل تعبير غير واضح تماما ، بل ذات مرة غلبني كليا بخصوص اثر قديم من آثار القرن السادس عشر . . . والشيء الرئيسي انه كان يرتاب بمقاصدي . واصطدمت به آخر فقاعة صابون من فقاعاتي ، كما تصطدم بدبوس ، وانفجرت . وصار المفتش الذي لم اتفاهم معه راسا يحرّض المدير عليّ . وحصلت مكاشفة . ولم ارد ان اتراجع ، واحتدمت ، ووصل ذلك الى اسماع الرئاسة . فاضطررت الى الاستقالة . ولم ينته الامر بذلك . كنت اريد ان اظهر لهم ان التصرف معي بهذا الشكل لا يجوز . . . ولكن كان من الممكن ان يتصرفوا معي حسب ما يشاءون . . . وعليّ الآن ان اترك هذه المدينة .

خيم صمت . وجلس الصديقان كلاهما مطرقي الراس .

وكان رودين اول من بدأ الكلام . قال :

– نعم ، يا اخ ، انا الآن استطيع ان اردد مع كولتسوف : «الى اين اوصلتني ، يا شبابي ، واوقعتني في مازق ليس فيه موطا قدم . . .» (٣٥) بينما هل يعقل انني لم اكن صالحا لأي شيء ، هل يعقل ليس لي عمل اؤديه في هذه الدنيا ؟ غالبا ما كنت اطرح هذا السؤال على نفسي ، ومهما حاولت ان احط من نفسي في عيني ، ما كان في وسعي الا ان اشعر في وجود قدرات في داخلي لم توهب لكل الناس ! فلأي سبب تبقى هذه القدرات بلا ثمار ؟ ثم هناك شيء آخر . انت تذكر حين كنا ، انت وانا ، في الخارج ، كنت آنذاك شديد الثقة في نفسي ومزيفا . . . آنذاك لم اكن اعي بالضبط ما كنت اريد ، فكنت اتلذذ بالكلمات ، واؤمن بالاشباح ، ولكنني الآن ، واقسم لك على هذا ، استطيع ان افصح على الملا جميعا وبصوت عال عن كل ما ارجوه . . . ليس لي ما اخفيه على

الاطلاق . انا رجل وفي تماما ، وبكل جوهر هذه الكلمة ، انا متطامن ، اريد ان اتكيف مع الظروف ، واريد القليل ، اريد الوصول الى هدف قريب ، واحقق ولو فائدة ضئيلة . كلا ! لا أوفق ! ما يعني هذا ؟ ما الذي يعيقني عن ان اعيش ، وافعل ، مثل الآخرين ؟ . . بهذا فقط احلم الآن . ولكن ما ان يتسنى لي ان احل في وضع محدد ، واتوقف على نقطة ارتكاز معينة ، حتى يبعدني القدر عنها . . . صرت اخافه ، اخاف قدري . . . عن اي شيء كل هذا ؟ حلّ لي هذا اللغز .

كرر ليجنيف :

– اللغز ! نعم ، هذا صحيح . كنت بالنسبة لي لغزا دائما . وحتى في شبابنا ، حين كنت ، بعد انفلاتة تافهة ، تنبرى تتحدث فجاة بشكل يقشعر له القلب ، ثم تعود الى ديدنك . . . طيب ، انت تعرف ما اريد ان اقول . . . حتى في ذلك الوقت لم اكن افهمك : لهذا السبب كففت عن حبك . . . ان لك الكثير من القدرات ، وسعيك الى المثال لا يكل . . .

قاطعه رودين :

– اقوال ، اقوال فقط ! ولا افعال !
– لا افعال ! اية افعال . . .
– اية افعال ؟ انت تذكر كيف ان برياجينتسيف كان باعماله يطعم الجدة العمياء وكل عائلتها . . . هذا مثال للفعل .
– نعم ، ولكن الكلمة الطيبة فعل ايضا .

نظر رودين الى ليجنيف صامتا ، وهز راسه بهدوء . اراد ليجنيف ان يقول شيئا ، ومرر يده على وجهه .

واخيرا سال :

– وهكذا ، تسافر الى القرية ؟
– الى القرية .
– وهل بقيت لك قرية ؟
– بقي شيء ما . قنان ونصف . ويوجد ركن اموت فيه . ربما انت تفكر في هذه اللحظة : «وهنا ايضا لم يستغن عن العبارة المنمقة !» العبارة المنمقة بالضبط فتكت بي ، قرضتني ، ولم استطع حتى النهاية ان انصرف عنها . ولكن ما قلته الآن ليس

عبارة منمقة . ليست عبارة منمقة ، يا اخ ، هذا الشعر الابيض ، هذه الغضون ، وليست عبارة منمقة هذان الكوعان الممزقان . لقد كنت دائما صارما معي ، وكنت محقا في ذلك ، ولكن لا اهمية للصرامة الآن ، حين قد انتهى كل شيء ، ونضب الزيت من السراج ، والسراج نفسه قد تحطم ، وستحترق الذبالة الى الآخر بين لحظة واخرى . . . الموت ، يا اخ ، يجب ان يعيد الوفاق اخيرا . . .

وثب ليجنيف ، وهتف :

– رودين ! لماذا تقول لي هذا القول ؟ بم استحققت هذا منك ؟ واي قاض انا ، واي انسان ساكون لو ان كلمة «العبارة المنمقة» قد تخطر في بالي ، وانا ارى خديك الغائرين وغضونك ؟ هل تريد ان تعرف ما رأيي فيك ؟ تفضل . ارى امامي انسانا له من القابليات ما يمكن ان ينال بها كل شيء ، ولا يعز عليه ان يمتلك الآن اية منافع دنيوية ، لو اراد ذلك ! . . بينما انا استقبله جائعا وبلا مأوى . . .

قال رودين كامد الصوت :

– انا اثير شفقتك .

– لا ، انت مخطئ . انت توحي لي بالاحترام . هذا بالضبط . ما الذي كان يمنعك من ان تقضي اعواما واعواما عند مالك الاراضي ، صاحبك ، الذي انا واثق تماما من انك لو اردت فقط ان تسايره ، لثبت لك ثروة ؟ ولماذا لم تستطع ان توفق في البقاء في المدرسة الثانوية ؟ لماذا انت ، انسان غريب ، كلما بدأت امرا مهما تكن مقاصدك انهيته حتما بان تضحى بمنافعك الشخصية ، ولا تمد جذورك في تربة سيئة ، مهما تكن دسمة ؟

قال رودين بابتسامة تهكم جزعة :

– ولدت جواب افاق . لا استطيع المكوث .

– هذا صحيح ، ولكنك لا تستطيع المكوث لا لان دودة تعيش في داخلك ، كما قلت لي في البداية . . . ليس في داخلك دودة ، ولا روح القلق الفارغ ، بل لان نار الشغف بالحقيقة يشتعل فيك ، والظاهر انه رغم كل شجاراتك التافهة ، يشتعل فيك اقوى مما في الكثيرين ممن لا يعتبرون انفسهم انانيين ، بينما يسمونك دساسا . ثم انا اول الخلق ، لو كنت في مكانك لكنت قد اجبرت منذ زمان تلك الدودة فيّ على ان تسكت ، وارتضيت بكل شيء . بينما انت

حتى الصفراوية لم تزد فيك ، وانا واثق من انك مستعد اليوم ، حالا ، ان تبدأ مرة اخرى عملا جديدا ، مثل فتى يافع .

قال رودين :

– لا ، يا اخ ، انا الآن متعب . كفاني .

– متعب ! غيرك كان قد مات منذ زمان . انت تقول الموت يعيد الوفاق ، والحياة ؟ اتظنها لا تعيد الوفاق ؟ من عاش دون ان يصير سمحا مع الآخرين لا يستحق هو السماحة . ومَنْ يمكن ان يقول انه ليس بحاجة الى السماحة . لقد فعلت ما في وسعك ، وصارعت ما دمت قادرا . . . وما اكثر من هذا ؟ طريقانا انفصلا . . .

قاطعه رودين في زفرة :

– انت ، يا اخ ، انسان تختلف عني تماما .

مضى ليجنيف يقول :

– طريقانا انفصلا . ربما بفضل ملكيتي ، وبرود دمي ، وظروف محظوظة اخرى ، ربما لهذا السبب بالذات لم يعقني شيء عن ان أُلازم مكاني ، وان اصير متفرجا مطوي الذراعين ، بينما كان عليك ان تخرج الى الميدان ، وتطوي كميك ، وتكدح ، وتعمل . طريقانا انفصلا . . . ولكن انظر كيف نحن قريبان احدنا للآخر . اننا نتحدث بلغة واحدة تقريبا ، ويفهم احدنا الآخر بنصف تلميحة ، فقد شببنا على مشاعر واحدة . لم يبق من امثالنا غير القليلين ، يا اخ ، انا وانت آخر الموهيغان ! وكان من الممكن ان نفترق ، وحتى ان نتعادى ، في السنوات القديمة ، حين كان الكثير من العمر ما يزال امامنا ، ولكن الآن ، حين يخف الناس من حولنا ، وحين تمر الاجيال الجديدة بنا ، الى اهداف غير اهدافنا ينبغي علينا ان يتمسك احدنا بالآخر بقوة . لنقرع الاقداح ، يا اخ ، ولنقل ، كما كنا نقول في ايامنا الخوالى : * Gaudeamus igitur (٣٦)

وقرع الصديقان قدحيهما ، وغنيا اغنية الطلبة القديمة بصوتين جياشين بالعاطفة ، ناشزين ، روسيين تماما . وعاد ليجنيف يقول :

– ها انت الآن تسافر الى القرية . فلا اظن انك ستمكث فيها كثيرا ، لا استطيع ان اتصور بم واين وكيف سينتهي بك

* تعالوا نمرح ! (باللاتينية في الاصل)

المطاف . . . ولكن تذكر بانه مهما سيحصل لك فان لك دائما مكانا ، عشا ، يمكن ان تلوذ به . . . هو بيتي ، اتسمع ، يا شيخ ؟ ان للفكر متعديه ايضا ، ويجب ان يكون لهم ايضا مأوى .

نهض رودين . وتابع يقول :

— شكرا لك ، يا اخ ، شكرا ! لن انسى هذا لك . سوى انني لا استحق مأوى . فقد افسدت حياتي ، ولم اخدم الفكر ، كما ينبغي . . .

مضى ليجنيف يقول :

— اسكت ! كل امرئ يبقى كما صنعته الطبيعة ، ولا يجوز ان يطالب باكثر من ذلك ! لقد سميت نفسك باليهودي التائه (٣٧) . . . فمن اين تعرف ، فقد يتعين عليك ايضا ان تظل جوّابا الى الابد ، وربما تنفذ بذلك مهمة رفيعة لا تعرفها انت نفسك ، وليس جزافا ان تقول الحكمة الشعبية : كلنا نسير تحت خيمة الله . . . — وتابع ليجنيف يقول وهو يرى رودين يتناول قبعته — انت ذاهب ، الا تتوقف للمبيت ؟

— ذاهب ! وداعا وشكرا . . . سانتهي نهاية مزرية .

— الله يعلم هذا . . . اتصر على الذهاب ؟

— نعم . وداعا . لا تذكرني بسوء .

— طيب ، وانت ايضا لا تذكرني بسوء . . . ولا تنس ما قلته لك . وداعا . . .

وتعانق الصديقان . وخرج رودين مسرعا .

ظل ليجنيف يذرع الحجرة جيئة وذهابا لوقت طويل ، وتوقف عند النافذة ، وفكر قليلا ، وقال بصوت خفيض «بائس !» وجلس الى المائدة ، وبدأ يكتب رسالة لزوجته .

وفي الفناء هبت ريح ، واعولت عويلا شريرا ، ضاربة الزجاج المرن ضربات ثقيلة حانقة . وهبط ليل الخريف الطويل . سعيد مَنْ يقعد في مثل هذه الليالي تحت سقف بيته ، ومَنْ له ركن دافئ . . . وليرحم الرب كل الجوابين الذين لا مأوى لهم !

في ظهيرة ٢٦ حزيران القائظة ، لعام ١٨٤٨ (٣٨) ، في باريس ، بعد ان سحقت انتفاضة «الورش القومية» سحقا يكاد يكون تاما ، في احد ازقة ضاحية سان انطوان (٣٩) كانت كتيبة القوات النظامية تقوم بالاستيلاء على متراس حطم بعدة طلقات مدفعية . فغادره الذين بقوا احياء من المدافعين عنه ، ولم يفكروا الا في ان ينجوا بانفسهم ، وفجأة يظهر في اعلى المتراس ، على حوض مسحوق لحافلة مقلوبة ، رجل طويل في سترة قديمة محزمة بلفاح احمر ، وقبعة قش على شعر اشيب منفوش . كان يحمل في احدى يديه راية حمراء ، وفي الاخرى سيفا معوجا مثلوما ، ويصيح بصوت نحيل متوتر ، صاعدا الى فوق ملوحا بالراية والسيف . سدّد رام من فنسن (٤٠) بندقيته نحوه ، واطلق النار . . . طرح الرجل الطويل الراية ، ووقع كالزكيبة ، ووجهه الى الاسفل ، وكأنه يركع على قدمي احد من الناس . . . نفذت الرصاصة الى قلبه ، وخرقته .

قال احد * insurgés الهاربين للآخر :

— Tiens! On vient de tuer le Polonais **

— Bigre! ***

اجاب الآخر ، واندفع كلاهما الى سرداب البيت الذي كانت كل صفاقات نوافذه مغلقة ، وجدرانه مجدّرة باثار الرصاص والقذائف .

ان هذا «Polonais» (٤١) كان دميتري رودين .

---

* المنتفضين . (بالفرنسية في الاصل) .

** انظر ، قتلوا البولوني (بالفرنسية في الاصل) .

*** اللعنة (بالفرنسية في الاصل) .

عش النبلاء (٤٢)

١

كان نهار ربيعياً وضيئـــا آيلا الى غروب ، وكانت الغيوم الوردية الصغيرة تسمق عاليا ، وتبدو وكأنهــــا لا تسرح عابرة السماء ، بل تتوغل في عمق سمتها اللازوردي .

وامام نافذة مشرعة في بيت جميل في احدى الشوارع القصيـــة لمدينة هي مركز ولاية و. . . (كان ذلـــك في عام ١٨٤٢) جلست امراتان ، احداهما في نحو الخمسين من العمر ، والثانية قد بلغت الشيخوخة ، في سنها السبعين .

كانت الاولى تدعى ماريا دميتريفنا كاليتينا زوجـــة مدع عام سابق للولاية ، اشتهر في زمانه بالحذاقـــة — كان رجلا متمرسا حازما ، صفراويا وعنودا ، — توفي قبل عشرة اعوام . وكان قد تلقى تعليما ممتازا ، ودرس في الجامعة ، ولكنه قد وعى في وقت مبكر ، وهو المنحدر من طبقـــة فقيرة ، ضرورة شق طريق له ، وكسب المال . وقد تزوجته ماريا دميتريفنا عن حب . وكان على قدر من الجمال ، والذكاء ، ولطيفا ، ان شاء ذلـك . وكانت ماريا دميتريفنا (الملقبة بستوفا قبل زواجها) قد فقدت والديها منـذ طفولتها ، وامضت بضع سنوات في معهد في موسكو ، وعاشت بعد عودتها من هناك ، على بعد خمسين فرسخا من و. .. . في ضيعـة عائلتها بوكروفسكويه مع عمتها واخيها الكبير . وسرعان ما انتقل هذا الأخ الى بطرسبورغ في وظيفة حكومية ، واساء معاملة اختـــه وعمته ، حتى وضع الموت المفاجيء حداً لمجمل نشاطه . وورثـت ماريا دميتريفنا بوكروفسكويه ، ولكنها لم تقم وقتا طويلا فيها ، ففي العام الثاني من زفافها الى كاليتين الذي استطاع ان يأسر قلبها في بضعة ايام استبدلت بوكروفسكويه بضيعة اكثر ريعا بكثير ،

ولكنها قبيحة وبلا بيت لسكنى اصحابها . وفي ذلك الوقت اقتنى كاليتين بيتاً في مدينة و. . . اقام فيه مع زوجته اقامة دائمية . وكان البيت يضم حديقة كبيرة تطل في احد جوانبها على حقل مكشوف خارج المدينة . وكان كاليتين يكره سكون الريف ، فقرر مع نفسه «يعني لا حاجة مطلقا الى العيش في قرية» . وكانت ماريا دميترييفنا في قرارة نفسها قد اسفت غير مرة على قريتها بوكروفسكويه الجميلة بجدولها المرح ، ومروجها الفسيحة ، وادغالها الخضراء ، ولكنها لم تعترض على زوجها في شيء ، فقد كانت تجل عقله ومعرفته بالمجتمع الراقي . وعندما توفي بعد خمسة عشر عاما من الزواج مخلفاً ولداً وابنتين كانت ماريا دميترييفنا قد تعودت بيتها ، وحياة المدينة الى حد انها لم تعد لها رغبة في ترك و. . .

كانت ماريا دميترييفنا مشتهرة في شبابها بأنها شقراء مليحة ، وحتى في سنها الخمسين لم تفقد قسماتها الملاحة ، ولو انها ارتخت بعض الشيء ، وتميّعت . كانت شديدة الحساسية اكثر منها طيبة نفس ، واحتفظت بآداب سلوك المعهد حتى في سن النضوج ، فكانت تدلل نفسها ، وتنفعل بسهولة ، بل وتنفجر باكية حين تخرق عاداتها ، الا انها ، بالمقابل ، كانت رقيقة جدا وانيسة ، حين تنفذ كل رغباتها ، ولا يعترض عليها احد . كان بيتها في عداد الطف البيوت في المدينة ، وثروتها وافرة بمافيه الكفاية ، لم تاتها عن طريق الارث بقدر ما اتتها عن طريق ما كسبه زوجها . وكانت ابنتاها تعيشان معها ، وابنها يتلقى تعليمه في واحد من احسن المعاهد الحكومية في بطرسبورغ .

اما العجوز التي كانت جالسة مع ماريا دميترييفنا عند النافذة ، فهي تلك العمة ، اخت ابيها ، التي كانت قد قضت معها في حينه بضعة اعوام من العزلة في بوكروفسكويه . كانت تدعى مارفا تيموفيفنا بستوفا ، وقد اشتهرت بغرابة اطوارها ، وانفراد طبعها ، تقول الحقيقة علانية وفي وجه اي انسان ، كانت تملك اشح الموارد ولكنها تتصرف كأنها تملك الآلاف . وكانت لا تطيق المرحوم كاليتين ، وما ان تزوجته ابنة اخيها ، حتى انزوت في قريتها الصغيرة ، حيث اقامت عشرة اعوام بكاملها عند احد الفلاحين في كوخ بلا مدخنة ، مسود من السخام . وكانت ماريا دميترييفنا

تخشاها . كانت هذه العجوز سوداء الشعر ، نشيطة العينين حتى في كبرها ، ضئيلة الجسم ، مدببة الانف ، سريعة الخطو منتصبة القامة ، تتكلم بسرعة ووضوح ، بصوت نحيل رنان ، وتلبس قلنسوة بيضاء ، وبلوزة بيضاء على الدوام .

فجأة سألت العجوز هذه ماريا دميترييفنا :

— مم هذا ؟ مم تتحسرين ، يا ابنتي ؟

قالت هذه :

— لا شيء . اية غيوم بديعة هذه !

— كأنك تتحسرين عليها ؟

لم ترد ماريا دميترييفنا بشيء . فقالت مارفا تيموفيفنا وهي تحرك ابر الحياكة بسرعة (كانت تحوك لفاحا صوفيا كبيرا) :

— لِمَ لا ياتي غيديونوفسكي ؟ على الاقل لتحسرتما سويّة . او للفقّ لنا شيئا ما .

— انت قاسية عليه دائما ! سيرغي بتروفيتش رجل محترم .

— محترم !

كررت العجوز بعتاب فقالت ماريا دميترييفنا :

— وكم كان وفياً لزوجي الراحل ! لحد الآن لا يستطيع ان يتذكره دون حسرة .

— وكأنه متفضّل ! اخرجه ذاك من الوحل ساحباً اياه من اذنيه .

قالت مارفا تيموفيفنا ، وازدادت سرعة ابرتي الحياكة في يديها . وعادت تقول :

— يبدو وديعا . اشتعل شعر رأسه شيبا ، ولكن حالما يفتح فمه حتى يكذب او يفتري على الناس . وهو يشغل منصبا ! ولا حاجة الى القول انه ابن قس !

— ومَن بلا خطيئة ، ياعمة ؟ هذه نقطة ضعف فيه ، بالطبع . لم يتلق سيرغي بتروفيتش تعليما ، طبعا ، ولا يتكلم الفرنسية ، ولكنه رجل لطيف ، ولك ان تقولي ما تشائين .

— نعم ، يلثم يديك دائما . اي ضير في انه لا يتكلم الفرنسية ! انا نفسي لست قوية في «الرطانة» بالفرنسية . كان خير ان لا يتكلم باية لغة ، على ان لا يكذب . — واضافت مارفا تيموفيفنا ، بعد ان القت نظرة على الشارع — هاهو قادم ،

بالمناسبة ، اذا ذُكر خُفّ اليك . هاهو رجلـــك اللطيف يذرع الخطى ، طويلا كلقلق !

عدّلت ماريا دميتريبفنـــا خصلات شعرها ، فالقت مارفا تيموفيفنا نظرة ساخرة عليها :

— ما هذه ؟ أهي شعرة شيب ، يا ابنتي ؟ إشتمي بالاشكا . الى اين تنظر ؟

— انت دائما ، يا عمة . . .

غمغمت ماريا دميتريبفنا في ضيق ، وراحت تنقر باصابعها على ذراع الكرسي .

وقفز خادم احمر الوجنتين من وراء الباب وصاح :

— سيرغي بتروفيتش غيديونوفسكي !

٢

دخل رجل مديد القامة في سترة طويلة نظيفة وبنطال قصيـر ، وقفازين رماديين من الشموا ، وربطتي عنق احداهما سوداء في الاعلى ، والاخرى بيضاء في الاسفل . كان كل شيء فيه ينم عن لياقة وكياسة ابتداء من وجهه الحسن القسمات ، وقذاليه المصفوفيـن بنعومة ، الى حذائه الطويلين بلا كعب وبلا صريف . انحنى محييا ربة البيت اولا ، ثم مارفا تيموفيفنا ، وخلع قفازيه ببطء ، وتقدم نحو يد ماريـــا دميتريبفنا ، وقبلها باحترام ، ولكـــن لمرتين متتاليتين ، وجلس على كرسي في غيرما عجالة ، وقال مبتسما ، وهو يفرك اطراف اصابعه :

— ليزافيتا ميخايلوفنا بخير ؟

اجابت ماريا دميتريبفنا :

— نعم . وهي في الحديقة .

— ويلينا ميخايلوفنا ؟

— لينوتشكا في الحديقة ايضا . اما من جديد ؟

فردد الضيف رامشا ببطء ، وماطا شفتيه :

— وكيف لا ، وكيف لا . حم ! . . تفضلي ، هذا خير ، وخبـر مذهل . وصل فيدور ايفانوفيتش لافريتسكي .

هتفت مارفا تيموفيفنا :

— فيديا ! ولكن كفانا منك ! ألست تؤلف من عندك ، يا ابتي ؟

— لا ، مطلقا . رأيته بنفسي .

— آوه ، ليس هذا برهانا كافيا .

— صح بدنه كثيرا — اضاف غيديونوفسكي متظاهرا بأنه لم يسمع ملاحظة مارفا تيموفيفنا . — صارت كتفاه اعرض ، والتورد يصبغ وجنته كلها .

— صح بدنه — قالت ماريا دميتريبفنا مقطعـــة الكلمة . — ترى من اين جاءته صحة البدن ؟

فرد غيديونوفسكي :

— نعم . اي انسان آخر في مكانه كان سيخجل من الظهور امام الناس .

فقاطعته ماريا تيموفيفنا قائلة :

— ولِمَ يخجل ؟ ما هذه السخافــــة ؟ الرجل عاد الى وطنه ، فإلى اين تأمر ان يذهب ؟ شيء آخر لو كان مذنبا في شيء .

— اجرؤ ان اقول لك يامولاتي ، ان الزوج مذنـب دائما ، اذا اساءت زوجته سلوكا .

— انك تقول هذا ، يا ابتي ، لانك لم تتزوج .

ابتسم غيديونوفسكى ابتسامة مصطنعة ، ثم سأل بعد صمت قصير :

— لو سمحت ان اسأل لمن سيكون هذا اللفاح الانيق ؟

حدجته مارفا تيموفييفنا بنظرة سريعة ، وقالت :

— سيكون لمن لا يفتري ابدا ، ولا يخاتل ، ولا يلفق ، فقط لو ان مثل هذا الشخص موجود في الدنيا . انا اعرف فيديـا جيدا ، قصّر فقط في انه كان يدلل زوجته . ولكنه تزوج عن حب ، ومثل هذه الزيجات ، زيجات الحب ، لن تسفر عن خير ابدا . — اضافت العجوز ناهضة بعد ان نظرت الى ماريا دميتريبفنا بطرف عينها . — والآن ياابت ، اشحذ اسنانـــك على اي شخص تشاء ، حتى عليّ ، فانا خارجة ، ولن اعيقك .

وانصرفت مارفا تيموفيفنا . فقالـــت ماريا دميتريبفنا وهي تشيع عمتها ببصرها :

– انها دائما بهذا الشكل ، دائما !

فذكر غيديونوفسكي :

– كِبَر السن ! ما من حيلة ! ما هي تقول : مَنْ لا يخاتل . بلى ، مَن لا يخاتل اليوم ؟ هذه سمة العصر . دعيني اقول لك ان احد اصحابي ، وهو مبجل وذو منصب ليس بالصغير ، كان يقول : اليوم ، حتى الدجاجة تقترب من الحبوب بطريقة مخاتلة ، تحاول ان تأتي اليها من جنب . بينما انظر اليك ، يا سيدتي ، فأرى فيك خلق الملاك حقا . ارجو ان تعطيني يدك الصغيرة الناصعة .

ابتسمت ماريا دميترييفنا ابتسامة خافتة ، ومدّت لغيديونوفسكي يدها المنتفخة ، وخنصرها متباعد . لثمها بشفتيه ، فقربت المرأة كرسيها منه ، انحنت نحوه قليلا ، وسألت بصوت خافت :

– إذن ، رأيته ؟ أحق لا بأس به ، معافى ، ومنشرح ؟

قال غيديونوفسكي همسا :

– منشرح ، لا بأس به ..

– الم تسمع اين زوجته الآن ؟

– في الفترة الاخيرة كانت في باريس ، والآن يقال انها انتقلت للاقامة في الدولة الايطالية .

– وضع فيديا فظيع حقا . انا لا اعرف كيف يتحمل . بالطبع تحصل بلايا لاي انسان . ولكن يمكن القول ان مصيبته ذاعت في اوربا كلها .

تنهد غيديونوفسكي :

– نعم ، نعم . اذ يقال انها عقدت صحبة مع فنانين وعازفين على البيانو ، او على حد تعبيرهم ، مع اسود المجتمع ووحوشه . فقدت الحياء كليا . . .

قالت ماريا دميترييفنا :

– مؤسف ، مؤسف جدا . فهو يمت اليّ بصلة قربى ، ابن عم بعيد ، انت تعرف ، يا سيرغي بتروفيتش .

– بالطبع ، بالطبع . وكيف لا أعرف كل ما يخص عائلتكم ؟ مستحيل .

– ماذا تظن ، هل سيأتي الينا ؟

– هذا ما يجب ان يفترض . على العموم سمعت انه ينوي الذهاب الى قريته .

رفعت ماريا دميترييفنا بصرها الى السماء .

– آه ، سيرغي بتروفيتش ، سيرغي بتروفيتش ، كم افكر في اننا ، نحن النساء ، يجب ان نتصرف باحتراس !

– امرأة عن امرأة تختلف ، ماريا دميترييفنا . من سوء الحظ توجد ايضا نساء مهزوزات الاخلاق . . . ثم العمر ، ثم ان بعضهن لم يتشرب بالاصول منذ نعومة الاظفار . (واخرج سيرغي بتروفيتش من جيبه منديلا ازرق ذا ربعات ، واخذ يبسطه) مثل هؤلاء النساء موجودات ، بالطبع (ورفع سيرغي بتروفيتش طرف المنديل الى عينيه بالتتابع) . ولكن مجمل القول ، اذا ناقشنا ، يعني . . . الغبار في المدينة كثير . . .

ختم قوله بذلك .

اندفعت الى الحجرة فتاة مليحة في نحو الحادية عشرة ، وهي تصيح :

– Maman, maman, فلاديمير نيقولايتش قادم الينا على فرس !

نهضت ماريا دميترييفنا ، كما نهض سيرغي بتروفيتش ايضا ، وانحنى بالتحية ، وقال : «ارق تحياتنا الى يلينا ميخايلوفنا» ، وابتعد في ركن لياقة ، واخذ يتمخط منظفا انفه الطويل المستقيم . ومضت الفتاة تقول :

– ما اروع حصانه ! كان قبل لحظة عند السياج ، وقال لي وللِيزا انه سيأتي على فرسه الى مدخل البيت .

ترددت كركبة حوافر ، ولاح في الشارع فارس ممشوق على فرس كُميت جميل ، وتوقف عند النافذة المفتوحة .

٣

هتف الفارس بصوت صدّاح لطيف :

– مرحبا ، ماريا دميترييفنا ! هل تعجبك شروتي الجديدة ؟

اقتربت ماريا دميترييفنا من النافذة :

— مرحبا ، Woldemar ! آه ، ما الطف هذا الحصان ! ممن اشتريته ؟

— من ضابط مكلف بشراء خيول للجيش . . . اخذ ثمنا غاليا ، اللص !

— ما اسم الحصان ؟

— اورلاند . . . ولكنه اسم بليد ، واريد ان اغيره . . .

— * Eh bien, eh bien, mon garçon . . . يا لك من حَرِكٍ !

صهل الحصان ، وراوح بحوافره ، وهزّ بوزه المُزْبد .

— لينوتشكا ، مسّدي عليه ، ولا تخافي . . .

مدّت الفتاة يدها من النافذة ، ولكن اورلاند شبّ على قائمتيه الخلفيتين فجاة ، واندفع ناحية . لم يرتبك الفارس ، وضغط الحصان بين ساقيه ، وساطه على رقبته ، وجعله يعود الى موضعه امام النافذة ، رغم مقاومته .

كررت ماريا دميتريفنا : ** Prenez garde, prenez garde .

قال الفارس :

— داعبيه ، يا لينوتشكا ، لن ادعه يتعفرت .

مدّت الفتاة يدها مرة اخرى ، ومسّت برهبة منخري اورلاند المرتعشين ، وكان الحصان يجفل ويعض شكيمته بلا انقطاع .

هتفت ماريا دميتريفنا :

— مرحى ! والآن انزل عن فرسك ، وتعال الينا .

ادار الفارس فرسه بمهارة ، وهمزه ، وخبّ في الشارع في خطوات قصار ، ودخل الفناء . وبعد دقيقة طلع راكضا من باب الرواق ملوحا بالسوط ، الى حجرة الجلوس ، وفي ذات الوقت ظهرت على عتبة باب آخر فتاة هيفاء طويلة سوداء الشعر في نحو التاسعة عشرة من العمر ، هي ليزا كبرى ابنتي ماريا دميتريفنا .

٤

الشاب الذي عرّفنا القارئ به لتوّنا هو فلاديمير نيقولايتش بانشين ، موظف في المهمات الخاصة في وزارة الداخلية في بطرسبورغ . وقد جاء الى مدينة و . . . للقيام بمهمة رسمية

* طيب ، طيب ، يا صغيري (بالفرنسية في الاصل) .
** احترس ، احترس (بالفرنسية في الاصل) .

مؤقتة ، والتحق بإمرة حاكم الولاية ، الجنرال زونينبرغ الذي يمت له بصلة عائلية . كان والد بانشين ضابط خيالة متقاعدا ، ومقامرا مشهورا ، ذا عينين عسليتين ، ووجه متعب ، واختلاجة عصبية على شفتيه ، قضى عمره كله متشبثا بالاعيان ، يؤم النوادي الانجليزية في كلتا العاصمتين ، واشتهر بكونه فتى بارعا غير مامون كثيرا ، ولكنه أنيس ودود . وعلى رغم براعته فقد كان دائما تقريبا على حافة الفقر ، وترك لإبنه الوحيد ملكية صغيرة مزعزعة . الا انه اهتم بتعليم ابنه بطريقته الخاصة . ففلاديمير نيقولايتش يتكلم بالفرنسية بشكل ممتاز ، وبالانجليزية بشكل جيد ، وبالالمانية بشكل سيئ . وهذا ما ينبغي ان يكون اذ من المخجل ان يتكلم المعتبرون من الناس بالالمانية بشكل جيد ، ولكن من الممكن ان يطلقوا عبارة المانية في بعض الحالات ، المسلّية في معظمها ، * c'est même tres chic . كما يقول باريسيو بطرسبورغ . وفلاديمير نيقولايتش ، منذ ان كان فتى في الخامسة عشرة كان لا يجد غضاضة في الدخول الى اية حجرة للجلوس ، ويتنقل فيها بلطف ، وينسحب في الوقت المناسب . وكان الوالد قد قدم للابن علاقاته الكثيرة . وكان ، وهو يمشط ورق اللعب بين لعبة واخرى ، او بعد كسب «خزنة كبيرة» ** لا يفوّت فرصة إلا ويذكر ابنه «فولودكا» لشخص مهم ولوع بالالعاب التجارية . وكان فلاديمير نيقولايتش من جانبه ، قد تعرف ، اثناء وجوده في الجامعة ، التي تخرج منها بدرجة بكالوريوس ، على بعض الشبان من علية القوم ، وصار ضيفا مفضلا في احسن البيوت . وكان يُستقبل بطيب خاطر في كل مكان ، وكان على قدر معتبر من الملاحة ، طليقا في معاملته ، مسليا ، معافى دائما ، مستعدا لكل شيء ، محترما حيث يجب ، وجريئا حيث يمكن ، رفيقا ممتازا ، عموما *** un charmant garçon . انفتح امامه باب السعد ، فادرك بسرعة سر آداب المجتمع الراقي . واحسن النفاذ باحترام حقيقي الى مواثيق هذا المجتمع ، عرف ان يشغل نفسه بالتفاهات ، في عظمة مشوبة بالسخرية ، ويتظاهر بانه يعتبر كل ما هو عظيم تافها . وكان يجيد

* ان هذا طريف جدا (بالفرنسية في الاصل) .
** هو مجموع ما يطرح من النقود في لعبة واحدة . **المعرب** .
*** فتى ساحر (بالفرنسية في الاصل) .

الرقص ويلبس على الطريقة الانجليزية ، حتى اشتهر في فترة قصيرة بانه واحد من اعذب وابرع الشبان في بطرسبورغ . كان بانشين ، في واقع الامر ، بارعا جدا ، ليس اسوأ من ابيه ، ولكنه فوق ذلك كان موهوبا جدا . طاوعه كل شيء : فكان يغني بصوت رخيم ، ويرسم بسهولة ، وينظم الشعر ، ويمثل على خشبة المسرح تمثيلا غير سيئ . ولم يكن قد اربى على الثامنة والعشرين ، ومع ذلك فقد كان ضابط حاشية ، وفي منصب ممتاز جدا . كان بانشين الشاب ذا ايمان قوي في نفسه ، وفي عقله ، وفي بصيرته . فكان يتقدم بجراة وابتهاج ، وبأوسع الخطى . وكانت حياته تسير رُخاء . وقد تعود ان يكون موضع اعجاب الجميع ، الكبار والصغار ، ويتوهم انه يعرف الناس ، لا سيما النساء ، اذ كان يعرف جيدا مواطن ضعفهن الاعتيادية . وكان ، وهو الانسان غير الغريب عن الفنون ، يشعر في نفسه بالحماس ، وبشيء من الولع ، وبالطرب الغامر ، وبسبب ذلك كان يبيح لنفسه انواعا مختلفة من الخروج على الاصول . فكان يعاقر الخمرة باسراف ، ويتعرف على اناس لا يمتون الى المجتمع الراقي ، ويتصرف ، على العموم ، بطلاقة وبساطة . ولكنه في دخيلة نفسه ، كان باردا وماكرا ، وكانت عينه الثاقبة البنية ، تراقب وتترصد كل شيء ، حتى في اشد مجالس الخمرة اسرافا . فما كان هذا الشاب الجريء ، هذا الشاب الطليق ، يستطيع ان يسهو ، وينغمر بكليته . وانصافا له يمكن القول انه لم يتبجح قط بانتصاراته . وقد وجد طريقه الى بيت ماريا دميترييفنا حال وصوله الى و . . . ، وسرعان ما ثبّت نفسه فيه . وشغفت ماريا دميترييفنا به .

وزّع بانشين انحناءاته بلطف على جميع الحاضرين في الحجرة ، وصافح ماريا دميترييفنا ، وليزافيتا ميخايلوفنا ، وربّت على كتف غيديونوفسكي تربيتا خفيفا ، واستدار على عقبيه وطوّق راس لينوتشكا بذراعه ، وقبلها في جبينها .

سألته ماريا دميترييفنا :

— الا تخاف ركوب مثل هذا الفرس الجامح ؟

— صدقيني انه وديع للغاية . ولكنني ساقول لك مم اخاف . انا اخاف من لعب الورق مع سيرغي بتروفيتش . يوم امس ، في بيت بيلينيتسين ، خسرت معه كل نقودي .

ضحك غيديونوفسكي ضحكة خفيفة مجاملة . فقد كان يتزلف ليفوز بالحظوة لدى هذا الموظف الشاب اللامع من بطرسبورغ ، ومحبوب حاكم الولاية . وكان غالبا ما يذكر قابليات بانشين الممتازة في احاديثه مع ماريا دميترييفنا . وكان يقول : وكيف لا يُمدح هذا الشاب ؟ فهو يكسب النجاحات في مقامات الحياة العليا ، ويخدم بشكل مثالي ، وليس فيه اقل تكبر . وعلى العموم كان بانشين حتى في بطرسبورغ يعتبر موظفا متمكنا اذ كانت قدرته على العمل هائلة . ما كان يتحدث عن العمل إلا مازحا ، كما ينبغي لرجل من مجتمع راق ، لا يولي اهمية كبيرة لاعماله ، فليس هو إلا «منفذا» . والرؤساء مغرمون بمثل هؤلاء المرؤوسين ، وهو نفسه لم يكن يشك في ان في وسعه ان يصبح وزيرا مع مرور الزمان ، اذا كان يرغب في ذلك .

قال غيديونوفسكي :

— تقول انك خسرت معي . ولكن مَنْ ربح مني في الاسبوع الماضي اثنا عشر روبلا ، ثم . . .

— خبيث ، خبيث ، — قاطعه بانشين بلامبالاة رقيقة ، وان كانت ازدرائية قليلا ، ولم يعره التفاتا بعد هذا ، وتقدم من ليزا ، وشرع يقول :

— لم استطع العثور هنا على مقدمة اوبيرون (٤٣) الموسيقية . بينما كانت بيلينيتسينا تتباهى طوال الوقت بأن عندها الموسيقى الكلاسيكية كلها ، غير انها ، في الواقع ، لا تملك إلا موسيقى رقصات البولكا والفالس . ولكنني كتبت الى موسكو وبعد اسبوع ستكون لديك هذه المقدمة . بالمناسبة ، وضعت البارحة «رومانس» جديدة ، وكلماتها من تاليفي ايضا . هل تريدين ان اغنيها لك ؟ لا اعرف كيف هي . اعتبرتها بيلينيتسينا عذبة جدا ، ولكن كلمات هذه لا تعني شيئا . اود ان اعرف رايك . غير اني اظن الافضل ان اؤجلها .

تدخلت ماريا دميترييفنا قائلة :

— لماذا تؤجلها ؟ لماذا لا تغنيها الآن ؟

— سمعا وطاعة — قال بانشين بتلك الابتسامة العذبة الوضيئة التي تطل من شفتيه فجاة ، وتختفي فجاة ، ودفع المقعد



بركبته ، وجلس الى البيانـــو ، وضرب بعض المفاتيـــح وغنى «الرومانس» التالية مباعدا الكلمات بوضوح :

ينساب البدر فوق الارض
بين السحب الوسانة
وشعاع سحري يتهادى
من علياء موجة بحر .
يا بحر يا بدر الروح
بك وحدك تتحرك
في السراء والضراء .
قلبي مفعم بحنين الحب ،
بحنين النزعات الخرساء . .
وانا مثقل . . . لكن الوسواس
لا يقربك كما ذاك البدر (٤٤)

غنى بانشين البيت الثاني بقوة وتأثر ملحوظ . وترددت في المصاحبة الموسيقية الهادرة رشقات الامواج . وبعد كلمتي «انا مثقل» تنهد قليلا ، وانزل بصره وخفض صوته morendo * وعندما فرغ من غنائه امتدحت ليزا اللحن ، وقالت ماريـــا دميترييفنـــا «ساحر» . وهتف غيديونوفسكي ايضا «رائع ! الشعر والنغم رائعان على حد سواء ! . .» وكانت لينا تنظر الى المغني بتبجيل طفولي . وباختصار اعجب جميع الحاضرين كثيرا بنتاج الهاوي الشاب . ولكن رومانس بانشين رغم ما فيها من عذوبة لـم تطب للرجل العجوز الذي دخل لتوه الى الرواق وراء حجرة الجلوس . وذلك اذا حكمنا بالتعبير الذي ارتسم على وجهه المسحوب ، وحركة كتفيه . تريث هذا الرجل قليلا ، ونفض الغبار عن حذائيه الطويلين بمنديل جيب سميك ، وقلّص عينيه ، وزم شفتيه متجهما ، واحنى ظهره المحني اصلا ، ودخل الى حجرة الجلوس ببطء .

— آه ! خريستوفور فيدوريتش ، مرحبا ! — هتف بانشين قبل الجميع ، ووثب من كرسيه بسرعة ، واضاف : — ما كنت اظن

---

* خامدا (بالايطالية في الاصل) .

قط انك موجود هنا ، وإلا لما اقدمت على غناء رومانسي في حضورك ، مهما يكن . اعرف انك لاتحب الموسيقى الخفيفة .

— أنا لم سمعت .

قال الرجل الداخل بلغة روسية رديئة ، وانحنى للجميع محييا ، ووقف في وسط الحجرة محرجا .

قالت ماريا دميترييفنا :

— هل جئت ، يا مسيو ليم ، لاعطاء درس الموسيقى لليزا ؟

— لا ، ليس لليسافيتا ميخايلوفنا ، بل ليلين ميخايلوفنا .

— اها ، وليكن ، هذا لطيف جدا . يالينوتشكا ، اصعدي الى فوق مع السيد ليم .

سار العجوز وراء الفتاة ، إلا ان بانشين اوقفه قائلا :

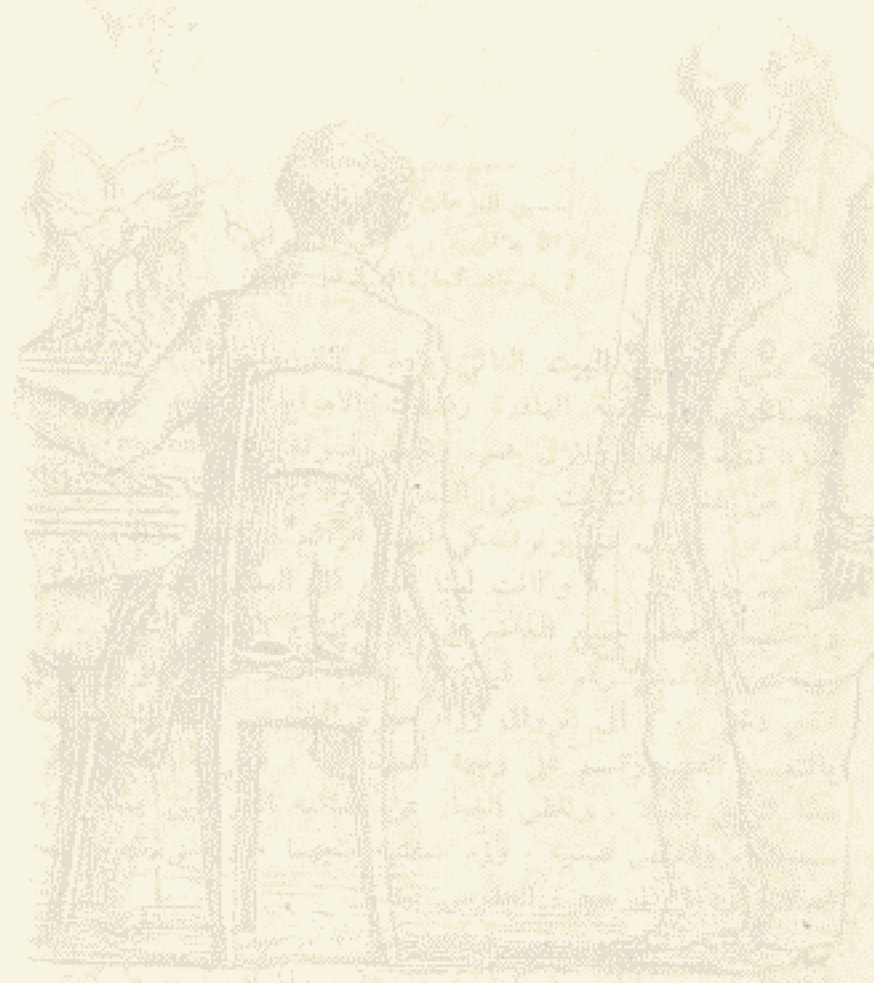
— لا تذهب بعد الدرس ، يا خريستوفور فيدوريتش . سنعزف ، ليزافيتا ميخايلوفنا وانا ، سوناته لبيتهوفن على اربع ايد .

دمدم العجوز بشيء في سره ، ومضى بانشين يقول بالالمانية ناطقا بالكلمات نطقا سيئا :

— اطلعتني ليزافيتا ميخايلوفنا على الكانتاته الدينية التي اهديتها لها . قطعة غنائية رائعة ! ارجو ان لا تظن انني لا احسن تقييم الموسيقى الجادة ، بل على العكس : قد تكون احيانا كئيبة ، ولكنها نافعة جدا .

احمر العجوز احمرارا شديدا ، والقى نظرة جانبية على ليزا ، وخرج من الحجرة عجولا .

رجت ماريا دميترييفنا بانشين ان يعيد الرومانس ، ولكنه قال انه لا يود الاساءة الى اذني هذا العالم الالماني ، وعرض على ليزا الاشتغال بسوناته بتهوفن . وعند ذاك تنهدت ماريا دميترييفنا ، وعرضت ، من جانبها ، على غيديونوفسكي ، ان يتمشى معها في الحديقة . وقالت : «احب ان اتحدث واتشاور معك قليلا عن صاحبنا فيديا المسكين» . كشر غيديونوفسكي عن ابتسامة عريضة ، وانحنى ، وتناول باصبعيه قبعته ، والقفازين الموضوعين باعتناء على احدى حوافيها ، وخرج مع ماريا دميترييفنا . بقيت ليزا و بانشين



وحدهما في الحجرة . اخرجت ليزا السوناته ، وفتحتهـا ، وجلس الاثنان الى البيانو بصمت . ومن فوق ترددت اصوات سلالم موسيقية خافتة تعزفها انامل لينوتشكا غير الواثقة .

٥

ولد خريستوفور تيودور هوتليب ليم في عام ١٧٨٦ من عائلة موسيقيين فقراء في مدينة خيمنتس في مملكة ساكسونيا . كان ابوه يعزف على البوق الفرنسي ، وامه على القيثار . ومنذ الخامسة من عمره اخذ يتدرب على ثلاث آلات موسيقية مختلفة . وتيتم وهو في الثامنة من العمر ، ومنذ العاشرة اخـذ يكسب كسر خبزه بفنه . وقضّى حياة تشرد طويلة ، وعزف في كل مكان ، في الحانات وفي الاسواق ، وفي اعراس الفلاحين ، وفي الحفلات الراقصة ، واخيرا وجد له مكانـا في فرقة اوركسترا مرتقيا اعلى فاعلى ، حتى صار قائدها . لم يكن عازفا جيدا ، ولكنه كان يعرف الموسيقى معرفة ركينة . وفي السن الثامنة والعشرين نزح الى روسيا . فقد استدعاه سيد من كبار القوم كان نفسه لا يطيق الموسيقى ، ولكنه كان يحتفظ بفرقة اوركسترا للأبهة . وقد اقام ليم عنده زهاء سبعة اعوام بصفة قائد الفرقة ، وخرج منه خاوي الوفاض . فقد افلس هذا السيد ، واراد ان يعطيه سنداً نقديا ، ولكنه رفض له ذلك ايضا فيما بعد ، وباختصار لـم يعطه اي فلس . فنصحوه بأن يرحل ، ولكنه لم يرد العودة الى وطنه معدماً من روسيـا ، من روسيا العظيمة ، من هذا الكنز الذي لا يفنى للموسيقيين . فعزم على البقاء وتجريب حظه . وظـل هذا الالماني البائس يجرب حظه عشرين عاما ، واقام عند سادة كثيرين ، وعاش في موسكو ، وفي حواضر الولايات ، وعانى وتحمل الكثير ، وذاق الفاقة ، ولبط كما تلبط السمكـة على الجليد ، ولكن فكرة العودة الى الوطن لم تزايله وسط جميع المصائب التي تعرض لها . وهذه الفكرة وحدها التي كانت تشد من ازره . ولكن القدر لم يشأ ان يتلطف عليه بهذه السعادة الاولى والاخيرة . فظل محصورا في مدينة و . . . وهو في الخمسين من العمر مريضا ، ومتداعيا قبل الاوان ، وبقي فيها الى الابد ، وقد فقد نهائيا كل أمل في الرحيل عن روسيـا التي

يكرهها ، كاسبا على نحو ما معيشته الهزيلة باعطاء الدروس . لم يكن ليم جذابا في مظهره . فقد كان قصيرا محدودب الظهر قليلا ، ذا كتفين بارزين معوجيـن ، وبطن خاسف ، وقدمين كبيريـن مسطحين ، واظافر شاحبة الزرقة على اصابع صلبة معوّجة ليدين معروقتين حمراوين ، وكان وجهـه متغضنا ، وخداه غائرين ، وشفتاه مزمومتين ، يحركهما دائما ويتلمظ بهما باستمرار ، فكان ذلك يضفي عليه ، زيادة على التزامه الصمت عادة ، مسحة شؤم . وكان شعره الاشيب يتدلى خصلات على جبينه الضيق . وكانت عيناه الصغيرتان الجامدتان مثل جمرتين أُطفئتا لتوهمـا . وكان ثقيل الخطو ، يرنح جسمه الاخرق عند كل خطوة . وكانت بعض حركاته تشبه ذلك الزهو الارعن لبومة في قفص ، حين تحس بالانظار مصوبة نحوها ، بينما هي نفسها لا تكاد تبصر بعينيها الصفراوين الكبيرتين الرامشتين في وجل ونعاس . وتركت المحنة العميقة القاهرة على الموسيقي المسكين ختمها الذي لا يُمحى ، واصابت وشوهت هيكله القبيح اصلا . ولكن شيئا طيبا نقيا غير اعتيادي كان يتبدى في هذا المخلوق شبه المتهدم لمن لا يكتفي بالانطباعات الاولى . ومَنْ يدري ؟ فلربما كان من الممكن لليم المعجب بباخ وغنديل ، والعارف بفنه ، والموهوب بمخيلة حية وجرأة الفكر الميسّرة لقومه الالمان وحدهم ، ان يصير في عداد المؤلفين الموسيقيين العظام لبلاده لو ان الحياة سلكت معه مسلكا آخر ، ولكنه لم يولد في برج سعد ! لقد ألّف الكثير في حياته ، ولكن الحظ لم يشأ له ان يرى أياً من اعماله مطبوعا . لم يكن يحسن التصدي للعمل كمـا ينبغي ، ولا الاجلال ، حين يقتضي الاجلال ، ولا الالتماس في الوقت المناسب . قبل زمن بعيد جدا طبع صديق له واحد المعجبين به ، وهو الماني فقير مثله ، سوناتتين له على نفقته الخاصة ، فظلتا كما هي كاملة في اخباء المحلات الموسيقيـة ، وامحّت من الوجود ، وكان احدا القاها في النهر ليلا . واخيرا صرف ليم فكره عن كل شيء ، ثم ان السنين تركت فعلها فيه ، ففقد احساسه ، وتيبس وتيبّسـت اصابعه . وظل يعيش في و . . . في بيت صغير ، غير بعيد عن بيت آل كاليتين لوحده مع طباخة عجوز اخذها من دار العجزة (لم يتزوج قط) . وكـان يتمشى كثيرا ، ويقرأ الكتاب المقدس ، ومجموعة التراتيل البروتستانتية ، وشكسبير ترجمة شليغل (٤٥) . وكان

قد كفّ عن التأليف منذ زمن طويل ، ولكن ليزا ، فضلى تلاميذه ، قد استطاعت ان تحركه ، على ما يبدو . فألف لها الكانتاتة التي اشار اليها بانشين . وقد انتقى كلماتهـا من مجموعة التراتيل ، والّف هو بعض الابيات . وكانت تنشدها جوقتان : جوقة السعداء وجوقة التعساء ، وفي نهاية الكانتاتة تتآلف المجموعتان كلتاهمـا وتنشدان سوية : «ايها الرب الرحيم ، ارحم بنا ، نحن الخطاة ، وابعد عنـا الافكار الشريرة ، والاماني الدنيوية» . وعلى صفحة الغلاف المخطوطة بشكل معتنى بـه كثيرا ، بل والمزينة بالرسوم كتب ما يلي : «الاتقياء وحدهم على صواب . كانتاتة دينية . مؤلفة ومهداة الى الانسة يليزافيتا كاليتينـا ، تلميذتي المهذبة . من معلمها خ . ت . غ . ليم» . واحيطت بهالة كلمات «الاتقياء وحدهم على صواب» و«يليزافيتا كاليتينا» . وكتب في الاسفل «لك وحدك für Sie allein» . ولهذا السبب احمرّ ليم ونظر الى ليزا من مؤخر عينه . فقد اوجعـه كثيرا ان يشير بانشين الى هذه الكانتاتـة بحضوره .

٦

عزف بانشين ضربات السوناتة الاولى بقوة وعزم (كان لـه الدور الثاني في العزف) ، ولكن ليزا لم تبدأ دورهـا . توقف بانشين عن العزف ، ونظر اليها . كانت عينا ليزا مصوبتين عليه تماما وتعبران عن عدم الرضا ، وكانت شفتاهـا لا تبتسمان ، ووجهها كله صارما وحزينا تقريبا . سأل بانشين :

– ماذا بك ؟

قالت :

– لمـاذا لـم تفِ بوعدك ؟ فقد عرضت عليك كانتاتـة خريستوفور فيدوريتش شريطة ان لا تذكرها له .

– آسف ، ياليزافيتا ميخايلوفنـا . افلتت هذه الكلمة من لساني .

– لقد آلمته ، وآلمتني ايضا . والآن لن يثق بي ايضا .

– وماحيلتـي في هـذا ، ياليزافيتـا ميخايلوفنـا ؟

منذ نعومة اظفاري لا استطيع ان ارى المانيـا ببرود اعصاب ، فأُغرى على مناكدته .

– ما هذا القول ، يـا فلاديمير نيقولايتش ! هذا الالمانـي انسان مسكين ، وحيد ، منهوك . ولا ترثي له ؟ تريد ان تناكده ؟

ارتبك بانشين ، وقال :

– انت محقة ، ياليزافيتـا ميخايلوفنا . كل الذنب يقع على طيشي المستديم . لا ، لا تعترضي عليّ . انا اعرف نفسي جيدا . طيشي هذا سبّب لي الكثير من الاذى . ومن جرائـه اعتبروني انانيا .

صمت بانشين قليلا . من اي نقطة يشرع في الحديث كان ينتهي في العادة الى الحديث عن نفسه . وكان ذلك يحدث له بعذوبة ورقة وصدق ، وكأنه شيء عارض . قال :

– في بيتكم ايضا ، تحترمني امك كثيرا ، بالطبع . فهي طيبة جدا . وانت . . . على العموم لا اعرف رأيك فيّ . اما عمتك فلا تقدر ان تتحملني اطلاقا . فلعلي اسئت اليهـا ايضا بطيشي ، بكلمة بلهاء صدرت مني . فهي لا تحبني ، أليس كذلك ؟

قالت ليزا متلعثمة قليلا :

– نعم ، انت لا تروق لها .

مرر بانشين اصابعه على المفاتيح بسرعة ، وسرت على شفتيه ابتسامة ساخرة لا تكاد تلحظ .

قال :

– حسنا ، وانت ؟ هل ابدو انانيا لك ايضا ؟

ردت ليزا :

– ما زلت لا اعرفك كثيرا . ولكنني لا اعتبرك انانيا ، بل على العكس يجب ان اشكرك . . .

– اعرف ، اعرف ماذا تريدين ان تقولي – قاطعها بانشين ، ومرر بأصابعه على المفاتيـح مرة اخرى بسرعة . – تشكرينني على النوطات ، على الكتب التي اجلبها لك ، على الرسوم الرديئة التي ازين بها البومك ، الى غير ذلك ، الى غير ذلك . انا استطيع ان افعل كل ذلك ، واكون انانيـا ايضا . اجرأ على الظن بأنك لا تضجرين معي ، ولا تعتبرينني رجلا سيئـا ، ولكن مع كل هذا

تظنين انني ، — آوه ، كيف يُقال عن ذلك ؟ — من أجل طُرفة لا ارحم أبا ولا صديقا .

قالت ليزا :

— انت ساهٍ وكثير النسيان ، مثل جميع الذوات . وهذا كل ما في الامر .

تعبّس بانشين قليلا وقال :

— اسمعي . دعينا لا نتحدث عن نفسي اكثر من هذا . ولنستأنف عزف السوناته . عندي رجاء واحد لك — اضاف ذلك وهو يمسّد بيده اوراق الدفتر الموضوع على حاملة النوطات . — ظني بي ما تشائين ، وسميني حتى اناتيا . فليكن ! ولكن لا تسميني من الذوات . هذه التسمية لا اطيقها Anch'io sono pittore * انا ايضا فنان ، ولو فنان رديء ، وسأريك هذا بالذات الآن ، اي كوني فنانا رديئا . لنبدأ .

قالت ليزا :

— نعم ، لنبدأ .

خرجت الحركة البطيئة الاولى جيدة بالقدر الكافي ، رغم ان بانشين اخطأ غير مرة . عزف الحانه وما تدرب عليه عزفا لطيفا جدا ، ولكنه كان سيئا في قراءة النوطات . ولكن القسم الثاني من السوناته — وهو allegro سريعة جدا — فشل تماما . وفي الفاصلة العشرين لم يتحمل بانشين ، وكان قد تأخر بفاصلتين ، ودفع مقعده الى الوراء ضاحكا وصاح :

— كلاّ ! انا لا استطيع اليوم ان اعزف . لطيف ان ليم لم يسمع عزفنا ، وإلا لسقط مغشيا عليه .

نهضت ليزا ، وسدّت البيانو ، والتفتت نحو بانشين وسألته :

— ماذا سنفعل ، اذن ؟

— كشفتك في هذا السؤال ! انت لا تستطيعين البقاء مطوية الذراعين . طيب ، لنرسم ، اذا شئت ، فالظلام لم يهبط بعد . فلعل موزية اخرى ، موزية الرسم ، نسيت اسمها . . . ستكون اراف بي . اين البومك ؟ اتذكر منظري الطبيعي ذاك لم يتم بعد .

* فانا ايضا فنان (بالايطالية في الاصل) .

ذهبت ليزا الى حجرة اخرى لتجلب الألبوم ، وعندما بقي بانشين وحيدا ، اخرج من جيبه منديلا من القماش القطني الخفيف ، ومسح به اظافره ، ونظر الى يديه بشيء من الشزر . وكانت يداه جميلتين جدا وبيضاوين ، وقد وضع في ابهام يده اليسرى خاتما ذهبيا مبروما . عادت ليزا . وجلس بانشين عند النافذة ، وفتح الألبوم . وهتف :

— اهـا ! ارى انك قد شرعت باستنساخ منظري الطبيعي . هذا رائع . جيد جدا . هنا فقط ، اعطيني قلما . الظلال لم توضع بقوة كافية . عايني .

ووضع بانشين بضع خطوط طويلة بحركات عريضة من يده . وكان يرسم نفس المنظر الطبيعي دائما : في المقدمة اشجار كبيرة كثّة ، وفي الخلفية فرجة وجبال مسننة ، على منحور السماء . كانت ليزا تنظر الى عمله من وراء كتفه . قال بانشين وهو يحني راسه يمينا وشمالا :

— في الرسم ، وفي الحياة بشكل عام ، المكانة الاولى للخفة والجراة .

وفي هذه اللحظة دخل ليم الحجرة ، وانحنى راسه بجفاف ، وهمّ بالانصراف . إلا ان بانشين القى الألبوم والقلم جانبا ، وسدّ عليه طريقه .

— الى اين يا خريستوفور فيدوريتش الكريم ؟ الا تبقى لشرب الشاي ؟

قال ليم بصوت وعق :

— عليّ ان اذهب الى البيت . عندي صداع .

— اوه ، كلام فارغ . ابق ، وسنتناقش معك عن شكسبير .

كرر العجوز :

— عندي صداع .

امسكه بانشين من خصره بلطف ، ومضى يقول مبتسما ابتسامته الوضيئة :

— بدأنا بعزف سوناتة بتهوفن بدونك . ولكن لم يسر العزف على ما يرام . تصوّر انني لم استطع عزف نغمتين متتاليتين بشكل صحيح .

ردّ ليم بنطق سيئ ، وهو يبعد يدي بانشين عنه :

– كان الافضل ان تغني رومانساك مرى اخرى .

وخرج . ركضت ليزا في اثره . فلحقت به على مدخل البيت .

– اسمع ، يا خريستوفور فيدوريتش ! – خاطبته بالالمانية ، مصاحبة اياه الى البوابة عبر عشب الفناء القصير . – انا مذنبة ازاءك . فسامحني .

لم يرد ليم بشيء .

– اطلعت فلاديمير نيفولايتش على كانتاتك ، وكنت واثقة من انه سيقدرها . وبالفعل اعجبته كثيرا .

توقف ليم :

– هذا لا شيء – قال بالروسية ، ثم اضاف بلغة قومه : – ولكنه لا يستطيع ان يفهم شيئا . فكيف لا تلحظين ذلك ؟ انه غاوي فن ، ولا اكثر .

قالت ليزا :

– لست منصفا معه . انه يفهم كل شيء . ويستطيع ان يفعل كل شيء تقريبا بنفسه .

– نعم ، كل شيء من الدرجة الثانية ، بضاعة سهلة ، عمل عجول . وهذا يعجب الناس ، ويجعلهم يعجبون به ، انه راض عن هذا . طيب ، فيه الخير انا لا ازعل . تلك الكانتاتة وانا ، عجوزان احمقان ، كلانا . اشعر بشيء من الخجل ، ولكن لا بأس .

قالت ليزا من جديد :

– سامحني ، يا خريستوفور فيدوريتش .

– لا بأس ، لا بأس – كرر ليم بالروسية . – انت فتاة طيبة . . . وهذا شخص قادم اليكم وداعا . انت فتاة طيبة جدا .

واتجه ليم بخطوات متعجلة نحو البوابة ، حين دخل فيها سيد لا يعرفه في معطف رمادي ، وقبعة عريضة من القش . انحنى ليم له بأدب (لقد سن له هذه القاعدة : ان ينحني لجميع الاشخاص الجدد في مدينة و . . . ويشيح بوجهه عن معارفه الذين التقاهم في الشارع) . وتخطاه واختفى وراء السياج . نظر الغريب في اثره مندهشا ، وحدق في ليزا ، وتقدم منها راسا .

٧

قال الرجل ، وهو يخلع قبعته :

– اراك لا تتذكرينني ، بينما انا عرفتك ، رغم ان ثماني سنوات انقضت منذ ان رأيتك لآخر مرة . كنت حينذاك طفلة . انا لافريتسكي . هل والدتك في البيت ؟ هل ممكن ان اراها ؟

قالت ليزا :

– ستكون امي مسرورة جدا . فقد سمعت بوصولك .

قال لافريتسكي ، وهو يرتقي درجات مدخل البيت :

– اظن اسمك يليزافيتا ؟

– نعم .

– انا اتذكرك جيدا . آنذاك ايضا كان لك وجه لا يُنسى . في ذلك الوقت كنت اجلب لك الملبّسات .

احمرّت ليزا ، وفكّرت كم هو غريب . توقف لافريتسكي في الرواق برهة . ودخلت ليزا حجرة الجلوس التي كان يتناهى منها صوت بانشين وقهقهته . كان يروى لماريا دميتريفنا وغيديونوفسكي شيئا من اقاويل المدينة ، وكان هذان قد عادا من الحديقة ، وكان الراوي نفسه يضحك ضحكة عالية على ما كان يرويه . ولدى ذكر اسم لافريتسكي اضطربت ماريا دميتريفنا كليا ، وشحبت ، وذهبت للقائه . وهتفت بصوت ممدود يكاد يكون مغرورقا بالدموع :

– مرحبا ، مرحبا ، يا ابن عمي العزيز . كم انا مسرورة لرؤيتك !

وقال لافريتسكي :

– مرحبا ، يا ابنة عمي الطيبة . – وصافح اليد الممتدة اليه بمودة . – كيف يرعاك الرب ؟

– تفضل اجلس يا عزيزي فيدور ايفانيتش . آه ، كم انا فرحة ! اسمح لي اولاً ان اقدم لك ابنتي ليزا . . .

قاطعها لافريتسكي قائلا :

– قدّمت نفسي لليزافيتا ميخايلوفنا .

– مسيو بانشين . . . سيرغي بتروفيتش غيديونوفسكي . . . ولكن اجلس ، ارجوك ! ها انا انظر اليك ، ولا اصدق عيني حقا . كيف صحتك ؟

— كما ترين . اتفتح . وانت ايضا ، يا ابنة العم ، اخشى ان اصيبك بالعين . لم تنحفي طوال هذه السنوات الثماني .

فقالت ماريا دميترييفنا كالحالمة :

— ليت شعري كم من الزمان انقضى دون ان نلتقي ! من اين جئت الآن ؟ واين تركت . . . يعني اردت ان اقول — سارعت لتستدرك . — اردت ان اقول ، هل ستمكث عندنا طويلا ؟

قال لافريتسكي :

— قدمت الآن من برلين . وغدا ساسافر الى القرية ، ولزمن طويل ، كما اظن .

— ستقيم في قرية لافريكي ، بالطبع ؟

— لا ، ليس في لافريكي . ولكن لي قرية صغيرة ، على بعد خمسة وعشرين فرسخا من هنا . وساسافر اليها .

— أ هي القرية التي خلّفتها لك غلافيرا بتروفنا ؟

— هي نفسها .

— ولكن ، يا فيدور ايفانيتش ! ان لك دارا رائعة في لافريكي .

عقد لافريتسكي بين حاجبيه قليلا .

— نعم . . . ولكن في تلك القرية الصغيرة ايضا جناحا صغيرا ، ولست الآن بحاجة الى اكثر من ذلك . هذا المكان اروح مكان، بالنسبة لي .

ومرة اخرى ذُهلت ماريا دميترييفنا ذهولا جعلها ترفع جذعها ، وتبسط ذراعيها . خفّ بانشين لمساعدتها ، ودخل في حديث مع لافريتسكي . هدأت ماريا دميترييفنا ، وارتخت على ظهر المقعد ، ومن حين لآخر فقط كانت تدلي بكلمتها ، ولكنها ، خلال ذلك ، كانت تنظر الى ضيفها باشفاق شديد ، وتتنهد بدلالة كبيرة ، وتهز راسها في جزع عظيم ، حتى ان الضيف لم يصطبر في آخر الامر ، وسألها بحدة ظاهرة : هل انت بخير ؟

قالت ماريا دميترييفنا :

— الحمد لله . ولكن لماذا سألت ؟

— هكذا تراءى لي انك في غير اطوارك .

اتخذت ماريا دميترييفنا مظهر الوقار ، والتكدر قليلا . وفكرت في سرها «اذا كان الامر كذلك ، فلا فرق عندي على الاطلاق . ولكنك ، يا عزيزي كأنك لا تتأثر بشيء . غيرك كانت تلك

المصيبة ستهلكه ، بينما انت تبدو كماكنت» . ولم تتورع ماريا دميترييفنا عن اى كلام في سرها ولكن حين تجهر بالقول تتكلم بلباقة اكثر .

وبالفعل لم يكن لافريتسكي يبدو ضحية القدر . فقد كانت عافية السهوب ، والقوة الصلبة المستديمة تنضح من وجهه الروسي القح المحمر الخدين ، بجبينه العريض الابيض ، وانفه السميك قليلا ، وشفتيه الممتلئتين المخططتين . كان متين البنيان يتجعد شعره الكتاني فتائل مثل شعر الصبي . وعيناه الزرقاوان الجاحظتان ، والجامدتان قليلا ، كانتا وحدهما تنمان عن امعان في التفكير ، او تعب ، كما كان صوته يتردد متسق النبرات اكثر من اللازم .

وخلال ذلك كان بانشين ماضيا في سياقة الحديث . ادار الكلام عن فوائد تنقية السكر ، حيث قرأ كراستين فرنسيتين في هذا الموضوع قبل وقت قصير ، واخذ بتواضع هادئ يعرض محتواهما ، دون ان يشير اليهما بكلمة واحدة ، على اية حال .

وفجأة صدر صوت مارفا تيموفييفنا في الحجرة المجاورة وراء الباب الموارب :

— هذا فيديا ، اذن ! فيديا ، بالضبط ! — ودخلت العجوز حجرة الضيوف خفيفة الحركة ، وقبل ان يلحق لافريتسكي ان ينهض من مقعده ، عانقته ، وتابعت تقول ، وهي تبتعد عن وجهه . — اي ! ما اروعك ! كبرت قليلا ، ولكن لم تفقد اي شيء من ملاحتك ، حقا . ولكن لماذا تقبل يديّ ، قبلني من خدي ، اذا لم تشمئز من تجاعيدي . اظنك لم تسأل عني ، كان تقول إما زالت عمتي عائشة ؟ بينما ولدت بين يدي ، يامشاكس ! طيب ، هذا لا يهم : انّى لك ان تتذكرني ! ولكنها حصافة منك انك جئت . وانت ، يا عزيزتي ، — اضافت مخاطبة ماريا دميترييفنا .— هل استضفته على شيء ؟

اسرع لافريتسكي يقول :

— لا اريد شيئا .

— طيب ، اشرب شاياً على الاقل ، يا عزيزي ، ياربي ! جاء من حيث لا يعلم الا الله ، ولا يقدمون له قدحاً من الشاي . ليزا ، اذهبي ودبري بنفسك ، وباسرع وقت . اتذكر انه في صغره كان نهماً جدا ، والآن ايضا يحب الاكل كما اظن .

قال بانشين وهو يقترب بحركة التفافية من العجوز المتهيجة :
– احتراماتي ، مارفا تيموفييفنا .
وانحنى لها انحناءة واطئة . فقالت هذه :
– اعذرني ، يا حضرة . لم الحظك من شدة الفرح – ثم عادت تقول موجهة كلامها الى لافريتسكي من جديد . – صرت تشبه امك ، الحبيبة . سوى ان انفك بقي على انف ابيك . طيب ، هل ستمكث طويلا عندنا ؟
– غدا مسافر ، ياعمة .
– الى اين ؟
– الى قريتي فاسيليفسكويه .
– غدا ؟
– غدا .
– غدا ، فليكن غدا . مع حفظ اللـه ، فأنت تعرف احسن . ولكن تعال لتوديعنا ، واياك الا تفعل . – وربتت العجوز على خده .
– لم اظن انني ساعيش لالتقيك . ليس لأنني استعد للموت . لا ، قطعا . تكفيني عشرة اعوام اخرى على ما اظن . نحن ، آل بستوف ، جميعا ، راسخون في الحياة . كان المرحوم جدك يسمينا ذوي الاعمار المزدوجة . ولكن الله وحده كان يعرف كم ستتجول في الخارج . ولكنك قوي ركين انت ، ترى اما تزال ترفع عشرة بودات بيد واحدة ، كما كنت تفعل في الماضي ؟ ثم ان المرحوم ابوك ، رغم حماقته وارجو المعذرة ، احسن صنعا حين عيّن سويسرياً لتعليمك . انت تذكر كيف كنتما تتضاربان بالقبضات . تسمى هذه تمارين رياضية ، على ما اظن ؟ ولكن ما هذه الثرثرة المسرفة من جانبي ، اعاقت السيد بنشين عن المناقشة لا غير (لم تكن تنطق بإسمه ، بانشين ، النطق الصحيح قط) . على كل حال ، الافضل ان نشرب الشاي ، لنشربه على الشرفة ، يا عزيزي . عندنا كريمة رائعة ، ليس مثلما في لندناتك او باريساتك . لنذهب ، لنذهب ، وانت يا فيديوشا ، اعطني يدك . آوه ! كم سميكة يدك هذه ! اظن احداً لا يسقط اذا استند عليها .
نهض الجميع ، واتجهوا الى الشرفة ما عدا غيديونوفسكي الذي انسل منصرفا بهدوء . كان طوال حديث لافريتسكي مع صاحبة البيت ومع بانشين ومارفا تيموفييفنا يجلس في ركن رامشا بانتباه ،

وقد مط شفتيه بفضول طفولي . والآن كان يسرع لبث خبر الضيف الجديد في المدينة .
في الساعة الحادية عشرة من مساء نفس اليوم كان هذا ما يجري في بيت السيدة كاليتينا . في الاسفل ، على عتبة حجرة الجلوس ، انتهز فلاديمير نيقولايتش لحظة مناسبة وتوادع مع ليزا ، وقال لها ، وهو ممسك بيدها : «انت تعرفين ما يجذبني الى هنا . تعرفين لماذا اجيء الى بيتكم باستمرار . لا حاجة الى الكلام ، اذا كان كل شيء واضح هذا الوضوح» . لم تجبه ليزا بشيء ، ورفعت حاجبيها قليلا دون ان تبتسم ، واحمرت واطرقت ببصرها الى الارض ، ولكنها لم تسحب يدها . وفي الاعلى ، في حجرة مارفا تيموفييفنا ، كان لافريتسكي جالسا على كرسي وثير في ضوء سراج متدل امام ايقونات قديمة باهتة ، وقد وضع كوعيه على ركبتيه ، واسند وجهه على يديه ، والعجوز واقفة امامه تمسد شعره في صمت من حين الى آخر . وكان قد امضى في حجرتها اكثر من ساعة ، بعد ان استأذن من صاحبة البيت . لم يقل اي شيء تقريبا لصديقته القديمة الطيبة ، كما انها لم تسأله . . . ثم ما الحاجة الى الكلام ، وعمّ تسأل ؟ فهي ، بدون ذلك ، تفهم كل شيء ، وتتعاطف بكل ما يمتلئ به قلبه .

٨

كان فيدور ايفانيتش لافريتسكي (يجب ان نطلب من القارئ الإذن لنقطع سياق قصتنا لبعض الوقت) ينحدر من سلالة نبلاء قديمة . وكان جد آل لافريتسكي الاول قد هاجر من بروسيا ، في حكم الامير فاسيلي تيومني (٤٦) ومنح مائتا ربع * من الارض في بيجتسك-فيرخ . والكثيرون من احفاده شغلوا وظائف كثيرة ، وانخرطوا في خدمة الأمراء والاشراف في الاقاليم النائية ، ولكن اي واحد منهم لم يرتق الى اكثر من وظيفة سفرجي ، ولم يجمع ثروة معتبرة . وكان اندريه والد جد فيدور ايفانيتش اغنى واهم اللافريتسكيين قاطبة ، وهو رجل قاس ، وجسور ، وذكي ، وماكر . ولحد اليوم لم تتوقف اقوال الناس عن استبداده ، وطبعه الصارم ،

* الربع وحدة قياس الارض الروسي القديم . **المعرب** .

وكرمه الطائش ، وجشعه الذي لا يرتوى . كان بدينا جدا وطويلا ذا وجه اسمر وبلا لحية . وكان يحوّر بعض الحروف في كلامه ، ويبدو ناعسا ، ولكنه كلما تكلم بهدوء اكثر ارتعد الذين من حوله اشد . وقد اختار له زوجة على غراره . كانت جاحظة العينين ، معكوفة الأنف ، مدورة الوجه صفراءه ، غجرية بالولادة ، سريعة الغضب ، وانتقامية ، لم تكن تتنازل عن شيء لزوجها الذي كاد يهلكها . ولم تعش لتشهد موته ، رغم شجارها الدائم معه . ولم يكن بيتر ابن اندريه ، وجد فيدور يشبه اباه . كان سيدا بسيطا ، من اصحاب الاراضي في السهوب ، متهورا ، صخابا ، متماهلا في العمل ، غليظا ولكن في غيرما ضغينة ، مضيافا ، وصيادا بكلاب صيد . وكان قد اربى على الثلاثين حين ورث من ابيه الفي قن في حالة ممتازة ، ولكنه سرعان ما ترك حبلهم على غاربهم ، وباع جزءا من ضيعته ، وافسد خدمه . وكان التافهون من المعارف وغير المعارف ينثالون ، كالصرار ، على رحاب بيته الواسعة الدافئة والمهملة . وكان كل هذا الجمع ياكل ما يجده ، ولكن الى حد الشبع ، ويشرب الى حد السكر ، وياخذ معه ما يقع تحت ايديه مغدقا الثناء على رب البيت الدمث ، معظما اياه ، ورب البيت ايضا ، حين يكون متعكر المزاج كان يعظم ضيوفه بأن يسميهم بالطفيليين والامّعات ، ولكن الحياة بدونهم بدت له مضجرة . كانت زوجة بيتر اندرييفيتش وديعـــة الخلق ، وكان قد اخذها من عائلة مجاورة ، حسب اختيار ابيه ومشيئته . وكانت تدعى آنا بافلوفنا . ولم تكن تتدخل في شيء ، وكانت تستقبل الضيوف بسرور ، وتخرج هي ايضا في زيارات عن طيب خاطر ، رغم ان وضع البودرة على الوجه هو صنو الموت ، حسب تعبيرها . كانت تقول في شيخوختها : «يضعون على راسك طاقية لبادية ، ويمشطون لك شعرك كله الى الأعلى ، ويدهنونه بدهن الخنزير ، وينثرون الطحين عليه ، ويغرزون دبابيس حديدية ، ولا تستطيعين ان تغسلي ما عليك فيما بعد . ولكن لا يجوز ان تذهبي في زيارة بدون بودرة ، فالناس يزعلون عليك . آوه ، عذاب !» وكانت تحب ركوب الخيول العدّاءة ، وكانت مستعدة لأن تلعب الورق من الصباح حتى المساء ، وتغطي بيدها دائما الكوبيكات القليلة التي تربحها ، حين يتقدم زوجها من طاولة اللعب ، بينما وضعت هي في عهدة زوجها المطلقة كل بائنتها ، وكل ما تملك من

نقود . وقد انجبت له مولودين : الابن ايفان والد فيدور ، والابنة غلافيرا . لم ينشأ ايفان في بيت ابيه ، بل في بيت عمة عجوز غنية ، هي الاميرة كوبنسكايا . وجعلته وريثها (ولولا ذلك لما تخلى ابوه عنه) ، والبسته قشيب الثياب كالدمية ، واستاجرت له مختلف المعلمين ، وعينت له مربيا فرنسيا ، هو راهب سابق وتلميذ لجان – جاك روسو ، يدعى كورتين دو فوسيه بارع ومدبّر مقالب مرهف ، او على حد تعبيرها fine fleur * بين المهاجرين وانتهى الامر بأن تزوجت «اجمل زهرة» هذه وهي تلامس السبعين من العمر ، وسجلت باسمه كل ثروتها ، وبعد ذلك بوقت قصير توفيت مطلية الخدين بالحمرة ، معطرة بالعنبر – à la Richelieu ** ، محاطـــة بوصفائها السود وكلابها الصغار وببغاواتها الصاخبة ، على اريكة صغيرة حريرية معوجة من عهد لويس الخامس عشر ، وفي يدهـــا علبة نشوق مطلية بالمينا صناعة بتيتو ، ماتت مهجورة من زوجها . وفضل سيد كورتين المعسول اللسان ان يرحل الى باريس آخذا نقودها . وكان ايفان في العشرين من عمره ، حين نزلت هذه المصيبة عليه (ونحن نقصد هنا زواج الاميرة ، وليس وفاتها) ، ولم يشأ ان يبقى في بيت عمته ، حيث تحوّل فجأة من وريث غني الى عالة على غيره ، ومجتمع بطرسبورغ الذي ترعرع فيه قد اغلق امامه ، وكان يشعر بالاشمئزاز من الانخراط بوظائف واطئة بما في ذلك عناء وانعدام افق (كل ذلك حدث في بداية حكم الامبراطور الكسندر) فاضطر مجبرا الى العودة الى ابيه في القرية . وبدا له عش الابوة قذرا ، بائسا ، متداعيا . وشعر بالاهانة في كل خطوة من حياة السهب القصية المدلهمة ، وصار الضجر ينخر فيه . وفضلا عن ذلك كان جميع اهل البيت ما خلا امه ، ينظرون اليه شزرا . لم تعجب اباه عاداته التي تعودها في العاصمة ، ولا سترته الفراك ، ولا الكشكشة على ياقته ، والكتب ، والفلوت ، ولا حسن هندامه الذي كان يعلن عن تقززه بصراحة . وكان الأب من حين لآخر يشكو ويتذمر من ابنه قائلا : «كل شيء هنا لا يروق له . على المائدة يصعب ارضاؤه ، فلا ياكل ، ولا يتحمل رائحة الناس ، ولا ضيق الهواء في الغرفـــة ،

---

* اجمل زهرة (بالفرنسية في الاصل) .

** على طريقة ريشيليو (بالفرنسية في الاصل) .

ويتضايق من منظر السكارى ، ولا يجرؤ احد في حضوره ان يتشاجر ، وهو لا يريد ان يتوظف زاعما ان بنيته ضعيفة . أف منه ، مخنثا مدللا ! كل ذلك لان فولتير قابع في راسه» . ولم يكن العجوز يستلطف فولتير بشكل خاص ، ولا ديدرو «الزنديق» رغم انه لم يقرأ اي سطر من كتاباتهما . فلم تكن القراءة من عاداته . ولم يكن بيتر اندرييتش مخطئا فيما ذهب اليه . فالحقيقة ان ديدرو وفولتير كانا قابعان في رأس ابنه ، وليس هما وحدهما ، بل ومعهما روسو ورينال ، وهلفيتيوس ، وما شاكلهم من المؤلفين الآخرين . ولكنهم قابعون في راسه فقط . كان مربي ايفان بتروفيتش السابق ، والراهب المتقاعد ، والانسكلوبيدي اكتفى بان يملأ راس تلميذه بحكمة القرن الثامن عشر برمتها ، فكان محشوا بها ، قابعة في راسه ، ولكنها لم تسر في دمه ، ولم تنفذ الى روحه ، ولم تصر عقيدة صلبة . . . ثم هل كان من الممكن ان تتطلب عقائد من شاب ، قبل خمسين سنة خلت ، بينما نحن حتى الآن لم نرقِ اليها ؟ كما ان ايفان بتروفتش كان يضيق بزائري بيت ابيه ، كان يقرف منهم وكانوا هم يهابونه ، ولم يكن ايضا على مودة مع اخته غلافيرا التي كانت تكبره بإثني عشر عاما . وكانت غلافيرا هذه مخلوقا غريبا ، دميمة ومحدودبة ونحيلة ذات عينين واسعتين صارمتين ، وفم مضموم رقيق ، تشبه بالوجه والصوت ، والحركات السريعة المخلخلة جدتها الغجرية ، زوجة اندريه . وكانت وهي العنود المحبّة للسلطة لا ترغب حتى في ان تسمع عن الزواج . ولم تكن عودة اخيها ايفان بتروفيتش على مزاجها . فقد كانت تأمل ، حين كان في كنف الاميرة كوبنسكايا ، ان ترث نصف ضيعة ابيها ، على اقل تقدير ، وكانت في بخلها ايضا تشبه جدتها . وفوق ذلك كانت تحسد اخاها ، فقد كان متعلما ، ويحسن التحدث بالفرنسية جيدا ، باللهجة الباريسية ، بينما هي لا تكاد تنطق بعبارة «بون جور» و«كومان فو بورتي فو ؟» * حقا ان ابويها كانا يجهلان الفرنسية كليا ، ولكن ذلك لم يخفف عليها من الامر شيئا . وضاق ايفان بتروفيتش ذرعا من الوحشة والسأم ، ولم يعرف اين يولي وجهه . قضى سنة

* «صباح الخير» . . . «كيف حالك ؟» (bonjour, comment vous portez vous ?) (بالفرنسية) .

في القرية لا اكثر ، وحتى هذه بدت له كعشر سنين عجاف . وكان لا يفيض عن مكنون قلبه الا مع والدته ، فكان يقضي ساعات بكاملها في غرفتها الواطئة السقف ، مستمعا الى كلامها البسيط ، وهي المرأة الطيبة القلب ، وياكل المربى حتى الشبع . وصادف ان كانت من بين خادمات آنا بافلوفنا فتاة مليحة جدا ذكية ومتواضعة ، لها عينان صافيتان وديعتان ، ووجه رقيق القسمات ، تدعى مالانيا . وقد راقت لايفان بتروفيتش من اول وهلة ، فاحبها ، احب مشيتها الوجلة ، واجوبتها المستحية ، وصوتها الخافت ، وابتسامتها الرصينة ، وظلت تحلو لعينيه اكثر من يوم الى يوم . وتعلقت هي بايفان بتروفيتش بكل قلبها ، تعلقا لا تقدر عليه الا الفتيات الروسيات ، واستسلمت له . والسر ، اي سر ، لا يمكن ان يخفى طويلا في بيت مالك اراض في الريف ، فسرعان ما عرف الجميع علاقة السيد الشاب بمالانيا ، وبلغ خبر هذه العلاقة ، اخيرا ، سمع بيتر اندرييفيتش . ولعل مثل هذا الموضوع الضئيل الاهمية ما كان سيثير اهتمامه في وقت غير ذاك الوقت ، لو لم يكن يضمر لإبنه الضغن منذ زمان ، ففرح بفرصة تعيير هذا الحكيم والمتأنق البطرسبورغي . وانفجرت عاصفة الصياح والهرج والمرج . وسجنت مالانيا في الشونة ، واستدعى ايفان بتروفيتش الى والده . وجاءت آنا بافلوفنا ايضا على الضجيج . حاولت ان تخفف من غلواء زوجها ، ولكن بيتر اندرييتش لم يعد يسمع شيئا . وهجم على ابنه كالعقاب ، ونعى عليه فساد الخلق ، والمروق على الرب ، والرياء ، وانتهز الفرصة ليصب عليه كل ما تراكم في نفسه من إحَنٍ على الاميرة كوبنسكايا ، وانهال عليه بكلمات مشينة . في باديء الامر صمت ايفان بتروفيتش ، وتماسك ، ولكن حين عنّ للأب ان يهدده بعقوبة معيبة ، لم يسيطر على نفسه ، وفكر في سره : «مرة اخرى يذكر ديدرو الزنديق ، ساستغله ، اذن ، فانتظر . ساجعلكم جميعا ذاهلين» . وفي ذات اللحظة ابلغ ايفان بيتروفيتش اباه بصوت هاديء لا تهدج فيه ، وان كانت الرجفة تسري في اوصاله كلها ، ان اتهامه بفساد الخلق لا يقوم على اساس ، وانه ، وان كان لا ينوي تبرير فعلته ، الا انه مستعد الى التكفير عنها ، لا سيما وانه يشعر بانه فوق كل التحيزات ، ويعني بالذات انه مستعد الى الزواج من مالانيا . وليس من شك في ان ايفان بيتروفيتش في

اقواله هذه بلغ هدفه ، فقد اذهل بها اباه ذهولا جعله يجحظ عينيه ، ويظل مبهورا للحظة من الزمن ، ولكنه افاق لنفسه حالا ، واندفع كما هو ، في سترته المبطنة بفراء السنجاب ، والخفين على قدمين عاريتين ، نحو ايفان بتروفيتش ملوّحا بقبضتيه . وقد شاءت المصادفة ان يكون الابن قد صفف شعره ، في ذلك اليوم بطريقة à la Titus * ، ولبس سترة فراك انجليزية زرقاء ، وحذاء طويلا بشراشيب ، وبنطال ركوب ضيقا انيقا من جلد الغزال . اخذت آنا بافلوفنا تصرخ بأعلى صوتها ، وغطت وجهها بيديها ، وركض ابنها عبر البيت كله ، واندفع الى الفناء ، ثم الى حديقة الخضروات ، والى البستان ، ووثب الى الطريق ، وظل يركض دون ان يتلفت ، الى ان كف عن سماع دبدبة اقدام ابيه الثقيلة وراءه ، وصيحاته المشددة المتقطعة ، وهو يصرخ : «قف ، ايها الوغد ، قف! ستلاحقك لعنتي !» واحتمى ايفان بيتروفيتش في بيت صاحب ارض مجاور . وعاد بيتر اندرييتش الى البيت منهوكا مسربلا بالعرق ، واعلن متقطع الانفاس بأنه يحرم ابنه من بركته وإرثه ، وامر بحرق جميع كتبه الحمقاء ، وابعاد الفتاة مالانيا الى قرية نائية . وخفّ اناس طيبون ، وبحثوا عن ايفان بتروفيتش واعلموه بكل شيء . واقسم هذا في سورة الاهانة والغيظ على ان ينتقم من ابيه ، وفي تلك الليلة ذاتها تربّص خلسة بعربة الفلاحين التي كانت تنقل مالانيا ، واختطفها بالقوة ، وانطلق معها الى اقرب مدينة ، وعقد قرانه عليها . زوده بالنقود جار ، هو بحار متقاعد كثير الطيبة ، دائم السكر ، مولع عريق بأية حادثة شهامة ، على حد تعبيره . وفي اليوم التالي كتب ايفان بتروفيتش رسالة باردة بشكل موجع ومؤدبة الى بيتر اندرييتش ، وذهب الى القرية التي كان يعيش فيها ابن عمه الثاني دميتري بيستوف ، مع اخته التي يعرفها القارئ الآن ، وهي مارفا تيموفييفنا . وروى لهما كل شيء ، وانبأهما بأنه ينوي السفر الى بطرسبورغ للبحث عن عمل ، ورجاهما ان يآويا زوجته ، ولو لبعض الوقت . وعند نطقه بكلمة «زوجة» بكى بمرارة ، ورغم انه تعلم في العاصمة ودرس الفلسفة ، فقد ركع على قدمي قريبيه بضعة ، مثل بائس

* هي تصفيفة شعر كانت موضة في فرنسا في نهاية القرن الثامن عشر . **المعرب** .

روسي ضارع ، بل وضرب الارض بجبينه . وآل بستوف رقاق القلوب وطيبون وافقوا عن طيب خاطر على طلبه . قضى عندهما زهاء ثلاثة اسابيع منتظرا في سره جوابا من ابيه على رسالته تلك ، ولكن جوابا لم يصل ، وما كان من الممكن ان يصل . فبعد ان عرف بيتر اندرييتش بزواج ابنه رقد في سريره ، ومنع ان يذكر اسم ايفان بيتروفيتش في حضوره . الا ان امه ، استدانت من رئيس الاساقفة ، ومن وراء ظهر زوجها ، وارسلت خمسمائة روبل وايقونة صغيرة لزوجته ، وخافت ان تكتب له ، ولكنها امرت الرسول ، وهو ريفي نحيف ، يستطيع ان يقطع ستين فرسخا في يوم وليلة ، ان يبلغ ايفان بتروفيتش الا يغتم كثيرا ، وبعون الله سيسوى كل شيء ، وان اباه سيصفح عنه ، كما انها كانت تفضل زوجة اخرى ، ولكن هذه ارادة الله ، على ما يبدو ، وانها تشمل مالانيا سيرغييفنا ببركتها الامومية . تسلم الريفي النحيف روبلا على رسالته ورجا ان يسمح له برؤية السيدة الجديدة التي كانت عرابته ، وقبّل يدها ، وقفل راجعا .

سافر ايفان بيتروفيتش الى بطرسبورغ متنفسا الصعداء . كان في انتظاره مستقبل مجهول ، وفقر قد يحل بساحته . ولكنه فارق حياة الريف الكريهة ، والاهم انه لم يخن معلميه و«بدأ في تطبيق تعاليمهم» فعلا ، وسار على نهج روسو ، وديدرو و la Déclaration des droits de l'homme * (٤٧) . وامتلأ قلبه بشعور الواجب المؤدى والانتصار ، شعور الاباء . كما ان فراقه لزوجته لم يرعبه كثيرا ، وبالاحرى فان وجوب العيش معها على الدوام كان يربكه اكثر . لقد قُضي هذا الامر ويجب الشروع بأمور اخرى . في بطرسبورغ خدمه الحظ ، على عكس توقعاته . وذلك لان الاميرة كوبنسكايا ، التي لحق مسيو كورتين ان يهجرها ، ولكنها بقيت حية حتى الآن ، ارادت ان تكفر بشيء عن ذنبها امام ابن عمها ، فاوصت جميع اصدقائها به ، واهدت له خمسة آلاف روبل – هي تقريبا كل ما تبقى لها من النقود – وساعة من صنع ليبيك الاسطى المشهور ، نقشت عليها حروف من اسمه ، وسط اكليل من ملائكة الحب . ولم تمض ثلاثة اشهر حتى حصل على وظيفة في البعثة

* بيان حقوق الانسان (بالفرنسية في الاصل) .

الروسية في لندن ، وركب ايفان بيتروفيتش اول سفينة انجليزيـة عائدة (البواخر في ذلك الزمن لم يرد لها ذكر) . وبعد بضعة شهور تلقى رسالة من بيستوف يهنيء فيها هذا الملاك الطيب ايفـــــان بيتروفيتش بميلاد ابن له ، جاء الى الدنيا في ٢٠ آب ١٨٠٧ في قرية بوكروفسكويه ، سمي فيدور تيمنـــا بالقديس الشهيد فيدور ستراتيلات . ولضعف مالانيا الشديد لم تكتب غير بضعة سطور ، ولكن هذه السطور القليلة ادهشت ايفان بيتروفيتش ، اذ لم يكن يعرف ان مارفا تيموفييفنا علّمت زوجته القراءة والكتابة . وعلى اية حال لم يسترسل ايفان بيتروفيتش طويلا مع العلق اللذيذ الذي تثيره مشاعر الابوة . فقد كان يغازل واحدة ممن يسميـــن بـ«فرين» و«لايز» الشهيرات آنذاك (كانت الاسماء الكلاسيكية ما تزال مزدهرة في ذلك الوقت) . وكان صلح تيلسيت قد عقد لتوه ، وانغمر العالم كله باللذائذ ، وراح يدور في دوامة جنونية . وادارت عينان سوداوان لحسناء لعوب رأس ايفان بيتروفيتش ايضا . كانت نقوده قليلة جدا ، ولكن الحظ كان يحالفه في القمار ، وكان يعقـــد صداقات ، ويشارك في جميع المباهج الممكنة ، وباختصـــار ، كان يطلق كامل اشرعته .

٩

ظل لافريتسكي العجوز زمنا طويلا غير قادر على ان يغفر لإبنه زواجه ، ولو كان ايفان بيترفيتش قد جاء اليه نادما ، بعد ستة اشهر ، ووقع على قدميه ، لربما عفا عنه ، بعد ان يوبخه توبيخا معتبرا في البداية ، ويدق عليه قليلا بعصاه العجراء لإرعابه . ولكن ايفان بيتروفيتش كان يعيش في الخارج ، رخي البال . وكان بيتر اندرييتش يقول لزوجته كلما حاولت ترقيق قلبه : «اسكتي ! ولا تجسري ! يجب ان يدعو لي ذلك الجرو طوال عمره للرب ، لانني لم اصب عليه لعناتي ، ولو كان ابي المرحوم حيا لقتله ، قتل هذا الملعون بيديه ، ولكان قد فعل خيرا» . وكانت آنا بافلوفنا بعد مثل هذه الاقوال الرهيبة ترسم علامة الصليب خلسة ، ولا شيء آخر . اما عن زوجة ايفـــان بيتروفيتش ، فان بيتر اندرييتش في البداية لم يرد حتى ان يسمع بذكرها ، بل وحين ارسل بيستوف

رسالة له يذكر فيها كنته ، طلب ان ينقل له انه لا يعرف ان له كنة ، وان القوانين تمنع ايواء الهاربات ، ويجد من واجبه ان يحذره من مغبة ذلك ، الا انه رقّ فيما بعد ، حين عرف بمولد حفيد له ، وامر بالاستطلاع بطريق غير مباشر عن صحة الوالدة ، وارسل اليها نقودا ، كما وكأنها ليست منه . وقبل ان يبلغ فيدور سنته الاولى ، داهم آنا بافلوفنا مرض مميت . وقبل وفاتها بأيام قليلة ، وهي قعيدة الفراش ابلغت زوجها بحضور القس ، وعيناها المنطفئتـــان مغرورقتان بدموع الرهبة بأنها تريد ان ترى كنتها ، وتودعهـــا وتبارك حفيدها . هدأها العجوز المنقبض ، وارسل عربته في الحال لتعود بكنته ، ولأول مرة سمّاها مالانيا سيرغييفنا * . وجاءت مـــع ابنها ومارفا تيموفييفنا التي لم ترد قط ان تتركها ترحل وحدها ، ولن تسمح ان يسيء احد لها . ودخلت مالانيا سيرغييفنا الى مكتب بيتر اندرييتش يكاد يصعقها الرعب . وكانت المربية تحمل فيدور وراءها . نظر بيتر اندرييتش اليها بصمت ، ودنت هي من يده ، وانضمت شفتاها المرتعشتان بصعوبة في قبلة لا صوت لها .

واخيرا قال بيتر اندرييتش :

– مرحبا ، ايتها الوصيفة غير المختمرة ، لنذهـــب الى سيدة البيت .

نهض ، وانحنى على فيدور ، فابتسم الطفل . ومدّ اليه ذراعيه الشاحبتين . وتحركت لواعج العجوز . فقال :

– اوه ، يايتيم الاب ! تعتذر لي من ابيك . لن اتركـــك ، يازقزوق .

حالما دخلت مالانيا سيرغييفنا مخدع آنا بافلوفنا ، حتى ركعت على ركبتيها عند الباب . اومأت اليها آنا بافلوفنا بالاقتراب مـــن السرير ، وعانقتها ، وباركت ابنها ، ثم ادارت وجهها المحول مـــن المرض القاسي ، الى زوجها ، وهمت ان تقول شيئا . . .

قال زوجها :

– اعرف ، اعرف ، ماذا تريديـــن ان تطلبي . لا تحزني ، ستبقى عندنا ، وساعفو عن ايفان من اجلها .

* الاسم الشخصي مقرونا باسم الأب يدل على الاحترام ، حسب العادات الروسية . **المعرب** .

عثرت آنا بافلوفنا على يد زوجها بجهد ، ولثمتها بشفتيها . وفي تلك الليلة فارقت الحياة .

وفى بيتر اندرييتش بكلمته . وابلغ ابنه بأنه من اجل امه وقد فارقت الحياة ، ومن اجل الطفل فيدور يعيد اليه مباركته ، ويبقي مالانيا سيرغييفنا في بيته . وخصصت لها غرفتان في الطابق الوسط بين الاول والثاني ، وقدّمها الى اكثر ضيوفه احتراما ، والى الجنرال سكوريخين ذي العين الواحدة وزوجته ، واهدى لها وصيفتين وصبيا للقيام بالمهمات . وودعتها مارفا تيموفييفنا ، فقد كانت تبغض غلافيرا ، وتتشاجر معها ثلاث مرات في اليوم الواحد .

في البداية كانت هذه المرأة المسكينة تشعر بالضيق والحراجة في موقعها الجديد ، ولكنها تجمّلت بالصبر بعد ذلك وتعودت على حميها . وتعود الحمو ايضا عليها ، بل واحبها ، رغم انه لم يكن يتحدث اليها تقريبا ، ورغم ان ملاطفاته معها كانت تنم عن ازدراء لا ارادي . ولكن ما عانته مالانيا سيرغييفنا من اخت زوجها اكثر مما عانته من اي شخص آخر . فقد استطاعت غلافيرا حتى في حياة امها ان تسيطر شيئاً فشيئا على شؤون البيت كله . وخضع لها الجميع بدءا من ابيها . فما من قطعة سكر تعطى بدون اذن منها . وكانت تفضل الموت على ان تشاركها السلطة ربة بيت اخرى ، ثم اية ربة بيت تلك ! وكان زواج اخيها قد احنقها اكثر مما احنق اباها بيتر اندرييتش . فاخذت تعاقب حديثة النعمة هذه ، فاصبحت مالانيا سيرغييفنا عبدة لها منذ اليوم الاول . ثم اين لهذه المسكينة السهلة الانقياد المضطربة والمخوفة دائما والضعيفة البنية ان تصارع غلافيرا المتسلطة المتعجرفة ؟ لم يكن يمر يوم دون ان تذكرها غلافيرا بوضعها السابق ، وتمتدحها على انها لا تنسى موقعها . وكانت مالانيا سيرغييفنا قد تقبل بهذه التذكيرات والمدائح بطيبة خاطر ، مهما تكن مريرة . . . ولكنهم انتزعوا فيدور الطفل منها ، وهذا ما حطمها . وما كانوا يسمحون لها بالوصول اليه إلا بشق الانفس ، بحجة انها غير قادرة على الاهتمام بتربيته . واخذت غلافيرا هذا الامر على عاتقها ، وصار الطفل تحت عهدتها التامة . وبدأت مالانيا سيرغييفنا ، وقد امضها الاسى ، تتضرع في رسائلها الى ايفان بيتروفيتش ليعود في اقرب

وقت ، وكان بيتر اندرييتش نفسه راغبا في رؤية ابنه ، الا ان ايفان بيتروفيتش كان يرد بعبارات عامة ، شاكرا اياه على رعايته لزوجته ، وعلى النقود التي يرسلها ، وواعدا بالعودة عن قريب ، لكنه لم يعد . واخيرا اعاده عام ١٨١٢ * الى الوطن . وبعد فراق دام ستة اعوام تعانق الأب والابن ، حين التقيا لأول مرة ، بل ولم يشيرا بكلمة واحدة الى الخلافات السابقة ، فلم يكن لها مجال آنذاك . فان روسيا كلها قد نهضت تتصدى للعدو . وكلاهما كان يحس بأن الدم الروسي يسري في شرايينه . وتبرع بيتر اندرييتش بكسوة فوج كامل من المقاتلين . الا ان الحرب انتهت ، والخطر زال . وضجر ايفان بيتروفيتش من جديد ، واستدعاه نداء البعيد الى ذلك العالم الذي تعلق به ، وكان يحس فيه وكأنه في بيته . ولم تستطع مالانيا سيرغييفنا ان تبقيه . فلم تكن تعني له شيئا يذكر . وحتى آمالها قد تحطمت ، فان زوجها ايضا رأى من الاليق كثيرا ان يُعهد لغلافيرا بتربية ابنه فيدور . ولم تستطع مالانيا المسكينة ان تتحمل هذه الضربة ، ولم تتحمل الفراق الجديد . وفي بضعة ايام تهاوت دون مقاومة . خلال حياتها كلها لم تقدر ان تقاوم شيئا ، فلم تصارع مرضها ايضا . وفقدت النطق ، وارتمت ظلال الموت على وجهها ، الا ان قسماتها كانت تعبر ، كالسابق ، عن حيرة صابرة ، ووداعة مستديمة . وبذلك الخنوع الاخرس نظرت الى غلافيرا ، ومثلما قبّلت آنا بافلوفنا يد زوجها وهي على فراش الموت ، لثمت هي يد غلافيرا ، وهي تسلم لها ابنها الوحيد . وهكذا انهى مقامه في الدنيا ذلك المخلوق الهادىء الطيب الذي لا يعرف إلا الله لِمَ أُخرج من تربته ، ورُمي في الحال ، كما ترمى شجرة مقلوعة ، وجذورها نحو الشمس . فذبل هذا المخلوق وضاع اثره ، وما عاد احد يذكره . اسفت على مالانيا وصيفتاها ، وبيتر اندرييتش . فقد افتقد العجوز وجودها الصامت . وهمس ، وهو ينحني لها لآخر مرة في الكنيسة : «سامحيني ، وداعا ، ايتها السمحة !» وبكى وهو يهيل حفنة من التراب على قبرها .

* عام حملة نابليون على روسيا ، ونشوب الحرب الوطنية الاولى ضد جحافل نابليون . **المعرب** .

ولم يعش بعدها طويلا ، لا اكثر من خمس سنوات . في شتاء ١٨١٩ توفي بهدوء في موسكو ، حيث انتقل اليها مع غلافيرا وحفيده ، واوصى بأن يدفن الى جانب آنا بافلوفنا و«مالاشا» * . وفي ذلك الحين كان ايفان بيتروفيتش في باريس ليرفه عن نفسه ، فقد تقاعد بعد عام ١٨١٥ بوقت قصير . ولما علم بوفاة ابيه عزم على العودة الى روسيا . فقد كان يقتضي التفكير في تجديد الضيعة ، ثم ان فيدور ، حسب رسالة غلافيرا ، قد انهى الثانية عشرة ، وحان وقت الاهتمام جديا بتعليمه .

١٠

عاد ايفان بيتروفيتش الى روسيا متنجلزا فقد ظلت بريطانيا تطل من شعره القصير ، وقبة قميصه المنشاة وسترته الفراك الطويلة الذيل الخضراء بلون البازليا ، ذات الياقات العديدة ، وكما تطل من التعبير الملول على وجهه ، ومن الحدة واللامبالاة ايضا في طريقة المعاملة ، ومن نطقه الكلمات من خلال اسنانه ، ومن ضحكته المفاجئة المتخشبة ، واختفاء الابتسامة ، ومن حديثه السياسي المحض ، والسياسي-الاقتصادي ، ومن ولعه بشرائح لحم البقر نصف الناضج والخمرة البرتغالية . كان يبدو مشبعا كليا بروح بريطانية . ولكن الغريب في الامر ان ايفان بيتروفيتش الذي تحوّل الى انجليزي صار ، بعد عودته الى روسيا ، وطنيا في نفس الوقت ؛ على اية حال ، كان يطلق على نفسه هذه الصفة ، رغم انه كان قليل المعرفة بروسيا ، ولم يحتفظ باية عادة روسية ، وكان يتكلم بالروسية بطريقة غريبة : ففي الحديث الاعتيادي كان كلامه الباهت وغير المتناسق مزركشا كليا بكلمات وتعابير فرنسية . ولكن حالما يمس الحديث مواضيع مهمة تظهر في كلام ايفان بيتروفيتش على الفور تعابير من مثل : «ابداء خبرات جديدة من الاجتهاد الذاتي» ، «هذه لا تطابق طبيعة الظرف نفسها» والى غير ذلك . جلب ايفان بيتروفيتش معه بعض مسودات خطط لاعادة بناء

* صيغة تحبب لمالانيا . **المعرب** .

الدولة وتحسينها . كان يستاء مما رآه حوله ، وغياب النظام كان يثير صفراويته بشكل خاص . وعند لقائه باخته اعلن لها من الكلمات الاولى انه ينوي احداث تغييرات جذرية ، وان كل شيء عنده سيسير في المستقبل وفق نظام جديد . لم ترد غلافيرا بيتروفنا بشيء على اخيها ، سوى انها صكت على اسنانها ، وراحت تفكر : «والى اين اذهب انا ؟» ولكنها سرعان ما هدأت ، حين انتقلت الى القرية مع اخيها وابنه . وبالفعل حدثت في البيت بعض التغيرات ، فقد عوقب الطفيليون والتنابلة بالطرد راسا ، ومن بينهم عجوزان احداهما عمياء ، والثانية اقعدها الشلل ، ورائد هرم من عهد اوجاكوف (٤٨) كانوا يطعمونه بخبز الشوفان الاسود والعدس فقط ، بسبب نهمه العجيب حقا . كما صدر امر بعدم استقبال الضيوف السابقين ، واستبدلوا كلهم بجار بعيد ، هو بارون اشقر مصاب بمرض الخنزيرة ، مهذب جدا ، وبليد جدا . وظهرت آثاث جديدة من موسكو ، واُدخلت المباصق ، والاجراس ، والمغاسل القائمة على مناضد صغيرة ، وصار الفطور يقدم بطريقة مختلفة ، وطرّدت انواع النبيذ الاجنبية الفودكا والاشربة البيتية المحلاة بالفواكه . واُلبس الخدم بزات جديدة ، واضيف الى شعار العائلة عبارة * «in recto virtus. . .» . لم تتعرض سلطة غلافيرا في واقع الامر ، لاي تقلص ، فكل النفقات والمشتريات ما تزال منوطة بها . والخادم الالزاسي الذي جلب من الخارج وحاول ان ينازعها السلطة فقد وظيفته ، رغم رعاية سيد البيت له . اما الشؤون الزراعية وادارة الضياع (كانت غلافيرا بيتروفنا تتدخل في هذه الامور ايضا) فقد بقيت على نظامها القديم ، رغم ان ايفان بيتروفيتش اعلن غير مرة عن نيته في بث حياة جديدة في تلك الفوضى . سوى ان ايجار اللزمة قد زيد هنا وهناك ، واعمال السخرة صارت اثقل وطاة ، كما مُنع الفلاحون من مخاطبة ايفان بيتروفيتش راسا . فان الوطني هذا كان يزدري ابناء وطنه كثيرا . ولم يطبق نظام ايفان بيتروفيتش بكامل قوته إلا على ابنه فيدور . فان تعليمه بالفعل تعرض الى «تغير جذري» . واخذه الاب على عاتقه كليا .

* «في الشرعية فضيلة» (باللاتينية في الاصل) .

١١

كان فيدور الصغير ، قبل عودة ايفان بيتروفيتش من الخارج ، تحت رعاية غلافيرا بيتروفنا ، كما ذكرنا سابقا . لم يكن قد بلغ الثامنة حين توفيت امه ، وكان لا يراها كل يوم ، ولكنه احبها حبا جماً . وقد انطبعت في شغاف قلبه الى الابد ذكراها ، ووجهها الرصين الشاحب ، ونظراتها الجزعة ،ومداعباتها المتخوفة ، ولكنه لم يكن يعرف وضعها في البيت بوضوح ، وكان يشعر بوجود حاجز بينه وبينها لم تكن تجرؤ هي ولا تستطيع تخطيه . وكان يتحاشى اباه ، كما ان اباه لم يلاطفه قط . اما جده فكان يمسد رأسه من حين لآخر ، ويسمح له بتقبيل يده ، ولكن كان يسميه هولة ، ويعتبره احمق . وبعد وفاة امه مالانيا سيرغييفنا وضعته عمته في عهدتها كليا . وكان فيدور يخافها ، يخاف عينيها الثاقبتين الوضاءتين ، وصوتها الحاد ، ولم يكن يجرأ ان يرسل نأمة في حضورها . واحيانا ، لا يكاد يتململ في مقعده حتى تهس به : «الى اين ؟ اجلس هادئا» . وكان يسمح له باللعب في ايام الآحاد ، بعد القدّاس ، ويعني ذلك اعطاءه كتابا سميكا ، غامضا ، من تاليف ماكسيموفيتش – امبوديك عنوانه «الرموز والشعارات» (٤٩) يضم زهاء الف رسم معظمها غاية في الغموض ، مع شروح غامضة جدا في خمس لغات . ولعب ملاك الحب الصغير العارى الممتلئ الجسم دورا كبيرا في هذه الرسوم . في احد هذه الرسوم بعنوان «زعفران وقوس قزح» ألحق هذا الشرح : «لهذا التاثير ما يفوقه» ، وفي جنب رسم آخر يصور «مالك الحزين يطير وفي منقاره زهرة بنفسج» وضع هذا التعليق «كل شيء معروف لك» ، وصورة «ملاك الحب والدبة تلعق رضيعها» كانت تعني «شيئا فشيئا» . وكان فيدور الصغير يتمعن في هذه الرسوم ، فكان يعرفها حتى اصغر تفاصيلها ، وفي كل مرة تجعله نفس الرسوم يغرق في تفكير ، ويثير خياله . وعدا ذلك لم يعرف اية تسلية . وحين آن اوان تعليمه اللغات والموسيقى استخدمت غلافيرا بيتروفنا له ، باجر تافه ، عانسا سويدية عجوزا لها عينان كعيني الارنب ، تتكلم الفرنسية والالمانية على قدر واحد من الركة ، وتعزف على البيانو على نحوما ، وفوق ذلك ، كانت تجيد تخليل الخيار بشكل

ممتاز . وقد قضى فيدور اربعة اعوام كاملة في محيط هذه المربية ، والعمة ، والخادمة العجوز فاسيلييفنا . احيانا كان يجلس في ركن مع كتابه «الرموز والشعارات» ويطيل الجلوس ، والجيرانيوم يفوح في الحجرة الواطئة السقف ، وشمعة شحم الخنزير تحترق خافتة الضوء ، وصرّار الليل يصرصر برتابة ، كأنه يستوحش ، والساعة الصغيرة تتكتك على الحائط عجولا ، وفأر يخربش ويقضم خلسة وراء اوراق الحائط ، والعوانس العجائز الثلاث ، كآلهات الاقدار (٥٠) ، يحركن ابر الحياكة ، صامتات مسرعات ، وظلال ايديهن تتراكض تارة ، وترتعش تارة اخرى بغرابة في شبه الظلمة ، وتدور في رأس الطفل افكار غريبة وشبه مظلمة ايضا . لا احد كان يمكن ان يسمى فيدور بالطفل الجذاب ، فقد كان شاحبا جدا ، ولكنه بدين ، غير متناسق البنيان ، اهوج الحركات ، ريفي حقيقي ، على حد تعبير غلافيرا بيتروفنا . وكان من الممكن ان يختفي الشحوب من وجهه بسرعة ، لو سمحوا له بالتنزه في الهواء الطلق اكثر . كان مجدا في الدراسة ، رغم انه كان يتكاسل كثيرا . ولم يكن يبكي قط ، رغم ان نوبات من العناد الوحشي كانت تنتابه من حين الى آخر ، وعند ذاك لم يستطع احد ان يردعه عن غيه . ولم يكن يحب احدا من المحيطين به . . . والويل لقلب لم يحب منذ الصبا !

بهذه الصورة وجده ايفان بيتروفيتش ، فاخذ يطبق عليه نظامه في الحال . قال لاخته غلافيرا بيتروفنا : «اريد ان اجعل منه انسانا ، قبل كل شيء ، un homme * . وليس انسانا فقط ، بل اسبارطيا» . وبدأ ايفان بيتروفيتش خطته بأن البسه على الطريقة الاسكوتلاندية ، فصار الغلام ابن الثانية عشرة يسير عاري الرجلين ، وريشة الديك على سدارته الانيقة ، وابدل السويدية بشاب سويسري تدرب على الالعاب الجمبازية واتقنها . والغى الموسيقى كليا باعتبارها عملا لا يناسب الرجل ، وصار على «الانسان» المقبل ان يدرس العلوم الطبيعية ، والقانون الدولي ، والرياضيات ، والنجارة ، حسب نصيحة جان جاك روسو ، وعلم شعارات النبالة وتاريخها ليربي فيه مشاعر الفروسية . فكان

---

* انسان (بالفرنسية في الاصل) .

فيدور يُوقظ في الساعة الرابعة صباحا ، ويُسكب عليه الما البارد على الفور ، ويلزم على ان يركض بحبل حول عمود طويل . وكان ياكل في اليوم وجبة من الطعام لا تتعدى طبقا واحدا ، ويركب الخيل ، ويرمي بالقوس القذّاف ، وينتهز كل فرصة متاحة ليتدرب ، قدوة بوالده ، على تقوية الارادة ، ويسجل في كل مساء ، في دفتر خاص ، حصيلة اليوم المنصرم وانطباعاته . وكان ايفان بيتروفيتش من ناحيته يكتب له وصاياه باللغة الفرنسية ، وكان يدعوه فيها mon fils * ، ويخاطبه بضمير الجماعة vous ** وكان فيدور يستخدم ضمير المفرد اذا خاطب اباه بالروسية ولكن لم يكن يجرؤ على الجلوس في حضوره . واربك «النظام» الصبي ، وزرع البلبلة في راسه ، وضيّق عليه الخناق الا ان نظام الحياة الجديد أثر فى صحته تاثيرا ايجابيا : في البداية انتابته الحمى ، ولكنه سرعان ما تغلب على ضعفه ، وصار فتى قوي البنيان . وكان ابوه يفخر به ، ويسميه بلهجته الغريبة : ابن الطبيعة ، ونتاجي انا . وحين انهى فيدور السادسة عشرة ، وجد ايفان بيتروفيتش من واجبه ان يغذي فيه ، في هذا العمر المناسب ، ازدراء جنس الاناث . فكان هذا الشاب الاسبارطي بما في قلبه من رهبة ، وبما فوق شفتيه من زغب بارض ، وبكل ما تمتلىء به جوانحه من نسغ وقوة ودم يحاول جاهدا ان يبدو لامباليا ، باردا وغليظا .

وخلال ذلك كان الزمن يمر ويمضي ، وكان ايفان بيتروفيتش يقضي معظم العام في لافريكي (وهو اسم ضيعته الاصيلة) ، وفي فصول الشتاء كان يسافر الى موسكو وحده ، وينزل في حانة ، ويتردد على النادي بداب ، ويخطب ويطور خططه في حجرات الاستقبال ، ويتظاهر اكثرمن اي وقت مضى بهوسه الانجليزي وبانه ضجر ورجل دولة . وحلت سنة ١٨٢٥ وجلبت معها الكثير من الويلات . وتعرض اصدقاء ايفان بيتروفيتش ومعارفه الاقربون الى محن شاقة (٥١) . فاسرع ايفان بيتروفيتش ليلوذ في القرية ، واحتجب في بيته . ومضت سنة اخرى ، واذا بايفان

* ولدى (بالفرنسية في الاصل) .
** انتم (بالفرنسية في الاصل) .

بيتروفيتش يضعف ، ويهزل ، وتتدهور صحته ، وتخونه . واذا بصاحب الفكر المتحرر يتردد على الكنيسة ، ويأمر بتلاوة الصلوات ، واذا بالأوربي يلجأ الى حمام البخار الروسي ، ويتناول غداءه في الساعة الثانية ، ويذهب للنوم في التاسعة ، ويستغرق فيه وسط ثرثرة الخادم العجوز ، واذا برجل الدولة يحرق كل خططه ، ومراسلاته ، ويرتجف امام حاكم الولاية ، ويداهن مدير الشرطة ، واذا برجل الارادة المتمرسة يولول ويتشكى حين يصاب بدملة ، او يقدم له صحن حساء باردا . وعادت غلافيرا بيتروفنا تدير كل شيء في البيت ، وعاد الوكلاء والعُمَد والفلاحون البسطاء يأتون الى الباب الخلفي من البيت ليقابلوا «اللئيمة العجوز» وهو اللقب الذي اطلقه عليها خدم البيت . والتغير الذي طرأ على ايفان بيتروفيتش اذهل ابنه ذهولا عظيما ، وكان في التاسعة عشرة آنذاك ، فاخذ يفكر في الانعتاق من اليد التي تمسك بخناقه . وكان قد لاحظ ، من قبل هذا ايضا ، التعارض بين كلمات ابيه وافعاله ، بين النظريات الليبرالية الواسعة وبين استبداده التافه المتصلب . ولكنه لم يكن يتوقع مثل هذا التحوّل الحاد . لقد اظهر الاناني العريق نفسه على حقيقتها . وبينما كان لافريتسكي الشاب ينوي السفر الى موسكو ، والتهيؤ الى الجامعة وقعت طامّة جديدة غير متوقعة على رأس ايفان بيتروفيتش . فقد بصره فجأة ، فقده بلا أمل ، وفي يوم واحد .

ولانه لا يثق بمهارة الاطباء الروس راح يسعى ليسمح له بالسفر الى الخارج . ورفض طلبه . وعندئذ اخذ معه ابنه ، وقضى ثلاث سنوات كاملة يجوب ارجاء روسيا متنقلا من طبيب الى آخر ، مسافرا من مدينة الى اخرى بلا انقطاع ، مضنيا الاطباء ، وابنه ، وخدمه بخَوَره ونفاد صبره . وعاد الى لافريكي ذليلا تماما ، طفلا مولولا ضيق الصدر . وجاءت ايام مريرة ، وعانى الجميع منه وشقوا . ولم يكن ايفان بيتروفيتش يهدأ إلا حين كان يتناول طعامه بشراهة لم تُعرف عنده في الماضي قط ، وما عدا ذلك الوقت لم يكن يدع نفسه ولا غيره في سلام . كان يصلي ، ويتذمر من القدر ، ويلعن نفسه ، ويلعن السياسة ، ونظامه ، ويلعن كل ما كان يتباهى به ويتفاخر ، كل ما وضعه لإبنه نموذجا في وقت من الاوقات ، وراح يكرر انه لم يكن يزمن بشيء ، ثم يعود الى

الصلاة ، ولم يكن يتحمل لحظة من الوحدة ، فكان يطالب اهل البيت بأن يجلسوا قرب مقعده دائما ، ليلا ونهارا ، ويسلوه بالاقاصيص ، التي كان يقطعها من حين الى آخر بصيحات من مثل : «تكذبون دائما — اي هراء هذا !»

وشقت غلافيرا بيتروفنا بشكل خاص . فهو لم يكن يستغني عنها مطلقا ، وكانت هي تنفذ كل نزواته الى الآخر ، رغم انها احيانا لم تعزم على اجابته فورا ، كيلا يفضح صوتها حنقها الداخلي . وظل على هذا النحو سنتين اخريين ، ومات في الايام الاولى من ايار ، وكان قد اخرج الى الشمس في الشرفة . تلجلج لسانه المعوج : «غلاشا ، غلاشا ! الحساء ، الحساء ، يا عجوز يا بلها . .» ولم يكمل الكلمة الاخيرة ، وصمت الى الأبد . وكانت غلافيرا بيتروفنا قد اختطفت طاسة الحساء لتوها من يد الخادم ، فتوقفت ، ونظرت الى وجه اخيها ، ورسمت ببطء علامة صليب عريضة ، وانصرفت صامتة . كما ان الابن الذي كان موجودا في الشرفة ، لم يقل شيئا ايضا ، اتكا على درابزين الشرفة ، وحدق طويلا في الحديقة الفوّاحة كلها بالشذى ، والمغمورة بالخضرة ، واللامعة في اشعة الشمس الربيعية الذهبية . وكان في الثالثة والعشرين . فما افظع وما اسرع ما انقضت هذه السنون الثلاثة والعشرون ! . . لقد كانت الحياة تنفتح امامه .

١٢

دفن لافريتسكي الشاب اباه ، وعهد ادارة شؤون الضياع ، ومراقبة الوكلاء ، الى غلافيرا بيتروفنا ، دون غيرها ، وسافر الى موسكو ، حيث كان يجذبه اليها شعور غامض وقوي . كان يحس بنواقص تعليمه ، فعزم ان ينال ما فاته ، قدر الامكان . وفي السنوات الخمس الاخيرة ، قرأ الشيء الكثير ، وشاهد القليل ، وجالت في ذهنه افكار كثيرة . واي بروفيسور كان من الممكن ان يحسده على بعض معارفه ، ولكنه في ذات الوقت لم يكن يعرف الكثير مما يعرفه طالب الثانوية منذ زمان . كان لافريتسكي يعي انه مقيد ، ويشعر في سره بانه غريب الاطوار . ان ذلك المتنجلز

اياه لعب لعبة غير طيبة مع ابنه ، واعطت التربية الهوجاء ثمارها . ظل الابن سنوات طويلة ينصاع لأبيه بدون تفكير ، وحين وعي حقيقته اخيرا ، كان المحذور قد وقع ، اذ ترسخت العادات فيه . فلم يكن يحسن معاشرة الناس ، وما تجاسر ان يحدق في عيني امرأة واحدة ، وهو الشاب ابن الثالثة والعشرين ، المشبوب القلب بظمأ الى الحب الذي لا يُطفأ . وكان حريا به ان يغرق في دوامة الحياة في سن مبكرة ، لما له من عقل صاف معافى ، وان كان مثقلا ، ولنزعته الى العناد ، والتامل ، والتراخي ، ولكنهم حفظوه في عزلة اصطناعية . . . وها هي الدائرة المسحورة قد تحطمت فظل واقفا في مكان واحد ، مغلقا ومنطويا على نفسه . وكان ارتداؤه بزة الطلبة مضحكا في مثل عمره ، لكنه لم يخف الضحكات ، فان تربيته الاسبارطية كانت نافعة على الاقل في ان تنمت فيه روح الاستهانة باقوال الآخرين ، فلبس بزة الطلبة دون اي حرج . دخل في قسم الفيزياء والرياضيات ، وترك وقعا غريبا في رفاقه ، بجسمه المعافى ، وخديه الموردين ، ولحيته الكثيفة ، وصمته . ولم يخطر في بالهم ان هذا الرجل الصارم ، المتردد على المحاضرات بانتظام ، راكبا زلاجة ريفية عريضة يجرها حصانان ، يخفي داخله نفسية طفل تقريبا . بدا لهم واحدا من المتزمتين المتقعرين ، ولم يحتاجوا اليه ، ولا سعوا الى صحبته ، وكان هو يتحاشاهم . وفي غضون السنتين الاوليين اللتين قضاهما في الجامعة لم يصادق إلا طالبا واحدا كان يتلقى عنده دروسا في اللغة اللاتينية . وكان هذا الطالب ، ويدعى ميخاليفيتش ، متحمسا وينظم الشعر ، وقد احب لافريتسكي حبا صادقا ، وشاءت المصادفة المحض ان يكون المذنب في تحول هام طرأ على مستقبله .

وذات مرة ، في المسرح ، (وكان موتشالوف في ذلك الحين في قمة مجده (٥٢) وكان لافريتسكي لا يفوّت له اي عرض) رأى لافريتسكي في مقصورة في الطابق الثاني فتاة وجب قلبه لمرآها وجيبا شديدا لا عهد له به من قبل ، رغم ان قلبه كان يهتز دائما لكل امرأة تمر بشخصه الجهوم . كانت الفتاة تتكئ بكوعها على حاجز المقصورة ، لا تبدي حراكا ، وكل قسمة من قسمات وجهها الاسمر المدوّر الغض تفيض حيوية صبوية طافحة ، وعيناها الرائعتان المطلتان من تحت حاجبين دقيقين بانتباه ورقة ،



والابتسامة المتهكمة السريعة على شفتيها المعبرتين ، والوضع الذي يتخذه راسها ويداها ورقبتها ، ينم عن عقل لبق . كانت فاتنة في ملبسها . وقد جلست الى جانبها امرأة مصفرة مغضنة في نحـــو الخامسة والاربعين من العمر ، في لباس مكشوف عند الصدر ، وقبعة سوداء ، وعلى وجهها المغموم الخالي ابتسامة لا تكشف عن اسنان ، وفي اعماق المقصورة كان يتراءى رجل كهل في سترة فراك عريضة ، وربطة عنق عالية ، كانت عيناه الصغيرتان تنمان عن عظمة بليدة ، وارتياب مداهن . وقد صبغ شاربيه وقذاليـــه الطويلين ، كما كان له جبين ضخـــم غير جذاب ، وخدان متغضنان ، وكل العلائم تدل على انه جنرال متقاعد . لم يصرف لافريتسكي بصره عن الفتاة التي بهرته ، وفي تلـك اللحظة فُتح باب المقصورة ، ودخلها ميخاليفيتش . وبدا للافريتسكي ظهور هذا الرجل ، رفيقه الوحيد تقريبا في موسكو ، بصحبة الفتاة الوحيدة التي استرعت انتباهه ظاهرة غريبة ومثيرة للاهتمام . لاحظ ، وهو يواصل بصره الى المقصورة ان جميع مَنْ فيها يعاملون ميخاليفيتش كصديق قديم . ولم يعد التمثيل يثير اهتمام لافريتسكي ، وحتى موتشالوف نفسه ، الذي كان في ذلك المساء «في لحظة تجل» لــم يترك فيه الانطباع الذي يتركه فيه اعتياديا . وفي احدى المواقف المؤثرة جدا وجد لافريتسكي نفسه ينظر الى فتاتـــه الحسناء ، فرآها قد انحنت بكل جذعهـــا الى الامام ، وخداها متوهجان . وبتاثير من نظرته العنود تحولت عيناها المصوبتان الى المسرح ، نحوه ببطء ، واستقرتا عليه . . . وطوال الليــل كانت هاتان العينان تتراءيان له . واخيرا انهدم السد الذي اقيم اصطناعيا ، فراح لافريتسكي يرتجف ، ويحترق ، وفي اليوم التالي توجــه الى ميخاليفيتش . فعرف منـــه ان الحسناء تدعى فارفارا بافلوفنا كوروبينا ، وان العجوزين اللذين كانا جالسين الى جانبهـــا في المقصورة هما والداها ، وان ميخاليتش نفسه تعرف عليهم قبل عام ، اثناء اقامته «كمدرس مقيم» لدى الكونت ن . ، في منزلــه قرب موسكو . واثنى هذا المتحمس على فارفارا بافلوفنا عظيــم الثناء. هتف بتلك الرخامة الصداحة التي يتميز بها صوته «ان هذه الفتاة ، يا اخي ، مخلوق مذهل ، عبقري ، فنانة في المعنى الحقيقي لهذه الكلمة ، وشديدة الطيبـــة ، فضلا عن ذلك» . ولما لاحظ

ميخاليفيتش من استفسارات لافريتسكي التأثيـــر العميق الذي تركته فارفارا بافلوفنا في صاحبه اقترح عليه بنفسه ان يعرفه عليها مضيفا انه في بيتهم كواحد من اهل البيـــت ، وان الجنرال انسان غير متكبر على الاطلاق ، وان ام الفتاة بلهاء جدا لا يعوزهـا إلا ان تمص مصاصة . احمر لافريتسكي ، وتمتم بشيء غير مفهوم ، وولىّ هاربا . وظل طوال خمسة ايام يصارع خجله ، وفي اليوم السادس لبس هذا الاسبارطي الشاب سترة رسمية جديدة ، ووضع نفسه تحت تصرف ميخاليفيتش ، الذي اكتفى ، باعتباره من اهل البيت ، بتمشيط شعره فقط . وتوجه الاثنان الى بيت كوروبين .

١٣

قضى اللواء المتقاعد بافل بيتروفيتش كوروبين ، والـــد فارفارا بافلوفنا ، كل حياته في الخدمة في بطرسبورغ ، وعُرف في شبابه بأنه راقص بارع ومحارب ، وكان ، بسبب فقره ، ضابطا مساعدا لاثنين او ثلاثة من الجنرالات الدميمين ، وقد تزوج ابنـة احدهم ، بعد ان اخذ خمسة وعشرين الف روبل بائنة لها ، واتقن فن التدريبات والعروض العسكرية برمته ، وظل يكدح ويكـدح ، حتى بلغ رتبة الجنرالية اخيرا ، اي بعد عشرين سنة ، وحصل على إمرة فوج . وكان الاحرى به ان يستريح بعد ذلك ، ويعزز مـا احرزه ، دون عجالة . وقد خطط لذلك بالذات ، إلا انه قام بفعلة في غيرما حذر ، فقد ابتكر وسيلة جديدة في استخدام اموال الدولة ، وهي وسيلة ممتازة ، كما بدت ، ولكنه اظهر بخلاً في وقت غيـر مناسب ، فوُشيَ به . واسفر ذلك عن قضية مزعجـــة ، بل وشائنة . ولكن الجنرال تملّص منها بطريقة ما ، غير ان مستقبله قد انهار ، فنصحـــوه بالاستقالة . وظـــل في بطرسبورغ زهاء سنتين بلا عمل ، آملا ان يعثر على وظيفة مدنية مريحة ، الا انه لم يعثر على اية وظيفة . وتخرجت ابنته مـــن المعهد ، وصارت النفقات تزداد مع كل يوم . . . فتحامـــل على نفسه وقرر الانتقال الى موسكو لرخص المعيشة فيها ، واستأجر في شارع ستاريـــا كونيوشنايا بيتا صغيرا واطئا على سطحـــه شعار ضخم للنبالة ،

وعاش حياة جنرال متقاعد في موسكو ، منفقا في العام الفين وسبعمائة وخمسين روبلا . وموسكو مدينة مضيافة تسرّ باستقبال الوافدين والمنكوبين والجنرالات على الاخص . وسرعان ما اخذ بافل بيتروفيتش ، بجسمه الثقيل، وان كان لا يخلو من قيافة عسكرية ، يظهر في افضل حجرات الاستقبال في بيوتات موسكو . وصار قفاه الاجرد ، وشعره ذو الخصلات المصبوغة ، والشريط المتسخ لوسام آنّا على ربطة عنق فاحمة كلون الغراب معروفا بشكل جيد لكل الشبان الضجرين والشاحبين الذين يتحلقون ، اثناء الرقص ، على موائد القمار ، والجهامة منطبعة على وجوههم . واستطاع بافل بيتروفيتش ان يجعل المجتمع الراقي يحترمه . كان يتحدث قليلا ، ولكن بلهجة خناء ، حسب عادته القديمة ، مع اناس ليسوا ، بالطبع ، من الرتب الرفيعة ، وكان يلعب القمار بحذر ، ويأكل في بيته باعتدال ، وفي بيوت الآخرين ما يأكله ستة اشخاص . اما زوجته فلا تستحق ان يُذكر عنها اي شيء تقريبا ما عدا انها كانت تدعى كاليوبا كارلوفنا . كانت تسيل من عينها اليسرى دمعة صغيرة ، ولذلك كانت كاليوبا كارلوفنا (بالاضافة الى اصلها الالماني) تعتبر نفسها امرأة سريعة التأثر . وكانت دائما تخاف من شيء ما ، وكأنها لا تنال شبعها ، وكانت ترتدي فساتين مخملية ضيقة ، وقبعة ، واساور مجوفة كامدة . وكانت فارفارا بافلوفنا الابنة الوحيدة لبافل بيتروفيتش وكاليوبا كارلوفنا قد اتمت السابعة عشرة حين تخرجت من معهد الـ . . . . ، حيث كانت تعتبر ، ان لم تكن الاولى في الجمال ، فهي ، في اغلب الظن ، الاولى في الذكاء ، واحسن الموسيقيات ، وقد حصلت على الطغراء * . وكانت ما تزال في التاسعة عشرة ، حين رآها لافريتسكي لأول مرة .

١٤

ارتخت ساقا الاسبارطي ، حين ادخله ميخاليفيتش ، الى حجرة الجلوس السيئة الترتيب في بيت آل كوروبين ، وقدمه لهم . إلا ان شعور الرهبة التي تملكه زال سريعا ، اذ رأى السماحة

* المقصود فيها هنا رسم الحروف الاولى للامبراطورة ، رمزا للمكافأة او التفوق لاحسن التلميذات عند تخرجهن من المعهد لبنات النبلاء . **الناشر** .

المتأصلة في كل الروس مرسخة في نفس الجنرال بذلك النوع من الحفاوة التي تلازم مَنْ تلطخ اسمه قليلا . واختفت الزوجة سريعا ، على نحو من الانحاء . اما فارفارا بافلوفنا فقد كانت على درجة عظيمة من الهدوء والثقة بالنفس والرقة تجعل اي انسان يشعر بحضورها فورا بانه في بيته ، كما ان جسدها الساحر كله ، وعينيها الباسمتين ، وكتفيها السارحتين ببراءة ، ويديها الموردتين قليلا ، ومشيتها الخفيفة والمتعبة قليلا كما تلوح ، ورنة صوتها المتماهل الحلو تتأرج ، كما تتأرج رائحة رقيقة ، فتنة خفية ، واسترخاء ناعما ما يزال خجولا ، وشيئا آخر يصعب وصفه بالكلمات ، ولكنه يؤثر ويثير ، إلا انه لا يثير الرهبة بالطبع . ادار لافريتسكي الكلام عن المسرح ، وعن عرض يوم امس ، فبادرت هي في الحال بالحديث عن موتشالوف ، ولم تقف عند هتافات الاعجاب والتأوهات ، بل ابدت بعض الملاحظات الصادقة النسوية النفاذة بخصوص تمثيله . تطرق ميخاليفيتش الى الموسيقى ، فجلست هي الى البيانو دون تكلف للخجل ، وعزفت بعض الحان «المازوركا» * لشوبان ، وهي الحان دخلت الدرْجة ** لتوها في ذلك الحين . وحل وقت الغداء . واراد لافريتسكي ان ينصرف ، ولكنهم امسكوا به ، وعلى المائدة استضافه الجنرال على نبيذ لافيت الجيد الذي جلبه خادم الجنرال من محل دوبريه في عربة استؤجرت خصيصا . وعاد لافريتسكي الى البيت في ساعة متأخرة من المساء ، وظل جالسا لوقت طويل دون ان يخلع ثيابه ، مغطيا عينيه بيده ، جامدا جمود المفتون . وكان يخيل اليه انه صار الآن فقط يفهم لأي شيء ينبغي ان تعاش الحياة . وتلاشت على الفور كل مشروعاته ونواياه ، كل هذا الهراء والهباء . واندمجت روحه كلها في شعور واحد ، في رغبة واحدة ، الرغبة في السعادة والتملّك ، والحب ، حب المرأة اللذيذ . ومنذ ذلك اليوم اخذ يتردد على عائلة كوروبين في الغالب . وبعد ستة اشهر صارح فارفارا بافلوفنا بحبه لها ، وعرض لها الزواج منه . وقبلت عرضه . وكان الجنرال منذ وقت طويل ، يكاد يكون

* المازوركا رقصة بولونية وموسيقاها . **المعرب** .

** اي المودة . **المعرب** .

عشية زيارة لافريتسكي الاولى قد سأل ميخاليفيتش كم يملك لافريتسكي من الاقنان ، ثم ان فارفارا بافلوفنا نفسها التي ظلت طيلة ما كان الشاب يغازلها ، وحتى في لحظة بوحه لها بحبه ، تحتفظ برصانتها المعتادة ، وصفاء النفس ، فارفارا بافلوفنا كانت هي الاخرى تعرف جيدا ان خطيبها المقبل رجل ثري . اما كاليوبيا كارلوفنا فقد فكرت بالالمانية: «Meine Tochter macht eine schöne Partie» * واشترت قبعة جديدة لها .

١٥

وهكذا قُبِل العرض ، ولكن ببعض الشروط : اولا : يجب ان يترك لافريتسكي الجامعة على الفور ، فمن تتزوج طالبا ، ثم ما اغرب ان يتلقى صاحب اراض ، ثري ، في السادسة والعشرين من العمر دروسا مثل تلميذ مدرسة ؟ وثانيا : تكلفت فارفارا بافلوفنا بان تاخذ على عاتقها التوصية على البائنة وشراءها ، كما تختار هي هدايا العريس . فقد كان لديها الكثير من الفكر العملي ، والكثير من الذوق ، والشغف الشديد جدا بوسائل الراحة ، والكثير من القدرة على ان توفر وسائل الراحة هذه لنفسها . وقد بهرت هذه القدرة لافريتسكي بشكل خاص ، حين توجه مع زوجته الى لافريكي ، بعد الزفاف مباشرة ، على عربة مريحة اشترتها هي . ان كل ما كان يحيط به قد تروت فيه فارفارا بافلوفنا ، وفطنت اليه ، وخمنته ، وما اروعها في ذلك كله ! وما ابدع لوازم السفر التي ظهرت في اركان مريحة مختلفة ، وما افخم علب الزينة ، ودلال القهوة ، وما الطف القهوة التي تهيئها فارفارا بافلوفنا في الصباح ! وعلى العموم كان لافريتسكي آنذاك مشغولا عن المراقبة والتتبع . فقد كان يهنأ ، ويرفل في السعادة ، ويستسلم لها كالطفل . . . ثم ان هيراكليس الشاب (٥٣) هذا كان بريئا كالطفل . ولا غرابة في ان يشعر بالفتنة تفوح من كل كيان زوجته الشابة . ولا غرابة في انها كانت هي الاخرى توحي بالشعور بالترف الكامن في اللذائذ

* ابنتي ترسو على طرف جميل (بالالمانية في الاصل) .

14*

غير المعروفة من قبل . وكانت تنجز اكثر مما توحي . حين وصلت الى لافريكي في ذروة الصيف ، وجدت البيت قذرا مظلما ، والخدم مضحكين وشائخين ، ولكنها لم تجد من الضروري حتى ان تلمح بذلك الى زوجها . ولو كانت قد نوت الاقامة في لافريكي لغيّرت كل شيء في هذه القرية ابتداء من البيت بالطبع . ولكن لم يخطر ببالها لحظة واحدة ان تقيم في هذا الصقع السهبي المعزول . لقد عاشت فيه ، وكأنها في خيمة ، متحملة بوداعة كل ما فيها من نقص في وسائل الراحة ، مازحة عليها للتسلية . وجاءت مارفا تيموفييفنا لترى مَنْ كان في عهدتها . وقد اعجبت فارفارا بافلوفنا بها كثيرا ، إلا ان فارفارا بافلوفنا لم ترق لها . كما ان ربة البيت الجديدة لم تتوائم مع غلافيرا بيتروفنا . وكان من الممكن ان تتركها وشأنها ، الا ان العجوز كوروبين اراد ان يمد يديه في شؤون صهره . وكان يقول : حتى الجنرال لا يخجل من ادارة ضيعة مَنْ يمت له بمثل هذه الصلة الدانية من القرابة . ولا بد من الافتراض بأن بافل بيتروفيتش ما كان سيأنف من الاشتغال حتى بضيعة رجل غريب عليه . وجهت فارفارا بافلوفنا هجومها بحذق كبير . لم تضع نفسها في المقدمة ، واستغرقت ، ظاهريا ، في نعيم شهور العسل،والحياة الريفية الهادئة ، والكتب والموسيقى ، وركزت على غلافيرا ، حتى ان هذه في صباح احد الايام دخلت راكضة الى مكتب لافريتسكي كالمسعورة والقت حزمة المفاتيح على المنضدة ، واعلنت له انها لم تعد تقوى على ادارة شؤون الضيعة ، ولا تريد ان تبقى في القرية . ووافق لافريتسكي فورا على مغادرتها ، وكان مهينا كما ينبغي . ولم تكن غلافيرا بيتروفنا تتوقع ذلك فقالت ، وقد غشيت عيناها : «طيب ، ارى انني زائدة هنا ! انا اعرف مَنْ يطردني من هنا ، من وكري الأبوي . ولا اريد الا ان تتذكر كلمتي ، يا ابن الأخ . انت ايضا لن يبقى لك وكر في الدنيا ، وستقضي عمرك كله بالتجوال . هذه كلمتي الاخيرة لك» . وفي نفس اليوم رحلت الى قريتها الصغيرة ، وبعد اسبوع وصل الجنرال كوروبين ، واخذ بيديه ادارة الضيعة كلها بسوداوية لطيفة في عينيه وحركاته .

في ايلول اخذت فارفارا بافلوفنا زوجها الى بطرسبورغ . وقضت شتائين في بطرسبورغ (في الصيف كانا ينتقلان للاقامة في

تسارسكويه سيلو* في شقة ممتازة منيرة ، مؤثثة تأثيثا انيقا . وعقدا صلات تعارف كثيرة في اوساط المجتمع الوسطى ، وحتى العليا ، وكانا يقومان بزيارات كثيرة ، ويستقبلان ضيوفا كثيرين ، ويقيمان امسيات ساحرة جدا ، موسيقية وراقصة . وكانت فارفارا بافلوفنا تجذب الضيوف ، مثلما تجذب النار فراشات الليل . ولم تكن مثل هذه الحياة السادرة تروق كثيرا لفيدور ايفانيتش . نصحته زوجته بالتوظف ، وكان ، بسبب ذكرى ابيه القديمة ، ونظراته كلها ، لا يحب الوظيفة . ولكنه بقي في بطرسبورغ نزولا عند رغبة زوجته . وعلى اية حال سرعان ما حدس ان احداً لا يمنعه من اللواذ بالوحدة ، ولِمَ لا وهو يملك اهدأ واروح غرفة مكتب في بطرسبورغ كلها ، وان زوجته المعتنية مستعدة حتى الى ان تساعده في الانعزال . ومنذ ذلك الحين سار كل شيء على احسن ما يرام . وعاد من جديد يستكمل تثقيف نفسه الناقص ، حسب رأيه . وعاد من جديد الى القراءة ، بل وشرع يتعلم اللغة الانجليزية . وكان غريبا على العين ان ترى شخصه الضخم العريض الكتفين منكبا دائما على منضدة الكتابة ، ووجهه الممتلىء المشعر المورّد مخفيا نصفه بأوراق المعجم او الكراسة . وكان يقضي كل صباح في العمل ، ويتناول غداء ممتازا (كانت فارفارا بافلوفنا ربة بيت ممتازة) ، وفي الاماسي يدخل العالم النير الساحر العطر ، وكل اناسه شبان مرحون ، ومركز هذا العالم زوجته ، ربة البيت الدؤوب تلك . وقد ادخلت الفرحة في قلبه بأن انجبت له ابناً ، ولكن الولد المسكين لم يعش طويلا . توفي في الربيع ، وفي الصيف اخذ لافريتسكي زوجته الى الخارج ، الى الينابيع المعدنية ، حسب مشورة الاطباء . فقد كانت التسرية ضرورية لها ، بعد تلك الفاجعة ، كما ان صحتها كانت تستلزم مناخا دافئا . قضيا الصيف والخريف في المانيا وسويسرا ، وفي الشتاء سافرا الى باريس ، كما ينبغي ان يتوقع المرء . وتفتحت فارفارا بافلوفنا في باريس ، كما تتفتح الوردة ، واستطاعت ، مثلما في بطرسبورغ ، ان تبني عشا لها بنفس السرعة والبراعة . وجدت شقة لطيفة جدا في احد شوارع باريس الهادئة والعصرية ،

* ضواحي بطرسبورغ . **المعرب** .

في نفس الوقت . وخاطت لزوجها روباً منزليا لم يلبس مثله قط ، واستخدمت وصيفة حسنة القيافة ، وطباخة ممتازة ، وخادما حاذقا ، واشترت عربة فاخرة وبيانو فاتنا . وما كاد يمضي اسبوع حتى كانت تعبر الشارع ، وترتدي شالا ، وتفتح مظلتها ، وتلبس قفازين ، ليس اسوأ من اية باريسية اصيلة . وسرعان ما كوّنت لها معارف . في البداية كان لا يزورها غير الروس ، ثم اخذ الفرنسيون يظهرون في شقتها ، مهذبون جدا ، محترمون ، عازبون ذوو طبائع رائعة ، واسماء حلوة الرنين . وجميعهم كانوا يتكلمون بسرعة وكثرة ، وينحنون بلا تكلف ، ويخاوصون عيونهم بلطف ، وكانت لهم جميعا اسنان بيض تلمع بين شفتين متوردتين ، ثم ما ابرع ابتساماتهم ! وكان كل واحد منهم يأتي بأصدقائه ، وسرعان ما صارت * la belle madame de Lavretzki معروفة من Chaussée d'Antin الى ** Rue de Lille . في ذلك الوقت (كان ذلك في عام ١٨٣٦) لم تكن قد تكاثرت بعدُ عِترةُ الصحفيين من كتّاب المقالات الساخرة والمخبرين الصحفيين ، تلك العترة التي تموج الآن في كل مكان ، مثل النمل في بيوت نمل مهدمة ، إلا انه حتى في ذلك الحين ظهر في صالون فارفارا بافلوفنا شخص يدعى مسيو Jules ، وهو رجل غير جذاب المظهر ، معروف بفضائحه ، وقح ووضيع ، مثل كل المبارزين والمقهورين . وكانت فارفارا بافلوفنا تمقت مسيو جيوليه هذا مقتا شديدا ، إلا انها كانت تستقبله ، لأنه كان يكتب في صحف مختلفة ، وكان يشير اليها دائما ، مسميا اياها إما مدام دو ل . . . يتسكي او مدام دو . . . cette grande dame russe si distinguée qui demeure rue de P. . . *** ويحدث العالم كله ، اي بضعة مئات من المشتركين الذين لا يهمهم أمر مدام ل . . . يتسكي ، كيف ان هذه المدام ، الفرنسية الاصيلة في عقليتها (une vraie française par l'esprit) — لا يوجد ارفع من هذا الثناء لدى الفرنسيين — رقيقة ومهذبة ، وكيف انها موسيقية غير اعتيادية ، وكيف انها

* مدام لافريتسكي الفاتنة (بالفرنسية في الاصل) .

** ورد اسما شارعين (بالفرنسية في الاصل) .

*** تلك المرأة الروسية البارزة المرهفة للغاية التي تعيش في شارع ب . . . (بالفرنسية في الاصل) .

ترقص الفالس بشكل مذهل (وبالفعل كانت فارفارا بافلوفنا ترقص بهذا الشكل ، بحيث كانت تجذب جميع القلوب وراء اذيال ثوبها الخفيف المتطاير) . . . وباختصار اشاع ذكرها في الآفاق وهذا شيء ممتع ، مهما قلتَ فيه . وكانت الآنسة مارس قد تركت خشبة المسرح آنذاك ، ولكن الآنسة راشيل (٥٤) لم تظهر عليها بعد . ومع ذلك ، فان فارفارا بافلوفنا كانت تغشى المسارح بدأب ، وكانت الموسيقى الايطالية تسحرها ، واودرى العجوز يضحكها ، وفي كوميدي فرانسيز تتثاءب باحتشام ، وتمثيل مدام دورفال (٥٥) في الميلودراما الرومانسية المتطرفة يبكيها . والشيء الرئيسي ان ليست نفسه عزف في بيتها مرتين ، وكان عذبا ، بسيطا . الفتنة بعينها ! وانقضى الشتاء في مثل هذه الاحاسيس الممتعة ، وفي اواخره قدمت فارفارا بافلوفنا حتى الى البلاط . وفيدور ايفانيتش ، من جانبه ، لم يضجر ايضا ، ولو ان الحياة كانت احيانا تثقل على كاهله ، تثقل ، لأنها فارغة . كان يقرأ الجرائد ، ويتردد على المحاضرات في السوربون وكوليج دو فرانس (٥٦) ، ويتابع النقاشات في المجلسين ، وشرع يترجم مؤلفا شهيرا عن الري قائلا لنفسه : «لن اضيع الوقت . ان كل ذلك مفيد ، ولكن تنبغي العودة الى روسيا حتما قبيل الشتاء القادم ، واستئناف العمل» . ومن الصعب القول هل كان يعي بوضوح ، ما هو هذا العمل بالذات ، والله يعلم هل سيوفق في العودة الى روسيا قبيل الشتاء ، ولكنه في الوقت الحاضر سافر مع زوجته الى بادن — بادن . . . إن حادثة غير متوقعة حطمت كل خططه .

١٦

ذات مرة دخل لافريتسكي في غرفة مكتب فارفارا بافلوفنا بغيابها ، فوجد على الارض ورقة صغيرة مطوية بعناية . رفعها آليا ، وبسطها آليا ايضا ، وقرأ ما يلي مكتوبا باللغة الفرنسية :

«ايها الملاك العزيز بيتسي (لا استطيع لحد الآن ان اسميك باربا او فارفارا) . انتظرتك بلا جدوى في منعطف البولفار ، تعالي غدا

الى شقتنا في حوالى الساعة الواحدة والنصف . ان زوجك السمين الطيب (ton gros bonhomme de mari) يغرق عادة في كتبه ، في مثل هذا الوقت ، وستغني مرة اخرى ، تلك الاغنية لشاعركم بوسكين (de votre poète Pouskine) (٥٧) التي علمتها لي : الزوج العجوز ، الزوج الرهيب ! الف قبلة ليديك وقدميك . انا في انتظارك .

ايرنست»

لم يفهم لافريتسكي على الفور ما قرأه . فقرأه مرة ثانية ، ودار راسه ، وترنحت الارض تحت قدميه ، فكأنه على متن سفينة اثناء هياج البحر . فاخذ يصيح ويلهث ، وينفجر باكيا في لحظة واحدة .

وجنّ جنونه ، فقد كان يثق بزوجته ثقة عمياء ، ولم يخطر بباله قط احتمال ان تخونه او تخدعه . لقد كان ايرنست عشيق زوجته هذا ، صبيا اشقر ، حلو المحيا ، في نحو الثالثة والعشرين ، له انف صغير مرفوع ، وشاربان رقيقان ، يكاد يكون اكثر معارفها تفاهة . انقضت بضع دقائق ، انقضى نصف ساعة ، وما يزال لافريتسكي واقفا يدعك الورقة المشؤومة في يده ، ويحدق في الارض ساهما . تراءت له من خلال دوامة قاتمة وجوه شاحبة ، وتقلّص قلبه مبرّحا ، وخيل اليه انه يهوي ويهوي ويهوي . . . ولا نهاية لهويه . اخرجه من جموده حفيف خفيف مألوف لثوب حريري . عادت فارفارا بافلوفنا من النزهة مستعجلة وعليها قبعة وشال . اخذ كيان لافريتسكي كله يرتجف ، فاندفع الى الخارج . فقد احس في تلك اللحظة بأنه يمكن ان يمزقها اربا اربا ، يضربها حتى تشارف الموت ، يخنقها بيديه على طريقة الفلاحين . ارادت فارفارا بافلوفنا المندهشة ان توقفه ، ولم يستطع الا ان يهمس «بيتسي» وهرول خارجا من البيت .

استقل لافريتسكي عربة ، وامر الحوذي بأن يؤخذه الى خارج المدينة . وظل يهيم كل ما تبقى من النهار ، والليل كله حتى الصباح ، متوقفا من لحظة الى اخرى ، باسطا ذراعيه إمارة على القنوط . كان تارة يتصرف كالمجنون ، وتارة يبدو له الامر مضحكا ، بل ويثير المرح . في الصباح شعر بقشعريرة ، فدخل حانة قذرة من حانات الضواحي ، وطلب حجرة ، وجلس على مقعد فيها

قرب النافذة . انتابته نوبة متشنجة من التثاؤب وكان لا يكاد يقف على قدميه ، الاعياء يغل جسده ، ولكنه لم يكن يشعر بالتعب ، ومع ذلك فقد ترك الاعياء اثره . فظل لافريتسكي جالسا يحدق ولا يفهم شيئا ، لا يفهم ما حصل له ، ولماذا هو وحيد ، بأوصال متخشبة ، ومرارة في الفم ، وثقل في الصدر ، في حجرة فارغة غريبة عليه . لم يكن يفهم ما الذي جعلها ، جعل فاريا زوجته تستسلم لذلك الفرنسي ، وكيف قدرت وهي تعرف خيانتها ، ان تظل على هدوئها السابق ، وملاطفتها السابقة ، ووثوقها به ! همست شفتاه المتيبستان : «انا لا افهم شيئا ! ومن يضمن لي الآن انها في بطرسبورغ ايضا . . .» . ولم يتم السؤال ، وتثاءب ثانية ، مرتجفا منكمشا بكل جسده . وصارت تعذبه الذكريات البهيجة منها والمحزنة على حد سواء . وفجأة تذكر كيف جلست الى البيانو قبل ايام ، بحضوره وبحضور ايرنست ، وغنت «الزوج العجوز ، الزوج الرهيب !» . وتذكر التعبير الذي ارتسم على وجهها ، وبريق عينيها الغريب ، والحمرة التي لونت خديها . وقد نهض من مقعده ، واراد ان يتقدم منهما ويقول : «لا جدوى من المزاح معي ، كان جدي الاكبر يشنق الفلاحين من اضلاعهم ، وجدي ، والد ابي ، كان فلاحا هو الآخر» . ثم يقتلهما كليهما . وتارة كان يخيل اليه ان كل ما يحدث له ، ما هو الا حلم ، بل وليس حلما ، بل مجرد وسوسة ، وما عليه إلا ان ينفض عنها رأسه ، ويدير بصره فيما حوله . . . فكان يجيل بصره فيما حوله ، كانت الوحشة تنغرز في قلبه اعمق فاعمق ، مثلما ينشب الصقر براثنه في طائر اقتنصه . وفوق كل هذا كان لافريتسكي يأمل في ان يكون ابا بعد بضعة شهور . . . وها هو الماضي والمستقبل ، والحياة كلها تتسمم . واخيرا عاد لافريتسكي الى باريس ، ونزل في فندق ، وارسل الى فارفارا بافلوفنا رسالة السيد ارنست ، مع الرسالة التالية :

«الورقة المرسلة طيّها ستشرح لك كل شيء . واقول لك ، والقول بالقول يذكر ، انني لم اتعرف عليك منها . فانت دائما دقيقة جدا ، ولا يمكن ان تدعي مثل هذه الاوراق المهمة تسقط من يديك . (اعاد لافريتسكي المسكين هذه الجملة وقلّبها في ذهنه لعدة ساعات) . لا استطيع ان اراك بعد الآن . وافترض انك ايضا لا بد غير راغبة في لقائي . سأخصص لك خمسة عشر الف فرنك

في العام . ولا استطيع ان اقدم اكثر من هذا . ارسلي عنوانك الى ادارة القرية . افعلي ما تشائين ، وعيشي حيث تريدين . اتمنى لك السعادة . لا حاجة الى جواب» .

كتب لافريتسكي لزوجته انه لا يحتاج الى جوابها . . . ولكنه كان ينتظر ويتلهف لجواب ، لتفسير هذه المسألة غير المفهومة ، وغير المدركة . وفي نفس اليوم ارسلت فارفارا بافلوفنا له رسالة كبيرة بالفرنسية . وكانت الضربة القاضية له . وتبددت شكوكه الاخيرة واخجله ان تكون له مثل هذه الشكوك ، بعد كل ذلك . لم تبرر فارفارا بافلوفنا نفسها . كانت ترغب فقط ان تراه ، وتتوسل اليه الا يدينها ادانة قطعية . كانت الرسالة باردة ومتوترة ، رغم ان عليها بقعا من اثر الدموع هنا وهناك . ابتسم لافريتسكي ابتسامة ساخرة مرة ، وطلب ان يقال لحامل الرسالة ان كل شيء على خير ما يرام . وبعد ثلاثة ايام كان لافريتسكي قد غادر باريس ، ولكنه لم يسافر الى روسيا ، بل الى ايطاليا . ولم يكن نفسه يعرف لماذا اختار ايطاليا بالذات ، وفي الحقيقة كانت سواء لديه كل الاقطار ، ما عدا وطنه . ارسل رسالة الى وكيله بخصوص النفقة لزوجته ، موعزا اليه في نفس الوقت ، بان يسحب ، فورا ، كل شؤون الضيعة من يدي الجنرال كوروبين ، ودون ان ينتظر جرد الحسابات ، وان يشرف على خروج سيادته من لافريكي . وكان يتصور بجلاء مبلغ ارتباك الجنرال المطرود ، وعظمته غير المجدية ، ورغم بلواه كلها ، كان يشعر ببعض الارتياح المتشفي . كما كتب رسالة الى غلافيرا بيتروفنا يطلب منها العودة الى لافريكي ، وارسل وكالة باسمها . ولم تعد غلافيرا بيتروفنا الى لافريكي ، ونشرت في الجرائد اعلانا تلغي فيه هذه الوكالة ، ولم تكن ضرورة لذلك على الاطلاق . اما لافريتسكي ، فقد انزوى في بلدة ايطالية صغيرة ، وظل وقتا طويلا غير قادر على مقاومة اغراء نفسه في متابعة اخبار زوجته . وقد عرف من الجرائد انها غادرت باريس الى بادن – بادن ، كما كانت تود . وبعد قليل ظهر اسمها في مقالة قصيرة كتبها مسيو جيوليه نفسه . وبدلا من روح الدعابة العابثة المألوفة من قبل ، ظهرت في هذه المقالة مؤاساة ودية ، وقد شعر فيودور ايفانيتش بتقزز نفسي ، حين قرأ هذه المقالة . وبعد ذلك علم ان ابنة وُلدت له ، وبعد حوالى شهرين تلقى من وكيل اعماله تبليغا بان فارفارا

بافلوفنا الزمته بدفع الثلث الاول من راتبها . وبعد ذلك اخذت تتردد شائعات احداها اسوأ من الاخرى ، انتهت في النهاية بقصة درامية كوميدية تناقلتها جميع المجلات في ضجيج ، لعبت فيها زوجته دورا لا يُحسد عليه ، وانتهى كل شيء ، :لقد اصبحت فارفارا بافلوفنا «ذائعة الصيت» .

توقف لافريتسكي عن متابعة اخبار زوجته ، ولكنه لم يستطع ان يوطن نفسه بسرعة على فراقها . فقد كان في بعض الاحيان يتملكهُ شوق شديد اليها ، حتى يبدو وكانه مستعد لان يعطي كل شيء وحتى . . . لان يصفح عنها ، لمجرد ان يسمع من جديد صوتها الحنون ، ويشعر من جديد بيدها في يده . إلا ان الزمن ترك فعله ايضا . ولم يكن لافريتسكي قد ولد شهيد العذاب . وتجلت طبيعته السليمة بكامل قوتها . وتوضح له الشيء الكثير ، والضربة التي اخرجته عن طوره ، هي نفسها لم تعد تبدو له غير متوقعة . فقد فهم زوجته . والانسان القريب اليك لن تفهمه تماما ، إلا حين تفارقه . وكان في وسعه من جديد ان يدرس ، ويشتغل ، وان كان اقل من حماسه السابق بشوط بعيد . فقد تغلغلت في اعماقه كليا روح التشكك التي خلفتها التجارب والتربية . وصار على قدر كبير من عدم الاكتراث لكل شيء . وانقضى زهاء اربعة اعوام ، وصار يشعر بانه قادر على العودة الى الوطن ، والالتقاء بذويه . لم يرد الاقامة في بطرسبورغ ولا في موسكو ، فقصد مدينة و . . . ، حيث تركناه هناك ، وحيث نرجو القارئ الكريم الآن ان يعود معنا اليها . . .

١٧

في صباح اليوم الذى تلا اليوم الذي وصفناه ، وفي نحو الساعة العاشرة ، كان لافريتسكي يصعد درجات مدخل بيت آل كاليتين . فالتقى بليزا خارجة بقبعتها وقفازيها . سألها :

– الى اين ذاهبة ؟

– الى القداس . اليوم يوم احد .

– أحقا انك تشهدين القداس ؟

صمتت ليزا ، ونظرت اليه باندهاش . فقال لافريتسكي :

– اعذريني ، رجاء . . . ليس هذا ما اردت ان اقوله . لقد جئت لتوديعكم ، فانا مسافر الى قريتي بعد ساعة .

سألت ليزا :

– ولكنها ليست بعيدة من هنا ؟

– حوالى خمسة وعشرين فرسخا .

وظهرت لينوتشكا على العتبة بصحبة الخادمة .

قالت ليزا :

– اياك ان تنسانا .

وهبطت درجات المدخل . فاكمل لافريتسكي :

– وانتم ايضا ، لا تنسوني . ولكن اسمعي . انت ذاهبة الى الكنيسة . فصلّي لي ، مع مَنْ تصلّين لهم .

توقفت ليزا ، واستدارت نحوه . وقالت وهي تحدق في وجهه :

– تفضل . سأصلي لك ايضا . لنذهب يا لينوتشكا .

وجد لافريتسكي ماريا دميتريفنا في حجرة الجلوس وحدها . كانت تعبق بالكولونيا والنعناع . كان عندها صداع ، حسب قولها ، وقد قضت الليلة مؤرقة . تلقته بلطفها المتراخي المألوف ، وابتدات شيئا فشيئا تتحدث معه . وسألته :

– الا تتفق معي ان فلاديمير نيقولايتش شاب لطيف !

– من هو فلاديمير نيقولايتش هذا ؟

– بانشين ، الذي كان في الامس عندنا . لقد اعجب بك اعجابا شديدا . دعني أُودعك سرا mon cher cousin * ، انه مجنون بليزا تماما . وليكن ذلك ! انه من عائلة طيبة ، وله وظيفة محترمة . وهو ذكي ، ومن ضباط الحاشية . واذا شاء الله . . . فانا ، من جانبي ، بصفتي أُما ، سأكون مسرورة جدا . المسؤولية عظيمة ، بالطبع ، وسعادة الاولاد متوقفة على والديهم . وهذا شيء معقول . ومهما يكن من خير او شر ، فانا وحيدة دائما في الواقع . ولكنني ربيت الاطفال ، وعلمتهم . . . انا لوحدي في كل شيء . . . والآن حتى استدعيت مربية فرنسية من السيدة بوليوس . . .

---

* هنا : يا ابن اخي العزيز (بالفرنسية في الاصل) .

وانطلقت ماريا دميتريبيفنا في وصف همومها ومساعيها ، وعواطفها الامومية . اصغى لافريتسكي اليها صامتا ، مديرا قبعته في يديه ، حتى اربكت نظرته الباردة الثقيله ماريا دميتريبيفنا ، وهي مسترسلة في الحديث . سألته :

— ما رايك في ليزا ؟

— ليزافيتا ميخايلوفنا آنسة رائعة . — قال لافريتسكي ذلك ونهض ، وانحنى للسيدة ، وذهب الى مارفا تيموفييفنا . نظرت ماريا دميتريبيفنا في اثره في غير ما رضى ، وفكرت مع نفسها : «يا له من دبّ ريفي ! طيب ، فهمت الآن ، لماذا لم تستطع زوجته ان تبقى مخلصة له» .

كانت مارفا تيموفييفنا جالسة في حجرتها محاطة بحاشيتها ، المؤلفة من خمسة مخلوقات على قدر متساو من القرب الى قلبها . ابتداء من الشحرور البدين الصدر المدوّب الذي احبته لأنه كفّ عن الصفير وجلب الماء ، الى الكلب الصغير روسكا المتخوف جدا والوديع ، الى القط الغضوب ماتروس ، الى صبية سمراء كثيرة الحركة في نحو التاسعة من العمر ذات عينين وسيعتين ، وانف مدبب تدعى شوروتشكا ، وانتهاء بامرأة كهلة في نحو الخامسة والخمسين ترتدي قلنسوة بيضاء ، وبلوزة بنية قصيرة على فستان داكن اللون ، تدعى ناستاسيا كاربوفنا اوغاركوفا . وشوروتشكا يتيمة الابوين من طبقة واطئة من سكان المدينة ، ضمتها مارفا تيموفييفنا اليها شفقة بها ، مثلما فعلت مع الكلب روسكا ، فقد وجدتهما كليهما ، الصبية والكلب في الشارع . كلاهما كان نحيلا جائعا ، وكلاهما عانى من امطار الخريف ، الا ان احدا لم يطالب بروسكا ، كما ان عم شوروتشكا تنازل عنها لمارفا تيموفييفنا بكل رضى ، والعم اسكاف سكير لم يكن يستطيع حتى ان يشبع نفسه ، فكان لا يطعم ابنة اخيه ، بل كان يضربها على راسها بقالب الحذاء . وكانت مارفا تيموفييفنا قد تعرفت على ناستاسيا كاربوفنا اثناء زيارتها لدير . وقد تقدمت منها بنفسها في الكنيسة ، (فقد راقت لمارفا تيموفييفنا لأنها ، على حد تعبيرها ، كانت تصلي بطريقة لذيذة جدا) وبادرتها الحديث ، ودعتها الى بيتها على قدح من الشاي . ومنذ ذلك اليوم لم تفترق عنها . وناستاسيا كاربوفنا امرأة مرحة الطبع للغاية ، ووديعة الخلق ، وارملة لم ترزق

بأولاد ، تنحدر من اشراف اخنى عليهم الدهر ، وكان راسها مدورا اشيب ، ويداها ناعمتين بيضاوين ، ووجهها رقيقا ذا قسمات ضخمة بادية الطيبة ، وانفها مرفوعا مضحكا بعض الشيء . وكانت تبجل مارفا تيموفييفنا الى حد العبادة ، كما كانت مارفا تيموفييفنا تحبها ايضا ، ولو انها كانت تتفكه من رقة قلبها . فقد كانت ناستاسيا كاربوفنا تشعر بضعف ازاء جميع الشبان ، وتحمر دون ارادتها ، من اكثر النكات براءة مثلما تحمر فتاة . وكان كل راس مالها يتالف من الف ومائتي روبل من العملة الورقية ، فكانت تعيش على نفقة مارفا تيموفييفنا ، ولكن على قدم المساواة ، لأن مارفا تيموفييفنا لا تطيق اي تذلل .

وحالما رأت فيدور ايفانيتش حتى قالت :

— آه ! فيديا ! البارحة لم تر عائلتي . فتفضل ومتع نظرك بها . نحن نتهيأ جميعا لشرب الشاي . وهذا ثاني لقاء لنا لشرب الشاي في يوم العيد . يمكنك ان تداعب الجميع ، ما عدا شوروتشكا ، فهي لن تدعك . كما ان القط سيخمشك . هل ستسافر اليوم ؟

— نعم — قال لافريتسكي ، وجلس على مقعد واطئ . — تودعت مع ماريا دميتريبيفنا ، كما رايت ليزافيتا ميخايلوفنا .

— سمّها ليزا ، يا عزيزي ، فأين هي من صيغة الكبار هذه ، بالنسبة لك ؟ ثم اجلس بهدوء ، والا فانك ستكسر مقعد شوروتشكا الذي تجلس عادة عليه .

فتابع لافريتسكي قوله :

— ذهبت لحضور القدّاس . هل هي متعبّدة ؟

— نعم ، فيديا ، وكثيرا . اكثر مني ومنك ، يا فيديا .

فقالت ناستاسيا كاربوفنا لائغة :

— وهل معقول انك غير متعبدة ؟ لم تذهبي اليوم الى قدّاس الصباح ، ولكنك ستذهبين الى قدّاس المساء .

قالت مارفا تيموفييفنا :

— لا . ستذهبين انت وحدك . صرت متكاسلة ، يا عزيزتي . اتلذذ بالشاي كثيرا . — وكانت تخاطبها بضمير المفرد بعكس مخاطبة ناستاسيا كاربوفنا لها ، رغم انهما على قدم المساواة ،

وكيف ذلك وهي من آل بستوف ، وثلاثة من آل بستوف كانوا من شهداء الكنيسة في عهد القيصر ايفان فاسيليتش الرهيب . وكانت مارفا تيموفييفنا تعرف ذلك .

وعاد لافريتسكي يقول :

– قولي ، من فضلك ، قبل لحظات كانت ماريا دميترييفنا تحدثني عن . . . ما اسمه ؟ ضاع من بالي . . . آه ، عن بانشين . من هو هذا السيد ؟

قالت مارفا تيموفييفنا :

– آوه ، اية مهذارة هي ، وليغفر لي الله ! اظن انها كانت تسرّ لك ان خطيبا رائعا ظهر بينهم . دعها تثرثر مع صاحبها ابن القس هذا . ولكن هذا لايكفيها . مع انه ، والحمد لله ، لم يتقرر شيء بعد ، اما هي فتخبر الجميع .

فسأل لافريتسكي :

– ولماذا ، والحمد لله ؟

– لان هذا الشاب لا يعجبني . ثم ما الذي يُبهج فيه ؟

– الا يعجبك ؟

– نعم ، ليس الجميع تحت اسره . كفاه ان تتعشقه ناستاسيا كاربوفنا .

واضطربت الارملة المسكينة تماما ، وهتفت :

– ما هذا منك ، يا مارفا تيموفييفنا ، كانك لا تخافين الله !

وشاعت الحمرة بلحظة واحدة في وجهها ، ورقبتها . قاطعتها مارفا تيموفييفنا قائلة :

– يعرف الوغد هذا ، يعرف بم يفتنها . اهدى لها علبة نشوق . فيديا ، اطلب منها ان تستنشق التبغ ، وسترى عندها علبة نشوق رائعة . على غطائها صورة ضابط فرسان على فرسه . الافضل لك الا تبرئي ساحة نفسك ، يا اختي .

فلم تستطع ناستاسيا كاربوفنا إلا ان تهز ذراعيها دفعا للبلاء .

فسأل لافريتسكي :

– طيب ، وليزا ؟ هل تهتم به ؟

– يبدو انه يعجبها ، وعلى العموم ، الله يعلم ! فانت تعرف ان نفس غيرك طلسم ، ولاسيما نفس فتاة . فها هي شوروتشكا

مثلا ، حاول ان تفهم نفسها ! نفسها لا تعرف لماذا اختفت منذ اقبلتَ ، ولكنها لا تخرج وتريحنا ؟

ضحكت شوروتشكا ضحكة مكتومة واندفعت خارجة ، ونهض لافريتسكي من مقعده . قال لافريتسكي بتوقف على الكلمات :

– نعم . لايمكن حزر نفس الفتاة . – واخذ يودع . فسألته مارفا تيموفييفنا :

– اذن ؟ هل سنراك عن قريب ؟

– محتمل جدا ، ياعمة . فانا قريب منكم .

– نعم ، فانت مسافرالى قرية فاسيليفسكويه . انت لا تريد ان تقيم في لافريكي . ولكن هذا شانك . فقط ان تزور قبر امك ، وتركع امامه ، وقبر جدتك ايضا . اغلب الظن انك ادخرت مختلف الافكار في الخارج ، ومن يدري ، فلربما يشعران في قبريهما انك قد جئت اليهما . ثم لا تنس ، يافيديا ، بان تقيم قداسا على روح غلافيرا بيتروفنا . خذ ، هذا روبل ، خذه ، خذه . فانا التي اردت ان اقيم قدّاسا على روحها . لم احبها في حياتها ، ولكن لابد ان اقول انها كانت صلبة العود . وكانت ذكية . ثم انها لم تسيء اليك . والآن اذهب في رعاية الله ، والا فقد اضجرك .

وعانقت مارفا تيموفييفنا ابن اخيها .

– اما ليزا فلن تتزوج بانشين ، فلا تقلق . فهي تليق بزوج احسن منه .

اجاب لافريتسكي :

– ولكنني لا اقلق البتة .

وانصرف .

١٨

بعد حوالى اربع ساعات كان في الطريق الى قريته . انطلقت به المركبة مسرعة في الطريق الريفية الناعمة . المطر لم ينزل منذ اسبوعين او نحوهما . وكان ضباب خفيف يخيم في الهواء بلون الحليب ، ويفترش الغابات البعيدة ، ويفوح برائحة شيء محترق .

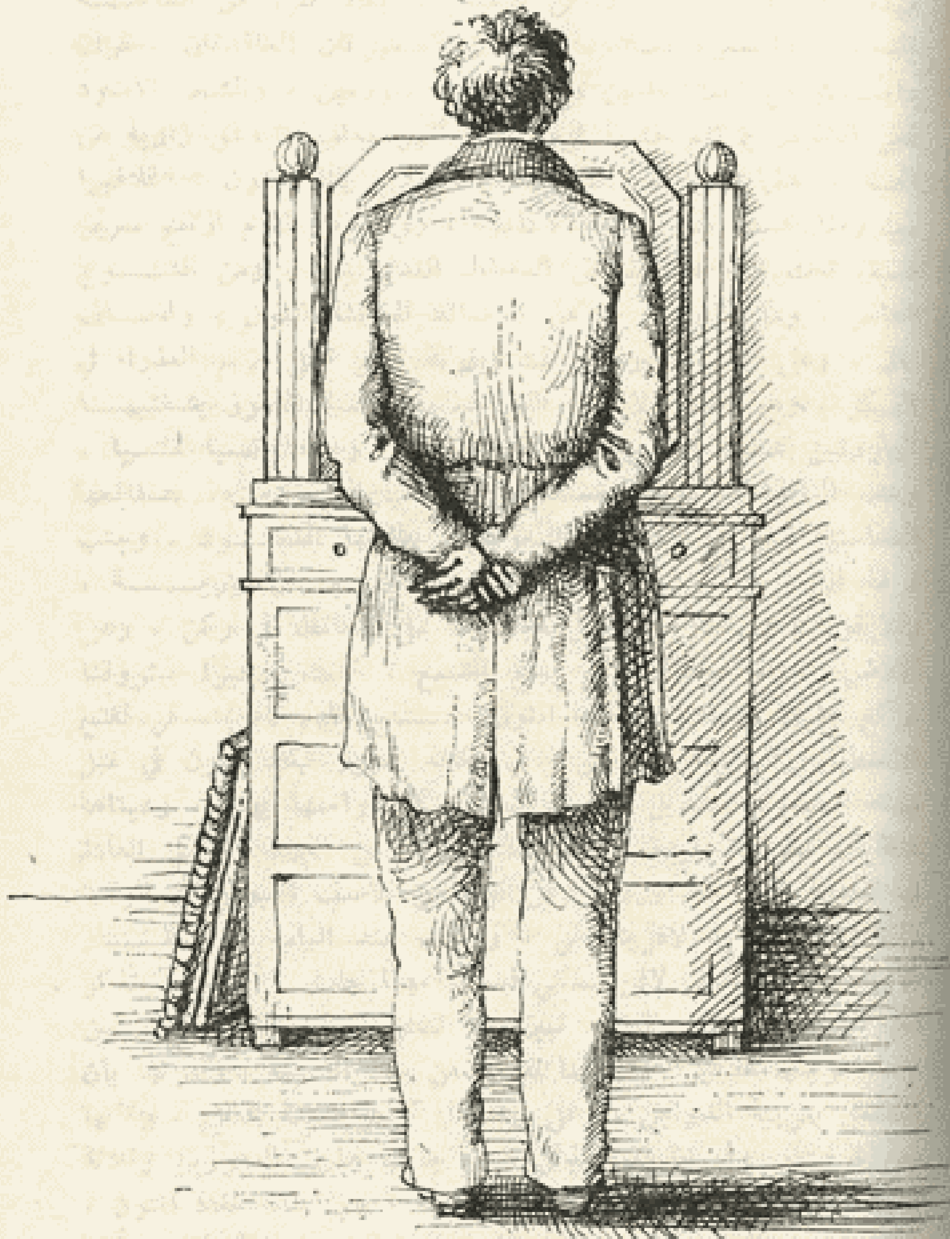
وكان العديد من السحب الداكنة ذات الحوافي الشعثاء يدب في السماء الشاحبة الزرقة . وانطلقت ريح شديدة السرعة بهبات جافة متتالية دون ان تزيح القيظ عن صدر الارض . وضع لافريتسكي رأسه على حشية ظهر المقعد وذراعيه على صدره ، وحدّق في الحقول المنداحة كالمروحة ، وفي اجمات الوزّال المتوامضة ببطء ، وفي الغربان البُله وغربان القيظ وهي تنظر من طرف بارتياب بليد الى المركبة المارة ، وفي حدود الحقول الطويلة التي نما فيها الافسنتين العالي والغبيراء – وبينما كان يحدق كان هذا العراء الطري المترع للسهوب النائية ، وهذه الخضرة ، وتلك التلال الطويلة ، والوهاد باجمات البلوط الواطئة ، والقرى الرمادية الصغيرة ، واشجار البتولا النحيلة ، كانت كل هذه الاشياء التي لم يرها منذ زمان طويل ، هذه اللوحة الروسية تبعث في نفسه مشاعر حلوة وشبه مفجعة في نفس الوقت ، وتهبط على صدره بثقل لطيف . كانت الافكار تهوّم في راسه ببطء ، وملامحها غير واضحة ومبهمة مثل ملامح تلك السحب العالية المهوّمة ايضا ، على ما تبدو . وتذكر طفولته ، وامه ، وتذكر كيف كانت تحتضر وكيف قرّبوه منها ، وكيف ضغطت رأسه على صدرها ، وبدأت تعول بوهن ، ونظرت الى غلافيرا بيتروفنا ، وهمدت . وتذكر اباه ، جمّ النشاط في البداية ، متذمرا من كل شيء ، رنان الصوت ، ثم اعمى ، مولولا ذا لحية شيباء شعثاء ، وتذكر كيف انه شرب ذات مرة اثناء الطعام ، قدحا من النبيذ فوق المعتاد ، فدلق الصلصة على فوطته ، واذا به يضحك فجاة ، وانشأ يتحدث عن انتصاراته ، وهو يرمش بعينيه المكفوفتين محمرا . وتذكر فارفارا بافلوفنا ، واذا بعينيه تتقلّصان ، مثلما تتقلص عينا انسان فوجئ بالم داخلي ، وهز رأسه مبعدا الذكرى . وبعد هذا رسا فكره على ليزا .

وفكر مع نفسه «ها هو مخلوق جديد ، يخرج على عتبة الحياة لتوه . فتاة طيبة ، فماذا سياتي منها ؟ انها مليحة . الوجه نضر رغم شحوبه ، والعينان والشفتان في غاية الروعة ، والنظرة نقية بريئة ، مؤسف انها تبدو متهللة بعض الشيء . والقامة ممتازة ، والمشية خفيفة ، والصوت هادئ . احب كثيرا وقوفها فجاة ، واصغاءها بعناية ، دون ابتسام ، ثم استغراقها في افكارها ،

والقاءها رأسها الى الخلف . حقا يبدو لي ، انا ايضا ان بانشين لا يليق بها زوجا . ومع ذلك فما عيبه ؟ على اية حال ، ما لي اغرق في الاحلام ؟ ستسير في الدرب الذي تسير فيه الأخريات جميعا . والافضل ان اغفو» . واغمض لافريتسكي عينيه .

ولم يأته النوم . ولكنه غرق في خدر السفر الناعس . وتراءت له صور الماضي ، كما من قبل ، متئدة ، وانسابت في ثنايا نفسه مختلطة مشربكة بتصورات اخرى . ولسبب لا يعرفه الا الله راح لافريتسكي يفكر في روبرت بيل (٥٨) . . . في التاريخ الفرنسي . . . وكيف كان سيكسب المعركة لو كان جنرالا ، وخيّل اليه انه يسمع صوت طلقات وصيحات . . . وانزلق رأسه الى جانب ، ففتح عينيه . . . نفس الحقول ونفس مناظر السهوب . والحذوات المحكوكة على حوافر الحصانين الجانبيين تتوامض على التوالي من خلال الغبار المتطاير . والريح تنفخ قميص الحوذي الاصفر بحاشيته الحمراء . . . وطاف في ذهن لافريتسكي «جميل ان اعود الى الوطن بهذه الحال» . وصاح : «اسرع !» ، وتدثر بمعطفه ، والتصق بمقعد العربة اكثر . انجذبت العربة ، فاذا بلافريتسكي ينتصب بجذعه ، ويفتح عينيه بسعة . انبسطت امامه قرية صغيرة على مرتفع من الارض ، والى اليمين قليلا لاح بيت ضيعة صغير رث ، نوافذه مغلقة الصفاقات ، وواجهته مائلة ، وفي فنائه العريض نما القرّاص حتى البوابة اخضر كثيفا ، كالقنّب ، وهناك ايضا شونة من خشب البلوط ما تزال قوية . تلك هي قرية فاسيليفسكويه .

استدار الحوذي نحو البوابة ، واوقف الخيول ، ونهض خادم لافريتسكي من مقدمة المركبة وكأنه يتهيأ للقفز ، وصاح «هاي !» .وتردد نباح اجش فاقد الرنين ، ولكن حتى الكلب الذي نبح لم يظهر للعيان ، وتهيأ الخادم مرة اخرى ليقفز ، وصاح من جديد «هاي !» . وتكرر النباح الرخو ، وبعد برهة ، طلع الى الفناء ، وكأنه نبع من مكان مجهول ، شخص يرتدي قفطانا من القماش القطني الخش ، له شعر ابيض كالثلج . نظر الى المركبة مظللا عينيه من الشمس ، وضرب فخذيه بكلتا يديه . واخذ ، في البداية ، يروح ويجئ في مكانه ، ثم اندفع يفتح البوابة . دخلت المركبة الفناء ، وصرفت عجلاتها على القراص ، وتوقفت امام واجهة



البيت . كان الرجل الابيض الشعر ، الشديد الحركة ، على ما يبدو ، واقفا على درجة المدخل الاخيرة مباعدا بين ساقيه كثيرا وعلى انحراف ، وفك مقدمة المركبة ، ورفع الجلد الى فوق بحركة مرتعصة ، وساعد سيده على الهبوط منها ، ثم قبل يده .

قال لافريتسكي :

– مرحبا ، مرحبا ، يا اخ . أليس اسمك انتون ؟ اما تزال حيا ؟

انحنى العجوز له صامتا ، وهرع ليجلب المفاتيح . وبقي الحوذي ساكنا اثناء ذلك ، مائلا الى جنب ، محدقا في الباب الموصد . اما خادم لافريتسكي فقد بقي على وضعه المسرحي بعد ان قفز من العربة ، وقد القى احدى ذراعيه على مقعد الحوذي . جلب العجوز المفاتيح ، وتلوّى كالافعى ، دون اية ضرورة ، ورفع كوعيه عاليا ، وفتح الباب ، وتنحى ، وانحنى مرة اخرى الى الخصر .

وفكر لافريتسكي ، وهو يدخل الى رواق صغير : «ها انا في بيتي ، ها انا قد عدت» ، وخلال ذلك فُتحت صفاقات النوافذ ، واحدة اثر الاخرى صارفة مقرقعة ، ونفذ النور الى الحجرات الفارغة .

١٩

كان البيت الصغير ، الذي وصل اليه لافريتسكي ، وتوفيت فيه غلافيرا بيتروفنا قبل عامين ، قد بني في القرن الماضي من خشب الصنوبر المتين ، وكان يبدو في مظهره باليا ، ولكن في الامكان ان يظل قائما خمسين سنة اخرى او اكثر . طاف لافريتسكي في جميع الحجرات . فاثار ازعاج الذباب القديم الذاوي الكثير العدد الجامد المكسوة ظهوره بغبار ابيض تحت عوارض الابواب العليا وامر بفتح النوافذ كلها . ولم تكن قد فُتحت منذ وفاة غلافيرا بيتروفنا . كان كل ما في البيت قد بقي على حاله : الارائك البيض النحيلة القوائم في حجرة الضيوف ، وقد حكّت مفارشها الرمادية بلون الرصاص وخسِفت ، فهي تذكار حيّ لعهد القيصرة يكاترينا . وحجرة الضيوف ما تزال تضم مقعد ربة البيت الذي كان مفضلا لها بظهره العالي المستقيم ، وهي لم تتكئ عليه حتى في شيخوختها .

وعلى الجدار الرئيسي علقت صورة قديمة لاندريه لافريتسكي جد فيدور الاكبر . الوجه الداكن الاصفر لا يكاد يبرز من الخلفية المسودة والمعفرة قليلا . والعينان الصغيرتان الحاقدتان تنظران عابستين من تحت جفنين مرتخيين وكالمتورمين ، والشعر الاسود غير المبودر يرتفع خشنا فوق جبين ثقيل محفور . وعلى زاوية من الصورة تدلى اكليل من نبـات الخلود . قال انتون : «غلافيرا بيتروفنا نفسها ظفرت هذا الاكليل» . وفي غرفة النوم ارتفع سرير ضيق تحت ظلة من القماش المخطط القديم جدا ، ومن النـوع الفاخر ، وعلى الفراش تل من الوسائد الحائلة اللون ، ولحـاف بال . وعلى رأس السرير تدلت ايقونة تمثل تجلي مريم العذراء في الهيكل ، وهي نفس الايقونة التي لثمتها الآنسة العجوز بشفتيهـا الباردتين عندما احتضرت ، كانت تحتضر وحدها نسيا منسيا . وعند النافذة منضدة المغسلة من الخشب المرصوص ، بصفائحها النحاسية ومرآتها الصغيرة المعوجة ، بطلائها المسـود . وجنب غرفة النوم مصلّى وهو حجرة صغيرة ذات جدران عاريـة ، والايقونات في اطارها الثقيل موضوعة على الحائط في ركن ، وعلى الارض بساط محكوك مبقع ببقع الشمع . كانت غلافيرا بيتروفنا تركع عليها للصلاة . ذهب انتون مـع خادم لافريتسكي لفتح الاسطبل والسقيفة ، وظهرت في مكانه عجوز تكاد تكون في مثل سنه تعصبت بمنديل حتى حاجبيها ، كان رأسها يهتز ، وعيناها تنظران نظرات بليدة ، ولكنهما تعبران عن الجهد وتأصل العادة في الخدمة دون اخذ ورد ، وعن نوع من الاسف التبجيلي في الوقت ذاته ، لثمت يد لافريتسكي ، ووقفت عند الباب في انتظـار الاوامر . لم يتذكر لافريتسكي اسمها مهما حاول ، بل ولم يتذكر هل كان قد رآها من قبل . تبين انها تدعى ابراكسيا . قبل اربعين عاما اخرجتها غلافيرا بيتروفنا نفسها من بيت الضيعة ، وامرتها بأن تشتغل بتربية الدواجن . وعلى اية حال كانت قليلة الكلام ، وكأنها قد اخرفت ، وفي نظراتها تذلل . الى جانب هذين العجوزين وثلاثة صبيان منتفخي البطون في قمصان طويلة ، هم ابناء احفاد انتون ، كان يقيم في البيت فلاح مقطوع الذراع معفى من ضريبة القن ، كان يبهبه كالطيهوج ، ولم يكن قادرا على القيام بأي عمل ، فهو اقل نفعا من ذلك الكلب الهرم الذي حيّا بنباحه عودة لافريتسكي .

كان هذا الكلب قد ظل عشرة اعوام حبيس سلسلة ثقيلة كانت غلافيرا بيتروفنا قد امرت بشرائها له ، فهو لا يكاد يقوى على الحركة وجر ثقله . فرغ لافريتسكي من معاينة البيت ، فخرج الى الحديقة ، واحس بارتياح . كانت الحديقة نهبا للدعشاب الضارة ، والارقطيون ، والريباس ، وتوت العلّيق ، ولكنها كثيرة الافياء ، فيها العديد من اشجار الزيزفون المعمرة ، المهيبة بضخامتها ، وغرابة مواقع اغصانها . وكانت قد غُرست متقاربة جدا ، وشُذبت في زمن ما ، قبل حوالى مائة سنة . وكانت الحديقة تنتهي ببركة منوّرة صغيرة نمت فيها سيقان الأسل العالي الضارب الى الحمرة . وآثار حياة الانسان تذوي بسرعة شديدة ، والضيعة التي كانت تملكها غلافيرا بيتروفنا لم تلحق ان تقفر ، ولكنها كانت تبدو وكانها قد غطت في ذلك السبات الهادئ الذي يغط فيه كل شيء على الارض ، حين تخلو من جرثومة الناس اللغوب . وتجول فيدور ايفانيتش في القرية ايضا . كانت الريفيات ينظرن اليه من فوق عتبات بيوتهن ، موسدات خدودهن على ايديهن ، والفلاحون ينحنون اليه من بعيد ، والاطفال يركضون مبتعدين عنه ، والكلاب تنبح بدون اكتراث . واخيرا ، جاع ، ولكنه كان يتوقع خدمه وطبّاخه في المساء فقط ، والعربات محملة بالغذاء والمرسلة من لافريكي لم تصل بعد ، فاضطر ان يلجأ الى انتون . صدع انتون بالأمر حالا ، امسك دجاجة عجوزا ، وذبحها ، ونتف ريشها ، واستمرت ابراكسيا طويلا ، وهي تفركها وتنظفها وتشطفها كما تشطف البياضات ، واخيرا وضعتها في قدر . وحين سلقتها اخيرا ، فرش انتون المائدة وهيأها ، ووضع امام ادوات الطعام مملحة معدنية قائمة على ثلاثة ارجل اسودت قشرتها الفضية ، ودورقا مضلعا له سداد زجاجي مدور ، وعنق ضيق ، ثم ابلغ لافريتسكي بصوت مترنم ان المائدة جاهزة ، ووقف وراء مقعده لافا قبضته اليمنى بفوطة ، ناشرا رائحة قوية عتيقة مثل رائحة شجرة السرو . تناول لافريتسكي شيئا من الحساء ، وقرّب اليه الدجاجة . كان جلدها كله مغطى ببثرات كبيرة ، وعلى كل فخذ منها عرق سميك ، وكان للحمها طعم الخشب والقِلْي . وعندما فرغ من غدائه ، قال حبّذا لو اشرب شيئا من الشاي ، اذا . . . فقاطعه العجوز قائلا : «ساقدمه في الحال» . ووفى بوعده . عثر على قبضة من الشاي

ملفوفة في قطعة من الورق الاحمر واكتشف سماور يورور عجولا ، وإن كان صغيرا ، كما وجدت قطع صغيرة جدا من السكر ، وكانما قد تاكلها الذوبان . شرب لافريتسكي الشاي بقدح كبير يتذكره منذ الطفولة ، رُسمت عليه اوراق لعب ، وكان الضيوف وحدهم يشربون به ، وقد شرب به كالضيف . وصل الخدم عند المساء . لم يرغب لافريتسكي في النوم على سرير عمته ، فطلب ان يوضع له سرير في حجرة الطعام . اطفأ الشمعة ، وظل وقتا طويلا يحدق فيما حوله ، واستغرقته افكار غير مبهجة ، وراوده الشعور الذي يراود كل انسان يضطر الى ان ينام ، لأول مرة ، في مكان غير ماهول منذ زمن طويل . وخيل اليه ان الظلام الذي يحدق به من كل الجهات غير قادر على ان يألف الساكن الجديد ، وان جدران البيت ذاتها ترتبك . واخيرا ارسل زفرة ، وجذب الغطاء عليه ، وغفا . بقي انتون يقظا اكثر من الآخرين جميعا . تهامس مع ابراكسيا وقتا طويلا ، وتأوه بصوت خافت ، ورسم علامة الصليب مرتين . كان كلاهما لا يتوقع ان يقيم السيد عندهما ، في فاسيليفسكويه ، وهو الذي يملك على مقربة دانية ، ضيعة رائعة ، فيها بيت حسن البناء . ولم يخطر ببالهما ان هذا البيت ، بحد ذاته ، كريه الى نفس لافريتسكي ، فقد كان يثير فيه ذكريات مضنية . بث انتون كل ما في صدره من همسات ، وتناول عصاه ، وضرب اللوحة المعلقة عند الشونة ، وقد ظلت ساكنة منذ زمن بعيد ، واضطجع في الفناء حالا ، دون ان يغطي رأسه الاشيب بشيء . كانت ليلة ايار هذه هادئة وناعمة ، وغط العجوز بنوم لذيذ .

٢٠

في اليوم التالي استيقظ لافريتسكي في ساعة مبكرة جدا من الصباح ، وتحدث مع الوكيل ، وقضى بعض الوقت في سقيفة الدريس ، وامر بفك السلسلة عن الكلب ، ولكن الكلب نبح قليلا حتى دون ان يبتعد عن كشكه ، وعاد لافريتسكي الى البيت ، وغرق في جمود وديع لم يفق منه اليوم كله . قال لنفسه غير مرة : «ها

انا قد بلغت قاع النهر» . كان جالسا عند النافذة ، جامدا لا يريم ، وكانما يتسمع الى تيار الحياة الهادئة التي كانت تحيط به ، والى الاصوات النادرة للريف النائي . هناك وراء القرّاص كان شخص يغني بصوت نحيل جدا ، ويبدو وكأن بعوضة تردد غناءه . كف الصوت عن الغناء ، ولكن البعوضة مضت تطن ، ومن خلال طنين الذباب الموحّد ، الشاكي بالحاح ، تردد ازيز نحلة ممتلئة ، كانت تضرب راسها في السقف ، من حين لآخر . وصاح ديك في الشارع ، ممدأ الرنة الاخيرة من صوته ببُحة ، وكركبت عجلات عربة ، وصرّت ابواب بيوت في القرية . وفجأة اهتزت نبرات صوت نسائي «ماذا ؟» ، ويقول انتون لطفلة في الثانية كان يهدهدها بين يديه «اوه ، ياسيدتي الصغيرة» . فيقول الصوت النسائي نفسه «اجلب لنا شيئا من الكفاس» . وفجأة يهبط صمت كصمت القبور ، فلا صوت ولا نامة ، ولا ورقة تخفق في الريح على شجرة ، والخطاطيف تنطلق واحدا وراء الآخر فوق ظهر الارض دون ان تصدر صيحة ، فيغمر الحزن النفس من طيرانها الصامت . ويعود لافريتسكي يفكر من جديد : «ها انا على قاع النهر بالذات . الحياة هنا دائما وفي كل الاوقات هادئة وغير متعجلة . لابد لمن يدخل في دائرتها ان يستسلم لها . لا شيء يجعلك تقلق هنا ، ولا شيء تعكر صفوه . هنا لا يفلح إلا من يشق دربه بلا عجل ، كما يشق الحارث اخدودا بمحراثه . ثم اية قوة تحيط بك ، واية عافية في هذا السكون الذي لا نشاط فيه ! هنا ، تحت النافذة تطل نبتة ارقطيون سميكة من العشب الكثيف ، ويمد الحوذان نصله الريّان فوقه ، والى الاعلى منه ينشر الصعتر خصلاته الوردية ، والى ابعد من ذلك ، في الحقول هناك ، يتوهج الجودار ، والشوفان قد انتصب ، وكل ورقة على كل شجرة ، وكل عشب على اي نصل يفرد نفسه بكل ما له من سعة . ويمضي لافريتسكي مفكرا : انقضت احسن سني حياتي في حب المراة ، فلتعدني الوحشة هنا الى رشدي ، ولتبث الهدوء في نفسي ، وتهيئني ايضا الى القدرة على اداء عملي دون تسرع» . ثم عاد ينصت الى السكون من جديد ، دون ان يتوقع شيئا ، وفي نفس الوقت كمن يتوقع شيئا باستمرار . والسكون يشمله من كل جانب ، والشمس تنساب في السماء الزرقاء هادئة ، والغيوم تسبح فيها هادئة فيخيل للمرء

انها تعرف لماذا والى اين تسير . وفي هذا الوقت ذاته كانت الحياة تمور في بقاع اخرى من الارض ، وتنطلق عجلى ، وتهدر . بينما الحياة هنا تجري غير مسموعة ، كما يجري الماء بين اعشاب المستنقع ، وبقي لافريتسكي حتى المساء غير قادر على ان يصرف نفسه عن التامل في هذه الحياة الراحلة السائرة ، وذاب التفجع على الماضي في نفسه ، كما يذوب الثلج في الربيع . ثم يا للغرابة ! — لم يكن الاحساس بالوطن في اي وقت مضى عميقا وقويا في نفسه ، كما هو الآن .

٢١

في غضون اسبوعين رتّب فيدور ايفانيتش بيت غلافيرا بيتروفنا الصغير ، ونظّف الفناء ، والحديقة ، وجاءه من لافريكي اثاث مريح ، ومن المدينة الخمرة والكتب ، والمجلات ، وصار الاسطبل عامرا بالخيول . وباختصار تزوّد فيدور ايفانيتش بكل ما هو لازم ، وبدأ يعيش ما بين عيشة صاحب اراض وناسك . كانت ايامه تمضي رتيبة ، ولكنه لم يضجر ، رغم انه لم يكن يرى احدا . راح يزاول شؤون ضيعته بدأب واهتمام ، ويطوف في النواحي على حصانه ، ويقرأ . وعلى اية حال ، لم يكن يقرأ كثيرا . كان اكثر متعة له ان يصغي الى قصص العجوز انتون . كان لافريتسكي ، في العادة ، يجلس الى النافذة ، ومعه غليونه ، وقدح من الشاي البارد . ويتوقف انتون عند الباب ، واضعا يديه وراء ظهره ، ويشرع بقصصه المتمهلة عن العصور الخوالي ، عن تلك العهود الخرافية ، حين كان الشوفان والجودار لا يباعان بالوزن ، بل باكياس كبيرة ، وكل كيس بكوبيكين او ثلاثة كوبيكات ، وحين كانت الغابات المنيعة والسهوب العذراء تمتد في كل الجهات ، وحتى على مقربة من المدينة . وكان العجوز الذي اربا على الثمانين يقول متشكيا : «اما الآن ، فقد قطعوا الاشجار في كل مكان ، وحرثوا كل قطعة من الارض ، حتى لا مجال لك لأن تمر بعربتك او حصانك» . كما كان انتون يتحدث كثيرا عن سيدته غلافيرا بيتروفنا ، عن حصافتها الكبيرة ، واقتصادها الشديد ،

وكيف ان احد السادة ، وهو شاب جار لها ، كان يتودد لهـــا ، ويكثر من زياراته لها ، وكيف انها كانت تتلطف معه ، وتلبس قلنسوتها ذات الاشرطة القرمزية اللون التي تلبسها في الاعياد وثوبها الاصفر الافرنجي ، ولكنها فيما بعد غضبت على السيد ، حين وجه اليها سؤالا غير لائق ، اذ قال لها : «يعني لا بد ان يكون لك راس مال ، ياحضرة السيدة ؟» وامرت بان لايستقبل في البيت ، كما امرت بان يرث فيدور ايفانيتش ، بعد وفاتها ، كل شيء دون استثناء . وبالفعل ، وجد لافريتسكي كل حاجيات عمته المنزليـــة كاملة ، حتى القلنسوة ذات الاشرطة القرمزية التي كانت تلبسها في الاعياد ، وثوبها الاصفر الافرنجي . الا انه لم يعثر على اية واحدة من الاوراق القديمة والوثائق المهمة التي كان يعول عليها ، ما عدا كراسة مهلهلة كتب فيها جده بيتر اندرييتش في احد المواضيـــع «الاحتفال في مدينة سانت بطرسبورغ بالصلح الذي عقده مـــع الامبراطورية التركية صاحب السمو الامير الكسندر الكسندروفيتش بروزوروفسكي» ، وفي موضع آخر وصفة لبخة النباتات الطبية عن ضيق الصدر مع هذه الملاحظة : «هذه التعليمات اعطيت لزوجـــة الجنرال براسكوفيا فيدوروفنـــا سالتيكوفـــا من قبل فيدور افكسنتيفيتش رئيس قساوسة كنيسة الثالوث المقدس» ، وفي موضع ثالث سُجّل خبر سياسي من هذا النوع : «النمور الفرنسية لا ذكرها الآن» ، ومن هذا النوع ايضا : «نشرت موسكوفسكييه فيدوموستي ان السيد المقدم ميخائيل بيتروفيتش كولتشيف قد وافاه الأجل . هل هو ابن بيتر فاسيليتش كولتشيف ؟» كما وجد لافريتسكي ايضا بعض التقاويم القديمـــة وكتب تفسير الاحلام ومؤلفا غامضا للسيد امبوديك . ثم ان الكتاب المنسي منذ زمان . والاليف له «الرموز والشعارات» اثار فيه ذكريات كثيرة . وجد لافريتسكي في منضدة الزينة الخاصة لغلافيرا بيتروفنا ظرفا صغيرا مشدودا بشريط اسود ، ومبقعا بشمع الاختام الاسود ، ومحشورا في اعماق جارور ، يضم صورتين وضعتا وجها لوجه ، احداهمـــا مرسومة بالباستيل لأبيه ، في شبابه ، بخصلات شعره الناعمة المنثورة على جبينه ، وبعينيه المخمليتين الداكنتين ، وفمه المفتوح قليلا ، وصورة اخرى ممسوحة تقريبا لإمراة شاحبة في ثوب ابيض تحمل وردة صغيرة بيضاء ، هي صورة امه . اما غلافيرا بيتروفنا

فلم تكن تسمح قط بان ترسم لها صـــورة . كان انتون يقول للافريتسكي : «انا ، يا سيدي فيدور ايفانيتش ، اتذكر جدك الاكبر اندريه افانسيفيتش ، رغم انني لم اعش حينذاك في بيتكم ، اتذكره بالطبع ، حين توفي كنت في الثامنة عشرة . مرة التقيت به في الحديقة ، فارتعدت فرائصي ، ولكنـــه لم يعترض عليّ ، بل سألني عن اسمي ، وارسلني الى حجرتـــه ، لأجلب له منديل جيب . كان سيدا كلمته فعل ، وليس له مَنْ يعلو عليه ، لانه كان يملك ، اذا سمحت ان اقول لك ، حرزا ميمونا اهداه له راهب من جبل آفون . وقد قال له هذا الراهب : «اياه اهديه لك لكرمك وحسن ضيافتك ، ايها الوجيه . فاحمله ، ولا تخف حكما» . مثل هذه الازمان كانت ، يا مولاي : ما كان يشتهيه السيد يفعله . واحيانا كان يعن لبعض الناس ، وحتى من السادة ، ان يخالفه ، فيقول له الجد جملته المحبوبة : «هذا اكثر من قدرك» . وكان جدك الاكبر ، رحمه الله ، يعيش في بيت خشبي صغير ، ولكنه خلّف فضة وسراديب مملوءة كلها بمختلف متاع الدنيا . كان حسن التدبير . وهذا الدورق الذي تفضلت فامتدحته ، من حاجياتـــه ايضا . كان يشرب منه الفودكا . اما جدك ، بيتر اندرييفتش ، فقد بنى له مسكنا من الحجارة ، ولكنه لم يجمع ثروة . وصادفه خسران في كل شيء ، فعاش اسوا عيشة من ابيه ، ولم يبح لنفسه اية متعة ، الا انه بذّر كل فلوسه ، ولم يخلف شيئا يذكر به ، حتى ولا ملعقة فضية . والفضـــل في كل ما بقي يعود الى حرص غلافيرا بيتروفنا وعنايتها» .

قاطعه لافريتسكي :

— أحقا كانوا يسمونها «باللئيمة العجوز» ؟

ردّ انتون في غير رضى :

— ولكن مَنْ كان يسميها بهذا !

وذات مرة عزم العجوز ان يسأله :

— والسيدة حرمك ، اين تقيم ، لو سمحت ان اسأل ؟

قال لافريتسكي بمجاهدة :

— طلقت زوجتي . ارجوك لا تسأل عنها .

قال العجوز حزينا :

— سمعا .

وبعد انقضاء ثلاثة اسابيع ركب لافريتسكي فرسه ، وذهب الى آل كاليتين في و . . . ، وقضى المساء عندهم . كان ليم هناك ، وقد راق للافريتسكي كثيرا . ورغم ان لافريتسكي ، بمشيئة ابيه ، لم يكن يعزف على اية آلة موسيقية ، فقد كان يغرم بالموسيقى ، الموسيقى الحقيقية ، الكلاسيكية . ولم يكن بانشين موجودا في بيت كاليتين في ذلك المساء . فقد بعثه الحاكم الى مكان خارج المدينة . وعزفت ليزا لوحدها ، وبصفاء كبير . وسُرّ ليم ، واستخفه الطرب ، فلفّ ورقة على شكل عصا وراح يدير العزف كقائد فرقة موسيقية . في البداية ضحكت ماريا دميترييفنا ، وهي تنظر اليه ، ثم ذهبت لتنام . فقد كان بيتهوفن ، حسب قولها ، يثير اعصابها كثيرا . وفي منتصف الليل رافق لافريتسكي ليم الى مسكنه ، وجلس عنده حتى الساعة الثالثة صباحا . تحدث ليم كثيرا ، وزال تقوس ظهره ، واتسعت عيناه ، والتمعتا . وحتى شعره انتصب فوق جبينه . فمنذ زمن بعيد لم يهتم به احد ، بينما كان لافريتسكي مهتما به ، كما يظهر ، ويسأله بحنو وانتباه . وقد تأثر العجوز بذلك ، فانتهى الامر به الى ان يعرض لضيفه موسيقاه ، وعزف بل وغنى بصوت لا حياة فيه بعض المقتطفات من مؤلفاته ، بما في ذلك ، انشودة كاملة وضعها لاشعار شيلر بعنوان «فريدولين» (٥٩) . اثنى لافريتسكي عليه ، وجعله يعيد بعض المقطوعات ، ولدى انصرافه ، دعاه الى ان ينزل في ضيافته عدة ايام . صاحبه ليم حتى الشارع ، وقَبِل دعوته على الفور ، وشدّ على يده بقوة ، ولكنه ، حين بقي وحيدا في الهواء الطلق الرطب ، في الفجر الذي طرّ لتوه ، تلفت فيما حوله ، وقلّص عينيه ، وانكمش ، وانسل الى حجرته كالمذنب ، وغمغم مع نفسه بالالمانية ، وهو يستلقى على فراشه الصلب القصير : «انا لست في كامل قواي العقلية !» وعندما جاء لافريتسكي اليه بعربته ، بعد بضعة ايام ، ليأخذه الى ضيعته ، حاول ان يتمارض ، ولكن لافريتسكي دخل عليه حجرته ، واقنعه بالذهاب . وكان اكثر ما تأثر له ليم هو ان لافريتسكي أمر بأن يجلب بيانو من المدينة الى قريته خصيصا له . ذهب الاثنان الى بيت كاليتين ، وقضيا المساء مع اهله ، ولكن ليس بمثل متعة المساء السابق . فقد كان بانشين حاضرا ، وقد تحدث كثيرا عن سفرته ، وراح يقلّد

بشكل فكه ويمثل اصحاب الاراضي الذين رآهم . ضحك لافريتسكي ولكن ليم التزم ركنه ، وصمت ، وراح يهتز بكليته في هدوء كالعنكبوت ، وينظر بتجهم وبلاهة ، ولم ينتعش إلا حين اخذ لافريتسكي يستأذن بالانصراف . وحتى حين جلس العجوز في العربة ظل متحوطا منكمشا ، إلا ان الهواء الهادئ الدافئ ، والنسمة الخفيفة ، والظلال الرقيقة ، ورائحة العشب وبراعم البتولا ، والألق الوادع لليل المنجم وغير القمري ، والكركبة المتناسقة وصهيل الخيول ، — كل مفاتن الطريق والربيع والليل ، انسكبت في قلب الالماني المسكين ، فشرع هو يبادر لافريتسكي الحديث .

٢٢

شرع يتحدث عن الموسيقى ، عن ليزا ، ثم عن الموسيقى مرة اخرى . وكان حين يتكلم عن ليزا ، كان يبدو وكأنه ينطق بالكلمات ابطأ . ساق لافريتسكي الحديث عن مؤلفاته الموسيقية ، واقترح عليه ، في شبه مزاح ، ان يضع نص اوبرا له .

فاعترض ليم قائلا :

— حم ، نص اوبرا ! لا ، هذا فوق طاقتي . اذ ليست لي تلك الحيوية ، ذلك الدفق الخيالي الضروري للاوبرا . استنفدت قواي الآن . . . ولكن لو تسنى لي ان اصنع شيئا ما ، لرضيت بالرومانس . بالطبع حبّذا لو كانت لديّ كلمات جيدة . . .

وصمت ، وظل وقتا طويلا بلا حراك ، رافعا بصره الى السماء . واخيرا تابع قوله :

— شيء من هذا القبيل : ايتها النجوم ، ايه ، ايتها النجوم النقية ! . .

ادار لافريتسكي وجهه اليه قليلا ، وراح يحدق فيه . فعاد ليم يكرر كلماته :

— ايتها النجوم ، ايه ، ايتها النجوم النقية . انتِ تطلين على الصالحين والطالحين على حد سواء . . . ولكن اطهار القلوب وحدهم ، او شيء من هذا القبيل . . وحدهم يفهمونك ، او لا ،

وحدهم يحبونك . على اية حال ، لست شاعرا ، فأين الشعر مني ! ولكن شيء من هذا القبيل شيء سام . . .

ازاح ليم القبعة الى مؤخرة رأسه ، وبدا وجهه في غسق الليلة المضيئة الرقيق اكثر شحوبا وصبا .

ومضى يقول وصوته يخفت تدريجيا :

— وانت ايضا ، انت تعرفين مَنْ يحب ، مَنْ القادر على الحب ، لانك طاهرة ، انت وحدك تهبين العزاء . . . كلا ، ليس هذا هو المطلوب ! انا لست شاعرا — تمتم قائلا — ولكن شيء من هذا القبيل . . .

قال لافريتسكي :

— يؤسفني انني لست شاعرا ايضا .

— احلام فارغة !

قال ليم ، وتراجع الى ركن العربة . واغمض عينيه ، وكأنه يريد ان يصيب غفوة .

مرت بضع لحظات . . . ارهف لافريتسكي سمعه . . . كان العجوز يهمس : «النجوم ، النجوم النقية ، الحب» .

كرر لافريتسكي في سره «الحب» وغرق في افكاره — صار يشعر بثقل في قلبه . ثم قال بصوت مسموع :

— انت وضعت موسيقى رائعة لـ«فريدولين» ، يا خريستوفر فيدوريتش . ما رأيك ، هل صار فريدولين عشيق زوجة الكونت ، فورا بعد ان قدمه هذا لزوجته ؟

قال ليم :

— تظن ذلك ، وربما لأنك من تجربة . . . — وصمت فجأة ، واشاح بوجهه عن لافريتسكي في ارتباك . ضحك لافريتسكي بتكلف ، واشاح وجهه ايضا ، وصار ينظر الى الطريق .

عندما وصلت العربة الى مدخل البيت الصغير في فاسيليفسكويه كانت النجوم قد بهتت ، وصارت السماء رمادية . قاد لافريتسكي ضيفه الى الحجرة التي خصصت له ، وعاد الى غرفة مكتبه ، وجلس امام النافذة . في الحديقة كان العندليب يغني اغنيته الاخيرة ، اغنية قبيل الفجر . وتذكر لافريتسكي ان عندليبا غنى ايضا في حديقة آل كاليتين ، كما تذكر الحركة الخفيفة في عيني ليزا ، حين استدارتا نحو النافذة المعتمة ، لدى سماعها رنانته الاولى . وصار

يفكر فيها ، وهدأ قلبه . قال بصوت خافض : «فتاة نقية» ثم اضاف مبتسما «نجوم نقية» واستلقى مطمئنا لينام .

اما ليم فقد جلس على سريره ، وكراسة النوطات على ركبتيه . وخيل اليه ان نغما حلوا غير اعتيادي يهوّم ليطل عليه . كان يتوهج ، ويضطرب ، وكان يشعر بالاسترخاء والعذوبة في اقتراب النغم . . . ولكن لم ينتظر إطلالته . . .

واخيرا همس :

— لست شاعرا ولا موسيقيا ! . .

وانهبد رأسه المتعب ثقيلا على الوسادة .

٢٣

في صباح اليوم التالي كان المضيّف والضيف يشربان الشاي تحت شجرة زيزفون معمرة في الحديقة .

وقال لافريتسكي عرضا :

— مايسترو ! سيتعيّن عليك ان تؤلف قريبا كانتاتة احتفالية .

— بأية مناسبة ؟

— بمناسبة زواج السيد بانشين من ليزا . هل لاحظت كيف كان البارحة يحيطها برعايته ؟ يظهر ان كل شيء بينهما يسير على ما يرام .

هتف ليم :

— هذا لن يكون !

— لماذا ؟

— لأن ذلك غير ممكن . وعلى اية حال — اضاف بعد تمهل قصير — كل شيء ممكن في الدنيا . لا سيما ، عندكم ، هنا ، في روسيا .

— لنترك روسيا الآن جانبا . ولكن اي ضير ترى في هذا الزواج ؟

— كل الضير ، كل الضير . ليزافيتا ميخايلوفنا مستقيمة ،

وجدية ، ذات مشاعر متسامية ، بينما هو . . . انه ، باختصار ، متفيهق .

– ولكنها تحبه ؟

نهض ليم من المقعد .

– كلا ، لا تحبه ، اقصد انها نقية القلب جدا ، وهي نفسها لا تعرف معنى ان تحب . مدام فون كاليتين تقول لها انه شاب جيد ، وهي تسمع كلام مدام فون كاليتين ، لأنها ما تزال طفلة تماما ، ولو انها في التاسعة عشرة . تصلي في الصباح والمساء ، وهذا شيء محمود جدا ، ولكنها لا تحبه . انها تحب ما هو جميل ، وليس هو بالجميل ، اقصد ليس طيب النفس .

نطق ليم بكل هذا الكلام في اتساق وحماس ، وهو يروح ويجيء امام مائدة الشاي بخطوات قصيرة ، مجيلا عينيه في الارض .

صاح لافريتسكي بغتة :

– ايها المايسترو العزيز ! يبدو لي انك نفسك تعشق ابنة عمي .

توقف ليم فجأة ، وقال بصوت مهزوز :

– ارجوك لا تهزل معي بهذا الشكل . لست مجنونا . انا على شفا القبر ، ولست على حافة مستقبل زاهر .

اشفق لافريتسكي على العجوز ، اعتذر له . وبعد الشاي عزف ليم له كانتاته ، وعلى مائدة الغداء استثاره لافريتسكي نفسه ، فعاد العجوز يتحدث عن ليزا . واصغى لافريتسكي اليه باهتمام وفضول .

واخيرا قال لافريتسكي :

– ما رايك ، ياخريستوفور فيدوريتش في ان ادعوها مع امها وعمتي العجوز لقضاء يوم هنا ؟ فكل شيء قد رتب في بيتنا ، والحديقة في تمام الازدهار . . . الا يطيب لك ذلك ؟

احنى ليم راسه فوق صحنه ، وغمغم بصوت لا يكاد يسمع :

– ادعهن .

– ولا حاجة الى ان ادعو بانشين ايضا ؟

– لا حاجة .

ردّ العجوز بابتسامة تكاد تكون طفولية .

وبعد يومين توجه فيدور ايفانيتش الى آل كاليتين في المدينة .

٢٤

وجدهم جميعا في البيت ، ولكنه لم يعلن دعوته راسا . كان يريد اولا ان يتحدث الى ليزا على انفراد . واتته المصادفة . فقد تُركا وحيدين في حجرة الجلوس فاخذا يتحدثان ، وكانت قد الفته ، ثم انها على العموم لا تنكمش من احد . كان يستمع اليها ، محدقا في وجهها ، مسترجعا في ذهنه كلمات ليم ، ومتفقا معه . يحدث احيانا ان شخصين متعارفين ، ولكن احدهما ليس قريبا من الآخر ، يتقاربان فجأة وبسرعة ، وخلال لحظات ، فينعكس الاحساس بهذا التقارب في الحال ، على نظراتهما ، وعلى ابتساماتهما الودية الهادئة ، وحتى على حركاتهما . وقد حدث هذا بالذات مع لافريتسكي وليزا . فكرت هي ، وهي تنظر اليه برقة «هكذا هو ، اذن» وفكر هو «هكذا انت ، اذن» . ولهذا لم يندهش كثيرا ، حين ابلغته ، وليس بدون تلعثم قليل ، على اية حال ، ان في قلبها ، منذ زمان طويل ، شيئا تريد ان تفضي به اليه ، ولكنها تخشى ان يغضب .

قال وتوقف امامها :

– قولي ، ولا تخافي .

رفعت ليزا اليه عينيها الصافيتين . وشرعت تقول :

– انت على هذا القدر من الطيبة . – وفكرت في سرها في الوقت ذاته «نعم ، انه طيب حقا» . . . – وارجو ان تعذرني ، ما كان يجدر بي ان اجسر على التحدث اليك عن هذا . . . ولكن ، كيف استطعت . . . لأي سبب انفصلت عن زوجتك ؟

جفل لافريتسكي ، ونظر الى ليزا ، وجلس على مقربة منها . وانشأ يقول :

– يا طفلتي ، لا تمسي هذا الجرح ، ارجوك ، ان يديك رقيقتان ، ومع ذلك فسأتألم .

– انا اعرف – تابعت ليزا كلامها ، وكأنها لم تسمعه .

– انها مذنبة ازاءك ، ولا اريد ان ابرئ ساحتها ، ولكن كيف يمكن ان يُفرَّق ما جمعه الله ؟

قال لافريتسكي بحدة ظاهرة :

– رايانا في هذا الخصوص مختلفان تماما ، يا ليزافيتا ميخايلوفنا . لن يفهم احدنا الآخر .

شحبت ليزا ، وارتعش جسدها كله ارتعاشا خفيفا ، ولكنها لم تركن الى الصمت . قالت بصوت خافت :

– يجب ان تسامح ، اذا كنت تريد ان يسامحك الآخرون .

فبادر لافريتسكي يقول :

– اسامح ! كان الاحرى بك اولا ان تعرفي مَنْ التي تشفعين لها ؟ اسامح هذه المرأة ، واقبلها في بيتي من جديد ، اقبل تلك المخلوقة الفارغة المعدومة القلب ! ثم مَنْ قال لك انها تريد العودة اليّ ؟ ثقي انها راضية بوضعها تماما . . . وما الفائدة في الكلام عن هذا ؟! ما كان حريا بك ان تنطقي باسمها . انت نقية جدا ، بل ليس في ميسورك حتى ان تفهمي هذه المخلوقة .

– لا حاجة الى الاهانة ! – قالت ليزا بمجاهدة ، وصار ارتعاش يديها ملحوظا . – انت الذي تركتها ، يا فيدور ايفانيتش .

فقال في سورة لاارادية من نفاد الصبر :

– ولكني اقول لك إنك لا تعرفين اي مخلوق هي .

فهمست ليزا :

– لماذا تزوجتها ، اذن ؟

وغضّت بصرها . نهض لافريتسكي من المقعد بسرعة :

– لماذا تزوجتها ؟ كنت شابا آنذاك وبلا تجربة . اخطات ، وتعلقت بجمال المظهر . لم اكن اعرف النساء ، لم اكن اعرف اي شيء . ادعو الله ان يوفقك بزواج اسعد حظا ! ولكن صدقيني ليس هناك اية ضمانة لذلك .

– يعني يمكن ان اكون سيئة الحظ ، ايضا . – قالت ليزا (واخذ صوتها يتهدج على الفور) – ولكن ، عندئذ ، يجب ان ارضخ لقدري . انا لا اعرف كيف اتكلم ، ولكن اذا لم نرضخ لقدرنا . . .

عصر لافريتسكي يديه ، وضرب الارض بقدمه . فاسرعت ليزا تقول :

– لا تزعل ، واعذرني .

وفي تلك اللحظة دخلت ماريا دميترييفنا . نهضت ليزا ، وارادت ان تنصرف .

– انتظري قليلا . – هتف لافريتسكي في اثرها بشكل مباغت . – عندي رجاء شديد لأمك ولك : ان تزوراني لتدشين

مسكني الجديد . لقد اقتنيت بيانو ، لعلمكما . وليم في ضيافتي الآن ، والليلق يزدهر في الحديقة ، ستستنشقان هواء الريف قليلا ، ويمكنكما ان تعودا في نفس اليوم . هل انتما موافقتان ؟

نظرت ليزا الى امها ، بينما اتخذت ماريا دميترييفنا مظهر العليل ، ولكن لافريتسكي لم يدعها تفتح فمها ، فاسرع في تقبيل كلتا يديها . وماريا دميترييفنا تتأثر دائما بالحنان ، ولم تنتظر قط مثل هذه الملاطفة من «الجلف» ، فرقّ قلبها ، وقبلت الدعوة . وبينما كانت تفكر في اليوم الذي تحدده للزيارة ، تقدم لافريتسكي من ليزا ، واسرّ لها خلسة ، وهو ما يزال منفعلا بكليته : «شكرا ، انت فتاة طيبة . انا المذنب . . .» فتألق وجهها الشاحب بابتسامة مرحة خجول . كما ابتسمت عيناها ايضا ، فقد كانت حتى هذه اللحظة تخشى ان تكون قد اهانته .

سألت ماريا دميترييفنا :

– هل يمكن ان يأتي فلاديمير نيقولايتش معنا ؟

قال لافريتسكي :

– بالطبع . ولكن الا يكون من الافضل ان نكون في محيطنا العائلي ؟

– ولكن ، اظن . . . – شرعت ماريا دميترييفنا تقول ، الا انها اضافت – على العموم ، كيفما تشاء .

وتقرر ان يأخذوا معهم لينوتشكا وشوروتشكا . وامتنعت مارفا تيموفييفنا عن الذهاب ، قائلة :

– صعب عليّ ، يانور عيني . ستئن عليّ عظامي الشائخة . كما لا اظن ان في بيتك مكانا لقضاء الليل ، بالاضافة الى انني لا استطيع ان انام في فراش غير فراشي . فليمرح الشباب وحدهم .

ولم تحن اية فرصة اخرى للافريتسكي للاختلاء بليزا . ولكنه كان يرمقها رمقات كانت ترتاح اليها ، وتخجل بعض الشيء ، وتشفق عليه . ولمّا ودّعها شدّ على يدها بقوة . وانغمرت في افكارها ، حين بقيت وحيدة .

٢٥

عندما عاد لافريتسكي الى بيته التقاه على عتبة حجرة الجلوس رجل طويل نحيل في سترة فراك زرقـــاء مستهلكة ، له وجه بادي الحيوية ، وان كان متغضنا ، وقذالان اشيبان اشعثان ، وانـــف مستقيم طويل ، وعينــــان صغيرتان ملتهبتان . انه ميخاليفيتش ، زميله السابق في الجامعة . في بادئ الامر لم يتعرف لافريتسكي عليه ، ولكن حالما سمّى ميخاليفيتش اسمه ، حتى عانقـــــه لافريتسكي عناقا حارا . ولم يكونا قـــــد التقيا منذ وجودهما في موسكو . وانثالت الذكريات والاستفسارات ، وبُعثـــت ذكريات كانت منسية منذ زمان . وشرع ميخاليفيتش يقص على لافريتسكي اوضاعه وهو يذرع الحجرة ، مدخنـــا ، على عجل ، غليونا وراء غليون ، محتسيا في كل مرة جرعة من الشاي ، مشمرًا ذراعيـــه الطويلتين . ولم يكن فيها ما يفـــــرح كثيرا ، وما في مقدوره ان يتباهى بالتوفيق في مشاريعه ، ولكنه ظل يضحـــك دون انقطاع ضحكته القوية العصبية . قبل شهر حصل على عمل في مكتب خاص لمحصل ضرائب على بعد حوالى ثلثمائة فرسخ من مدينة و . . . وحين علم بعودة لافريتسكي من الخارج ، عرّج عن طريقه ليلتقي صاحبه القديم . كان ميخاليفيتش يتكلــــم باندفاع ، كما كان في صباه ، ويضج ويغلي ، كما من قبــــل . المح لافريتسكي عـــن ظروفه ، ولكن ميخاليفيتش قاطعه ، وقد اسرع يقول : «سمعت ، يا اخ ، سمعت . ولكن من كان في وسعه ان يتوقع ذلك ؟» وحوّل الحديث فورا الى حقل المواضيع العامة . وتابع يقول :

– يجب عليّ ، يـــا اخ ، ان اسافر غدا . واليوم سنسهر الى ساعة متأخرة من الليل ، وارجو المعذرة . اودّ اليوم ان اعرف حتما ماذا وراءك ، وما هي آراؤك ومعتقداتك ، وماذا صرت ، وماذا علمتك الحياة (ما يزال ميخاليفيتش متمسكا بعبارات الثلاثينيات) . اما انا فقد تغيرت في اشياء كثيرة ، يا اخ ، تساقطت امواج الحياة على صدري – مَنْ قال هذا التعبير ؟ راح من بالي – رغم انني لم اتغير في الاشياء الجوهرية المهمة . فانا ما ازال ، كالسابق ، اؤمن بالخير ، وبالحقيقة ، ولست اؤمن فقط ، بل اؤمن ثلاثة اضعاف الآن . اسمع ، انت تعرف انني انظم القريض ، الذي ليس فيه شعر ،

بل حقيقة . وساقرأ لك آخر منظومة لي . وقد عبّرت فيهـــا عن اصدق معتقداتي والصقها بقلبي . فاسمع . – واخذ ميخايليفيتش يقرأ منظومته . وكانت طويلة جدا تنتهي بهذه الابيات :

استسلمت الى المشاعر الجديدة بكل قلبي
كالطفل ، صرت روحاً هائمة
إذ احرقت كل ما كنت اعبده ،
وعبدت كل ما احرقته

واوشك ميخاليفيتش ان يبكي ، حين نطق البيتين الاخيرين . سرت رعصات خفيفـــة – إمارة العاطفة القويـــــة – في شفتيه العريضتين ، وتنوّر وجهه العاطل عـــن الجمال . ظل لافريتسكي يصغي اليه ويصغي . . . تحركت فيـــه روح التناقض . فقد كان الحماس الجاهز دائما ، المّوار على الدوام ، يثيره في هذا الطالـــب من موسكو . وقبل ان يمر ربع ساعة حتى احتدم النقاش بينهما ، نقاش من تلك النقاشات التي لا تنتهي ، والتي لا يقـدر عليها إلا الروس . فهما اللذان انصرفا الى عالمين مختلفين تماما ، بعد الفراق مباشرة ، ولم يكونا يفهمان بوضوح افكار الآخرين ولا افكارهمـــا الخاصة ، ويتعلقان بالكلمات ، ويعترضان بالكلمات وحدها ، راحا يتجادلان في اكثر المواضيـــع تجريدا ، ويتجادلان وكأن الموضوع يتعلق بحياة او موت كليهما ، اذ راحا يتصايحان ، ويزعقان الى حد ان الذين كانوا في البيت ارتعبوا . اما ليم المسكين الذي اغلـــق عليه باب حجرته منذ مجيء ميخاليفيتش ، فقد احس بالحيرة ، بل وانتابه خوف غامض .

صاح ميخاليفيتش في الساعة الاولى بعد منتصف الليل :

– إذن ، ماذا صرتَ بعد هذا ؟ خائب الرجاء ؟

– وهل انا مثل هؤلاء حقا ؟ فإن خائبي الرجاء دائما شاحبون عليلون . هل تريد ان ارفعك بيد واحدة ؟

– طيب ، اذا لم تكن خائب الرجاء ، فكلبي ، وهذا اسوأ (وقد نطق «الكلبي» بلكنته الاوكرانيـــة) ولكن بأي حق تصير كلبيا ؟ لنفرض ان الحظ لم يسعدك في الحياة ، ولكن ليس هذا لذنـــب

اقترفته . لقد ولدت بروح مشبوبة عاشقة ،عزّبت عن النساء قسرا ، فطبيعي ان تخدعك اول امرأة تقع في حبها .

فقال لافريتسكي متجهما :

– وخدعتك ايضا .

– لنفرض ، لنفرض . لقد كنت انا ، في هذا الشان ، اداة بيد القدر . على اية حال ، لا داعي الى ان اكذب . ليس هناك قدر . انها عادة قديمة في التعبير غير الدقيق . ولكن ماذا يثبت ذلك ؟

– يثبت انني اصبت بمرض نفسي منذ الطفولة .

– جبّر نفسك ، إذن ! فانت انسان ، انت رجل . ولا تعوزك الطاقة لتستعيرها . ولكن مهما يكن من شيء ، فهل يمكن او يجوز فعلا ان يُبنى من حادثة شخصية ، اذا صح القول ، قانون عام ، قاعدة لا تنقض ؟

قاطعه لافريتسكي :

– اية قاعدة هنا ؟ انا لا اعترف . . .

قاطعه ميخاليفيتش بدوره :

– بل هذه قاعدتك ، قاعدتك .

وبعد ساعة كان يهدر :

– انت اناني ، هذا انت ! كنت ترغب في متعة ذاتية ، كنت تروم السعادة في الحياة ، كنت تريد ان تعيش لنفسك فقط . . .

– ما هي المتعة الذاتية ؟

– وخذلت في كل شيء ، وانهارت الارض تحت قدميك .

– اسألك ما هي المتعة الذاتية ؟

– لا بد انها انهارت ايضا . لأنك كنت تبحث عن دعائم ، في مكان يستحيل البحث عنها فيه ، لأنك بنيت بيتك على رمل رخو . . .

– تكلم بشكل اوضح ، بلا تشبيهات ، لانني لا افهمك .

– لأنك ، طيب ، اضحك – لأنك بلا ثقة في نفسك ، بلا دفء في قلبك . وعقلك ليس الا عقلا تافها . . . وانت لست إلا فولتيريا متأخرا يثير الرثاء . هذا هو انت !

– انا فولتيري ؟

– نعم ، انت كأبيك ، وانت نفسك لا تشك في ذلك .

صاح لافريتسكي :

– بعد هذا ، يحق لي ان اقول انت متعصب !

– وآ أسفاه ! – قال ميخاليفيتش باكتئاب . – من سوء حظي ، لا شيء يجعلني استحق هذه التسمية .

وفي الساعة الثالثة ليلا صاح ميخاليفيتش هذا :

– وجدت الآن تسمية لك – لست كلبيا ، ولا خائب الرجاء ، ولا فولتيريا . بل انت خامل ، وخامل حقود ، خامل عن وعي ، وليس خاملا عن سذاجة . الخاملون السذج ينطرحون على سطح الموقد الدافيء ، ولا يفعلون شيئا ، بينما انت رجل مفكر ، ولكنك تنطرح ولا تفعل شيئا ، بينما في امكانك ان تفعل شيئا ما ، تنطرح وكرشك الشبعان الى فوق ، وتقول : هذا ما ينبغي ، ان انطرح ، لأن كل ما يفعله الناس سخافة ، وتفاهة لا تؤدي الى نفع .

فاعترض لافريتسكي قائلا :

– ولكن من اين عرفت انني انطرح ؟ وما الذي يجعلك تتصور ان لي مثل هذه الافكار ؟

تابع ميخاليفيتش دون كلل :

– وفضلا عن ذلك ، فانتم جميعا ، جميع امثالك خاملون قارئون . تعرفون اين يكمن الضعف في الالمان ، وتعرفون الاشياء السيئة في الانجليز والفرنسيين ، ومعرفتكم الهزيلة تستخدم سندا يبرر كسلكم المخجل ، وتبطلكم البغيض . بل بعضكم يفخر بأنه ذكي ، لأنه يرقد بلا عمل ، والآخرون ، الحمقى ، يتحملون المتاعب . نعم ! اقصد يوجد بيننا مثل هؤلاء السادة – وعلى اية حال ، انا لست اعنيك في كلامي هذا . – يقضون حياتهم كلها في خدَر الضجر ، ويتعودون عليه ، ويرتخون فيه مثل . . . مثل الفطر في صلصة . – اقتنص ميخاليفيتش هذا التشبيه وضحك له . – آه ، ان خدَر الضجر هذا هو موت الروس ! ان هذا الخامل الكريه يظل طوال العام ينوي ان يفعل . . .

فزعق لافريتسكي بدوره :

– وما هذه الشتائم من جانبك ؟ يعمل . . . يفعل . . . الافضل ان تقول ما العمل ، بدلا من ان تشتم ، ياديموسفين البولتافي !

– اوه ، طلب كبير ! لا استطيع ان اقول لك ، ياأخ ، فان اي انسان يجب ان يعرف ذلك بنفسه . – اعترض ديموسفين في

سخرية . — صاحب اراض ، ونبيل ، ولا يعرف ما العمل . لا يوجد ايمان ، واذا لا يوجد ايمان ، لا توجد صراحة .

فتوسل اليه لافريتسكي قائلا :

— دعني استريح ، على الاقل ، اللعنة . دعني اعاين فيما حولي .

فاعترض ميخاليفيتش بحركة آمرة من يده :

— ولا دقيقة ، ولا ثانية ! الموت لا يتريث ، والحياة لا ينبغي ان تتريث .

وصاح في الساعة الرابعة صباحا ، ولكن بصوت قد بح بعض الشيء :

— ومتى واين فكر الناس بان يخملوا ؟ عندنا ! الآن ! في روسيا ! حين يقع على عاتق كل انسان واجب ، مسؤولية كبيرة امام الله ، امام الشعب ، امام نفسه ذاتها ! نحن نائمون ، والزمن يمضي ، نحن نائمون . . .

قال لافريتسكي :

— اسمح لي ان انبهك الى اننا غير نائمين الآن ، وبالاحرى ، لا ندع الآخرين ينامون . نحن ، كديكين ، نمزق حناجرنا بالصياح . انصت ذلك ديك ثالث يصيح .

اضحكت هذه اللفتة ميخاليفيتش وهدأته . قال بابتسامة : «الى الغد» وادخل الغليون في كيس التبغ . فكرر لافريتسكي «الى الغد» . ولكن الصديقين قضيا اكثر من ساعة اخرى في المحادثة . . . الا ان صوتيهما لم يرتفعا بعد ، وكلامهما كان هادئا ، حزينا طيبا .

سافر ميخاليفيتش في اليوم التالي ، رغم محاولات لافريتسكي لاقناعه بالبقاء ، ولكنه تحدث معه الى حد الشبع . تبين ان ميخاليفيتش لا يملك شيئا . وكان لافريتسكي قد لاحظ عليه ، منذ البارحة ، كل علائم وعادات الفقر المقيم . كان حذاؤه محكوكا مائلا وظهر سترته الفراك يفتقر الى زر مفقود ، ويداه لم تلمسا قفازات ، وفي شعره ريشة صغيرة . وعندما وصل لم يخطر في باله ان يستأذن بان يغتسل ، وفي العشاء أكل بنهم القرش المفترس ، ممزقا بيديه اللحم ، ويقرقش العظام بأسنانه السوداء القوية . وتبيّن ايضا ان الوظيفة لم تجلب له نفعا ، وان كل آماله كان

يعقدها على جابي الضرائب الذي استوظفه لسبب وحيد ، هو ان يكون في دائرته «رجل متعلم» . ومع كل ذلك لم ييأس ميخاليفيتش ، وبقي كلبيا ، مثاليا ، شاعرا ، يهتم عن اخلاص ، ويضنيه التفكير في مصائر الانسانية ، وفي رسالته في الحياة ، ولا يهتم الا قليلا جدا في احتمال ان يموت جوعا . لم يتزوج ميخاليفيتش ، ولكنه عشق بلا حساب ، ونظم الشعر في كل عشيقاته ، وتشبّب في هيام شديد ببولونية غامضة سوداء الشعر . . . حقا كانت هناك شائعات تزعم ان هذه البولونية يهودية بسيطة معروفة جيدا لكثير من الضباط الفرسان ، ولكن هل تتصوّر ان ذلك يعني شيئا له ؟

لم يلتق ميخاليفيتش بليم . ارعبت هذا الالماني خطابات ميخاليفيتش الصاخبة ، وطرائفه الحادة ، ولم يكن قد تعودها . . . فالتعيس يتشمم التعيس حالا ، وعند الشيخوخة نادرا ما يتصاحبان ، وهذا ليس عجيبا البتة . اذ ليس لهما ما يتبادلانه ، حتى الآمال .

وقبيل السفر تحادث ميخاليفيتش مع لافريتسكي وقتا طويلا ايضا ، وتنبأ له بالهلاك ، اذا لم يفق على نفسه ، وتوسل اليه ان يهتم جديا بمعيشة فلاحيه ، وجعل من نفسه مثلا يُحتذى ، قائلا انه طهر نفسه في خضم المصائب ، وهنا ايضا وصف نفسه ، عدة مرات ، بالانسان السعيد ، وشبه نفسه بطائر السماء ، بزنبقة الوادي . . .

فصوّب له لافريتسكي :

— بالزنبقة السوداء ، على اية حال . . .

فاعترض ميخاليفيتش بطيبة نفس :

— آه ، ياأخ ، لا تكن ارستقراطيا . والافضل ان تحمد الرب على ان في عروقك يجري دم العوام . ولكن احس بانك تحتاج الآن الى مخلوق نقي غير دينوي ، يخرجك من جمودك . . .

قال لافريتسكي :

— شكرا ، ياأخ . عندي الكفاية من هؤلاء المخلوقات غير الدينوية .

صاح ميخاليفيتش :

— اصمت ، ايها الكيلبي !

فصحح له لافريتسكي نطقه الاوكراني :

– الكلبي .

فكرر ميخاليفيتش دون ان يصغي :

– الكيلبي بالضبط .

وحتى حين اقلته المركبة مع حقيبته المسطحة الصفراء الخفيفة بشكل غريب ظل ماضيا في كلامه ، وانطلق ، وهو ملفوف بمطره الاسباني ذي الياقة المصفرّة ، والعروات الشبيهة ببراثن الاسد ينشر افكاره عن مستقبل روسيا ويبسط يده السمراء في الهواء ، وكانه يبذر بذور المستقبل الزاهر . واخيرا تحركت خيول العربة . وهتف ، وهو يطل بكل جسمه من العربة ، واقفا على ميزانها ، «تذكر كلماتي الثلاث الاخيرة : الدين ، التقدم ، الانسانية ! . . وداعا !» واختفى راسه بالطاقية المسدلة على عينيه . بقي لافريتسكي وحيدا على واجهة البيت ، وظل يحدق في طول الطريق الى ان اختفت المركبة عن مدى البصر . وفكر لافريتسكي ، وهو يعود الى بيته : «اظنه على حق . اظنني خاملا» . لقد نفذ الكثير من الكلمات الى روحه بقوة لا تقاوم ، رغم انه جادله ولم يتفق معه . فالمرء حين يكون طيبا لن يستطيع احد ان يصده .

٢٦

وفت ماريا دميتريفنا بوعدها ، فوصلت الى فاسيلفسكويه بعد يومين تصحبها كل حاشيتها الشابة . تراكضت الفتيات الى الحديقة . اما ماريا دميتريفنا فقد طافت في الغرف بفتور ، وامتدحت كل شيء بفتور . وقد اعتبرت زيارتها للافريتسكي امارة على التلطف العظيم تكاد ان تكون عملا خيرا . وابتسمت مرحبة ، حين لثم انتون وابراكسيا يدها ، حسب عادة الخدم القديمة . وطلبت بصوت انفي متراخ ان تشرب الشاي . وقد انزعج انتون كثيرا ، وقد لبس قفازين ابيضين محوكين من ان لا يكون هو الذي يقدم الشاي للسيدة الزائرة ، بل الخادم الشخصي الذي استأجره لافريتسكي لخدمته ، والذي لم يكن يفهم ، حسب قول العجوز ، اية اصول . ولكن انتون اخذ حقه اثناء الغداء ، فقد وقف راسخ القدمين وراء كرسي ماريا دميتريفنا ، ولم يتنازل لأحد عن موقعه .

وكان مجيء الضيوف النادر الى فاسيلفسكويه يقلق هذا العجوز ويسره . فقد كان يطيب له ان يكون لسيده معارف من علية القوم وعلى اية حال ، لم يقلق وحده في هذا اليوم . فقد قلق ليم ايضا . لبس سترة فراك قصيرة بلون التبغ ذات ذيل مدبب ، ولفّ منديل العنق حول رقبته بشدة ، وظل يتنحنح بلا انقطاع ، وينسحب بسيماء حفيّة لطيفة . ولاحظ لافريتسكي بارتياح ان التقارب بينه وبين ليزا مستمر . فحالما دخلت مدت اليه يدها بمودة . وبعد الغداء اخرج ليم من جيب سترته الخلفي ، وكان من حين لآخر يدس يده فيه ، حزمة صغيرة من اوراق النوطات ، وزم شفتيه ، ووضعها على البيانو صامتا . كانت هذه رومانس الّفها على كلمات المانية قديمة الطراز يرد فيها ذكر للنجوم . جلست ليزا على البيانو فورا ، وعزفت الرومانس . . . أواه ! كانت الموسيقى عويصة ، ومتوترة بشكل يثير الاعصاب . والظاهر ان مؤلفها جاهد ليعبر عن شيء جيّاش عميق ، ولكن لم يوفق في شيء . فبقيت المجاهدة محض مجاهدة . وقد احس لافريتسكي وليزا بذلك كلاهما ، وادرك ليم ذلك ، فاطبق رومانسه واعاده الى جيبه دون ان يقول شيئا ، وحين عرضت عليه ليزا ان تعزفه مرة اخرى ، هزّ راسه ، وقال بدلالة : «الآن ، يكفي !» واحدودب ، وانكمش ، وانصرف .

في المساء خرجت المجموعة كلها لصيد السمك . فقد كان في البركة خلف الحديقة الكثير من سمك الشبوط وسمك القاع . اجلسوا ماريا دميتريفنا على كرسي في الظل عند الشاطىء ، وفرشوا بساطا تحت قدميها ، واعطوها افضل صنارة . وعرض انتون عليها خدماته كصياد سمك قديم . وكان يضع الطعم من الدود في حماس ، ويضربه بيده ، ويبصق عليه ، بل كان يقذف الصنارة بنفسه ، وينحني بكل هيكله برشاقة . وكانت ماريا دميتريفنا في اليوم ذاته قد تحدثت عنه الى فيدور ايفانيتش بلغة المعهد الفرنسية فقالت : «Il n'y a plus maintenant de ces gens comme ça comme autrefois» * . بينما ذهب ليم بصحبة الفتاتين الى السدة ، ابعد من البركة . وجلس لافريتسكي قرب ليزا . كان

* الآن لا يوجد مثل هؤلاء الناس كما كان من قبل (بالفرنسية في الاصل) .

السمك يجذب الطعم بلا انقطاع ، وكانت اسماك الشبوط المسحوبة من البركة تلمع في الهواء من حين لآخـــر ، بجنوبها الذهبية تارة ، والفضية تارة اخرى وظلت هتافات الفتاتيـــــن تتردد بلا انقطاع ، وحتى ماريا دميتريفنا ارسلت مرة او مرتين صيحة ناعمة . وكان لافريتسكي وليزا اقل الجميع توفيقا في اصطياد السمك . ولعـــل ذلك كان راجعا الى انهما كانا اقل الآخرين اهتماما بصيد السمك ، وقد تركا قطع الفلّين في الصنارة تسرح الى الشاطىء ، كان القصب الطويل المحمر يحف حولهما بهدوء ، والماء الساكن يلتمع امامهمـا لمعانا هادئا ، وكان الحديث بينهما يجري هادئا ايضا . كانت ليزا تقف على طوافة صغيرة ، ولافريتسكي جالسا على جذع شجرة وزّال مائل . وكانت ليزا في ثـــوب ابيض محزّم بشريط عريض ابيض ايضا ، وكانت قبعة القش تتدلى من احدى يديها ، بينما تمســك بالأخرى عصا الصيد المقوسة بشيء من الجهد . نظر لافريتسكي الى صفحة وجهها الجانبية الصافية الصارمة بعض الشيء ، والى شعرها المعكوف خلف اذنيها ، والى وجنتيها الناعمتيـــــن ، المتوهجتين ، كوجنتي طفلة ، وفكر مع نفسه : «اوه ، ما اعذبك وانت واقفـة فوق بركتي !» لم تكن ليزا تستدير نحوه ، ومضت تحدق في الماء ، وكأنها تقلّص عينيها ، او كأنها تبتسم . وكان ظل شجرة الزيزفون القريبة يحتويهما كليهما .

بادر لافريتسكي يقول :

– هل تعرفين انتـــي فكرت كثيرا في حديثنـــا الاخير ، واستخلصت من ذلك انك طيبة للغاية .

– لم تكن لي قط نية . . .

ردت عليه ، ولكنها خجلت ولم تكمل جملتها .

فكرر لافريتسكي قائلا :

– انت طيبة . انا انسان فج ، ولكنني احس ان الجميع يجب ان يحبوك . ليم على الاقل ، فهو متيم بك تماما .

لم يتقارب حاجبا ليزا فقط ، بل وارتعشا ايضا . وهذا يحدث لها دائما ، حين تسمع شيئا يضايقهـا . فاسرع لافريتسكي يربط كلامه :

– اليوم اشفقت عليه كثيرا ، برومانسه غير المحظوظة . شيء يطاق ان يكون الانسان في سن الشباب ، ولا يحسن الصنع ، ولكنه

شاق ان يشيخ المـــرء ولا يقوى على شيء . والمكدر الا يحس هذا المرء بان قواه تتخلى عنه . ومن العسير على الشيخ ان يتحمل مثل هذه الضربات ! . . انتبهي ، السمك يجذب شصك . . . – ثـــم اضاف بعد صمت قليل – يقولون ان فلاديمير نيقولايتش كتـــب رومانس لطيفة جدا .

اجابت ليزا :

– نعم ، فارغة ، ولكنها ليست عاطلة تماما .

فسالها لافريتسكي :

– ما رايك ، هل هو موسيقي جيد ؟

– اظن ان له قابليات كبيرة في الموسيقى ، ولكنه لحد الآن لم يدرسها كما ينبغي .

– حسنا ، وهل هو جيد ، كإنسان ؟

ضحكت ليزا ، وحدجــــت فيدور ايفانيتش بنظرة سريعة ، وهتفت :

– ياله من سؤال غريب !

وسحبت الصنارة ، ثم القتها بعيدا ، مرة اخرى .

– ولماذا هو غريب ؟ انا اسالك عنه باعتباري انسانا قدم هنا منذ زمن غير بعيد ، وقريبا لك ايضا .

– كيف انت قريب لي ؟

– نعم ، فانا في القرابة عمك .

قالت ليزا :

– لفلاديمير نيقولايتش قلب طيب . وهو ذكي ، maman تحبه كثيرا .

– وانت تحبينه ؟

– انه رجل حسن ، فلماذا لا احبه ؟

–اها !

نطق لافريتسكي ذلك ، وصمت . ورفّ على وجهه تعبير ما بين الحزن والبسمة الساخرة . وارتبكت ليزا من نظرته العنود ، ولكنها ظلت تبتسم . واخيرا قال لافريتسكي ، كالمحدث نفسه :

– حسنا ، ادعو الله ان يسعدهما !

وادار راسه . احمرّت ليزا ، وقالت :

– انت مخطئ ، يافيدور ايفانيتش . . . ما كـــان ينبغي ان

تظن . . . – وفجأة سألته : هل معقـول ان فلاديمير نيقولايتش لا يعجبك ؟
– لا يعجبني .
– السبب ؟
– يبدو لي انه بلا قلب .
غاضت الابتسامة من وجه ليزا . وقالت بعد صمت طويل :
– تعودت ان تكون صارما في حكمك على الناس .
– لا اظن . فأي حق لي في ان اكـون صارما في حكمي على الآخرين ، في حين انا نفسي بحاجة الى التسامح ؟ ام نسيت انني صرت اضحوكة لمن هب ودب ؟
ثم اضاف :
– هل وفيت بوعدك ؟
– اي وعد ؟
– ان تصلي لي ؟
– نعم ، صليت لك ، وسأصلي كل يوم . ولكـن ارجوك لا تتحدث عن ذلك باستخفاف .
اخذ لافريتسكي يؤكد لليزا ان هـذا حتى في باله لم يخطر ، وانه يكنّ لكل المعتقدات احتراما عميقا ، ثم انطلق يتحدث عـن الدين ، وعن اهميتـه في تاريخ الانسانية ، وعن اهميـة المسيحية . . .
قالت ليزا وليس بدون شيء من الجهد :
– المرء يحتاج الى ان يكون مسيحيا ، لا ليدرك السماوي . . . في الأعلى . . . والدينوي . . . ، بل لأن كل انسان صائر الى الموت . . .
رفع لافريتسكي بصره الى ليزا بدهشـة لاارادية ، والتقى بصراهما . قال :
– اية كلمة هذه التي نطقت بها !
اجابت :
– هذه ليست كلمتي .
– ليست . . . ولكن لماذا ذكرت الموت ؟
– لا ادري . . . كثيرا ما افكر فيه .
– كثيرا ؟

– نعم .
– لا يبدو عليك هذا ، وانا انظر اليك الآن . فان لك وجها مرحا منوّرا ، انت تبتسمين . . .
فردت ليزا بسذاجة :
– نعم ، اشعر بمرح شديد الآن .
همّ لافريتسكي بأن يمسك بكلتا يديها ، ويضغط عليهما بقوة . . .
صاحت ماريا دميتريفنا :
– ليزا ، ليزا ! تعالي ، وانظري اية سمكة شبوط اصطدت .
اجابت ليزا :
– حالا ، maman .
واقبلت عليها . بينمـا بقي لافريتسكي على شجرة الوزال تلك . وفكر مع نفسه : «اتكلم معها ، وكأنني لم اعش حياتي» . وكانت ليزا قد علّقت قبعتها على غصن ، لدى انصرافها . فنظر لافريتسكي الى هذه القبعة ، والى شرائطها الطويلة المدعوكة قليلا بشعور غريب يكاد يكون رقيقـا . وسرعان ما عادت ليزا اليه ، ووقفت على الطوافة ثانية .
سألت ليزا بعد هنية :
– لماذا تظن فلاديمير نيقولايتش بلا قلب ؟
– لقد قلت لك ، وربما اكون على خطأ . وعلى العموم الزمن يكشف كل شيء .
استغرقت ليزا تفكر . واخذ لافريتسكي يتحدث عن معيشته في فاسيليفسكويه ، عن ميخاليفيتش ، وعن انتون . فقد احس بالحاجة الى ان يتحدث مع ليزا ، ويفضي لها كل ما جال في قلبه . وقـد اصغت ليزا اليه بكثير من العذوبة والاهتمام ، وبدت له ملاحظاتها واعتراضاتها النادرة بسيطة جدا وذكية جدا . بل وقال لها ذلك .
ابدت ليزا دهشتها . وقالت :
– صحيح ؟ بينما كنت اظن انني وخادمتي ناستيا لا نملـك كلماتنا الخاصة . ذات مرة قالت لخطيبهـا : لا بد انك تشعر بالسأم معي ، فانت تحدثني دائما بكلمات طيبـة ، بينما انا لا املك اية كلمات اقولها .
فكر لافريتسكي مع نفسه : «حمدا للرب !»

في غضون ذلك هبط المساء ، وابدت ماريا دميتريفنا رغبتها في العودة الى البيت . انتزعوا الفتاتين الصغيرتين من البركة بصعوبة وهيئتا للسفر . واعلن لافريتسكي انه سيرافق ضيوفه الى منتصف الطريق ، وامر بسرج حصانه . وحين كان يُجلس ماريا دميتريفنا في العربة ، تذكر ليم ، ولكن العجوز لم يعثروا عليه في اي مكان . فقد اختفى حالما انتهى صيد السمك . اطبق انتون باب العربة بقوة ملفتة للنظر بالنسبة لعمره ، وصاح بحدة : «انطلق ، يا حوذي !» وتحركت العربة . في المقعدين الخلفيين جلست ماريا دميتريفنا وليزا ، وجلست الفتاتان الصغيرتان والخادمة في المقعدين الاماميين . كان المساء دافئا هادئا ، وقد انزلت نوافذ العربة من كلا الجانبين . وانطلق لافريتسكي على صهوة فرسه قرب العربة من جانب ليزا ، وقد وضع يده على باب العربة – القى المقود على عنق الفرس المنساب عدواً – ومن حين لآخر كان يتبادل مع الفتاة الشابة كلمتين او ثلاثا . اختفى الغسق ، واسبل الليل سدوله ، بل وامسى الهواء اكثر دفئا . وسرعان ما هوّمت ماريا دميتريفنا ، كما غفت الفتاتان الصغيرتان والخادمة . وكانت العربة تنطلق بسرعة ونعومة . احنت ليزا جذعها الى الامام ، فشعّ القمر الطالع في وجهها ، ورفّت نسمة الليل العبقة في عينيها ووجنتيها . كانت راضية البال . يدها تستند الى باب العربة قرب يد لافريتسكي . وكان لافريتسكي مرتاح النفس ايضا . ولم يلحظ كيف قطع نصف الطريق ، وهو ينطلق في الدفء الليلي الساجي ، غير صارف بصره عن وجه الشابة اللطيف ، مصغيا الى الصوت الغض الصادح حتى في همسه ، الناطق بأشياء بسيطة وطيبة . لم يرد ان يوقظ ماريا دميتريفنا ، فضغط على يد ليزا بخفة ، وقال لها : «نحن الآن صديقان ، أليس كذلك ؟» فهزت رأسها . فاوقف الحصان . واصلت العربة سيرها ، مهتزة ، وطالعة هابطة برفق . واتجه لافريتسكي نحو بيته في خطو متئد . واستولى عليه سحر الليل الصيفي ، وبدا له كل ما حوله غريبا بشكل مبالغ ، وموغلا في القدم ومألوفا له في الوقت ذاته . لفّ السكون كل شيء في الداني والقاصي – كانت العين ترى بعيدا ، رغم انها لم تكن تفهم الكثير مما كانت ترى –

والحياة الزاهرة نفسها تتجلى في هذا السكون . صار حصان لافريتسكي نشيطا يترنح بتؤدة ذات اليمين وذات الشمال . وكان ظله الاسود الكبير يسير الى جانبه ، وكان في وقع حوافره شيء غامض ورائق ، وفي صياح طيور السمّان الهادر شيء مرح وعجيب . اختفت الانجم في دخان منوّر ، والبدر يتلألأ لألاءا صلبا ، وضوءه ينتشر من السماء بدفق ازرق ، ويسقط بقعة من الذهب الداخن على السحب الخفيفة التي كانت تمر على مقربة . كانت طراوة الهواء تندي العينين بنداوة خفيفة ، وتداعب كل اطراف الجسم برقة ، منصبة في الحنايا بدفق ذهبي . واستلذ لافريتسكي ، وتمتع بكل استلذاذه . وقال لنفسه : «طيب ، ما تزال لنا في العيش فسحة» ولم يقل مَنْ او ما . . . ثم اخذ يفكر في ليزا ، وان من المستبعد ان تكن حبا لبانشين ، وانه لو التقى بها في ظروف اخرى ، فالله يعلم ماذا كان سينجم عن ذلك ، وانه يفهم ليم ولكن ليس لليزا كلماتها «الخاصة» . ولكن هذا ليس صحيحا ايضا ، فان لها كلماتها . وتذكر لافريتسكي قولها : «لا تتكلم عن ذلك باستخفاف» . سار على فرسه طويلا ، منكسا رأسه ، ثم رفع جذعه ، ونطق ببطء :

واحرقت كل ما اعبده
وعبدت كل ما احرقته . . . (٦٠)

الا انه ساط الحصان على الفور ، وانطلق في عدو سريع حتى البيت .

ترجل من الحصان ، وتلفت للمرة الاخيرة وعلى شفتيه ابتسامة امتنان لاارادية . كان الليل الساجي الرقيق يخيم على التلال والوديان ، وفي البعيد ، من اعماقه العبقة ، يتصاعد دفء ناعم هادئ ، لا يعرف الا الله اهو من السماء ام من الارض . ارسل لافريتسكي في الخيال آخر تحية لليزا ، وصعد الى مدخل البيت .

كان اليوم التالي مملا جدا . سقط المطر منذ الصباح . وكان ليم ينظر شزرا ، ويزم شفتيه بقوة اشد فاشد ، وكأنما قطع على نفسه عهدا بان لا يفتحهما ابدا . وعندما ذهب لافريتسكي لينام حمل معه الى سريره ملء حضنه من المجلات الفرنسية التي ظلت اكثر من اسبوعين موضوعة على مكتبة ، لم تفض اختامها . اخذ يفك اغلفتها بغير اكتراث ، ويمرر بصره على الاعمدة التي لم يكن فيها شيء

جديد ، على اية حال . اراد ان يرميها ، واذا به يثب من السرير فجأة ، كالملدوغ . رأى في احدى الجرائد مقالة صغيرة لمسيو جيوله المعروف لنا من قبل يعلن فيها لقرائه «خبرا مؤسفا» وهو ان الموسكوفية الفاتنة الساحرة ، احدى ملكات الازياء ، وتحفة الصالونات الباريسية ، مدام لافريتسكي قد وافاها الاجل فجأة تقريبا ، وان هذا الخبر ، الموثوق به جدا ، قد وصل لتوه الى اسماع السيد جيوله الذي كان ، على حد ما كتبه ، صديقا للمرحومة ، اذا صح القول . . .

ارتدى لافريتسكي ثيابه ، وخرج الى الحديقة ، وظل حتى الصباح يسير جيئة وذهابا في ممر معرش واحد .

٢٨

على مائدة الشاي في اليوم التالي رجا ليم لافريتسكي بأن يعيره خيولا ليعود الى المدينة قائلا : «حان الاوان لأن اعمل ، اقصد ان اعطي دروسا ، وإلا فانني اضيع الوقت هباء هنا» . لم يجب لافريتسكي في الحال ، فقد كان شارد الذهن ، ولكنه قال في آخر الامر : «طيب ، وساذهب انا معك» . اعد ليم حقيبته الصغيرة ، مدمدما غاضبا ، دون مساعدة خادم ، ومزّق بضع اوراق من النوطات واحرقها . وهيئت العربة . وضع لافريتسكي في جيبه ، وهو يخرج من مكتبه ، الصحيفة التي قراها البارحة . طوال الطريق لم يتحدث ليم ولافريتسكي فيما بينهما الا قليلا ، فقد كان كل واحد منهما مشغولا بافكاره ، ومسرورا من ان صاحبه لا يعكر صفوه . وافترقا بجفاف كبير وهذا ، على العموم ، ما يحدث بين الاصدقاء في روسيا القديمة . اوصل لافريتسكي العجوز الى بيته الصغير . فنزل هذا من العربة ، واخرج حقيبته ، وقال له بالروسية «مع السلامة» ، دون ان يمد يده الى صاحبه (كان يمسك الحقيبة بكلتا يديه الى صدره) بل ودون ان ينظر اليه . فردد لافريتسكي : «مع السلامة» ، وامر الحوذي ان يوصله الى شقته . وكان قد استأجر ، تحسبا لأي طارئ ، شقة في مدينة و . . . ومن هناك توجه لافريتسكي الى بيت آل كاليتين ، بعد ان كتب بضع رسائل ، وتناول غداء سريعا . وجد في حجرة جلوسهم بانشين وحده . وقد اعلن له

هذا ان ماريا دميترييفنا ستخرج حالا ، ودخل معه على الفور في حديث في حفاوة ولطف بالغين . وحتى هذا الحين كان بانشين يعامل لافريتسكي لا باستعلاء ، بل بنوع من التنازل . ولكن ليزا كانت قد وصفت لافريتسكي ، لدى عودتها من سفرتها في حديثها مع بانشين ، بالرجل الرائع الذكي ، وكان هذا كافيا ، وكان ينبغي الاستحواذ على هذا الرجل «الرائع» . بدأ بانشين باغداق المدائح على لافريتسكي ، وبوصف الفرح الغامر الذى تحدثت به كل عائلة ماريا دميترييفنا عن فاسيليفسكويه ، على حد تعبيره ، وبعد ذلك ، وعلى عادته انتقل بمهارة الى الحديث عن نفسه ، واخذ يتكلم عن اشغاله ، وعن آرائه في الحياة ، والعالم ، والخدمة لدى الحكومة ، وتحدث كلمتين عن مستقبل روسيا ، وكيف تنبغي السيطرة على زمام حكام الولايات ، وفي هذا الموضع نكّت على نفسه بمزاح مرح ، واضاف ، بالمناسبة ، ان المسؤولين في بطرسبورغ عهدوا اليه «de populariser l'idée du cadastre» * . وقد تحدث طويلا جدا ، واضعا الحلول لكل المصاعب بثقة في النفس مستخفة ، لاعبا بالمسائل الادارية والسياسية المهمة ، كما يلعب الساحر بالكرات . ولم تبارح لسانه تعابير من مثل «لو كنت حكومة لفعلت كذا» ، «انت كرجل ذكي ، وستوافقني في الحال» . استمع لافريتسكي الى اقوال بانشين الفارغة ببرود . اذ لم يكن يعجبه هذا الرجل الوسيم ، الذكي ، المتانق بشكل مصطنع ، بابتسامته الوضاءة ، وصوته المهذب ، وعينيه المتفحصتين . وحدس بانشين المجبول على سرعة ادراك احاسيس الطرف الآخر ، بأنه لا يوفر لمحدثه في كلامه متعة ما ، فلملم نفسه ، واختفى بذريعة قابلة للتصديق ، وقد قرر مع نفسه ان لافريتسكي قد يكون رجلا رائعا ، ولكنه غير محبب للنفس ، «aigri» ** و «en somme» *** مضحك بعض الشيء . جاءت ماريا دميترييفنا مصحوبة بغيديونوفسكي ، ثم جاءت مارفا تيموفييفنا وليزا ، وبعدهما بقية اهل البيت ، ثم وصلت هاوية الموسيقى بيليتنتسينا ، وهي سيدة صغيرة الجسم ، نحيلة ، ذات وجه طفولي

* الترويج لفكرة مسح الاراضي وتثمينها (بالفرنسية في الاصل) .
** «حانق» (بالفرنسية في الاصل) .
*** «وبالاجمال» (بالفرنسية في الاصل) .

تقريبا ، متعب وجميل ، كانت ترتدي فستانا اسود له حفيف ، وفي يدها مروحة زاهية الالوان ، وفي معصميها اساور ذهبية سميكة ، كما وصل زوجها ايضا ، وهو رجل مورد الخدين ، منتفخ الجسم ، ذو قدمين ويدين كبيرتين ، ورموش بيض ، وعلى شفتيه الغليظتين ابتسامة جامدة . كانت زوجته لا تتحدث معه قط ، حين تكون في زيارة ، اما في البيت ، فقد كانت ، في لحظات الرقة ، تسميه خنزيري الصغير . وعاد بانشين ، وغصت الغرف بالناس والصخب . وكان لافريتسكي لا يميل في طبيعته الى كثرة الناس ، وقد اغضبته بيلينتسينا بشكل خاص ، فقد كانت من حين لآخر تحدق فيه من خلال نظارتها ذات المقبض . ولو لا ليزا لخرج في الحال . فقد كان يريد ان يقول لها كلمتين على انفراد ، ولكنه ظل وقتا طويلا دون ان تسنح له فرصة مؤاتية ، وكان يتمتع بمتابعتها ببصره بفرح خفي . لم يبد وجهها قط اكثر نبلا وحلاوة مما هو الآن . وجود بيلينتسينا على مقربة منها اظهر الكثير من حسناتها . كانت بيلينتسينا تتململ على مقعدها بلا انقطاع ، وتهز كتفيها الضيقتين ، وتضحك بميوعة ، وتقلص عينيها تارة ، ثم تفتحهما على سعتهما فجاة . وكانت ليزا تجلس هادئة ، وبصرها مصوب الى الامام ، ولم تضحك قط . جلست ربة البيت تلعب الورق مع مارفا تيموفييفنا وبيلينتسين وغيديونوفسكي الذي كان يلعب ببطء شديد ، ويخطىء باستمرار ، ويرمش ، ويمسح وجهه بمنديل . واتخذ بانشين مظهر الكآبة السوداوية ، وكان يتكلم باقتضاب ، وبعدة دلالات وبأسى ، كالفنان بالضبط ورغم رجوات بيلينتسينا التي كانت تداعبه كثيرا رفض ان يغني رومانسه . كان وجود لافريتسكي يضايقه . كما ان فيدور ايفانيتش هذا كان يتكلم قليلا ، وقد اذهلت ليزا المسحة الغريبة التي كانت مرتسمة على وجهه ، حال دخوله الى الحجرة . فشعرت على الفور ان له شيئا يعلنه لها ، ولكنها ، لسبب لا تعرفه ، كانت تخشى ان تساله عنه . واخيرا ، وجدت نفسها دون ان تدري تحول رأسها نحوه ، حين دخلت القاعة لتشرب الشاي ، تبعها على الفور . فقالت ، وهي تضع ابريق الشاي على السماور :

– ماذا بك ؟

قال :

– هل لاحظت شيئا ؟

– لست اليوم كما رأيتك من قبل .

انحنى لافريتسكي على المائدة ، واخذ يقول :

– اردت ان ابلغك بخبر ، ولكن ذلك مستحيل الان . على اية حال إقرئي ما علمته بالقلم في هذه المقالة . – اضاف ذلك ، وهو يقدم لها المجلة التي اخذها معه . – ارجو ان تبقي ذلك سرا ، وسآجيء الى هنا صباح الغد .

اندهشت ليزا . . . ظهر بانشين على عتبة الباب ، فوضعت المجلة في جيبها .

سالها بانشين في شرود :

– هل قرات اوبرمان (٦١) ، يا ليزافيتا ميخايلوفنا ؟

اجابته ليزا اجابة عارضة ، وخرجت من القاعة الى الطابق العلوي . عاد لافريتسكي الى حجرة الجلوس ، وتقدم من مائدة اللعب . كانت مارفا تيموفييفنا قد فكت شريط قلنسوتها ، واحمرّت ، واخذت تتشكى له من غيديونوفسكي شريكها في اللعب ، الذي لم يحسن القاء الورق ، على حد تعبيرها . وقالت :

– الظاهر ان لعب الورق ليس مثل تاليف البدع .

ظل هذا يرمش ويمسح وجهه . دخلت ليزا حجرة الجلوس ، وجلست في ركن . نظر لافريتسكي اليها ، ونظرت هي اليه . وصار كلاهما يحس بمثل الرهبة . قرأ لافريتسكي على وجهها حيرة ونوعا من التقريع المستور . ولم يستطع ان يتحدث معها ، رغم رغبته الشديدة في ذلك . وكان يضنيه ان يظل معها في غرفة واحدة زائرا مثل الزوار الآخرين . فعزم على الانصراف . وحين كان يودعها استطاع ان يكرر انه سياتي غدا ، واضاف انه يأمل في صداقتها .

قالت والحيرة تلك ما تزال على وجهها :

– تفضل ، تعال .

انتشى بانشين بخروج لافريتسكي ، فاخذ يقدم النصائح لغيديونوفسكي ، ويتلطف مع بيلينتسينا في سخرية وغنى رومانسه . ولكنه ظل يتكلم مع ليزا وينظر اليها بطريقته السالفة ، اي بدلالة وبشيء من الحزن .

اما لافريتسكي فبات مؤرقا طوال الليل مرة اخرى . لم يكن حزينا ، ولا قلقا ، بل ساكن النفس كليا . ولكن النوم لم يراود عينيه . وحتى الماضي لم يخطر على باله . بل كان يتأمل في حياته

كان قلبه يدق ثقيلا منتظما ، ومضت الساعات سراعا ، ولم يفكر في ان ينام . كانت تدور في ذهنه فكرة واحدة : «ليس هذا صحيحا . كل شيء هراء» . وتوقف ، واطرق براسه ، وعاد من جديد يتامل في حياته .

٢٩

لم تستقبل ماريا دميتريفنا لافريتسكي بترحاب كبير ، حين جاء اليها في اليوم التالي . فكرت مع نفسها : «اوه ، تمادى في المجيء» . كان في حد ذاته لا يعجبها كثيرا ، كما ان بانشين الواقعة تحت تأثيره كان قد اثنى عليه في العشية بطريقة خبيثة جدا وباستهانة . ولما كانت لا تعتبره ضيفا ، ولا ترى من الضروري الحفاوة بقريب هو من اهل البيت تقريبا ، فانه لم يمكث نصف ساعة معها ، وخرج مع ليزا للتمشي في الممر المعرش في الحديقة . كانت لينوتشكا وشوروتشكا تركضان في حوض الزهور على بعد بضع خطوات منهما .

كانت ليزا هادئة كالعادة ، ولكنها شاحبة اكثر من العادة . اخرجت ورقة المجلة المطوية طيات صغيرة ، وقدمتها الى لافريتسكي ، وقالت :

– هذا فظيع !

لم يرد لافريتسكي بشيء . فاردفت ليزا قائلة :

– ولكن قد يكون هذا غير صحيح ايضا .

– ولهذا رجوتك ان لا تخبري بذلك احدا .

سارت ليزا مسافة قصيرة ، وانشأت تقول :

– قل لي : الا تشعر بالحزن ؟ الا تشعر البتة ؟

قال لافريتسكي :

– انا نفسي لا اعرف شعوري .

– ولكنك كنت تحبها من قبل ؟

– احببتها .

– كثيرا ؟

– كثيرا .

– ولا يحزنك موتها ؟

– انها بالنسبة لي ، ماتت من قبل .

– ما تقوله إثم . . . لا تغضب عليّ . انت تسميني صديقتك ، والصديق يستطيع ان يقول كل شيء . اصارحك ان ذلك يملؤني حتى بالرعب . . . يوم امس كانت سحنتك لا تبعث على الارتياح . . . هل تذكر كيف تشكيت منها ، قبل حين ؟ ولربما ، في ذلك الحين ، لم تعد هي في الوجود . هذه فظاعة . كان ذلك قصاص قد ارسل لك .

ابتسم لافريتسكي ابتسامة تهكم مريرة .

– تتصورين ذلك ؟ . . انا الآن حر ، على اقل تقدير .

ارتعشت ليزا قليلا .

– كفى ، لا تتكلم بهذا الشكل . ما فائدة حريتك لك ؟ ما كان ينبغي لك ان تفكر في ذلك ، بل في المغفرة . . .

قاطعها لافريتسكي هازا ذراعه :

– غفرت لها ، منذ زمان .

فاعترضت ليزا وقد احمرّت :

– لا ، ليس هذا ما اردت ان اقوله . انت لم تفهمني بالشكل الصحيح . ينبغي ان تهتم بان تنال المغفرة . . .

– من يغفر لي ؟

– مَنْ ؟ الله . ومن يمكن ان يغفر لك غير الله .

امسك لافريتسكي بيدها ، وصاح :

– آه ، ليزافيتا ميخايلوفنا ، صدقي بانني لقيت من العقاب ما فيه الكفاية . دفعت كفّارتي كلها ، صدقيني . . .

قالت ليزا بصوت خافض :

– انت لا تستطيع ان تعرف هذا . لقد نسيت انك ، حين كنت تتحدث معي قبل حين ، كنت لا تريد ان تغفر لها .

سار الاثنان في الممشى المعرش صامتين .

وسالت ليزا فجاة ، وتوقفت :

– وماذا عن ابنتك ؟

ارتعش لافريتسكي :

– اوه ، كوني مطمئنة ! ارسلت الرسائل في كل الجهات . مستقبل ابنتي ، على حد . . . على حد قولك . . . مضمون . . فلا تقلقي .

ابتسمت ليزا في حزن .
واستأنف لافريتسكي قوله :
– ولكنك على حق ، ما حاجتي الى الحرية ؟ ما فائدتي منها ؟
قالت ليزا ، دون ان ترد على سؤاله :
– متى تلقيت هذه المجلة ؟
– في اليوم الذي اعقب يوم زيارتكم .
– هل معقول . . . هل معقول انك حتى لم تذرف دمعة ؟
– لا ، كنت مذهولا . ولكن من اين تأتي الدموع ؟ ابكي على الماضي ، بينما احترق كله في اعماقي ! . . فعلتها بحد ذاتها لم تهدم سعادتي ، بل اثبتت لي فقط بان هذه السعادة لم تكن موجودة قط. . فلِمَ البكاء في هذه الحال ؟ ربما ساكون اكثر حزنا لو كنت قد تلقيت هذا الخبر قبل اسبوعين . . .
– قبل اسبوعين ؟ ماذا حصل في هذين الاسبوعين ؟
لم يرد لافريتسكي بشيء ، واذا بليزا تتورد اكثر من ذي قبل .
فاردف لافريتسكي فجأة مستغلا توردها المشتد :
– نعم ، نعم . لقد حزرت . خلال هذين الاسبوعين عرفت ما يعني القلب النسائي النقي ، فازداد ماضيّ بعداً عني . . .
ارتبكت ليزا ، وسارت بهدوء نحو لينوتشكا وشوروتشكا في حوض الزهور .
فقال لافريتسكي ، وهو يسير في اثرها :
– انا مرتاح لأنني اطلعتك على تلك المجلة . لقد تعودت ان لا اخفي عنك شيئا ، وآمل ان تبادليني هذه الثقة .
– هل تتصور ؟ – قالت ليزا وتوقفت . – في هذه الحال كان ينبغي عليّ . . . ولكن لا ! هذا مستحيل .
– ما هو ؟ قولي ، تحدثي .
– حقا يبدو لي ما كان ينبغي عليّ . . . على كل حال . – اضافت ليزا ، واستدارت نحو لافريتسكي مبتسمة . – اي فائدة من نصف الصراحة ؟ هل يعني ؟ حسنا ، تسلمت اليوم رسالة .
– من بانشين ؟
– نعم ، منه . . . كيف تعرف ؟
– يطلب يدك ؟

– نعم .
نطقت ليزا ، ونظرت في عيني لافريتسكي نظرة مستقيمة وجادة .
وهو الآخر نظر الى ليزا بجدية . واخيرا قال :
– وبم اجبته ؟
– لا اعرف بم اجيبه .
قالت ليزا ، واسبلت ذراعيها المطويتين .
– كيف ؟ فانت تحبينه ؟
– نعم . انه يعجبني . يبدو انه رجل طيب .
– قبل اربعة ايام قلت لي هذا وبنفس التعابير . ليتني اعرف هل تحبينه بتلك العاطفة القوية الجياشة التي تعودنا ان نسميها حبا ؟
– بفهمك هذا ، لا .
– لست مغرمة به ؟
– لست . وهل هذا ضروري حقا ؟
– كيف ؟
مضت ليزا تقول :
– امي معجبة به ، وهو طيب ، وليس لي شيء ضده .
– ومع ذلك ، فانت مترددة ؟
– نعم . . . و . . . لعل . . كلماتك السبب . هل تذكرت ما كنت تقوله قبل ثلاثة ايام ؟ ولكن هذا ضعف .
هتف لافريتسكي فجأة :
– اوه ، ياطفلتي ! – وشرع صوته يرتجف . – لا تبلغ بك السذاجة هذا المبلغ ، ولا تصغي بالخطأ صيحة قلبك الذي لا يريد ان يذعن بدون حب . لا تتحملي مثل هذه المسؤولية الرهيبة ازاء رجل لا تحبينه وتريدين ان تكوني ملكا له . . .
فقالت ليزا :
– ساطيع ، لن اتحمل شيئا .
قاطعها لافريتسكي :
– اطيعي قلبك وحده . فهو وحده ينطق بالحقيقة . فالخبرة وصوت العقل ، كل ذلك هباء وثرثرة ! لا تنكري لنفسك السعادة الفضل الوحيدة على الارض .

– وتقول هذا ، يا فيدور ايفانيتش ؟ لقد تزوجت انت عن حب ، فهل كنت سعيدا ؟

بسط لافريتسكي ذراعيه .

– آه ، لا تتحدثي عني ! فانت لا تقدرين حتى ان تفهمي كل ما يمكن لفتى غرير سيىء التربية ان يعتبره حبا . . . نعم ، ثم ، واخيرا ، لماذا اكذب على نفسي ؟ قبل لحظات كنت اقول لك انني لم اعرف السعادة . . . ليس كذلك ! لقد كنت سعيدا .

– يبدو لي ، يا فيدور ايفانيتش ، – قالت ليزا مخفضة صوتها (كانت دائما تخفض صوتها حين لا توافق محدثها ، بل وتشعر بانفعال شديد) . – السعادة في الدنيا لا تتوقف علينا . . .

– بل علينا ، علينا ، صدقيني (وامسك يديها ، فشحبت ليزا ، وحدقت فيه بفزع تقريبا) الا اذا افسدنا نحن حياتنا بانفسنا . الزواج عن حب يمكن ان يكون تعاسة لآخرين ، ولكن ليس لك ، بخلقك الهادئ ، وبنفسك الصافية ! اتوسل اليك الا تتزوجي بدون حب ، بشعور الواجب ، بنكران الذات و . . . ان ذلك فقدان ايمان في هذا السبيل ، ان لم يكن اسوأ . صدقيني . وان لي الحق في ان اقول ذلك . فقد دفعت غاليا لاكسب هذا الحق . واذا كان ربك . . .

وفي تلك البرهة لاحظ لافريتسكي ان لينوتشكا وشورتشكا كانتا تقفان على مقربة من ليزا ، تتفرسان فيه بذهول اخرس . اطلق يدي ليزا ، واسرع يقول : «اعذريني ، ارجوك» وسار نحو البيت .

وقال وهو يعود الى البيت :

– عندي رجاء واحد لك ، وهو ان لا تتخذي قرارك راسا ، تريثي ، وفكري قليلا فيما قلته لك . وحتى لو لم تكوني قد صدقت بي ، ولو قررت الزواج عن يقين ، فلا يجدر بك ان تتزوجي السيد بانشين ، في هذه الحال . فهو لا يمكن ان يكون لك زوجا . فعديني بأن لا تتسرعي . اليس كذلك ؟

ارادت ليزا ان ترد عليه . ولكنها لم تنطق بكلمة ، لا لأنها قررت ان «تتسرع» ، بل لأن قلبها كان يخفق بقوة شديدة ، وشعورا اشبه بالفزع كان يمسك بأنفاسها .

٣٠

التقى لافريتسكي ببانشين لدى خروجه من بيت آل كاليتين . حيّا احدهما الآخر ببرود . وحين وصل لافريتسكي الى شقته اغلق عليه الباب . كانت تتنازعه احاسيس ربما لم يحس بمثلها في وقت من الاوقات . فهل لم يكن منذ زمان قريب في حالة من «الانشداه الوديع» ؟ وهل لم يحس ، منذ زمان قريب ، بانه – على حد تعبيره – في قاع نهر ؟ وماذا غيّر وضعه ؟ وما الذي اخرجه الى المكشوف ، الى السطح ؟ اهو العارض الاكثر اعتيادية من كل عارض ، المحتوم ، ولو انه ياتي فجاة : الموت ؟ اجل ، ولكن لم يفكر في موت زوجته ، في حريته ، بقدر ما فكر : ترى بماذا سترد ليزا على بانشين ؟ كان يشعر بأنه ، خلال الايام الثلاثة الاخيرة ، اخذ ينظر اليها بعينين اخريين ، وتذكر كيف كان يقول لنفسه ، وهو يفكر فيها في هداة الليل ، لدى عودته الى البيت : «ليت ! . .» وهذه الـ«ليت» ، التي كان يطبقها على الماضي ، على المستحيل قد تحققت ، وان لم تتحقق بالشكل الذي كان يتصوره . ولكن حريته وحدها ليست كافية . فكر : «انها ستطيع امها ، فتتزوج بانشين . ولكن حتى اذا رفضته ، اليس هذا سواء لديّ ؟» ، والقى نظرة خاطفة على وجهه ، حين مرّ بالمرآة ، وهزّ كتفيه .

ومرّ النهار بسرعة ، في هذه التأملات . وعندما هبط المساء توجه لافريتسكي الى آل كاليتين . سار وئيد الخطى ، ولكنه ابطأ خطوه حين راح يقترب من البيت . كانت عربة بانشين واقفة امام المدخل . فقال لافريتسكي لنفسه : «حسنا ، لن اكون انانيا» . ودخل الى البيت . ولم يلتق احدا فيه ، وكانت حجرة الجلوس ساكنة . فتح الباب فرأى ماريا دميترييفنا تلعب لعبة «البكيت» مع بانشين . حيّاه بانشين بانحناءة صامتة ، وهتفت صاحبة البيت : «هذه هي المفاجاة !» وقطبت حاجبيها قليلا . تقدم لافريتسكي منها ، واخذ ينظر في اوراقها . فسألته هي بانزعاج خفي :

– اتحسن لعب «البكيت» ؟

واعلنت في الحال انها اغفلت في رمي الورق .

عد بانشين تسعين نقطة ، واخذ يغطي الورق بتدبير وهدوء ، وعلى وجهه مسحة من الصرامة واللياقة . بهذا الشكل يلعب

الدبلوماسيون ، لا محالة ، وبهذا الشكل ، ربما ، كان يلعب ايضا في بطرسبورغ مع احد كبار الموظفين ليخلف في نفس الموظف رأيا رفيعا عن تماسكه وتضجه . «مائه وواحد ، مائة واثنان ، كوبة ، مائة وثلاثه» . كان صوته يردد على نسق واحد ، ولم يستطع لافريتسكي ان يفهم اية رنة فيه : رنة توبيخ ام رضى عن النفس .

– هل ممكن ان ارى مارفا تيموفييفنا ؟

سأل لافريتسكي هذا السؤال ، وهو يرى ان بانشين يمشط الورق في مزيد من العظمة وقد اختفى اى ظل للفنان فيه .

اجابت ماريا دميترييفنا :

– ممكن ، على ما اظن . انها في حجرتها فوق . تأكد بنفسك .

صعد لافريتسكي الى فوق ، فوجد مارفا تيموفييفنا تلعب الورق ايضا . كانت تلعب لعبة «الحمقاء» مع ناستاسيا كاربوفنا . اخذت الكلبة «روسكا» تنبح عليه ، الا ان العجوزين كلتيهما استقبلتاه بترحاب ، وكانت مارفا تيموفييفنا بشكل خاص في مزاج رائق . قالت :

– ها ! فيديا ! تفضل ، اجلس ، يا عزيزي . سنفرغ من اللعبة في الحال . هل تريد مربى ؟ شووروتشكا ، اجلبي له علبة مربى الفرولة . لا تريد ؟ طيب ، اجلس ، كما انت ، ولكن لا تدخن . انا لا اطيق تبغك . كما انه يجعل ماتروس يعطس .

اسرع لافريتسكي يقول انه لا يريد التدخين عموما .

تابعت العجوز تقول :

– هل كنت في الاسفل ؟ من هناك ؟ ما يزال بانشين لاصقا هناك ؟ هل رأيت ليزا ؟ لا ؟ كانت تريد ان تأتي الى هنا . . . ها هي قادمة . ابن الحلال بذكره .

دخلت ليزا الحجرة ، واحمرّت حين وقع بصرها على لافريتسكي . قالت :

– جئت اليكِ لدقيقة ، يا مارفا تيموفييفنا .

اعترضت العجوز :

– ولِمَ لدقيقة ؟ لماذا انتن ، ايتها الفتيات ، لا تستقررن في مكان ؟ ها انت ترين ان عندي ضيفا ، فسلّمي عليه ، وتسامري معه .

جلست ليزا على حافة المقعد ، ورفعت بصرها الى لافريتسكي ، وشعرت بان عليها ان تخبره بما انتهى اليه لقاؤها مع بانشين . ولكن كيف تفعل ذلك ؟ كانت خجلة ومحرجة . اذ لم ينقض وقت طويل على تعرفها على هذا الرجل الذي يندر ان يذهب الى الكنيسة ، ويتحمل وفاة زوجته بمثل عدم الاكتراث هذا ، وها هي تريد ان تفضي له باسرارها . . . حقا ، انه يتعاطف معها ، وهي نفسها تثق به ، وتحس بميل اليه ، ومع ذلك فقد صارت تشعر بالخجل ، وكأن رجلا غريبا دخل في حجرتها النقية العذراء .

هبّت مارفا تيموفييفنا لنجدتها .

– اذا كنت لا تتسامرين معه ، فمن سيتسامر معه ، المسكين ؟ انا ، بالنسبة له ، عجوز اكثر من اللازم ، وهو ، بالنسبة لي ، ذكي اكثر من اللازم ، وبالنسبة لناستاسيا كاربوفنا عجوز اكثر من اللازم . فانها لا تقتنع الا بالشبان .

قالت ليزا :

– بِمَ استطيع ان اسامر فيدور ايفانيتش ؟ – ثم اضافت بتردد . – اذا كان يحب فسأعزف شيئا على البيانو .

فردت مارفا تيموفييفنا :

– هذا رائع . يا لك من فتاة ذكية . انزلا ، يا عزيزيّ ، الى الاسفل وحين تنتهيان من العزف ، تعالا اليّ . فقد خسرت اللعبة ، ورست عليّ صفة «الحمقاء» ، ويخجلني ان تلتصق بي ، فاريد ان اتخلى عنها بكسب لعبة جديدة .

نهضت ليزا ، وتبعها لافريتسكي . توقفت ليزا ، وهما يهبطان السلم . وابتدرت تقول :

– حق ما يقال ان قلب الانسان مفعم بالتناقضات . كان الاحرى بما وقع لك ان يرعبني ، ويجعلني لا اثق بالزواج عن حب ، بينما انا . . .

قاطعها لافريتسكي :

– هل رفضته ؟

– لا ، ولكن لم اوافق ايضا . قلت له كل ما شعرت به ، وطلبت منه ان يتريّث . هل انت راض ؟

اضافت ذلك بابتسامة سريعة ، وركضت على الدرج ، ماسة الدرابزين مسا خفيفا .

وسألت وهي ترفع غطاء البيانو :

– ماذا تريد ان اعزف لك ؟

– ما تشائين ، – اجابها لافريتسكي ، وجلس بحيث يستطيع ان ينظر اليها .

اخذت ليـزا تعزف ، ولوقت طويل لم تصرف بصرهـا عن اصابعها . واخيرا رمقت لافريتسكي ، وتوقفت . فقد بدا وجهه لها عجيبا جدا وغريبا . سألت :

– ماذا بك ؟

ردّ :

– لا شيء . احس بارتياح . انا مسرور من اجلك ، مسرور في ان اراك ، واصلي .

قالت ليزا بعد لحظات :

– يبدو لي لو كان يحبني حقا ، لما كتب لي تلك الرسالة ، ولشعر ، لا محالة ، بانني لا استطيع ان اجيبه الآن .

قال لافريتسكي :

– هذا غير مهم . المهم انك لا تحبينه .

– توقف عن هذا الكلام ! زوجتك الراحلة تتراءى لي دائما ، وانت ايضا مخيف .

وفي ذات الوقت كانت ماريا دميتريفنا تقول لبانشين :

– ما اعذب عزف ابنتي ليزا ، أليس كذلك ، يا فولدمار ؟

اجاب بانشين :

– نعم ، عذب جدا .

ونظرت ماريا دميتريفنا الى ملاعبها الشاب برقة ، الا ان هذا اتخذ مظهرا اكثر عظمة واستغراقا ، وهتف اربعة عشر ملكا .

٣١

لم يكن لافريتسكي شابا ، وما كان في وسعه ان يراوغ نفسه طويلا عن العاطفة التي اثارتها فيه ليزا . فقد ايقن كليا ، وفي نفس اليوم ، بانه احبها . ولم يجلب له هذا اليقين فرحا كثيرا . فكر : «هل معقول انني ، في سن الخامسة والثلاثين ، لا املك غير

ان اضع نفسي مرة اخرى بين يدي امرأة ؟ ولكن ليزا ليست مثل تلك ولن تطالبني بتضحيات مخجلة ، ولا تصرفني عن مشاغلي ، ولحفزتني بنفسها على العمل الشريف الصارم ، ولسرنا كلانا ، قدما ، الى الغاية المنشودة . نعم ، – انتهى تفكره الى ذلك . – كل هذا حسن ، ولكن السيئ انها لا تريد ان تسير معي . فلا غرابة في انها قالت انني مخيف . ولكنها ، بمقابل ذلك ، لا تحب بانشين . . . عزاء ضعيف !»

سافر لافريتسكي الى فاسيليفسكويه ، ولكنه لم يمكث فيها حتى اربعة ايام ، فقد بدا له العيش فيها مضجرا . كما اضناه الانتظار ايضا . فان الخبر الذي اذاعه السيد جيوله كان يحتاج الى تأكيد ، بينما هو لم يتلق اية رسائل . عاد الى المدينة ، وقضى امسية لدى آل كاليتين . وكان من السهل عليه ان يلحظ ان ماريا دميتريفنا معبأة ضده ، ولكنه نجح في ان يستر ضيمها قليلا بخسرانه لها خمسين روبلا في لعبة «البكيت» ، وقضى حوالى نصف ساعة في شبه انفراد بليزا ، التي كانت قد نصحتها امها ، في العشية ، بان لا ترفع الكلفة كثيرا مع رجل «qui a un si grand ridicule» *. وقد وجد فيها تغيرا ، فقد بدت اكثر سهوما ، وعاتبته على غيابه ، وسألته هل يحضر القداس في اليوم التالي ؟ (كان يصادف يوم احد) .

وقبل ان يتسنى له الوقت ليجيب قالت :

– تعال . وسنصلي كلانا لسكينة روحها .

ثم اضافت انها لا تعرف كيف تتصرف ، ولا تعرف هل لها الحق في جعل بانشين ينتظر قرارها اكثر مما انتظر .

فسألها لافريتسكي :

– ولم ؟

قالت :

– لأنني اخذت الآن اتحسس القرار الذي سأتخذه .

ونوهت انها تشكو الصداع ، وانصرفت الى حجرتها في الاعلى ، وقد مدّت الى لافريتسكي اطراف اصابعها بتردد .

وفي اليوم التالي ذهب لافريتسكي الى القداس ، وعندما وصل الى

* حصلت له تلك الورطة الكبيرة (بالفرنسية في الاصل) .

الكنيسة كانت ليزا هناك . لاحظته ، ورغم انها لم تلتفت اليه . كانت تصلي بلهفة . عيناها تلمعان بهدوء ، وراسها ينحني ويرتفع بهدوء . شعر انها كانت تصلي له ايضا . فغمر قلبه حنان عجيب . كان سعيدا وخجلا بعض الشيء . كان الناس الواقفون برصانة ، والوجوه الاليفة ، والترتيل الجماعي ، ورائحة البخور ، والاشعة الطويلة المائلة المنبعثة من النوافذ ، والظلام نفسه للجدران والاطواق ، كل ذلك كان يناجي قلبه . منذ زمن طويل لم يذهب الى الكنيسة ، ومنذ زمن طويل لم يكن بين يدي الرب ، وهو حتى في هذه المرة لم ينطق باية كلمات دعاء – لم يُصلّ حتى بدون كلمات ولكنه ركع ، بكل فكره ، ان لم يكن بجسده ايضا ، وسجد خاشعا على الارض ، وان كان ذلك للحظة واحدة . وطاف في ذاكرته كيف كان ، كلما ذهب الى الكنيسة ، في طفولته ، يصلي ساجدا حتى يحس على جبينه ما يشبه مسّ شيء طري ، فكان يفكر آنذاك ، بان ذلك هو الملاك الحارس يدخلني في حضرته ، ويطبع عليّ ختم النعمة . رمق ليزا . . . وفكر : «ها انت قد جئت بي الى هنا ، فمسّيني ، مسّ روحي» . الا انها ظلت تصلي بهدوء ، وبدا وجهها له بهيجا ، فعاد يصلي ، فإستنزل السكينة لروح تلك ، والمغفرة لنفسه . . .

التقيا عند مدخل الكنيسة ، حيته بمهابة مرحة وحنون . وكانت الشمس تضيء العشب الغض في فناء الكنيسة ، واثواب النساء الملوّنة ومناديلهن ، واجراس الكنائس المجاورة ترن في الاجواء ، والعصافير تزغرد على الاسيجة . وقف لافريتسكي حاسر الراس مبتسما ، والنسيم يطاير شعره ، واطراف اشرطة قبعة ليزا . اجلس في العربة ليزا ولينوتشكا التي كانت بصحبتها ، ووزّع كل نقوده على الفقراء ، وسار الى بيته وئيد الخطى .

٣٢

وجاءت الايام العسيرة على فيدور ايفانيتش . وجد نفسه في حالة من الحمى المستديمة . كان كل صباح يذهب الى البريد ، ويفض الرسائل والمجلات بقلق ، ولم يكن يجد اي شيء فيها يمكن ان يؤكد او ينفي الشائعة الباتة بقدره . واحيانا كان هو نفسه

يتقزز من نفسه . كان يفكر : «ما لي انتظر الخبر اليقين عن موت زوجتي ، كما ينتظر الغراب الدم !» وكان يتردد على آل كاليتين كل يوم ، ولكن حتى وجوده هناك لم يكن يخفف مما في نفسه . كان من الواضح ان صاحبة البيت ضاغنة عليه ، وكانت تستقبله عن تلطف منها . وكان بانشين يعامله بادب مبالغ فيه . واتخذ ليم مظهر العداء الى البشر ، فلا يكاد يسلم عليه بانحناءة من راسه . والشيء الرئيسي ان ليزا بدت وكانها تتحاشاه . وحين يصادف ان تكون هي وهو على انفراد كان يظهر عليها الارتباك بدلا من روح الثقة السابقة . لم تكن تعرف ما تقول له ، فكان هو ايضا يشعر بالاضطراب . في خلال بضعة ايام لم تعد ليزا الفتاة التي كان يعرفها . بدا على حركاتها ، وصوتها ، وضحكتها ذاتها ، قلق خفي ، وعصبية لم تكن من قبل . ولان ماريا دميتريفنا انانية خالصة ، فانها لم تشك في شيء . الا ان مارفا تيموفييفنا اخذت تمعن النظر في محبوبتها . ولام لافريتسكي نفسه ، غير مرة ، على انه اطلع ليزا على عدد المجلة الذي تسلّمه ، وما كان له إلا ان يقرّ بان في حالته النفسية شيئا معكرا لصفو روح نقية . ثم انه كان يرى التغير في ليزا مبعثة صراع مع نفسها ، مع شكوكها في اي جواب ستقدم لبانشين . ذات مرة حملت له كتابا ، هو رواية والتر سكوت ، التي كانت قد طلبتها بنفسها منه .

سأل :

– هل قرات الكتاب ؟

– لا ، ليس لي مزاج للكتب الآن .

ردت بذلك ، وهمّت بالانصراف .

– على مهلك ، لحظة واحدة . لم انفرد بك منذ وقت طويل . كانك تخشينني .

– نعم .

– لاي شيء ، ارجوك .

– لا اعرف .

صمت لافريتسكي قليلا ، ثم قال :

– خبريني ، الم تستقري على قرار بعد ؟

قالت دون ان ترفع بصرها :

– ماذا تريد ان تقول ؟

– انت تفهمينني . . .
توهجت ليزا فجأة ، وقالت باندفاع :
– لا تسألني عن اي شيء . لا اعرف شيئا ، لا اعرف نفسي .
وانصرفت في الحال .

وفي اليوم التالي ذهب لافريتسكي الى آل كاليتين بعد الغداء ، ووجد عندهم الاستعدادات قائمة لصلاة المساء . على مائدة مربعة الشكل مغطاة بمفرش نظيف ، في ركن حجرة الطعام وضعت ايقونات صغيرة مستندة على الحائط ، في اطر مذهبة ، وفي هالات الراس احجار ماسية صغيرة كامدة البريق . جاء خادم عجوز في سترة فراك رمادية وحذاء ، يسير على مهل ودون ان يطرق الارض بكعبيه ، وقطع الحجرة كلها ، ووضع شمعتين في شمعدان دقيق امام الايقونات ، ورسم علامة الصليب ، وانحنى ، وخرج بهدوء . وكانت حجرة الجلوس غير المضاءة خالية من الناس . مشى لافريتسكي في حجرة الطعام ، وسأل عما اذا كان اليوم يصادف يوم القديس الشفيع لأحد ؟ اجيب همسا ، ان لا ، وان صلاة المساء تقام بناء على طلب من ليزافيتا ميخايلوفنا ، ومارفا تيموفييفنا ، وانهما ارادتا ان تُرفع ايقونة المعجزات ، إلا ان هذه الايقونة قد أُخذت الى مريض على بعد ثلاثين فرسخا . بعد قليل وصل القس بصحبة شماسين ، وكان رجلا ذا صلعة كبيرة تجاوز سن الشباب ، سعل في الرواق سعلة عالية . وفي الحال تقاطرت السيدات خارجات من غرفة المكتب ، وتقدمن اليه ليباركهن . انحنى لافريتسكي لهن صامتا . لبث القس واقفا برهة ، وسعل مرة اخرى ، وسأل بصوت خافض عميق النبرة :
– هل تأمرين بالبدء ؟
قالت ماريا دميترييفنا :
– إبدأ ، يا ابانا .

وبدأ يرتدي مسوحه . طلب الشماس الصغير الجرم جمرة صغيرة بلهجة متذللة . وفاحت رائحة البخور . خرجت الخادمات والخدم من الرواق ، ووقفوا امام الباب ككتلة متراصة . وفجأة ظهرت في حجرة الطعام الكلبة روسكا ، التي لم تنزل الى الاسفل قط ، فاخذوا يخرجونها ، فارتعبت ، واستدارت وجلست . امسكها خادم ، وخرج بها . وبدأ صلاة المساء . انكمش لافريتسكي

18*

في زاوية . كانت احاسيسه غريبة ، وحزينة تقريبا . لم يكن هو نفسه قادرا على ان يفهم جيدا ما كانت في نفسه من مشاعر .

كانت ماريا دميترييفنا تقف في مقدمة الجميع ، امام المقاعد ، وكانت ترسم علامة الصليب بميوعة واهمال ، على طريقة السيدات الراقيات ، متلفتة حولها تارة ، رافعة بصرها الى فوق تارة اخرى . لقد كانت ضجرة . وبدت مارفا تيموفييفنا ساهمة ، وانحنت ناستاسيا كاربوفنا انحناءات تمس الارض ، ونهضت بضوضاء رصينة ناعمة . وبقيت ليزا على وقفتها الاولى لا تريم ، ولم تتحرك من مكانها . ومن التعبير المرتسم على وجهها كان من الممكن الحدس بانها تصلّي باستغراق وحرارة ، وفي نهاية الصلاة حين لثمت الصليب قبلت ايضا يد القس الكبيرة الحمراء . دعته ماريا دميترييفنا الى تناول الشاي ، فخلع وشاحه الكهنوتي ، واتخذ شيئا من سمت الاعتبار ، وانتقل مع السيدات الى حجرة الطعام . وجرى حديث فاتر الحيوية . احتسى القس اربعة اقداح من الشاي ، ماسحا صلعته بالمنديل دون انقطاع ، وذكر ، في مجرى الحديث ، ان التاجر افوشنيكوف تبرّع بسبعمائة روبل لتذهيب «كُبّة» الكنيسة ، وطرح وسيلة موثوقة لمكافحة النمش . جلس لافريتسكي قرب ليزا ، ولكنها بقيت صارمة ، بل ومتجهمة تقريبا ، ولم تلق عليه نظرة واحدة . بدت وكأنها لم تفطن الى قصده ، واستولى عليها استغراق بارد مهيب . ولسبب ما اراد لافريتسكي ان يبتسم ، ويقول لها شيئا مسليا ، إلا ان الاضطراب كان يختلج في قلبه ، فخرج اخيرا ، تخامره حيرة غامضة . شعر بان شيئا يعتمل في نفس ليزا لم يكن قادرا على النفاذ اليه .

وفي اليوم التالي ، بينما كان لافريتسكي جالسا في حجرة الجلوس مستمعا الى دردشات غيديونوفسكي الملاطفة والثقيلة في نفس الوقت ، التفت فجأة ، ودون ان يعرف لماذا ، فالتقط في عيني ليزا نظرة عميقة مهتمة متسائلة . . . كانت مصوبة نحوه ، تلك النظرة المبهمة . وقد قضى لافريتسكي ليلة كاملة يفكر فيها . لم يكن يحب حب الصبيان ، وما كان ليليق به التنهد والاستغراق في الاحزان ، كما ان ليزا نفسها لم تكن لتثير عاطفة من هذا القبيل ، ولكن للحب ، في كل الاعمار ، عذاباته الخاصة به ، وكان لافريتسكي يكابدها بكليتها .

ذات مرة كان لافريتسكي ، على عادته ، جالسا في بيت آل كاليتين . وقد حلّ مساء رائع ، بعد نهار مرهق بقيظه فامرت ماريا دميترييفنا ، رغم نفورها من تيار الهواء ، بفتح جميع النوافذ والابواب المطلة على الحديقة ، واعلنت بأنها لن تلعب الورق ، لان لعب الورق ، في مثل هذا الجو ، إثم ، إذ يجب الاستمتاع بالطبيعة . ولم يكن عندها من الضيوف غير بانشين . فانطلق هذا ينشد الشعر مأخوذا بسحر المساء ، وعازفا عن الغناء بحضور لافريتسكي ، وشاعرا ، في ذات الوقت ، بسورة من المشاعر الفتية . فقرأ اشعارا من ليرمونتوف (آنذاك لم يكن بوشكين قد دخل في الموضة) قراءة جيدة ، ولكن بادراك شديد ، وتنعيمات لا ضرورة لها . وفجأة ، وعند ذكر قصيدة «هواجس» (٦٢) الشهيرة ، شرع وكأنما خجل من افراطاته ، يلوم ويقرّع الجيل الجديد ، كما انه لم يفوت الفرصة ليعلن ان السلطة لو كانت بيديه لقلّب كل شيء حسب ما يرتضيه . وكان يقول : «ان روسيا تخلفت عن اوروبا ، ويجب اللحاق بها . انهم يؤكدون اننا في عمر الشباب ، وهذا هراء . كما اننا نفتقر الى القدرة على الاختراع . وخومياكوف (٦٣) نفسه يعترف بأننا لم نبتكر حتى مصيدة فئران . وبهذا السبب نحن مضطرون الى الاستعارة من الآخرين . يقول ليرمنتوف : نحن مرضى . وانا متفق معه . ولكننا مرضى لاننا صرنا اوروبيين الى النصف . ويجب ان نعالج سبب دائنا ؛ (فكر لافريتسكي «Le cadastre») وتابع يقول : لدينا احسن الرؤوس les meilleures têtes قد اقتنعت بذلك منذ زمان . وجميع الشعوب سواسية ، من حيث الجوهر . وما عليك إلا ان تقيم مؤسسات جيدة ، وتنتهي المسالة . اعتقد ان من الممكن التكيف مع نمط الحياة الشعبي القائم . هذا راجع لنا ، راجع لرجال . . . (كاد ان يقول رجال الدولة) رجال الخدمة ، ولكن ، عند الضرورة ، لا تقلقوا ، ستغير المؤسسات هذا النمط ذاته» .

وكانت ماريا دميترييفنا تساند بانشين بحنان . فقد كانت تفكر : «ان مثل هذا الذكي يتحدث في بيتي» . ولزمت ليزا الصمت متكئة على النافذة ، كما صمت لافريتسكي ايضا . ودمدمت مارفا

تيموفييفنا بشيء في همس ، وهي تلعب الورق مع صاحبتها في ركن . كان بانشين يروح ويجيء في الحجرة ويتكلم بجمال ، ولكن بحنق خفي . فقد بدا وكأنه لا يشتم جيلا كاملا ، بل اناسا معينين يعرفهم . وكان عندليب يتخذ له عشا في اجمة ليلق كبيرة في حديقة آل كاليتين . فكانت زغرداته المسائية الاولى تتردد في ثنايا الكلام البديع . وتوقدت النجوم الاولى في السماء الوردية فوق قمم اشجار الزيزفون الساكنة . نهض لافريتسكي ، واخذ يعترض على بانشين . وانعقد جدال . صار لافريتسكي يدافع عن الشباب واستقلالية روسيا ، ويهب نفسه وجيله للتضحية ، ولكنه وقف الى جانب الجدد من الناس ، الى جانب معتقداتهم ورغائبهم . كان بانشين يعترض باغتياظ وبحدة ، وذكر ان الاذكياء يجب ان يغيروا كل شيء ، وانجرف اخيرا ، الى حد ، انه نسي لقبه كضابط حاشية ، ومستقبله كموظف ، ووصف لافريتسكي بالمحافظ المتخلف ، بل لمّح — ومن بعيد ، في الحق — الى وضعه المريب في المجتمع . ولم يغضب لافريتسكي ، ولم يرفع صوته (تذكر ان ميخاليفتش ايضا نعته بالمتخلف ، ولكن كفولتيري) ودحر بانشين بهدوء في كل النقاط . وبرهن له على استحالة القفزات ، والتغيرات العنجهية التي تحققها الموظفون الضيقون ، التغيرات ، غير المسوّغة بمعرفة لارض الوطن ، ولا بالايمان الفعلي في المثال ، ولو كان سلبيا ، وضرب على ذلك مثلا بتربيته الخاصة ، وطالب قبل كل شيء بالاعتراف بالحقيقة الشعبية ، والامتثال لها ، ذلك الامتثال الذي بدونه يستحيل حتى على الجراة ان تتحدى الكذب ، واخيرا ، لم يتبرأ من اللوم ، الذي يستحقه ، حسب رأيه ، على تبذيره الارعن للوقت والقوى .

واخيرا هتف بانشين ، وقد ثارت اعصابه :

— كل هذا رائع ! ها انت قد عدت الى روسيا ، فماذا تنوي ان تفعل ؟

اجاب لافريتسكي :

— احرث الارض ، واحاول ان احرثها على احسن ما يمكن .

قال بانشين :

— هذا شيء محمود جدا ، دون شك . وقد حدثتني ذات مرة انك حققت نجاحات كبيرة في هذا المجال ، ولكن انت توافقني على

ان هذا اللون من العمل لا يقتدر عليه كل انسان . . .

تدخلت ماريا دميتريفنا قائلة :

— Une nature poetique * ، لا يستطيع ان يحرث بالطبع . . . ** et puis انك مدعو ، يافلاديمير نيقولايتش ، الى ان تقوم بكل ما هو *** en grand .

وكان ذلك اكثر من اللازم ، حتى بالنسبة لبانشين . استرخى ، واسترخى الحديث معه . حاول ان ينقله الى جمال نجوم السماء ، الى موسيقى شوبرت ، ومع ذلك فلم يربط ما تراخى ، وانتهى بانشين الى ان يقترح على ماريا دميتريفنا ان تلعب «البكيت» . فاعترضت في ضعف : «كيف في مثل هذا المساء ؟» ومع ذلك فقد أمرت باحضار الورق .

مزّق بانشين غلاف شدة ورق جديدة محدثا ضجيجا . نهضت ليزا ولافريتسكي سوية ، وكأنما على اتفاق ، وجلسا قرب مارفا تيموفييفنا . وفجأة شعر كلاهما بالارتياح هناك ، حتى لكأنهما كانا يخشيان قليلا من بقائهما على انفراد ، وفي نفس الوقت شعرا بأن الارتباك الذي كان ينتابهما في الايام الاخيرة قد زال ، ولن يعود بعد الآن . وربتت العجوز على خد لافريتسكي خلسة ، وقلّصت عينيها بمكر ، وهزّت رأسها بضع مرات ، هامسة : «احسنت صنعا بتقريعك اللوذعي ذاك» . وهدأ كل شيء في الحجرة ، ولم يسمع غير زمزمة الشموع الضعيفة ، واحيانا ارتطام الايدي على المنضدة ، وآهة اندهاش ، وعد النقاط ، وزغردة العندليب العالية ، الرنانة الى حد الجراة ، تندفع من النافذة كالموجة العريضة مع طراوة الندى .

٣٤

لم تنطق ليزا بكلمة واحدة خلال النقاش بين لافريتسكي وبانشين ، ولكنها كانت تتابعه باهتمام ، وكانت الى جانب لافريتسكي . لم تكن السياسة تشغلها الا قليلا ، الا ان اللهجة

* الخلق الشاعري (بالفرنسية في الاصل) .
** ثم (بالفرنسية في الاصل) .
*** عظيم (بالفرنسية في الاصل) .

المتشامخة لذلك الموظف الراقي (لم يكن من قبل قد افصح عن آرائه قط) قد نفرّتها ، واحست بالمهانة من ازدرائه لروسيا . ولم تكن تظن ، بل ولم يخطر في بالها ، انها وطنية ، ولكنها كانت بروحها مع الروس الاقحاح ، وكان نمط التفكير الروسي يسرها ، وكانت تتحادث مع عمدة ضيعة امها ساعات كاملة ، حين يأتي الى المدينة ، دون تكلف للتواضع ، تتحادث معه حديث الند للند ، ودون اي شعور بتلطف الاسياد . وكان لافريتسكي يشعر بكل ذلك . وما كان سيعترض على بانشين فقط ، ولكنه كان يتحدث لليزا فقط . ولم يقل احدهما للآخر شيئا ، بل ونادرا ما التقت عيناهما ، ولكن كليهما ادرك انهما تقاربا بصلة وثيقة في ذلك المساء ، وادركا انهما يحبان ويبغضان اشياء واحدة . ولم يكونا يختلفان الا في شيء واحد . ولكن ليزا كانت تأمل في سرها ان تهديه الى الرب . جلسا قرب مارفا تيموفييفنا ، وبدا وكأنهما يتابعان اللعبة . وبالفعل كانا يتابعانها . ولكن قلب كل واحد منهما اتسع في صدره ، ولم يكن يفوتهما شيء . فالشحرور كان يغني لهما ، والنجوم تتألق ، والاشجار تحف خافتة تهدهد للنوم ، ولنعمة الصيف ، وللدفء . وكان لافريتسكي يستسلم كليا للموجة التي غمرته ، ويستَرّ . ولكن ما من كلمة يمكن ان تعبّر عما كان يجري في نفس الفتاة النقية . كان ذلك سرا بالنسبة لها ، فليظل اذن سرا بالنسبة للجميع . اذ لا احد يعرف ، ولا احد رأى ، ولن يرى كيف تنبت البذرة في بطن الارض وتنضج ، وهي المفطورة على الحياة والازدهار .

دقت الساعة العاشرة . صعدت مارفا تيموفييفنا الى حجرتها مع ناستاسيا كاربوفنا . وسار لافريتسكي وليزا في الغرفة ، وتوقفا امام باب الحديقة المفتوح ، وحدقا في المدى المظلم ، ثم احدهما في الآخر ، وابتسما . فليتهما شابكا يديهما ، وانخرطا في الحديث الى حد الشبع . عادا الى ماريا دميتريفنا وبانشين ، حيث استطال اللعب . وانتهت اللعبة الاخيرة في خاتمة المطاف ، ونهضت ربة البيت ، من المقعد المبطن بالوسائد ، وهي تئن وتتأوه . وتناول بانشين قبعته ، وقبّل يد ماريا دميتريفنا ، وذكر ان الآخرين سعداء الحظ لا شيء يعيقهم الآن من ان يأووا الى فراشهم ، او يستمتعوا بالليل ، بينما يضطر هو الى الانكباب على الاوراق

البلهاء حتى الصباح ، ثم حيّا ليزا بانحناءة باردة (لم يكن يتوقع ان تطلب اليه الانتظار ردا على طلبه يدها ، ولهذا فهو موغر الصدر عليها) وانصرف . وغادر لافريتسكي في اثره . وافترقا عند البوابة . ايقظ بانشين حوذيه ، بعد ان وخز عنقه بطرف عصاه ، وجلس في العربة ، ومضى . ولم يرغب لافريتسكي في العودة الى البيت . فخرج من المدينة الى العراء . كانت الليلة هادئة ، منيرة ، رغم غياب القمر . تجوّل لافريتسكي وقتا طويلا على العشب المندّى . فوقع على درب ضيق . سار فيه . فافضى به الدرب الى سياج طويل ، والى باب فيه . حاول ان يدفعه ، دون ان يدري لماذا . صرّ الباب صريرا خفيفا ، وانفتح ، وكأنه كان ينتظر ان تمسه يد . وجد لافريتسكي نفسه في حديقة . سار بضع خطوات في درب معرّش باشجار الزيزفون ، وتوقف فجأة مذهولا . فقد عرف انه في حديقة آل كاليتين .

دخل في الحال بقعة ظل سوداء ، تكونها اجمة كثيفة من شجيرات الجوز ، وظل وقتا طويلا يقف دون حراك ، مندهشا ، هازّا كتفيه .

وفكر مع نفسه : «ليس ذلك محض مصادفة» .

كان الهدوء يلف كل شيء حوله ، ولا صوت يأتي من ناحية البيت . سار الى الامام بحذر . وها هو البيت بكليته قد اطل عليه بواجهته المظلمة ، بعد منعطف الدرب المعرّش ، وما من ضوء ، الا في نافذتين في الطابق العلوي : في حجرة ليزا كانت تشتعل شمعة وراء ستارة بيضاء ، وامام الايقونة في مخدع مارفا تيموفييفنا كان يومض قنديل كقبس احمر ، منعكسا على ذهب الاطار كالق سبط . والى الاسفل ، كان باب الشرفة مفتوحا على مصراعيه . جلس لافريتسكي على مسطبة خشبية ، واستند على يده ، وراح يحدّق في هذا الباب ، ونافذة ليزا . اعلنت ساعة في المدينة منتصف الليل ، وفي البيت دقت ساعة صغيرة اثنتي عشرة دقة رنانة ، وضرب الحارس على لوحته ضربا ارسل ذبذبة . ولم يكن لافريتسكي يفكر في شيء ، ولا يتوقع شيئا . كان يلذ له ان يشعر بقربه من ليزا ، وان يجلس في حديقتها على مسطبة جلست عليها غير مرة . . . واختفى الضوء في حجرة ليزا .

همس لافريتسكي : «طابت ليلتك ، يافتاتي العزيزة» ماضيا

في جلوسه بعض الوقت ، غير صارف بصره عن النافذة التي غاب عنها الضوء .

وفجأة ظهر ضوء في احدى نوافذ الطابق الاسفل ،وانتقل الى اخرى ، وثالثة . . . كان شخص يسير عبر الحجرات حاملا شمعة . «امعقول انها ليزا ؟ غير ممكن ! . .» ورفع لافريتسكي جسمه على المسطبة . . . وتراءى المحيّا المالوف ، وظهرت ليزا في حجرة الجلوس . تقدمت من المائدة في ثوب ابيض ، وعلى كتفيها ضفيرتاها غير المحلولتين ، وانحنت عليها ، ووضعت الشمعة ، وبحثت عن شيء ، ثم ادارت وجهها نحو الحديقة ، واقتربت من الباب المفتوح ، وتوقفت على العتبة بيضاء كلها ، خفيفة ، ممشوقة القد . سرت رعشة في اوصال لافريتسكي :

— ليزا !

ندّ هذا النداء من شفتيه غير واضح للسمع .

جفلت ليزا ، وبدات تحدق في الظلام .

— ليزا !

كرر لافريتسكي بصوت اعلى ، وخرج من ظل التعريشة .

مدّت ليزا راسها بفزع ، وتراجعت الى الخلف . فقد عرفته . ناداها للمرة الثالثة ، ومدّ اليها ذراعيه . انفصلت عن الباب ، ودخلت الى الحديقة . وقالت :

— انت ؟ انت هنا ؟

— انا . . . انا . . . اسمعيني .

قال لافريتسكي ، وامسكها من يدها ، وقادها الى المسطبة . سارت وراءه دون مقاومة . ووجهها القريب ، وعيناها الجامدتان ، وكل حركاتها كانت تفصح عن دهشة لا توصف . اجلسها لافريتسكي على المسطبة ، ووقف امامها ، وشرع يقول :

— لم افكر في المجيء الى هنا ، بل ساقتني قدماي . . . انا . . . انا . . . انا . . . احبك .

نطق ذلك بشيء من الذعر .

نظرت ليزا اليه ببطء ، وبدا وكأنها ، في هذه اللحظة فقط ، ادركت اين هي ، وماذا يجري معها . ارادت ان تنهض ، فلم تستطع ، فغطت وجهها بيديها .

قال لافريتسكي :

– ليزا – ثم اعاد النداء – ليزا !
وانحنى على قدميها .

بدات كتفاها ترتجفان قليــــلا ، والتصقت اصابع يديهــــا الشاحبتين بوجهها اشد من ذي قبل .

– ماذا بك ؟

قال لافريتسكي ، وسمع انتحابا هادئا . ووجــب قلبه . . . فقد ادرك ماذا كانت تعني هذه الدموع . همس :

احقا انك تحبينني ؟ – همس ، ومسّ ركبتيها .

تردد صوتها :

– انهض ، انهض ، يافيدور ايفانيتش . ما هذا الذي نفعلـه انت وانا ؟

نهض ، وجلس الى جانبها على المسطبة . كانــت قد كفت عن البكاء ، وراحت تمعن النظر فيه بعينيها النديتين .

عادت تقول :

– ما هذا الذي نفعله ؟ ان ذلك يرعبني .

فقال من جديد :

– انا احبك ، وانا مستعد ان اهبك كل حياتي .

ارتعدت ثانية ، وكأن شيئا قد لدغها ، ورفعت بصرها صوب السماء . وقالت :

– كل ذلك بحكم الرب .

– ولكن ، انت تحبينني ، ياليزا ؟ سنكون سعيدين ؟

خفضت بصرهــــا ، فضمها اليه بهدوء ، فوقــع راسها على كتفه . . . امال راسه قليلا ، ومسّ شفتيها الشاحبتين .

* * *

وبعد نصف ساعة كان لافريتسكي واقفا امام باب حديقــــة كاليتين . وجده مغلقا ، فاضطر الى ان يقفــز من فوق السياج . عاد الى المدينة ، وسار في الشوارع الهاجعة . وكانت نفسه ممتلئة بشعور فرحة عظيمة غير متوقعة ، وشكوكــــه قد خمدت كلها . وفكر : «اختفِ ، ايها الماضي ، ايها الشبح القاتم . انها تحبني ، وستكون لي» . وفجأة خيل اليه ان اصواتا رائعة متهللة تملأ الهواء

فوق راسه . توقف . اخذت الاصوات تهدر اشد روعة . وتدفقت كسيل قوي صدّاح . وبدا وكأن سعادته كلها تتكلم وتتغنى فيها . التفت . كانت الاصوات تنبعث من نافذتين في بيت صغير .

– ليم ! –هتف لافريتسكي ، وركض نحــــو البيت وكرر بصوت عال . – ليم ! ليم !

سكتت الاصوات ، وظهر في النافــذة شخص العجوز في روب منزلي ، مكشوف الصدر ، منفوش الشعر .

قال بجلال :

– اها ! هذا انت ؟

– خريستوفر فيدوريتش ، اية موسيقى مدهشة هذه ! دعني ادخل ، بحق الرب !

ودون ان يقول العجوز كلمة واحدة القى مفتاح الباب مــــن النافذة بحركة مهيبة من يده . صعــد لافريتسكي الى فوق بخفة ، ودخل الحجرة ، واراد ان يرتمــي على ليم ، الا ان هذا اشار الى كرسي اشارة آمرة ، وقال بالروسية باقتضاب : «اجلس واسمع» . وجلس هو الى البيانو ، وتلفت فيما حوله بكبرياء وصرامة ، وشرع يعزف . لم يسمع لافريتسكي منذ زمن طويل مثيلا لما سمعه . منذ الرنة الاولى استولى على قلبه نغم عذب جيّاش العاطفة ، يتالــق بكليته ، متشبعا بأسره بالالهام ، والسعادة ، والجمــال ، تنامى ، وتلاشى ، ومسّ كل ما هو ثمين وخفــي وقدسي على الارض . كان ينفث حزنا لا يفنى ، وينأى ليموت في السماء . انتصب لافريتسكي بجذعه ، ووقف ، مبتردا ممتقعا من غمرة الفرح . وظلــت هذه الاصوات تنصب في روحه التي هزتها سعادة الحب للتو ، وكانــت هي نفسها تتوهج حبــــا . همس لافريتسكي : «اعد» حالما صدح اللحن الاخير . القى العجوز عليه نظرة صقــر ، وضرب على صدره بيده ، وقال بلغته القومية ، بتؤدة : «انا الذي عملت ذلك ، لانني موسيقي عظيم» ، واعاد قطعته المدهشة . لم تكن في الحجرة شمعة ، وكان ضوء القمر الطالع يسقط على النافذة بانحراف ، والهواء الرهيف يرتعش برنين والحجرة الصغيرة البائسة تبدو مكانا مقدسا ، وكان راس العجوز يرتفع في الضوء الشاحــــب عاليا وبالهام . تقدم لافريتسكي منه ، وعانقه . في البداية لم يستجب ليم لعناقه ، بل ودفعه بمرفقه ، وظل وقتا طويلا ينظر بنفس الصرامة ، بــــل

وبفظاظة تقريبا ، دون ان يحرك اي طرف من اطرافه ، ولمرتين فقط تمتم «اها !» . واخيرا هدأ وجهه ، بعد اضطراب اساريره ، وانخفض ، وابتسم قليلا ردا على تهانىء لافريتسكي ، وبعد ذلك انخرط في البكاء ، ناشجا كالطفل ، نشيجا خافتا . قال :

— غريب ان تاتي الآن ، بالذات . ولكنني اعرف ، اعرف كل شيء .

قال لافريتسكي بارتباك :

— تعرف كل شيء ؟

قال ليم :

— سمعت ما عزفته . هل معقول انك لم تدرك انني اعرف كل شيء !

ارق لافريتسكي حتى الصباح . قضى الليل كله قاعدا على السرير . كما ان ليزا لم تنم ايضا . كانت تصلي .

٣٥

يعرف القارىء كيف شبّ لافريتسكي ، وكيف تربى . فلننقل شيئا عن تربية ليزا . مات ابوها بعد ان بلغت العاشرة . ولكنه لم يكن يوليها كبير الاهتمام . كان غارقا في اعماله ، دائم التفكير في انماء ثروته ، صفراوي المزاج ، حاد الطبع ، قليل الصبر ، وكان لا يبخل في بذل النقود للمعلمين والمربيات ، وللثياب وغير ذلك من حاجات الاطفال . ولكنه لم يكن يطيق مناغاة المولولين ، على حد تعبيره ، كما لم يكن يملك وقتا يصرفه على مناغاتهم ، فقد كان يعمل ، ويدير الاشغال ، وينام قليلا ، ومن حين لآخر يلعب الورق ، ثم يعود الى العمل . وكان هو يشبّه نفسه بالحصان المربوط بطاحونة . وقال بمرارة ، وهو على فراش الموت ، بشفتين يابستين : «حياتي مرت بسرعة» . ولم تكن ماريا دميتريفنا ، في جوهر الامر ، اكثر من زوجها اهتماما بليزا ، رغم انها تباهت امام لافريتسكي ، بأنها لوحدها ربّت اولادها . كانت تلبسها ، كما تلبس الدمية ، وتمسّد على رأسها ، امام الضيوف ، وتصفها بحضورها بالذكية ، وبالحبيبة ، ولا اكثر من

ذلك . فقد كانت اية عناية مستديمة تنهك هذه السيدة الكسول . كانت ليزا ، في حياة ابيها ، تحت رعاية مربية ، هي الآنسة مارو من باريس . وبعد وفاته انتقلت الى اشراف مارفا تيموفييفنا . والقارىء يعرف مارفا تيموفييفنا . اما الآنسة مارو فقد كانت مخلوقا ضئيل الجسم ، كثير التجاعيد ، لها اخلاق الطائر ، وعقل الطائر . في شبابها عاشت حياة سادرة ، ولم يبق لها عند الشيخوخة غير هوايتين : اطايب الطعام ولعب الورق . وحين تكون شبعى ولا تلعب الورق ، ولا تثرثر ، كان يرتسم على وجهها فورا قناع كقناع الموت . فكانت تقعد في مكانها ، وتحدق ، وتتنفس ، ويبدو واضحا ان اية فكرة لا تدور في رأسها . بل وما كان من الممكن ان توصف بالطيبة ، اذ لا توجد طيور طيبة . كان يعشش فيها ما يشبه روح التشكك الرخيصة العمومية المعبر عنها عادة بكلمات : «Tout ça c'est des bêtises» * ، ولربما علة ذلك هو الشباب الذي قضته باللامبالاة ، او هواء باريس الذي تشبعت به في طفولتها . كانت تتكلم بالعامية الباريسية الخالصة ولكن بركاكة ، دون ان تثرثر ، ولا تبدي نزوات . فما ذا يراد اكثر من هذا من مربية ؟ وكان لها تاثير قليل على ليزا ، ولكن تاثير حاضنتها اغافيا فلاسييفنا فيها اكثر من تاثير هذه المربية .

كانت قصة هذه المرأة ملفتة للنظر . فقد نشأت في عائلة فلاحية ، وزوّجت فلاحا ، وهي في السادسة عشرة من العمر . ولكنها كانت تتميز عن اخواتها الفلاحات تميزا قويا . وقد تبوأ ابوها منصب العمدة زهاء عشرين عاما ، وجمع الكثير من النقود ، وكان يدللها . وكانت جميلة بشكل غير اعتيادي ، والغندورة الاولى في المنطقة كلها ، وكانت ذكية ، ذلقة اللسان ، جريئة . وكان سيدها دميتري بيستوف ، ابو ماريا دميتريفنا ، وهو انسان متواضع وهادىء ، قد رآها ذات مرة في درس الحبوب ، وتحدث اليها ، ووقع في غرامها . وبعد قليل من الزمن ترملت . وعلى الرغم من ان بيستوف كان متزوجا ، فقد ضمها الى بيته ، وكساها كسوة النساء الراقيات . وسرعان ما تكيفت لوضعها الجديد ، وكأنما لم تعش عمرها في وضع آخر . فقد ابيضت بشرتها ، وامتلأ جسمها ،

* كل ذلك سخافات (بالفرنسية في الاصل) .

وصارت ذراعاها ، تحت الكمين من قماش الموصلين ، «بيضاوين بياض الدقيق» ، مثل ذراعي زوجة تاجر . وكان السماور منصوبا على المائدة دائما ، ولم تكن تلبس غير الحرير والمخمل ، وكانت تنام على وسائد من الريش . واستمرت هذه الحياة المنعّمة حوالى خمسة اعوام ، الا ان دميتري بيبيتوف وافـاه الاجل ، ولم ترد ارملته ، وهي سيدة طيبة ، تعزّ ذكرى زوجها ، ان تتصرف ازاء ضرّتها بشكل غير نزيه ، لا سيما وان اغافيا لم تكن تنسى موقعها ازاءها ، ومع ذلك فقد زوّجتها راعي مواش ، وابعدتها حتى لا يقع عليها بصرها . وانقضت ثلاث سنوات او نحوها . وفي يوم صيفي قائظ وصلت السيدة الى زريبة مواشيها . فقدمت لها اغافيا قشدة لبن باردة لذيذة ، وتصرفت بتواضع شديد ، وكانت هي نفسها حسنة الهندام ، مرحة ، راضية عـن كل شيء ، حتى ان السيدة اعلنت لها مسامحتها ، ودعتها الى التردد على البيت . وبعد حوالى ستة اشهر تعلقت بها تعلقا شديدا ، وعهدت اليهـا بالحسابات ، واوكلت اليها كل الشؤون الاقتصادية . وعادت اغافيا الى قوتها السابقة ، وامتلأ جسمها ثانية ، وابيضت ، ووثقت السيدة بها كل الثقة . وانقضت خمس سنـوات آخر على هذا المنوال . وحلّت مصيبة ثانية على اغافيا . ادمن على السكر زوجها ، الذي وظفتـه خادما ، وصار يتغيّب عن البيت ، وانتهى الامر به الى ان سرق من بيت المخدوم ست ملاعق فضية ، واخفاها — لوقت الحاجـة — في صندوق زوجته . وانكشف الامر . فاعيد ثانية الى رعاية الماشية . وعوقبت اغافيا . لم يقصوها عن البيت ، ولكنهم انزلوها من وظيفة المحاسبة الى خياطة ، وامروها بأن تعصب راسها بالمنديل ، بدلا من القلنسوة . ودُهش الجميع لتحمل اغافيا هذه الضربة الصاعقة لها بوداعة خاضعة . وكانت آنذاك قد تخطت الثلاثين ، وقد توفي جميع اولادها ، كما ان زوجها لم يعش طويلا ، وقد آن الاوان لان تفيق على نفسها ، وافاقت على نفسها . صـارت صموتا جدا ، ومتعبّدة ، لم تفوّت صلاة واحدة سواء أكانت صـلاة الصبح او قدّاسا ، ووزعت جميع فساتينها الجيدة هدايا . وقضت خمسـة عشر عاما بهدوء ، ووداعة ، ورصانة ، لم تتشاجر مع احد ، وتتنازل للجميع . وحين يقسو عليها احد كانت تكتفي بالانحنـاء له ، وتشكره على العظة . وكانت سيدتها قد سامحتها منذ زمان ، ورفعت

العقوبة عنها ، واهدتها قلنسوة من على راسها ، ولكن اغافيا نفسها لم ترد ان تخلع المنديل من راسها ، وكانت تلبس ثوبا داكن اللون على الدوام ، وبعد وفاة السيدة صارت اكثر هدوءا وضِعَة . والروسي يخاف ، ويتعلق بسهولة ، ولكن من الصعب كسـب احترامه ، فان كسبه يحتاج الى وقت طويل ، وليس في ميسـور انسان . كان جميع مَنْ في البيت يحترمون اغافيا ، ولم يشر الى زلاتها السابقة اي انسان ، فكأنما قبرت في الارض مع السيد العجوز .

وبعد زواج كاليتين من ماريا دميتربيفنا اراد ان يوكل الشؤون المنزلية لأغافيا ، ولكنها رفضت «خوفا من الغواية» ، وحين راح يقرّعها ، انحنت له انحناءة واطئة ، وخرجت . كان كاليتين ، وهو الذكي ، يفهم الناس ، وقد فهم اغافيا ، ولم ينسها . وعند انتقاله للعيش في المدينة ، جعلها ، بموافقة منها ، حاضنة لليزا ، التي كانت ، في ذلك الحين ، في مستهل عامها الخامس .

في باديء الامر ارعب ليزا ما في وجه الحاضنـة الجديدة من جدية وصرامة ولكن سرعان ما تعودت عليها ، واحبتها حبا جما . وكانت نفسها طفلة جادة ، وقسمات وجهها تشبه قسمات كاليتين الحادة والمتناسقة ، سوى ان عينيها لم تكونا كعيني ابيها ، فقد كانتا تشعان انتباها هادئا وطيبة مما يندر ان يكون عند الاطفال . ولم تكن تحب اللعب بالدمى ، ولم تكن تضحك عاليـا وطويلا ، وكانت تتصرف برصانة . وكانت لا تغرق في التفكير كثيرا ، ولكن اذا ما فكرت فان تفكيرها دائما تقريبا عن وجاهة : كانت تصمت قليلا ، ثم ينتهي الامر بها عادة الى ان توجه لاحد الكبار سؤالا كان يظهر ان ذهنها مشغول بانطباع جديد . واستقام لسانهـا في وقت مبكر جدا ، وصارت ، وهي لمّا تزل في عامها الرابع ، تتكلم بلغة سليمة تماما . وكانت تخشى اباها ، بينما لم تكن عاطفتها نحو امها محددة . كانت لا تخشاها ، ولا تتودد اليها ، بل ولم تكن تتودد حتى لأغافيا ، وان كانت هي المرأة الوحيدة التي احبتها . كان مرآهما لوحدهما مشهدا غريبا . كانت اغافيا ، وهي متشحة بالسواد ، معصوبة الراس بمنديل داكن ، بوجهها الناحل ، الشاحب بلون الشمع ، والجميل والمعبّر في نفس الوقت تجلس باستقامة ، وتحوك جوربا ، بينما تجلس ليزا عند قدميها ، على مقعد صغير ،

وهي منكبة ايضا على عمل ، او تصغي الى ما تقص عليها اغافيا ، وقد رفعت اليها عينيها الوضاءتين . واغافيا لا تروي لها الحكايات ، بل تحدثها ، بصوت وادع مستوي النبرات ، عن حيــاة العذراء الطاهرة ، عن حيـــاة النسّاك ، واوليـــاء الله ، والشهيدات القديسات . وتقصّ على ليزا كيف عاش القديسون في الصحارى ، ونشدوا الخلاص ، وعانوا الجوع والعوز ، ولم يخافوا القياصرة ، فقد كانوا يبشرون بالمسيح . كانت طيور السماء تحمل لهم الطعام ، والوحوش تطيعهم . الزهور تنمو في الاماكن التي سفح فيها دمهم . وذات مرة سألتها ليزا ، وكانت تحب الزهور كثيرا : «أهي المنثور الاصفر ؟» . . . وكانت اغافيا تتكلم مع ليزا بمهابة ولين ، وكأنما كانت تشعر ، من ذات نفسها ، بأن النطق بمثل هذه الكلمـات الرفيعة القديسة ليس من شأنها ، وكانت ليزا تصغي اليها ، فتنفذ الى قلبها ، بزخم حلو ، صورة إله موجود في كل مكان ، عليم بكل شيء ، فكانت تمتلئ بخوف نقي مبجّل ، وكان المسيح يصير قريبا اليها اليفا لها ، تكاد ترتبط به برابطة القربى . وقد علمتها اغافيا الصلاة ايضا . احيانا كانت توقظ ليزا في باكر الصباح ، وتلبسها ملابسها على عجل ، وتاخذها بالخفاء الى صلاة الصباح . وكانت ليزا تسير وراءها على اطراف اصابعها ، متقطعة الانفاس . وكان البرد ، وضوء الصباح الشاحب ، والنداوة ، وخواء الكنيسة ، وخفية هذه التغيبات نفسها ، والعودة الحذرة الى البيت ، الى السرير ، كل هذا الخليط من المحظور والغريب والمقدس يهز نفس الفتاة ، وينفذ الى اعمق اعماق كيانها . لم تكن اغافيا تلوم احدا قط ، ولا تعاقب ليزا على المشاكسة . وحين كانت لا ترتاح من شيء تلوذ في الصمت لا غير ، وكانت ليزا تعرف صمتها ، كما كانت تفهم بنباهة الطفل السريعة ، وبشكل جيد ، حين تكون اغافيا مغتاظة من الآخرين سواء من ماريا دميتريفنا او من كاليتين نفسه . وظلّت اغافيا ترعى ليزا اكثر من ثلاثة اعوام وبعدها حلّت الآنسة مارو محلها . ولكن هذه الفرنسية المستخفة ، بما عرفت به من تصرفات جافـــة ، وبهتافها : «Tout ça c'est des bêtises» لم تستطع ان تزيح من قلب ليزا حاضنتها المحبوبة ، فان البذور التي زرعتها هذه الحاضنـــة مدّت جذورا عميقة جدا في نفس ليزا . ثم ان اغافيـــا ظلت في البيت ، رغم انقطاعها عن رعاية ليزا ، وغالبا ما كانت تلتقي بها ،

بتلك ، التي ظلت واثقة بها كما كانت من قبل .

الا ان اغافيا لم تكن تنسجم في العيش مع مارفا تيموفييفنا ، حين كانت هذه تنتقل لتعيش في بيت كاليتين . فان جناب هذه «السيدة السابقة» بما فيه من صرامة لم ترق له العجوز المتأنية الواثقة بنفسها ، فطلبت اغافيا اذناً بالسفر للحج الى الاماكـــن المقدسة ، ولم تعد . وسرت شائعات غامضـــة تزعم انها دخلت صومعة لاتباع المذهب القديم . الا ان الاثر الذي تركته في نفس ليزا ظل باقيا لا يمحى ، فقد ظلت تتردد الى القداس ، كالسابق ، وكأنها خارجة الى عيد ، وتصلي بشغف ، ولهفة مكبوتـة مستحية ، مما كان يثير في نفس ماريا دميتريفنا دهشة خفية غير قليلة ، بل وان مارفا تيموفييفنا نفسها ، رغم عدم تضييقهـــا على ليزا بشيء ، كانت تحاول ان تخفف من اندفاعها ، ولا تسمح لها بإداء ركعات فائضة عن اللزوم ، قائلة ليس هذا السلوك مناسبا لفتاة من علية القوم . درست ليزا جيدا ، اي بمثابرة ، لا سيما وان الرب لم يهبها قابليات لامعة وعقلا كبيرا ، فلم يستجب لها اي شيء الا بالجهد . كانت تعزف على البيانو بشكل جيد ، ولكن ليم وحده كان يعرف مقدار الجهد الذي بذلته لتبلغ ذلك . وكانت قليلة القراءة . ولم تكن تملك «مفرداتها» ولكن كانت لها افكارها ، فســارت في طريقها . وليس غريبا ان تشابه اباها ، فهو ايضا لم يكن يسأل الناس ما ينبغي عليه ان يفعل . وهكذا نشأت هادئة غير متعجلة ، حتى بلغت التاسعة عشرة . كانت حبيبة الى القلب كثيرا ، دون ان تعرف هي نفسها بذلك . كانت كل حركاتها تنم عن رشاقة طبيعية مرتبكة قليلا ، وكان صوتها يرن رنين الفضة لصبا عذري ، وكان اقل احساس بالمتعة ينتزع ابتسامة جذابة من ثغرها ، ويضفي على عينيها المتألقتين رقة لا يسبر غورها . كانت ، وهي المتشبعة بشعور الواجب ، والخوف من ان تسيئ الى احد مهما يكن ، وبقلبها الطيب الدمث ، تحب كل الناس ، ولا احد على وجه الخصوص . كانت تحب الله وحده بهيام وورع ورقة قلب . وكان لافريتسكي اول من حطم حياتها الداخلية الوادعة .

هذه هي ليزا .

في نحو الساعة الثانية عشرة من اليوم التالي توجه لافريتسكي الى آل كاليتين . وفي الطريق التقى بانشين الذي مرّ به على صهوة فرسه ، وقد انزل قبعته الى حاجبيه تماما . ولأول مرة منذ تعارف لافريتسكي على آل كاليتين لم يستقبله احد منهم . قال له الخادم ان ماريا دميتريبفنا «تلازم مخدعها» ، لصداع الم بهـا . ومارفا تيموفييفنا وليزافيتا ميخايلوفنا ليستا في البيت . تمشى لافريتسكي قرب الحديقة ، على أمل باهت في الالتقاء بليزا ، ولكنه لم يـر احدا . عاد بعد ساعتين ، فتلقى نفس الرد ، بالاضافة الى ان الخادم حدجه بنظرة شزراء . ولم يجد لافريتسكي من اللياقـة ان يعرج عليهم مرة ثالثـة في نفس اليـوم ، فعزم على الذهـاب الى فاسيليفسكويه حيث كانت في انتظاره اشغال . وخلال الطريق بنى خططا مختلفة احداها اروع من الاخرى ولكن الحـزن خيّم عليه في ضيعة عمته هذه . فتجاذب اطراف الحديث مع انتون . ومن نكـد الحظ ان لا تكـون في راس هذا العجوز غيـر افكار لا تجلب البهجة . حدّث لافريتسكي ان غلافيرا بيتروفنا عضت يدها بنفسها قبيل موتها ، وبعد ان صمت قليـلا قال متحسرا : «كل انسان ياسيدنا العزيز ، مقسوم عليه ان ياكل نفسه» . وحين قفـل لافريتسكي عائدا كان الوقت في ساعة متاخرة . استولت عليه الحان الامس ، وتراءت في مرآة نفسه صورة ليزا بكل صفائها الرقيـق . وتاثر من التفكير في انها تحبه ، ووصـل الى بيته الصغير في المدينة مطمئن النفس سعيدا .

وأول ما بهره عند دخوله الرواق رائحة العطور الرخيصة التي يكرهها كثيرا . ورأى في الرواق نفسـه صناديق عالية ، وحقائب سفر . وبدا له غريبا وجه خادمه الذي هبّ للقائه . عبر العتبة الى حجرة الجلوس ، دون ان يمعن النظر في هواجسه . . . نهضت من الاريكة لإستقباله سيدة في ثوب حريري اسود مزين باشرطة ، رافعة منديلا قطنيا الى وجهها الممتقع ، وخطت عدة خطوات ، واحنت راسها اذ الشعر المعطّر المصفف جيدا ، وارتمت على قدميه . . . وفي تلك اللحظة فقط عرفها . كانت هذه السيدة زوجته .

تقطعت انفاسه في صدره . . . فرمى بثقله متكئا على الجدار .

قالت بالفرنسية :

– تيودور ، لا تطردني !

وطعن صوتها قلبه كالسكين .

نظر اليها شارد الذهن ، ومع ذلـك ، فقد لحظ ، دون ان يدري ، انها ابيضت وانتفخت .

– تيودور ! – مضت تقول مرسلة بين الحين والآخر نظرات سريعة اليه ، لاوية بحذر اصابعها الجميلة باظافرها المطليـة بالوردي – تيودور ، انا مذنبة ازاءك ، مذنبة ذنبا عميقـا ، واقول اكثر من ذلك ، انني مجرمة . ولكن اسمعني حتى النهايـة . الندم يعذبني . صرت عبئا على نفسي ، ولم اعد احتمل وضعي . وكم من مرة فكرت بان الجا اليك ، ولكن كنت اخاف حنقك . قررت قطع كل صلـة لي بالماضي puis, j'ai été si malade كنت مريضة جدا – اضافت ، ومررت يدها على جبينها ، وخدها ، – استفدت مـن الشائعة المنتشرة عن موتي ، وهجرت كـل شيء وهرعت الى هنا مسرعة لا اتوقف ليلا ولا نهارا . ترددت كثيرا في المثـول امامك ، امام حاكمـي paraître devant vous, mon juge ؛ ولكنني تذكرت طيبتك الدائمة ، فعزمت اخيرا على السفر اليك . وعرفت عنوانك في موسكو . صدقني – تابعت تقول ، ناهضة مـن الارض بهدوء ، جالسة على حافة مقعد . – كثيرا ما فكرت في الموت ، وكان مـن الممكن اجد الشجاعـة في نفسي لأقضي على حياتي – آه ، الحياة بالنسبة لي الآن عبء لا يطاق ! ولكن التفكير بابنتي ، آدوتشكا ، اوقفني عن فعل ذلك . وهي الآن هنا ، تنام في الحجرة المجاورة ، الطفلة المسكينة ! انها متعبة . وستراها . انها ، على الاقل ، غير مذنبة ازاءك . اما انا فتعيسة جدا ، تعيسة جدا !

هتفت السيدة لافريتسكايا ، وانهمرت دموعها .

افاق لافريتسكي على نفسه اخيرا . رفع ثقلـه عن الجدار ، واتجه نحو الباب .

قالت زوجته باستماتة :

– انت ذاهب ؟ اوه ، يا للقسوة ! دون ان تقول لي كلمـة واحدة ، حتى دون ان تتفوه بتقريع واحـد . . . هذا الازدراء يقتلني ، هذه فظاعة !

توقف لافريتسكي ، ونطق بصوت لا يكاد يسمع :

– ماذا تريدين ان تسمعي مني ؟

التقطت كلامه بلهفة :

– لا شيء ، لا شيء . انا اعرف ، ليس لي الحق في ان اطالب بشيء . لست مجنونة ، صدقني . انا لا امل ، ولا اجرؤ على ان امل في غفرانك . اجرؤ فقط ان اطلب اليك ان تامرني ماذا افعل ، واين اعيش ؟ وسانفذ امرك ، كالعبدة ، مهما يكن هذا الامر .

ردّ لافريتسكي بنفس الصوت :

– ليس لي ما آمرك به . انت تعرفين ان كل شيء بيننا قد انتهى . . . والآن اكثر من اي وقت مضى . تستطيعين ان تعيشي اينما يحلو لك . واذا كانت نفقتك قليلة . . .

قاطعته فارفارا بافلوفنا :

– آه ، لا تقل مثل هذه الكلمات الفظيعة . . . اراف بي ، على الاقل . . . على الاقل من اجل هذا الملاك . – وبعد ان نطقت بهذه الكلمات اندفعت الى الغرفة الاخرى ، وعادت في الحال تحمل على ذراعيها طفلة صغيرة انيقة اللباس جدا . كانت خصلات شعرها الكتاني الطويلة نازلة على وجهها المتورد الحلو التقاطيع ، وعلى عينيها السوداوين الواسعتين الناعستين . كانت تبتسم ، وتقلص عينيها ، بفعل النور ، وتستند بيدها الصغيرة الممتلئة على رقبة امها .

قالت فارفارا بافلوفنا ، وهي تبعد خصلات الطفلة عن عينيها ، وتقبلها بقوة :

– Ada, vois, c'est ton père, prie le avec moi * تمتمت الطفلة لاثغة :

– C'est ça, papa **

– Oui, mon enfant, n'est-ce pas, que tu l'aimes? ***

وهنا لم يعد لافريتسكي يحتمل ، فغمغم :

– في اية ميلودراما يوجد مثل هذا المشهد بالضبط ؟

وخرج من الحجرة .

* هذا ابوك ، يا آدا . ترجيه معي (بالفرنسية في الاصل) .
** اذن ، هو ابي ؟ (بالفرنسية في الاصل) .
*** نعم ، يا طفلتي . الست تحبينه ؟ (بالفرنسية في الاصل) .

وقفت فارفارا بافلوفنا في مكانها بعض الوقت ، وهزّت كتفيها قليلا ، ونقلت الطفلة الى الحجرة الاخرى ، وخلعت عنها ثيابها ، وارقدتها . ثم تناولت كتابا ، وجلست الى المصباح ، وانتظرت زهاء ساعة ، وبعدها رقدت هي الاخرى في السرير .

– Eh bien, madame? *

سالتها الخادمة الفرنسية التي استدعتها من باريس ، وهي تخلع عنها مشد الردفين .

قالت :

– Eh bien, Justine ** . لاح عليه الكبر الشديد ، ولكنه بقي على طيبته ، على ما يبدو لي . اعطيني القفازين لليل وهيئيني للغد فستاني الرمادي العالي الياقة . ثم لا تنسي كفتة لحم الضان لآدا . . . حقا يصعب الحصول عليها هنا . ولكن يجب بذل الجهد .

– A la guerre comme á la guerre ***

قالت جوستين ذلك ، واطفات الشمعة .

٣٧

قضى لافريتسكي اكثر من ساعتين يجوب شوارع المدينة . وطافت في ذاكرته الليلة التي قضاها في ضواحي باريس . وثقل عليه قلبه ، وظلت تطوف في راسه الخاوي كالمصعوق افكار واحدة معتمة بلهاء خبيثة : «انها حية ، وهي هنا» همس باندهاش متجدد ابدا . وشعر بأنه فقد ليزا . وخنقته صفراويته . لقد انقضت عليه هذه الضربة مباغتة تامة . كيف امكن ان يصدق ، في مثل هذه السهولة ، بثرثرة تلك المقالة السخيفة ، بقصاصة ورق ؟ وفكر مع نفسه : «طيب ، ما الفرق ، لو كنت لم اصدق ؟ اذن ، لما كنت ساعرف ان ليزا تحبني ، ولما عرفت هي نفسها بذلك» ولم يستطع ان يبعد عنه صورة زوجته ، وصوتها ، ونظراتها . . . فلعن نفسه ، لعن كل ما في الدنيا .

* حسن ، يا مدام ؟ (بالفرنسية في الاصل) .
** حسن ، يا جوستين (بالفرنسية في الاصل) .
*** الحرب هي الحرب (بالفرنسية في الاصل) .

وقبيل الصباح ذهب الى ليم معذّبا . ظل وقتا طويلا يطرق الباب دون ان يتلقى ردا . وفي آخر الامـر ظهر في النافذة رأس العجوز في غطاء رأس بيتي ، رأس حامز منقبض لم يعد يشبه قط ذلك الرأس الصارم الموحي ، والذى كان قبل اربع وعشرين ساعة ينظر الى لافريتسكي بسلطان من ذروة عظمته الفنية .

سأل ليم :

— ماذا تبتغي ؟ انا لا استطيع ان اعزف كل ليلة . تناولت مسكنا .

ولكن وجه لافريتسكي كان غريبا ، على ما يظهر . ظلل العجوز عينيه بكفه ، وتمعّن في زائره الليلي ، وتركه يدخل .

دخل لافريتسكي الحجرة ، وانهبد على كرسي . توقف العجوز امامه ، بعد ان لفّ حوله طيتي روبه المزوّق المهلهل ، منكمشا ومتلمظا بشفتيه .

— زوجتي وصلت .

قال لافريتسكي ، ورفع رأسه . واذا به يضحك فجاة ضحكة لاارادية .

ظهرت الدهشة على وجه ليم ، ولكـن حتى الابتسامة لم تبدر منه . سوى انه لفّ روبه على جسده اكثر .

وتابع لافريتسكي يقول :

— آها ، انت لا تعرف . لقد تصورت . . . قرات في جريدة انها فارقت الحياة .

سأل ليم :

— اوه ، قرأت ذلك قبل وقت قصير ؟

— نعم .

— آوه — كرر العجوز ، ورفع حاجبيه عاليا . — بينما هي قد جاءت ؟

— جاءت . وهي الآن عندي . . . انا . . . انا انسان تعيس .

وضحك ثانية بمرارة .

كرر ليم ببطء :

— انت انسان تعيس .

عاد لافريتسكي يقول :

— خريستوفر فيدوريتش ، هل تستطيع ان توصل رسالـة قصيرة ؟

— اها ، وهل يمكن ان اعرف لمن ؟

— لليزا .

— آ . . . نعم ، نعـم ، افهم . حسنـا . ومتى ينبغي ان اوصلها ؟

— غدا ، في ابكر ساعة ممكنة .

— اهـا ، يمكن ارسال كاترين ، طباختي . لا . سأذهب بنفسي .

— وتاتيني بالرد ؟

— سآتيك بالرد .

وتنهد ليم .

— نعم ، ياصديقي الشاب المسكين ، انت ، بالضبط ، شاب تعيس .

كتب لافريتسكي لليزا بعض الكلمات . ابلغها بوصول زوجته ، وطلب اليها ان تحدد موعدا للقاء . وانهد على الاريكة الضيقة ، ووجهه الى الحائط . بينمـا استلقى العجوز على الفراش ، وتقلب عليه طويلا ، ساعلا ، شاربا جرعات من الشراب المسكّن .

طلع الصباح . ونهض كلاهما . ونظر احدهما الى الآخر بعيون غريبة . في تلك اللحظة ودّ لافريتسكـي لو يقتل نفسه . جلبت الطباخة كاترين لهما قهوة سيئة . دقت الساعة الثامنة . قال ليم ان موعد درسه عند آل كاليتين هو الساعة العاشرة ، ولكنه سيجد ذريعة مقبولة للقدوم مبكـرا ، ولبس قبعته ، وانصرف . وانهبد لافريتسكي على الاريكة الصغيرة مرة اخرى ، واهتزت ضحكة حزينة في اعمـاق نفسه مرة اخرى . راح يفكـر كيف طردته زوجته من البيت ، ويتمثل وضع ليزا ، ويغمض عينيه ، ويشبك يديه وراء راسه . واخيرا عاد ليم ، وجلب له قصاصة ورق خربشت عليها ليزا بالقلم هذه الكلمات : «لا نستطيع اليوم ان نلتقي . ربما غدا مساء . وداعا» . شكر لافريتسكي ليم بجفاف وشرود ، وذهـب الى بيته .

وجد زوجته على مائدة الافطار . وكانت آدا ، والعقصات تغطي راسها ، تاكل كفتة الضان مر تدية فستانا ابيض ذا شرائط زرق .



نهضت فارفارا بافلوفنا حالما دخل لافريتسكي الغرفة ، واقتربت منه ، والخضوع باد على وجههـا . طلب اليها ان تتبعه الى غرفة المكتب ، واغلق الباب دونها ، وجعل يذرع الغرفة جيئة وذهابا . جلست فارفارا بافلوفنا ، وقد وضعت احدى يديها على الاخرى بتواضع ، وراحت تراقبه بعينيها الجميلتين حتى الآن ، رغم ما فيهما من طلاء خفيف .

ظل لافريتسكي وقتا طويلا عاجزا عن بدء الكلام . كان يشعر بأنه غير متمالك نفسه ، وكان يرى بوضوح ان فارفارا بافلوفنا لا تخاف منه البتة ، ولكنهـا تتظاهر بأنها على وشك ان يُغمى عليها .

واخيرا قال ثقيل الانفاس ، صاكا على اسنانه من حين لآخر :

– اسمعي ، يامحترمة . لسنا بحاجة الى ان يتظاهر احدنا امام الآخر . انا لا اصدق بندمك . وحتى اذا كان صادقا يستحيل عليّ ان اعاشرك واعيش معك .

زمّت فارفارا بافلوفنا شفتيها ، وقلّصت عينيها . وفكرت في سرها : «هذا اشمئزاز ، بالطبع . انا لست ، بالنسبة له ، حتى امرأة» .

– يستحيل – كرر لافريتسكي ، وزرّر سترته الى الآخر . – انا لا ادري ما الذي جعلك تقدمين الى هنا . ربما لم تبق لديك فلوس .

همست فارفارا بافلوفنا :

– اواه ! انت تهينني .

– ومهما يكن من شيء – وانت زوجتي ، للاسف – لا استطيع ان اطردك . . . وهذا ما اقترحه عليك . تستطيعين ، منذ اليوم ، اذا شئت ، ان تسافري الى لافريكي ، وتعيشي هناك . ففيها بيت جيد ، كما تعرفين . وستحصلين على كل حاجتك ، فوق النفقة . . . هل توافقين ؟

رفعت فارفارا بافلوفنا منديلا مطرزا الى وجهها . وقالت وشفتاها ترتعشان بعصبية :

– لقد قلت لك انني سأوافق على كل شيء تشاء ان تفعله معي . والآن لا يبقى الا ان اسألك : هل تسمح لي على الاقل ان اشكرك على شهامتك ؟

اسرع لافريتسكي يقول :

– بدون شكر ، ارجوك ، فذلك افضل . – تابع يقول ، وهو يقترب من الباب . – اذن ، استطيع ان اعتمد . . .

قالت فارفارا بافلوفنا ، وهي تنهض من مقعدها احتراما :

– غدا سأكون في لافريكي . ولكن ، فيدور ايفانيتش (لم تعد تسميه ثيودور) . . .

– ماذا تشائين ؟

– انا اعرف انني لم استحق عفوك بعـــــد . فهل استطيع ان آمل على الاقل ، بمرور الزمن . . .

قاطعها لافريتسكي :

– ايه ، فارفارا بافلوفنا . انت امرأة ذكية ، كما انني لست ابله . انا اعرف ان ذلك غير ضروري لك مطلقا . ومع ذلك فقد عفوت عنك منذ زمان . ولكن هوة سحيقة كانت تفصل بيننا دائما .

– استطيع ان ارضخ – قالت فارفارا بافلوفنـــا ، واحنت راسها . – انا لم انس ذنبي . ولن اندهش حتى لو عرفت انك فرحت بموتي .

اضافت ذلك بوداعة ، مشيرة بإشارة خفيفة من يدها الى عدد المجلة الذي نسيه لافريتسكي على المنضدة .

ارتعد فيدور ايفانيتش . كانت المقالة معلّمة بالقلم . نظرت فارفارا بافلوفنا اليه بمزيد من الضعـــة . في تلك اللحظة كانت مليحة جدا . كان فستانها الباريسي الرمادي يشد برشاقة قامتها اللدنة الشبيهة بقامة فتاة في السابعـة عشرة ، وكان عنقها الناعم النحيل ، المحاط بياقة بيضاء وصدرها المنتظم الانفاس ، ويداها العاطلتان عن الحلى والخواتم ،بل وكل تكوينها من شعرها الملمّع ، الى طرف حذائها الذي لا يكاد يبرز كان ينطق بالرشاقة .

حدجهـــا لافريتسكي بنظرة غضبى ، وكانمـــا يقول لهـــا Brava! * ، كأنما يهبط بقبضته على صدغها ، وانصرف . وبعد ساعة كان في طريقه الى فاسيليفسكويـــه ، وبعد ساعتين امرت فارفارا بافلوفنا بأن تستؤجر لها احسن عربة في المدينة ، ولبست قبعة قش بسيطة لها حجاب اسود ، ورداءا متواضعـــا ، ووضعت

---

* مرحى ! (بالفرنسية) .

آدا في عهدة جوستين ، وذهبت الى آل كاليتين . ومن الاسئلة التي وجهتها الى الخدم عرفت ان زوجها كان ياتي اليهم كل يوم .

٣٨

مثلما كان يوم وصول زوجة لافريتسكي الى مدينة و . . . يوما كئيبا له ، كان ايضا يوما ثقيلا على ليزا . ما كادت تهبط الى الاسفل ، وتسلم على امها ، حتى تردد تحت النافذة وقع حوافر حصان ، ورأت ، بهلع خفي ، بانشين يدخل بحصانه الى الفناء . فكرت في سرها : «جاء في مثل هذا الوقت المبكر ليحصل على رد نهائي» ، ولم تكن مخطئة في ذلك . تجوّل قليلا في حجرة الجلوس ، وعرض عليها ان تخرج معه الى الحديقة ، وطالبها برد في شأن ما ينتظره . جمعت ليزا شجاعتها ، وابلغته بأنها لا تستطيع ان تكون زوجته . اصغى اليها حتى اتمت كلامها ، وهو واقف يدير لها جنبه ، وقد دفع قبعته على جبينه . سالها بادب ، ولكن بصوت متغيّر : اهذه كلمتها الاخيرة ، وهل بدر منه ما جعلها تغيّر رايها هذا التغير ؟ ثم ضغط يده على عينيه ، وارسل زفرة قصيرة متقطعة ، ورفع يده عن وجهه .

قال بصوت اجوف :

— لم ارد ان اسير في الطريق المطروق . اردت ان اجد لنفسي صديقة يميل اليها قلبي ، ولكن ذلك غير ممكن ، كما يظهر . فوداعا للحلم !

وانحنى انحناءة عميقة لليزا ، وعاد الى البيت .

كانت تامل ان يغادر على الفور ، ولكنه دخل مكتب ماريا دميترييفنا ، وجلس معها زهاء الساعة . وقال لليزا ، وهو خارج : «Votre mère vous appelle; adieu à jamais. . .» * وامتطى فرسه ، وانطلق من واجهة البيت يعدو بكل قوة فرسه . دخلت ليزا على ماريا دميترييفنا ، فوجدتها تذرف الدموع . فقد ابلغها بانشين بسوء توفيقه .

---

* امك تدعوك . وداعا الى الابد (بالفرنسية في الاصل) .

— لاي شيء قتلتني ؟ لاي شيء قتلتني ؟ — بهذا الشكل بدات الارملة المغمومة شكواها . — مَنْ تريدين بعد ؟ ولِمَ لا يصلح لك زوجا ؟ ضابط حاشية ! ولا يعجبك ! في بطرسبورغ يستطيع ان يتزوج اية آنسة . وكم كنت آمل ! هل تغير رايك فيه منذ زمان ؟ من اين جاء هذا كله ، لا دخان من غير نار . اليس ابن العم ذاك ؟ اوه ، عثرت على ناصح !

— بينما هو ، ياعزيزتي — تابعت ماريا دميترييفنا تقول ، — شخص محترم تماما ، لا يخرج عن اطواره حتى في ساعة الضيق ! وعد بان لا يتركني . آه ، لا استطيع ان اتحمل هذا ! آه ، راسي يتصدع ويكاد يقتلني ! استدعي بالاشا اليّ . ستقتلينني ، ان لم تتوبي الى رشدك ، اتسمعين ؟

وبعد ان نعتتها بالجاحدة مرتين او ثلاثا ، صرفتها .

ذهبت ليزا الى غرفتها ، ولكنها ما كادت تستريح من مصارحتها لبانشين وامها ، حتى حلت بها صاعقة اخرى ، ومن جهة هي اقل ما كانت تتوقع ان تاتيها الصاعقة منها . دخلت مارفا تيموفييفنا عليها حجرتها ، وصفقت الباب وراءها في الحال . كان وجه العجوز شاحبا ، وقلنسوتها مائلة ، وعيناها تلمعان ، وشفتاها ويداها ترتعش . ذُهلت ليزا ، فهي لم ترَ قط عمتها الذكية الحصيفة في مثل هذه الحال .

قالت مارفا تيموفييفنا بهمس مرتعش متقطع :

— رائع ، يا محترمة ، رائع ! من اين تعلمت ذلك ، يا بُنَيّتي . . . اعطيني ماء ، لا اقدر على الكلام .

قالت ليزا ، وهي تقدم قدح الماء لها :

— اهدئي ، يا عمتي ، ماذا بك ؟ فانت نفسك لم تكوني تميلين الى بانشين ، على ما اظن .

ابعدت مارفا تيموفييفنا القدح :

— لا اقدر ان اشرب . ساكسر اسناني الاخيرة . ما علاقة بانشين هنا ؟ لماذا بانشين ؟ ولكن قولي : مَنْ علمك ضرب المواعيد في الليالي ، ها ، يا بُنيّتي ؟

شحبت ليزا . وتابعت مارفا تيموفييفنا تقول :

— ارجوك ، لا تفكري في الإنكار . شوروتشكا رأت كل شيء ، واخبرتني . وكنت قد منعتها من الكلام الزائد ، فهي لا تكذب .

قالت ليزا بصوت لا يكاد يسمع :

– انا لا انكر ، يا عمة .

– اها ! اذن ، يا عزيزتي ، ضربت له موعدا ، لذلك العجوز الآثم الوديع ؟

– لا .

– وكيف ذاك ؟

– نزلت الى حجرة الجلوس لآخذ كتابا . وكان في الحديقة فناداني .

– وذهبت اليه ؟ ثم انك تحبينه ، أليس كذلك ؟

ردّت ليزا بصوت خافض :

– احبه .

– يا للقديسات ! انها تحبه ! – انتزعت القلنسوة من راسها . – تحب رجلا متزوجا ! ها ؟ تحبه !

شرعت ليزا تقول :

– قال لي . . .

– ماذا قال لك ، ذلك الفتى اياه ؟

– قال ان زوجته توفيت .

رسمت مارفا تيموفييفنا علامة الصليب ، وهمست :

– يرحمها الله . كانت امراة فارغة . عفا الله عما سلف . اذن ، فقد صار أرملا . ولكنه شاطر ، على ما ارى . فَقَدَ زوجة ليتقدم الى اخرى . اي شخص وديع هو ؟ ولكن ساقول لك ، يا ابنة الاخ : في زماني ، عندما كنت شابة ، كانت الفتيات يعاقبن كثيرا على مثل هذه الشيطنات . لا تزعلي عليّ ، يا حبيبتي . لا يزعل على الحق الا الحمقى . اليوم امرت بأن يُصرف عني . انا احبه ، ولكنني لن اغفر له هذا . يعتبر نفسه ارملا ! اعطيني شيئا من الماء . اما كونك قد رفضت بانشين ، فانت شاطرة . ولكن لا تجلسي في الليالي مع تيوس تلك ، مع الرجال . ولا تحطميني ، انا العجوز ! ولا تحسبيني اداعب فقط ، بل واجيد العض ايضا . . . ارمل !

وانصرفت مارفا تيموفييفنا ، وجلست ليزا في ركن ، وراحت تبكي . احست بالمرارة في قلبها ، فهي لم تستحق مثل هذه الاهانة . لم يجلب الحب لها فرحة . بكت للمرة الثانية منذ مساء

الامس . ما كادت تهل على قلبها تلك العاطفة الجديدة غير المتوقعة حتى دفعت ثمنا باهضا لها ، وانتهشت ايدي الآخرين بفظاظة سرها المصون ! شعرت بالخجل والمرارة والألم . ولكن لم يراودها شك ولا فزع . وصار لافريتسكي اكثر عزية لديها . ظلت تتردد ، حتى فهمت بنفسها . ولكنها لم تعد قادرة على التردد ، بعد ذلك اللقاء ، بعد تلك القبلة . عرفت انها تحب – احبت باخلاص ، وعن جد ، وتعلّقت بشدة ، ولطول العمر – ولم تخف تقريعا . وشعرت بان هذه العلاقة لن تفصم بالقوة .

٣٩

اضطربت ماريا دميترييفنا كثيرا حين ابلغوها بوصول فارفارا بافلوفنا لافريتسكايا ، بل لم تعرف هل تستقبلها ام لا . فقد كانت تخاف ان تهين فيدور ايفانيتش . واخيرا تغلب جانب الفضول فيها . فكرت : «وليكن ، فهي قريبة ايضا» وجلست على مقعد وثير ، وقالت : «لتدخل !» . ومضت بضع لحظات . وفُتح الباب . واقتربت فارفارا بافلوفنا من ماريا دميترييفنا بسرعة ، وبخطى لا تكاد تسمع ، ودون ان تدعها تنهض ركعت او كادت امام ركبتيها .

– شكرا جزيلا ، يا عمة – قالت بالروسية بصوت عاطفي هادئ . – شكرا جزيلا . لم اكن امل في مثل هذا التلطف من جانبك . انت طيبة ، كالملاك .

وبعد ان نطقت بهذه الكلمات اختطفت احدى يدي ماريا دميترييفنا فجاة ، وضغطت عليها قليلا في قفازيها الفرنسيين البنفسجيين الفاتحين ، ورفعتها بتذلل الى شفتيها الورديتين الممتلئتين . ذهلت ماريا دميترييفنا تماما ، حين رأت مثل هذه المراة الجميلة الفاتنة الملبس تكاد تركع على قدميها . ولم تعرف كيف تتصرف . كانت تريد ان تسحب يدها منها ، وتحب ان تجلسها ، وتقول لها شيئا ودودا . وانتهى بها الامر ان رفعت جسمها قليلا ، وقبلت فارفارا بافلوفنا من جبينها الاملس العاطر . واسترخت فارفارا بافلوفنا كليا من هذه القبلة

قالت ماريا دميتريفنا :

– مرحبا ، bonjour . بالطبع ، لم اكن اتصور . . . على العموم ، انا ، طبعا ، مسرورة لرؤيتك . انت تفهمين ، يا غزيزتي ، ليس لي ان اكون حكما بينك وبين زوجك . . .

قاطعتها فارفارا بافلوفنا :

– زوجي محق في كل شيء . وانا وحدي المذنبة .

قالت ماريا دميتريفنا :

– هذه مشاعر محمودة جدا . جدا . هل وصلت منذ زمان ؟ هل رأيته ؟ ولكن اجلسي ، ارجوك .

اجابت فارفارا بافلوفنا ، وهي تجلس بخضوع :

– جئت يوم امس . ورأيت فيدور ايفانيتش ، وتحدثت معه .

– اها ! طيب ، وكيف تصرف ؟

مضت فارفارا بافلوفنا تقول :

– كنت اخشى ان يثير وصولي المفاجئ غيظه . ولكنه لم يحرمني من وجوده .

غمغمت ماريا دميترييفنا ؟

– يعني ، لم . . . نعم ، نعم ، افهم . انه غليظ قليلا في مظهره فقط ، ولكنه رقيق القلب .

– لم يسامحني فيدور ايفانيتش ، ولم يرد ان يصغي الى كلامي حتى النهاية . . . ولكنه كان كثير الطيبة ، حتى انه عيّن لي لافريكي مكانا لإقامتي .

– اها ! ضيعة رائعة !

– وسأتوجه غدا اليها نزولا عند رغبته . ولكنني وجدت من الواجب ان ازوركم قبل ذلك .

– تشكراتي الجزيلة لك ، يا عزيزتي . لا ينبغي نسيان الاقارب ابدا . هل تدرين انني مندهشة من حسن كلامك بالروسية؟ C'est étonnant * .

تنهدت فارفارا بافلوفنا .

– قضيت فترة طويلة جدا في الخارج ، يا ماريا دميترييفنا ، وانا اعرف ذلك . ولكن قلبي كان دائما روسيا ، ولم انس وطني .

* هذا مدهش (بالفرنسية في الاصل) .

– حسنا ، حسنا ، هذا افضل شيء . ومع ذلك لم يتوقعك فيدور ايفانيتش مطلقا . . . ثم ، ثقي بتجربتي : la patrie avant tout * . آه ، اريني ، من فضلك ، ما هذه الطرحة الجميلة التي ترتدينها ؟

– هل اعجبتك ؟ – قالت فارفارا بافلوفنا ، وخلعتها عن كتفيها بسرعة . – انها بسيطة جدا من مدام بودرا .

– واضح من النظرة الاولى انها من مدام بودرا . . . بديعة وتنم عن ذوق ! انا واثقة من انك جلبت معك الكثير من الاشياء المدهشة . بودي لو اراها .

– كل زينتي في خدمتك ، يا عمتي الكريمة . اذا سمحت ، سأعرض بعض الاشياء لوصيفتك الخاصة . معي خادمة من باريس ، خياطة مدهشة .

– انت طيبة جدا ، ياعزيزتي ، ولكنني خجلة ، حقا .

– خجلة ، – كررت فارفارا بافلوفنا بعتاب . – اذا تريدين ان تسعديني ، تصرفي معي ، كمُلكٍ لك .

ذابت ماريا دميترييفنا . قالت :

– Vous êtes charmante ** . ثم لماذا لا تخلعين قبعتك وقفازيك ؟

– كيف ؟ هل تاذنين لي ؟

سألت فارفارا بافلوفنا ، وطوت ذراعيها قليلا ، وكأنها قد تأثرت .

– بالطبع . فأنت ستتناولين طعام الغداء عندنا ، وآمل ان . . . ان اعرفك يابنتي . – واضطربت ماريا دميترييفنا قليلا ، وفكرت مع نفسها . – «اوه ! تماديت اكثر من اللازم !» – انها اليوم متوعكة .

– O, ma tante *** . ما اطيبك !

هتفت فارفارا بافلوفنا بذلك ، ورفعت المنديل الى عينيها .

اعلن الخادم القوزاقي وصول غبديوتوفسكي . ودخل هذا

* الوطن قبل كل شيء (بالفرنسية في الاصل) .
** انت فاتنة (بالفرنسية في الاصل) .
*** اوه ، ياعمتي (بالفرنسية في الاصل) .

المهذار العجوز موزعا الانحناءات ، والتكشيرات . قدمت ماريا دميتريفنا ضيفتها اليه . صعق في البداية . ولكن فارفارا بافلوفنا جارّته بغنج واحترام حتى احمرّت اذناه ، وتقطرت الاختلاقات والاقاويل من شفتيه احلى من الشهد . اصغت فارفارا بافلوفنا اليه ، وراحت تبتسم بتحفظ ، وتنجرف في الحديث شيئا فشيئا . فتحدثت بتواضع عن باريس ، وعن رحلاتها ، وعن بادن ، وانتزعت الضحكة من ماريا دميتريفنا مرتين او ثلاثا ، وفي كل مرة كانت تزفر قليلا وكأنما تقرع نفسها في ذهنها على هذا المرح في غير محله . واخذت اذناً بأن تاتي بآدا . وخلعت القفازين وكشفت عن يديها البضتين المغسولتين بصابون á la guimauve * ، وبدأت توضح بهما طريقة حديثة لتزيين الفساتين بشراشيب وكشكشات ومخرمات ووعدت بأن تجلب زجاجة عطر انجليزي جديد Victoria's Essence ** ، وسُرت كالطفلة ، حين قبلت ماريا دميتريفنا ان تأخذها كهدية . وبكيت ، حين تذكرت الشعور الذي هزّها ، حين سمعت الاجراس الروسية لأول مرة . وقالت : «نفذت الى قلبي عميقا» .

وفي هذه اللحظة دخلت ليزا .

كانت ليزا قد اعدت نفسها للقاء زوجة لافريتسكي ، منذ الصباح ، منذ اللحظة التي قرأت فيها رسالته القصيرة ، وقد تجمدت من الفزع . وكانت تتوجس بأنها ستراها . وقررت ان لا تتحاشاها عقابا لآمالها الاجرامية ، كما وصفتها . هزّها الانقلاب في مصيرها من الاساس . وخلال ساعتين من الزمن نحل وجهها ، ولكنها لم تذرف دموعا . قالت لنفسها : «هذا ما استحقه !» كابتة في نفسها بمشقة وانفعال سورات حنق مريرة روّعتها . وقالت لنفسها ، حالما علمت بمجيء لافريتسكايا : «طيب ، يجب ان اذهب !» وذهبت . . . وقفت طويلا امام باب حجرة الجلوس ، قبل ان تقرر فتحها ، وفي ذهنها : «انا مذنبة ازاءها» ، وتخطت العتبة ، واجبرت نفسها على ان تنظر اليها ، واجبرت نفسها على الابتسام . اقبلت فارفارا بافلوفنا للقائها ، حالما رأتها ، وانحنت

* نوع من الصابون الفرنسي الغالي . المعرب .

** عطر الملكة فكتوريا (بالفرنسية في الاصل) .

20*

لها انحناءة خفيفة ، ولكن باحترام ، على اية حال . وقالت بصوت متعطف : «اسمحي لي بأن اقدم نفسي . تلطفت امك كثيرا معي ، حتى لآمل ان تكوني انت ايضا . . . طيبة» ، وحين نطقت فارفارا بافلوفنا بالكلمة الاخيرة احست ليزا بالاشمئزاز من التعبير الذي ارتسم على وجهها عند ذاك ، ومن ابتسامتها الماكرة ، ومن نظرتها الباردة والناعمة في نفس الوقت ، ومن حركة يديها وكتفيها ، ومن ثوبها نفسه ، ومن كل كيانها ، حتى انها لم تستطع ان ترد عليها بشيء ، واجبرت نفسها على ان تمد اليها يدها . وقالت فارفارا بافلوفنا في سرها وهي تضغط بقوة على اصابع ليزا الجامدة : «ان هذه السيدة تزدريني» ، والتفتت الى ماريا دميتريفنا ، وقالت بصوت خافض : « Mais elle est délicieuse ! » * . توردت ليزا قليلا ، فقد خيل اليها انها تسمع في هذه الجملة سخرية وتكدرا . ولكنها قررت ان لا تنجرف مع انطباعها هذا ، وجلست عند النافذة الى طرة التطريز . وحتى بعد ذلك لم تتركها فارفارا بافلوفنا في سكينة . تقدمت منها واخذت تمتدح ذوقها ، وفنها . . . دق قلب ليزا بقوة وألم وما كادت تسيطر على نفسها ، وتظل في مكانها ، فقد تصورت ان فارفارا بافلوفنا تعرف كل شيء ، وتهزأ بها بانتصار خفي . ومن حسن حظ ليزا ان غيديونوفسكي شرع يتكلم مع فارفارا بافلوفنا ، وصرف انتباهها . انكبت ليزا على طرة التطريز ، وراحت تراقبها خلسة . كانت تفكر «هذه المرأة كان هو يحبها» . ولكنها طردت من ذهنها على الفور التفكير في لافريتسكي . فقد كانت تخشى ان تفقد سيطرتها على نفسها . شعرت بأن رأسها يدور قليلا . شرعت ماريا دميتريفنا تتحدث عن الموسيقى :

— سمعت ، يا عزيزتي ، انك عازفة مذهلة .

قالت فارفارا بافلوفنا ، وهي تجلس على البيانو فورا :

— لم اعزف منذ زمان — ومررت اصابعها على المفاتيح بخفة ، وقالت : — هل تأمرين ان اعزف ؟

— اعملي معروفا .

* ولكنها لذيذة (بالفرنسية في الاصل) .

عزفت فارفارا بافلوفنا دراسة هيرتس (٦٤) الباهرة الصعبة ببراعة . واظهرت الكثير من الاقتدار والخفة .

هتف غيديونوفسكي :

– سيلفيدا !

فاكدت ماريا دميتريبفنا :

– شيء خارق ! طيب ، يا فارفارا بافلوفنا ، اعترف – قالت وقد سمتها باسمها لاول مرة . – بأنك ادهشتني . على الاقل لو قدّمت حفلة موسيقية . يوجد عندنا هنا موسيقي ، عجوز ، من الالمان ، غريب الاطوار ، متعلم جدا . وهو يعطي دروسا لليزا . سيجن بك جنونا .

– وليزافيتا ميخايلوفنا موسيقية ايضا ؟

سالت فارفارا بافلوفنا مديرة رأسها الى ليزا قليلا .

– نعم ، ان عزفها لا بأس به ، وهي تحب الموسيقى ولكن ما هذا بالقياس اليك ؟ غير ان هناك شاباً آخر عندنا هو مَنْ ينبغي ان تتعرفي عليه . انه فنان في روحه ، ويؤلف بشكل رائع . هو وحده يستطيع ان يقيمك كليا .

قالت فارفارا بافلوفنا :

– شاب ؟ مَنْ هو ؟ ربما احد الفقراء؟

– لا ، من فضلك ، انه الفارس الاول عندنا ، وليس عندنا فقط ، بل وفي بطرسبورغ . ضابط حاشية ، ويستقبل في احسن المجتمعات . ربما سمعت عنه . يدعى فلاديمير نيقولايتش بانشين . وهو هنا في مهمة حكومية . . . سيصير وزيرا ، على ما اعتقد .

– وفنان ايضا ؟

– فنان في روحه ، واريحي كبير . سترينه . طوال هذه الفترة كان يتردد علينا غالبا . وقد دعوته الى امسية اليوم . وآمل انه سياتي .

اضافت ماريا دميتريبفنا الجملة الاخيرة بزفرة قصيرة ، وابتسامة موارية مريرة .

وفهمت ليزا هذه الابتسامة ، ولكنها كانت مشغولة عنها .

وقالت فارفارا بافلوفنا مغيرة لهجتها :

– وشاب ؟

– في الثامنة والعشرين ، محظوظ باحسن محيا . Un jeune homme accompli * على ما اعتقد .

قال غيديونوفسكي :

– يمكن القول انه شاب نموذجي .

وفجاة اخذت فارفارا بافلوفنا تعزف «فالس» صاخبا لشتراوس ، يبتدئ بلحن قوي سريع جعل غيديونوفسكي يجفل ، وفي منتصف الفالس انتقلت فجأة الى لحن حزين وانتهت بنغم منفرد من «لوتشيا» (٦٥) : Fra poco ** وقد صوّرت بذلك ان الموسيقى المرحة لا تناسب وضعها . وتاثرت ماريا دميتريبفنا كثيرا بنغم «لوتشيا» بالتركيز على النبرات العاطفية .

قالت لغيديونوفسكي بصوت خافض :

– اي نفس !

كرر غيديونوفسكي :

– سيلفيدا ! – ورفع بصره الى السماء .

حلت ساعة الغداء . نزلت مارفا تيموفييفنا من فوق ، حين كان الحساء على المائدة . عاملت فارفارا بافلوفنا بجفاف شديد . كانت تجيب على اسئلتها باقتضاب ، ولا تنظر اليها . وسرعان ما ادركت فارفارا بافلوفنا بنفسها ان هذه العجوز لا يمكن الحصول منها على فائدة ، فكفّت عن الحديث معها ، ومن جانب آخر ازدادت ماريا دميتريبفنا تلطفا مع ضيفتها ، فقد اغضبتها جفاء العمة . وعلى اية حال لم تصرف مارفا تيموفييفنا نظراتها عن فارفارا بافلوفنا وحدها ، بل وعن ليزا ايضا ، رغم ان عينيها ظلتا لامعتين . جلست متحجرة ، صفراء كلية ، شاحبة ، مزمومة الشفتين ، ولم تاكل شيئا . وبدت ليزا هادئة ، وهذا حق ، فقد كانت نفسها اكثر سكينة . ران عليها جمود غريب ، جمود المُدان . ولم تتحدث فارفارا بافلوفنا كثيرا خلال الغداء ، فكأن الخوف عاودها من جديد ، وشاحت في وجهها مسحة السوداوية المتواضعة . وغيديونوفسكي وحده كان يرطّب الحديث بحكاياته ، رغم انه كان ينظر الى مارفا تيموفييفنا من حين لآخر بتخوف ، ويحمحم منظفا

* شاب ممتاز (بالفرنسية في الاصل) .

** بعد ذلك في الحال . . . (بالايطالية في الاصل) .

حنجرته . وكانت النحنحة تعتاده ، كلما تهيأ ليكذب في حضورها ، ولكنها له تعقه ، لم تقاطعه . وبعد الغداء تبيّن ان فارفارا بافلوفنا هاوية كبيرة في لعبة الورق «برفيرانس» . واستهوى ذلك ماريا دميتريفنا كثيرا ، حتى انها تأثرت ، وفكرت في سرها : «على العموم ، لابد ان فيدور ايفانيتش احمق كبير ، فهو لم يستطع ان يفهم مثل هذه المرأة !» .

جلست تلعب الورق معها ومع غيديونوفسكي ، بينما اخذت مارفا تيموفييفنا ليزا الى حجرتها في الطابق الاعلى ، بعد ان قالت ان وجهها مريع ، فلا بد ان رأسها يوجعها .

— نعم ، عندها صداع فظيع — قالت ماريا دميتريفنا ، مخاطبة فارفارا بافلوفنا ، وقلّبت عينيها . — وانا ايضا تحدث لي مثل هذه الحالات .

قالت فارفارا بافلوفنا : تصوري !

دخلت ليزا حجرة عمتها ، وانهدت على مقعد من الارهاق . حدقت مارفا تيموفييفنا فيها طويلا ، وبصمت ، ثم ركعت امامها وبدأت تقبل يديها بالتناوب ، وبصمت ايضا مالت ليزا الى الامام ، واحمرّت ، وبكت ، ولكنها لم تُنهض مارفا تيموفييفنا ، ولم تنتزع يديها ، فقد شعرت بانه لا يحق لها ان تنتزعهما ، لا يحق لها ان تحول دون ان تعبر العجوز عن تأسفها ، عن مشاركتها العاطفية ، وطلب الصفح منها على ما حصل لها يوم امس ، ومارفا تيموفييفنا لم تقدر ان تنال شبعها من تقبيل تينك اليدين المسكينتين الشاحبتين العاجزتين ، فانهمرت الدموع الصامتة من عينيها وعيني ليزا ، بينما كان القط ماتروس يموء قرب خيوط الحياكة على مقعد عريض ، ولهيب المصباح الطويل ينوس ويهتز امام الايقونة ، وفي الغرفة المجاورة وراء الباب كانت ناستاسيا كاربوفنا تقف ، وتمسح ايضا عينيها خلسة بمنديل جيب مكوّر .

٤٠

وفي غضون ذلك كانت لعبة «البريفرانس» تجري في الاسفل . ربحت ماريا دميتريفنا ، وراق مزاجها . دخل رجل واعلن مجيء بانشين .

اوقعت ماريا دميتريفنا الاوراق ، وارتخت على المقعد . نظرت فارفارا بافلوفنا لها بابتسامة فيها سخرية ، ثم وجهت بصرها الى الباب . وظهر بانشين في سترة فراك سوداء ، ذات ياقة عالية من الطراز الانجليزي مزررة الى الاعلى . وكان وجهه الساكن المحلوق لتوه يبدو وكأنه يقول : «كان صعبا عليّ ان اقبل الدعوة ، ولكنني جئت ، كما ترين» .

هتفت ماريا دميتريفنا :

— عجيب ، فلاديمير . كنت من قبل تدخل دون اعلان !

ردّ بانشين على ماريا دميتريفنا بنظرة فقط ، وانحنى اليها بادب ، ولكنه لم يتناول يدها . قدمته الى فارفارا بافلوفنا . تراجع خطوة وانحنى لها بادب ايضا ، ولكن بمسحة من الرشاقة والاحترام ، وجلس قرب طاولة اللعب . انتهت لعبة «البريفرانس» بعد قليل . استفسر بانشين عن ليزافيتا ميخايلوفنا ، ولما عرف انها متوعكة قليلا ، اعلن عن اسفه ثم راح يتحدث مع فارفارا بافلوفنا وازنا وناحتا كل كلمة بدبلوماسية ، مصغيا باحترام الى اجوبتها حتى النهاية . ولكن عظمة لهجته الدبلوماسية لم تؤثر في فارفارا بافلوفنا ، ولم تنتقل اليها ، بل على العكس ، راحت تنظر الى وجهه في اهتمام مرح ، وتتكلم بلا كلفة ، وراح منخراها الرقيقان يختلجان ، وكأنما من فعل ضحكة مكتومة . اخذت ماريا دميتريفنا تطري موهبتها . احنى بانشين رأسه باحترام قدر ما سمحت له الياقة ، واعلن : «انه كان واثقا من ذلك مسبقا» ، وساق الحديث حتى كان يصل به الى مترنيخ (٦٦) . قلّصت فارفارا بافلوفنا عينيها المخمليتين ، وقالت بصوت خافض : «طبعا ، فانت فنان ايضا « à un confrère » * . ثم اضافت بصوت اكثر خفوتا : « Venez ! » ** واومأت برأسها نحو البيانو . وغيّرت كلمة « Venez ! » ، الفالتة كل مظهر بانشين ، وكأنما بفعل قوة سحرية . اختفت سيماء العظمة ، فراح يبتسم ، وسرت الحيوية فيه ، ففك ازرار سترته ، وتبع فارفارا بافلوفنا نحو البيانو ، وهو يردد : «اي فنان انا ، اواه ! انت ، حسبما سمعت ، فنانة اصيلة !»

* متاع (بالفرنسية في الاصل) .
** تقدم ! (بالفرنسية في الاصل) .

هتفت ماريا دميتريبفنا :

– اجعليه يغني رومانس .

قالت فارفارا بافلوفنا ، وهي ترمقه بنظرة سريعة وضّاءة :

– انت تغني ؟ اجلس .

صار بانشين يعتذر .

كررت فارفارا بافلوفنا ، وقد دقّت على ظهر المقعد باصرار :

– اجلس .

جلس ، وتنحنح ، ومطّى ياقتـــــه ، وغنى رومانسه . قالت فارفارا بافلوفنا :

– Charmant * . غناؤك رائع . – وكررت . – vous avez du style ** .

دارت حول البيانو ، ووقفت مقابـل بانشين تمامـــا . اعاد الرومانس ، معطيا لصوته رعشـــة ميلودرامية . تفرست فارفارا بافلوفنا فيه وهي تستند بمرفقها على البيانو ، محتفظة بيديها في مستوى شفتيها . وانتهى بانشين من الغناء .

قالت بثقة الخبير الهادئة :

– Charmant, charmante idée *** قل لي هل كتبت شيئــا لصوت نسائي mezzo-soprano ؟

قال بانشين :

– انا لا اكتب شيئا تقريبــا . امارس ذلك بين فترة عمل واخرى . احقا انك تغنين ؟

– اغني .

– اوه ! غنينا شيئا . – قالت ماريا دميتريبفنا .

نحّت فارفارا بافلوفنا شعرها بيدها عن وجنتيها المحمرتين ، وهزّت راسها .

وقالت مخاطبة بانشين :

---

* ساحر (بالفرنسية في الاصل) .

** ان لك اسلوبا (بالفرنسية في الاصل) .

*** ساحر ، فكرة ساحرة (بالفرنسية في الاصل) .

– يجب ان يلتحم صوتانـــــا . غنّ الثنائي . هـــل تعرف Son geloso او La ci darem او Mira la bianca luna * ؟

اجاب بانشين :

– في ذات مرة غنيت Mira la bianca luna ، ولكن من زمان . ونسيت .

– لا بأس . سنتدرب عليها بصوت واطئ . اتركني اعزف .

جلست فارفارا بافلوفنا الى البيانو . ووقف بانشين قربها . غنّيا ثنائيا بصوت واطئ ، بينما كانت فارفارا بافلوفنا تصلح له عدة مرات ، ثم غنيا بصوت عال ، ثـــم كررا مرتين Mira la bianca lu. . .u. . .una . فقد صوت فارفارا بافلوفنا طراوته ، ولكنها سيطرت عليه بمهارة شديدة . في البداية تخوّف بانشين ، ونشز قليلا ، ثم اخذه الحماس ، وعلى الرغم من ان غناءه كان مشوبـــا بالاخطاء ، الا انه كان يحرك كتفيه ، ويهتز بكل جسمه ، ويرفع ذراعه من حين لآخر ، مثل مغنٍ حقيقي . عزفت فارفارا بافلوفنــا قطعتين او ثلاثا من تاليف تالبورغ ، و«ترنمت» في غنج بنغمٍ منفرد فرنسي . ولم تعد ماريا دميتريبفنا تعرف كيف تفصح عن رضاها . ارادت عدة مرات ان تستدعي ليزا . كما ان غيديونوفسكي لـم يجد الكلمات الوافية بالغرض ، فهز رأسه ، ولكنه تثاءب فجاة ، ودون توقع ، الا انه لحق ان يغطي فمه بيده قبل فوات الاوان . ولم تفت هذه التثاؤبة عن ملاحظة فارفارا بافلوفنا . ادارت ظهرها الى البيانو فجاة ، وغمغمت «Assez de musique comme ça ** » فلنثرثر وطوت ذراعيها . «Oui, assez de musique» ، كرر بانشين بفرح ودخل معها في حديث نشيط خفيف باللغة الفرنسيـــة . وفكرت ماريا دميتريبفنا وهي تسمع كلامهم المراوغ المتهافت «مثلما في احســن الصالونات الباريسية تماما» . وشعر بانشين بارتياح تام . تالقت عيناه ، فصار يبتسم . في البداية اخذ يمرر يده على وجهه ، ويقطّب حاجبيه ، وتتقطع انفاسه حين تلتقي نظراتـــــه بنظرات ماريا دميتريبفنا . ولكنه ، فيما بعد نسيها كليا ، وانغمر في لذة حديث

---

* «وانا غيران . . .» ، «وهاتي يدك . . .» ، «وانظري الى البـــدر الشاحب . . .» (بالايطالية في الاصل) .

** كفى موسيقى (بالفرنسية في الاصل) .

فيّاض ما بين الفن وحديث الصالونات . واظهرت فارفارا بافلوفنا نفسها كفيلسوفة كبيرة ، فكان لديها لكل شيء جواب جاهز ، ولم تقف مترددة في اي شيء ، ولا متشككة في شيء . وكان يبدو انها غالبا ما كانت تتحادث كثيرا مع اذكياء الناس من مختلف الاصناف . وكانت كل افكارها ومشاعرها تدور حول باريس . ساق بانشين الحديث عن الادب ، وتبين انها مثله لم تقرأ غير الكتب الفرنسية . كانت جورج ساند تحنقها ، وكانت تحترم بلزاك ، رغم انه يتعبها ، وكانت تجد في سيو وسكريب عليمين عظيمين في النفس الانسانية ، وكانت تعبد دوما وفيوال . وفي قرارة نفسها كانت تفضل بول دو كوك عليهم جميعا ، ولكنها ، من الطبيعي ، لم تعمد حتى الى الاشارة الى اسمه (٦٧) . وخلاصة القول انها لم تكن تهتم كثيرا بالادب . وقد تحاشت ببراعة كبيرة كل ما من شأنه ، ولو من بعيد ، ان يشير الى وضعها . ولم يرد ذكر للحب في اقوالها . بل على العكس كانت تنظر الى الانجراف في العواطف بصرامة وكخيبة امل واذلال . عارضها بانشين ، ولم تتفق هي معه . . . ولكن الغريب في الامر انها في الوقت الذي تنطق فيه بكلمات الادانة ، الصارمة في الغالب ، كانت نبرات صوتها رقيقة حنونا . كانت عيناها تنطق ، ولكن يصعب على المرء ان يعرف بالضبط ماذا كانت تنطق به ، لم يكن صارما ولا واضحا ، بل كان حلوا . حاول بانشين ان يفهم المغزى الخفي لما تقوله عيناها ، بل حاول ان يتكلم بعينيه ايضا ، ولكنه شعر بأنه لم يوفق بشيء في هذا ، وادرك ان فارفارا بافلوفنا باعتبارها لبوة حقيقية من خارج الحدود تقف اعلى منه ، ولهذا لم يكن مسيطرا على نفسه تماما . وكانت فارفارا بافلوفنا قد تعودت ان تمس كُمّ محدثها مساً خفيفا اثناء الحديث معه ، وكانت هذه المسات الخاطفة تثير بانشين كثيرا . كما كانت تملك المقدرة ان تتآلف مع اي انسان بسهولة ، وقبل ان تمضي ساعتان ، حتى بدا لبانشين انه يعرفها منذ امد طويل . اما ليزا ، التي احبها على اية حال ، والتي طلب يدها يوم امس ، فقد اختفت ، وكانما خلف ضباب . قُدم الشاي ، وصار الحديث اكثر تبسّطا . دقت ماريا دميتريفنا الجرس للخادم الفتى ، وامرت بأن يبلغ ليزا بأن تنزل الى الاسفل ، اذا كان صداعها قد خفّ . وعندما سمع بانشين

اسم ليزا انطلق يتحدث عن التضحية بالنفس ، ومن أيهما اقدر على التضحية الرجل ام المرأة . وانفعلت ماريا دميتريفنا على الفور ، واخذت تؤكد ان المرأة اقدر ، وقالت انها تستطيع ان تبرهن على ذلك بكلمتين ، وتشربكت ، وانتهت الى مقارنة يعوزها الكثير من التوفيق . تناولت فارفارا بافلوفنا كراسة النوطات ، واخفت نصف وجهها بها ، وانحنت نحو بانشين ، وقالت بصوت خافت ، وهي تقضم بسكويته ، والابتسامة الهادئة تشيع على شفتيها وفي نظرتها « Elle n'a pas inventé la poudre, la bonne dame » * .

فزع بانشين قليلا ، وادهشته جرأة فارفارا بافلوفنا ، ولكنه لم يدرك مقدار ما ينطوي عليه هذا البوح المفاجئ من اذدراء له نفسه . ونسي حنان ماريا دميتريفنا واخلاصها ، نسي وجبات الغذاء التي تناولها عندها ، والنقود التي اقرضته ، فقال (التعيس هذا) بنفس الابتسامة ، وبنفس الصوت : ** « Je crois bien » وليس « Je crois bien » بل « J'crois ben » .

القت فارفارا بافلوفنا عليه نظرة ودية ، ونهضت . ودخلت ليزا . عبثا حاولت مارفا تيموفييفنا ان تبقيها ، الا انها عزمت ان تخوض التجربة حتى النهاية . سارت فارفارا بافلوفنا للقائها ومعها بانشين الذي ظهرت على وجهه سيماء الدبلوماسي السابقة . سأل ليزا :

— كيف صحتك ؟

اجابت :

— الآن احسن ، شكرا .

عزفنا شيئا من الموسيقى هنا ، ومن المؤسف انك لم تسمعي فارفارا بافلوفنا . غناؤها رائع ، *** en artiste consommée .

تردد صوت ماريا دميتريفنا :

— تعالي الى هنا ، **** ma chère .

اقبلت فارفارا بافلوفنا عليها في الحال ، طائعة كالطفل ،

---

* هذه السيدة الطيبة لم تخترع البارود (بالفرنسية في الاصل) .

** نعم ، على ما اظن (بالفرنسية في الاصل) .

*** كفنانة حقيقية (بالفرنسية في الاصل) .

**** عزيزتي (بالفرنسية في الاصل)

وجلست على مقعد صغير عند قدميها . وكانت ماريا دميتريبيفنا تريد ، في دعوتها هذه ، ان تبقي ابنتها وبانشين لوحدهما ، ولو للحظة قصيرة ، فهي ما تزال تأمل في سرها بأن تراجع ابنتها نفسها . بالاضافة الى ان فكرة خطرت في بالها ارادت ان تفصح عنها في الحال .

همست لفارفارا بافلوفنا :

– هل تعرفين انني اريد ان احاول مصالحتك مع زوجك . انا لا اضمن النجاح ولكني سأحاول . انه ، لو تعرفين ، يحترمني جدا .

رفعت فارفارا بافلوفنا بصرها الى ماريا دميتريبيفنا ببطء ، وطوت ذراعيها بجمال . وقالت بصوت حزين :

– عندئذ ستكونين منقذتي ma tante* . انا لا اعرف كيف اشكرك على كل الطافك ، ولكنني مذنبة جدا ازاء فيدور ايفانيتش . وهو لا يقدر ان يسامحني .

بادرتها ماريا دميتريبيفنا بفضول :

– معقول انت . . . في حقيقة الامر . . .

قاطعتها فارفارا بافلوفنا :

– لا تساليني . – واطرقت ببصرها ، وقالت : كنت شابة ، لا ابالية . . . على العموم لا اريد ان ابرر نفسي

– طيب ، على اية حال لا شيء يمنع ان احاول . لا تقنطي .

– قالت ماريا دميتريبيفنا ، وارادت ان تربت على خدها ، ولكنها تفرست في وجهها وتهيبت . وفكرت مع نفسها : «متواضعة ، متواضعة ، ولكنها كاللبوة» .

وخلال ذلك كان بانشين يقول لليزا :

– هل انت مريضة ؟

– نعم ، متوعكة .

وقال بعد فترة صمت طويله جدا :

– انا افهمك ، نعم ، افهمك .

– كيف ؟

– انا افهمك .

* يا عمتي (بالفرنسية في الاصل) .

كرر بمغزى ، وهو لا يعرف بالضبط ماذا يقول .

ارتبكت ليزا في البداية ، ثم قالت لنفسها : «وليكن !» . اتخذ بانشين لنفسه مظهر الغموض ، وصمت ، ناظرا الى ناحية بجهامة .

ذكرت ماريا دميتريبيفنا :

– على كل حال ، يبدو ان الساعة الحادية عشرة قد دقت .

فهم الضيوف التلميح ، فاخذوا يستأذنون بالانصراف . وكان على فارفارا بافلوفنا ان تعد بالمجيء للغداء في اليوم التالي ومعها آدا . عرض غيديونوفسكي ان يصحبها الى بيتها ، وكان على وشك ان يغفو ، وهو جالس في ركن . انحنى بانشين للجميع بمهابة ، وصافح فارفارا بافلوفنا عند مدخل البيت ، وهو يجلسها في العربة ، وصاح في اثرها : * « Au revoir » ، جلس غيديونوفسكي الى جانبها ، وتسلّت هي ، طوال الطريق ، بأن وضعت طرف حذائها على قدمه ، وكان ذلك عرضا . ارتبك غيديونوفسكي ، وراح يقدم لها الاطراءات . زغردت ضاحكة ، وكانت تحدجه بنظراتها ، حين كان ضوء مصباح الشارع ينفذ الى داخل العربة . كان الفالس الذي عزفته يرن في راسها ، ويثير مشاعرها . كان يكفيها ، اينما وُجدت ، ان تتخيل اضواءا ، وصالة كبيرة ، ودورانا سريعا على اصوات الموسيقى ، حتى تلتهب نفسها التهابا ، وترف عيناها رفيفا غريبا ، وتطوف ابتسامة على شفتيها ، وينصب في كل جسدها شيء شهواني نشوان . وعندما وصلت فارفارا بافلوفنا الى البيت قفزت من العربة بخفة لا تقدر عليها الا اللبوات ، واستدارت الى غيديونوفسكي ، وضحكت فجأة ضحكة رنانة في وجهه تماما .

وفكر المستشار المدني هذا ، وهو يسير الى شقته ، حيث كان في انتظاره خادم يحمل زجاجة الدهان ضد روماتزم : «شخصية مشوّقة . ولطيف انني رجل رصين . . . ولكن لماذا ضحكت ؟»

وظلت مارفا تيموفييفنا طوال الليل قاعدة عند راس ليزا ...

* الى اللقاء (بالفرنسية في الاصل) .

٤١

امضى لافريتسكي يوما ونصف اليوم في فاسيليفسكويه وقضى الوقت كله تقريبا في التجوال في الضواحي . كان لا يقدر على التوقف طويلا في مكان واحد . كانت الوحشة تقرض في نفسه . كان يعاني طوال الوقت من عذاب سورات موصولة خاطفة عاجزة . تذكر الشعور الذي استحوذ عليه في اليوم الذى اعقب يوم مجيئه الى القرية ، وتذكر ما نوى عليه آنذاك ، فحنق على نفسه كثيرا . اي شيء استطاع ان يصرفه عما اعتبره الواجب الملقى على عاتقه ، والمهمة الوحيدة لمستقبله ؟ انه الظمأ الى السعادة وليس شيئا آخر . وفكر : «يبدو انك محق ، ياميخاليفيتش . كنت تريد ان تجرب السعادة في الحياة مرة ثانية – كان يقول ذلك لنفسه – لقد نسيت ان ذلك ترف ، وهبة غير مستحقة ، حتى ولو هبطت على الانسان مرة واحدة . وقد تقول : سعادة لم تكن كاملة ، بل زائفة . فأظهر حقوقك ، اذن ، في السعادة الحقيقية الكاملة ! التفت فيما حولك ، هل تجد احدا يسعد ، هل تجد احدا يمتع نفسه ؟ ها هو فلاح ذاهب الى الحصاد ، فهل تظنه راضيا بنصيبه ؟ فهل تراودك الرغبة في ان تتبادلا المصائر ؟ تذكر امك ، وكم كانت مطالبيها طفيفة ، ماذا كان نصيبها ؟ يبدو انك كنت تتباهى امام بانشين لا غير ، حين قلت له انك جئت الى روسيا لتحرث الارض ، بينما جئت لتلاحق الفتيات في سنك المتقدمة هذه . وجاء نبأ تحررك ، فنبذتَ كل شيء ، وركضت كما يركض الصبي وراء فراشة . . .» وكانت صورة ليزا تتمثل له دائما وسط تأملاته ، فيلقيها عن ذهنه جاهدا ، مثلما يلقي عنه الصورة الملحاحة الاخرى ، تلك الملامح اللعوب الثابتة الجميلة والبغيضة في آن واحد . فطن العجوز انتون الى ان السيد خارج اطواره . زفر عدة مرات وراء الباب ، وعدة مرات عند العتبة ، وعزم على ان يتقدم منه ، ويشير اليه بأن يشرب شرابا دافئا . صرخ لافريتسكي به ، وامره بأن يخرج ، ثم اعتذر له ، ولكن ذلك زاد من حزن انتون . لم يستطع لافريتسكي القعود في حجرة الجلوس ، فقد تراءى له ان جده الاكبر اندريه يحدق بازدراء من صورته الحائطية الى حفيده الهش . وخيل اليه ان شفتيه الملتويتين جانبا تقول له : «ايه

انت ، ايها الضحل» وراح لافريتسكي يفكر : «هل من المعقول انني لا استطيع ان اتمالك نفسي ، واستسلم لهذه . . . التفاهة ؟» (المثخنون بالجراح في الحرب يسمون جراحهم دائما «تفاهة» . فالمرء اذا لا يخدع نفسه لا يستطيع العيش على الارض) . «فهل انا صبي ، في الحقيقة والواقع ؟ اي ، نعم ، رأيت عن قرب ، بل كدت ان امسك في يدي احتمال السعادة في حياتي ، واذا بها تختفي فجأة ، ولو يدار دولاب اليانصيب اكثر قليلا ، فسيصير الفقير غنيا ، على ما اظن . وان لا يحصل هذا ، دعه لا يحصل ، وينتهي الامر . فلاشمئزّ للامر ، واكز على اسناني ، واجبر نفسي على الصمت ، لا سيما وان ذلك ليس المرة الاولى التي اسيطر فيها على نفسي . فلماذا هربت ، ولأي شيء اقعد هنا ، دافنا رأسي في أثلة كالنعامة ؟ هراء ان يرتعب الانسان من النظر في وجه المصيبة !» وصاح بصوت عال : «انتون ! اطلب ان تهيأ العربة على الفور . وقال لنفسه : «اجل ، يجب ان آمر نفسي بالسكوت ، يجب ان امسك بزمام نفسي . . .»

بهذه الافكار حاول لافريتسكي ان يخفف مصابه ، ولكنه كان مصابا عظيما وشديدا ، وابراكسيا نفسها التي لم تخرف عقليا بقدر ما خرّفت عاطفيا ، هزّت رأسها ، وشيعته بنظرها في اسى ، حين جلس في العربة ليذهب الى المدينة . وركضت الخيول ، وجلس هو جامدا منتصب الجذع ، ينظر الى الطريق امامه جامد النظرات .

٤٢

قبل يوم كتبت ليزا للافريتسكي تدعوه الى ان يزورهم مساء . ولكنه ذهب الى شقته في البداية ، فلم يجد زوجته ولا ابنته ، وعرف من الخم انها ذهبت معها الى آل كاليتين . اذهله هذا الخبر واحنقه . فكر في سورة من الحنق في قلبه : «يبدو ان فارفارا بافلوفنا عزمت ان تنغص حياتي» . وراح يسير جيئة وذهابا ، دافعا رافسا بيديه ورجليه باستمرار لعب الاطفال التي كانت تقع في طريقه ، والكتب ، واللوازم النسائية المختلفة . ونادى جوستين ، وامرها بأن ترفع كل هذه «النفاية» ، فقالت بحركة مفتعلة من جسمها : «Oui,

monsieur »* ، وشرعت ترتب الحجرة ، منحنية برشاقة ، جاعلة لافريتسكي بكل حركة من حركاتها يشعر بأنها تعتبره دبًا غير مروّض . نظر بكراهية الى وجهها الباريسي المحول و«الشائق» لما يزل ، والهازيء ، والى الرُدينين الواقيين الابيضين فوق كميها ، والى مئزرها الحريري ، وقلنسوتها الخفيفة . وصرفها ، وبعد تردد طويل (لم تعد فارفارا بافلوفنا بعد) عزم على الذهاب الى بيت كاليتين ، لا لزيارة ماريا دميتريينفا (لن يدخل مهما يكن من شيء الى حجرة جلوسها ، حيث توجد زوجته) بل لزيارة مارفا تيموفيينفا . وكان يتذكر ان السلم الخلفي من مدخل الخادمات يؤدي الى حجرتها مباشرة . وهذا ما فعله لافريتسكي . واعانته المصادفة . التقى بشوروتشكا عند الباب ، فقادته الى مارفا تيموفيينفا . فوجدها وحيدة على غير عادتها . كانت تجلس في ركن حاسرة الراس ، محدودبة ، وذراعاها متصالبتان على صدرها . اضطربت العجوز كثيرا حين راته ، نهضت بخفة ، وراحت وجاءت في الحجرة ، وكأنها تبحث عن قلنسوتها .

قالت ، وهي تتحاشى نظرته ، وهي في حركة دائبة :

— اها ، هذا انت . طيب ، مرحبا . طيب ، ماذا ؟ ماذا تفعل ؟ اين كنت يوم امس ؟ حسنا ، انها جاءت ، نعم ، طيب . . بطريقة من الطرق .

ارتمى لافريتسكي على مقعد . ومضت العجوز تقول :

— طيب ، اقعد ، اقعد . هل صعدت الى فوق راسا ؟ اها ، بالطبع . ماذا ، اذن ؟ جئت لتتفرج عليّ ؟ شكرا .

صمتت العجوز قليلا . ولم يعرف لافريتسكي ماذا يقول لها . ولكنها كانت تفهمه .

— ليزا . . . نعم ، ليزا كانت هنا ، قبل حين . — مضت مارفا تيموفيينفا تقول ، وهي تربط وتفك اربطة حقيبتها الصغيرة . — ليست في صحة جيدة . شوروتشكا ، اين انت ؟ تعالي هنا . يابُنيّتي . لماذا لا تستطيعين ان تجلسي في مكان ؟ وراسي يوجعني . لعله من هذا . . . من الغناء والموسيقى .

— من اي غناء ، ياعمة ؟

* نعم ، سيد (بالفرنسية في الاصل) .

— كيف من اي غناء . صاروا يغنون هنا ، ما يسمى بالمثاني عندكم . وكل ذلك بالايطالية . تشي — تشي ، ثم تشي — تشي . . . عقاعق * حقيقية . ياخذون بعزف النوطات حتى يزهقوا لك روحك . انه بانشين ذاك ، وامراتك . ما اسرع ما تصاحبا ، وصارا بدون كلفة ، كالاقرباء . وعلى العموم ، حتى الكلب يفتش عن مأوى . لن يضيع ، ما دام الناس لا يطردونه .

قال لافريتسكي :

— على اية حال ، اعترف بانني لم اكن اتوقع ذلك . هذا يحتاج الى جراة كبيرة .

— لا ياعزيزي ، هذه ليس جراة ، هذا حساب . ولكن دعها لله ! يقولون انك ترسلها الى لافريكي . صحيح ؟

— نعم ، اضع الضيعة تحت تصرف فارفارا بافلوفنا .

— وهل طلبت نقودا ؟

— لم تطلب حتى الآن .

— اها ، ولكن ذلك لن يطول . انا الآن فقط تفحصتك عن كثب . هل انت معافى ؟

— معافى .

وفجاة هتفت مارفا تيموفيينفا :

— شوروتشكا ، اذهبي ، وقولي لليزافيتا ميخايلوفنا او ، لا . . . اساليها . . . انها في الاسفل ، ها ؟

— نعم .

— اها ، اذن ، اساليها ماذا فعلت في كتابي ؟ انها لتعرف .

— سمعا .

وانشغلت العجوز مرة اخرى ، وبدأت تسحب الجرارات في المنضدة الصغيرة . وجلس لافريتسكي في مقعده جامدا .

وفجاة تردد وقع خطوات خفيفة على الدرج ، ودخلت ليزا .

نهض لافريتسكي ، وانحنى محييا . توقفت ليزا عند الباب .

انشأت مارفا تيموفيينفا تقول مشغولة البال :

— ليزا ، ليزا ، اين ، اين وضعت كتابي ؟

— اي كتاب ، ياعمة ؟

* جمع عقعق . وهو طير في فصيلة الغراب . **المعرب** .

– الكتاب ، يا إلهي ! على العموم ، انا لم ادعك . . . ولكن لا . ماذا تفعلين في الاسفل ؟ ها هو فيدور ايفانيتش قد وصل ايضا . كيف حال راسك ؟

– لا باس .

– طوال الوقت تقولين لا باس . ماذا عندكم هناك ، في الاسفل ؟ موسيقى ايضا ؟

– لا ، بل يلعبون الورق .

– بالطبع ، فهي تجيد كل شيء . شوروتشكا ، اراك تريدين ان تلعبي في الحديقة . فإذهبي .

– لا ، مارفا تيموفييفنا .

– لا تجادلي ، ارجوك . اذهبي . ذهبت ناستاسيا كاربوفنا الى الحديقة لوحدها . فاقضي معها بعض الوقت . احترمي العجوز . – خرجت شوروتشكا – ثم اين قلنسوتي ؟ اين اختفت ، حقا ؟

قالت ليزا :

– اسمحي لي ، سافتش عنها .

– اجلسي ، اجلسي . ما تزال لدى قدمان تتحركان . لا بد انها في مخدعي .

والقت على لافريتسكي نظرة جانبية ، وخرجت . وتركت الباب مفتوحا ، ولكنها عادت اليه فجاة ، واغلقته .

اتكات ليزا على ظهر الكرسي ، ووضعت يديها على وجهها بهدوء . وبقي لافريتسكي ، حيث كان . واخيرا قال :

– بهذا الشكل صار علينا ان نلتقي .

رفعت ليزا يديها على وجهها . وقالت بصوت كامد :

– نعم ، وعوقبنا بسرعة .

– عوقبنا ، على اي شيء عوقبتِ ؟

رفعت ليزا عينيها اليه . لم يكن في عينيها تعبير عن غم ، ولا فزع . بل بدتا اقل حجما وبريقا . وكان وجهها شاحبا ، كما كانت شاحبتين شفتاها المفتوحتان قليلا .

جفل قلب لافريتسكي اشفاقا وحبا . وهمس :

– كتبت لي ان كل شيء قد انتهى . نعم انتهى ، قبل ان يبدأ .

قالت ليزا :

– يجب ان ننسى كل ذلك . انا مسرورة لمجيئك . كنت اريد

ان اكتب لك ، ولكن هذا افضل . علينا ان نستفيد من هذه اللحظات . يبقى على كل منا ان يؤدي واجبه . يجب ان تتصالح مع زوجتك ، يا فيدور ايفانيتش .

– ليزا !

– ارجوك ان تفعل ذلك . به وحده يمكن التكفير . . . عن كل ما كان . فكر في الأمر ، ولا ترفض رجائي .

– ليزا ، بحق الرب ، انت تطلبين المستحيل . انا مستعد ان افعل كل ما تامرين به ، ولكن ان اتصالح معها الآن ! انا موافق على كل شيء ، نسيت كل شيء ، ولكن لا استطيع ان ارغم قلبي . . . غفرانك ، هذه قساوة !

– انا لا اطلب منك . . . ما تقوله . لا تعش معها ، اذا كنت لا تقدر على ذلك ، ولكن تصالح . – قالت ليزا ذلك ، ورفعت يدها على عينيها مرة اخرى . – تذكر ابنتك ، افعل ذلك ، من اجلي .

قال لافريتسكي من خلال اسنانه :

– حسنا . سأفعل ذلك ، لنفرض ، وبذلك اؤدي واجبي . اما انت ، فما هو واجبك ؟

– انا اعرفه .

ارتعش لافريتسكي فجاة ، سأل :

– هل تنوين الزواج من بانشين ؟

ابتسمت ليزا ابتسامة لا تكاد تبين ، وغمغمت :

– اوه ، لا .

فهتف لافريتسكي :

– آه ، ليزا ، ليزا ! كم كنا سنكون سعيدين !

رمقته ليزا مرة اخرى .

– الآن ترى بنفسك ، يا فيدور ايفانيتش ، ان السعادة لا تتوقف على ارادتنا ، بل على ارادة الرب .

– نعم ، لأنك . . .

فتح باب الحجرة المجاورة بسرعة ، ودخلت مارفا تيموفييفنا ، والقلنسوة بيدها . قالت ، وهي توقفت بين لافريتسكي وليزا :

– وجدتها بعد مشقة . انا التي وضعتها . تلك هي الشيخوخة ، مصيبة ! على العموم ، الشباب ليس احسن ، – ثم

اضافت مخاطبة فيدور ايفانيتش . – هل ستذهب الى لافريكي مع زوجتك ؟

قال بعد تمهل قصير :

– معها الى لافريكي ؟ انا ؟ لا اعرف .

– هل ستنزل الى الاسفل ؟

– لا ، هذا اليوم .

– طيب ، كما ترى . اما انت ، يا ليزا ، فيجب ان تنزلي الى الاسفل . آوه ، ياللقديسين ، نسيت ان انثر الحب لطائر الدغناش . ولكن ، انتظرا قليلا ، الآن . . .

وخرجت مارفا تيموفييفنا راكضة دون ان تلبس القلنسوة . اقترب لافريتسكي من ليزا بسرعة . وشرع يقول بصوت ضارع :

– ليزا ، سنفترق الى الابد . وقلبي يتمزق . اعطيني يدك للوداع .

رفعت ليزا راسها ، وثبتت فيه نظرتها المتعبة المنطفئة تقريبا .

– لا – قالت ، وسحبت يدها التي كانت قد مدتها اليه – لا ، لافريتسكي (لأول مرة سمته بهذا الاسم) لن اعطيك يدي . ولماذا ؟ انصرف ، ارجوك . انت تعرف انني احبك . اجل ، انا احبك ، – اضافت بجهد ، – ولكن لا ، . . . لا .

ورفعت منديلها الى شفتيها .

– اعطيني هذا المنديل ، على الاقل .

صرّ الباب . وانزلق المنديل على ركبتي ليزا . التقطه لافريتسكي ، قبل ان يسقط على الارض ، ودسّه في جيبه الجانبي بسرعة ، والتفت ، فالتقى بعيني مارفا تيموفييفنا .

قالت العجوز :

– ليزا ، يبدو لي ان امك تدعوك .

نهضت ليزا فورا ، وخرجت .

جلست مارفا تيموفييفنا في ركنها مرة اخرى . اخذ لافريتسكي يستأذنها بالانصراف .

قالت فجأة :

– فيديا .

– ماذا ، يا عمة ؟

– هل انت انسان نزيه ؟

– كيف ؟

– اسألك : هل انت انسان نزيه ؟

– آمل ، نعم .

– حم . اعطني كلمة شرف بأنك انسان نزيه .

– اعذريني ، ولكن لِمَ هذا ؟

– انا اعرف لِمَ . كما انك ، ياعزيزي ، ستفهم لماذا اسألك هذا ، اذا فكرت جيدا ، وانت الرجل الذكي . والآن ، وداعا ، ياعزيزي . شكرا على زيارتك لي . ولكن تذكر ما قلت لك ، فيديا ، وتعال قبّلني . آه ، ياروحي ، انت تعاني ، انا اعرف ، والجميع في ضيق ايضا . لهذا السبب كنت احسد الذبابة احيانا . فكنت اتصور انها هي التي تنعم بالعيش في الدنيا . ولكنني سمعت ، ذات ليلة ، انين ذبابة وقعت في حبائل عنكبوت ، فقلت لنفسي : اذن ، للذباب مصائبه ايضا . لا حيلة في الامر ، يافيديا ، تذكر كلمتي على اية حال . مع السلامة .

خرج لافريتسكي من الباب الخلفي ، وكان يقترب من البوابة الخارجية حين . . . لحق به خادم ، واخبره :

– طلبت ماريا دميترييفنا ان تتفضل بالذهاب اليها .

قال فيدور ايفانيتش :

– قل لها ، يا اخ ، انني لا استطيع الآن . . .

فمضى الخادم يقول :

– امرت بأنْ ارجوك كثيرا . قالت انها وحدها .

سأل لافريتسكي :

– هل انصرف الضيوف حقا ؟

– نعم ، بالضبط .

قال الخادم وكشّر .

هزّ لافريتسكي كتفيه ، وسار يتبعه .

٤٣

كانت ماريا دميتريفنا تجلس لوحدها في غرفــــة مكتبها على كرسي من الطراز الفولتيري ، وتشمّ الكولونيا . وكان قدح من ماء زهر البرتقال موضوعا على منضدة بالقرب منها . كانت مضطربة ، وتبدو كالمتهيبة .

دخل لافريتسكي ، وقال وهو ينحني محييا ببرود :

— هل رغبت في رؤيتي ؟

— نعم ، — قالت ماريا دميتريفنا ، وشربت قليلا من الماء . — عرفت انك جئت وقصدت العمــة توا ، فامرت بان يرجوك ان تاتي اليّ . يجب ان اتحادث معك قليلا . اجلس ، من فضلك ، — والتقطت ماريا دميتريفنا انفاسها ، واستطردت قائلة . — انــت تعرف ان زوجتك قد جاءت .

قال لافريتسكي : اعرف ذلك .

— اي ، نعم ، يعني اريد ان اقول انهــا جاءت قاصدة اياي ، فاستقبلتها . والآن هذا ما اريد ان استوضحه معـــــك ، فيدور ايفانيتش . حمدا لله على انني موضع احترام الجميع ، كما يمكن ان يقال ، وما من شيء في الدنيا يجعلني اقدم على ما لا يليق . ورغم انني اعرف مسبقا ان ذلك لا يريحـــك ، فقد عزمت الا امتنع عن مقابلتها ، يا فيدور ايفانيتش ، فهي من اقاربي من ناحيتك . كـن في موضعي ، اي حق اعطيه لنفسي فـــلا استقبلها في بيتي ؟ هل توافقني ؟

ردّ لافريتسكي قائلا :

— عبثا ان تقلقي ياماريا دميتريفنا . لقد احسنــت صنعا ، ولست غاضبا البتة . ولا انوى ابدا ان احرم فارفارا بافلوفنا مـن امكانية ان ترى معارفها . واليوم لم اجيء اليك لمجرد انني لم ارد ان التقي بها . وهذا كل ما في الامر .

هتفت ماريا دميتريفنا :

— آه ، ما اطيب ان اسمع ذلك منك ، يا فيدور ايفانيتش . وبشكل عام كنت دائما انتظر ذلك من عواطفك النبيلة . اما كوني قلقة ، فليس في ذلك عجـــب . فانا امراة وام . وزوجتك . . . بالطبع لا استطيع ان اكون حكما بينكما . وقد قلت لها ذلـــك

صراحة . ولكنها سيدة انيسة ، ولا يمكن ان تقدم الا على ما يسرّ النفس .

ضحك لافريتسكي ضحكة هزء مقتضبة ، وراح يلعب بقبعته .

فمضت ماريا دميتريفنا تقول ، وهي تتقدم منه قليلا :

— ثم اردت ان اقول لك ايضا ، يا فيدور ايفانيتش ، ليتك رايت كيف كانت تتصرف بتواضع وباحترام ! بل ان ذلك يهـــز النفس حقا . وليتك سمعت ماذا قالت عنك . تقول ، انها مذنبــة ازاءك في كل شيء . وانها لم تعرف كيف تقدرك ، وانـــك ملاك وليس انسانا . هذا ما تقوله حقا : ملاك . وهي نادمة ندما عظيما . قسما بالله ، انا لم ار قط ندما مثل ندمها !

قال لافريتسكي :

— طيب ، ماريا دميتريفنا . اعذريني عن الفضول . يقال ان فارفارا بافلوفنا غنت عندك ، غنت اثناء ندمها ، ام كيف ؟

— آه ، كيف لا تخجل من هذا القول ! انها غنت وعزفت ارضاء لي لا غير ، لانني الححت عليها بالطلب ، بل امرتها تقريبا . فقد رايت انها تعاني ، تعاني كثيرا ، فقلت لنفسي لألهيها بشيء ما ، ثم انني سمعت ان لها موهبة ممتازة ! تاكـد ، يا فيدور ايفانيتش انها مسحوقة جدا . اسأل سيرغي بيتروفيتش ، على الاقل . انهـــا امراة محطمة * tout-à-fait ، فما هذا الذي تقوله ؟

لم يشأ لافريتسكي الا ان يهز كتفيه .

— ثم اي ملاك صغير ابنتكما ، ادوتشكا ، الفتنة بعينها ! كم هي حبيبة الى النفس ، وذكية ، وما اجمـــل كلامها بالفرنسية ، وتتكلم بالروسية ايضا . سمتني : عمتي العزيـــزة . وهل تعرف انها لا تستوحش ابدا ، مثلما يفعل جميع الاطفال في مثـــل سنها . وهي تشبهك ، يا فيدور ايفانيتش ، شبها مذهـــلا — العينان ، والحاجبان . . . باختصار ، كما انت بالضبط . واعترف لك انني لا احب كثيرا الاطفال الصغار ،، ولكنني اغرمت بابنتك تماما .

قال لافريتسكي فجاة :

— ماريا دميتريفنا ، اسمحي لي ان اسالك : لأي شيء تقولين كل ذلك لي ، ارجوك ؟

---

* كليا (بالفرنسية في الاصل) .

— لأي شيء ؟ — وشمت ماريا دميتريبفنا ماء الكولونيا وشربت الماء مرة الاخرى . — اقول ذلك ، يا فيدور ايفانيتش ، لأنني قريبتك ، ولأنني اشاطرك مشاعرك كل المشاطرة . . . انا اعرف ان قلبك مملوء طيبة . اسمع ، mon cousin * ، انا امراة مجربة ، على اية حال ، ولن اتحدث هباء . سامح ، سامح زوجتك — وفجأة ترقرقت عينا ماريا دميتريبفنا بالدموع . — فكر مليا : شباب ، وعدم خبرة . . . ، طيب ، ولربما ، أسوة سيئة . اذ لم تكن عندها أم ترشدها الى الطريق القويم . اغفر لها ، يا فيدور ايفانيتش . فقد نالت ما يكفي من العقاب .

وتحدرت الدموع على خدي ماريا دميتريبفنا ، ولم تمسحها . فقد كانت تحب البكاء . جلس لافريتسكي ، وكأنه على جمر ، وفكر مع نفسه : «يا إلهي ، اي تعذيب هذا! ، واي نهار صادفني اليوم !»

عادت ماريا دميتريبفنا الى القول :

— انت لا تجيب . كيف يمكن ان افهمك ؟ هل معقول ان تكون بمثل هذه القسوة ؟ لا ، انا لا اريد ان اصدق بذلك . اشعر ان كلماتي اقنعتك . يجزيك الله خيرا ، يا فيدور ايفانيتش ، على طيبتك ، والآن تقبل زوجتك من يدي . . .

نهض لافريتسكي من مقعده لاراديا ، ونهضت ماريا دميتريبفنا ايضا ، واختفت وراء الحاجز بخفة ، وقادت فارفارا بافلوفنا من هناك . فبدت هذه بشحوبها واعيائها ، وعينيها المسبلتين ، وكأنها تخلت عن كل فكرة ، عن كل ارادة ، واستسلمت كليا لماريا دميتريبفنا .

تراجع لافريتسكي خطوة الى الوراء . وصاح :

— كنت هنا ، اذن ؟

اسرعت ماريا دميتريبفنا تقول :

— ليست هي الملومة في ذلك . لم ترد قط ان تبقى هنا ، ولكنني امرتها بالبقاء ، واجلستها وراء الحاجز . راحت تؤكد لي ان ذلك سيزيد من غضبك ، ولكنني لم اصغ اليها . انا اعرفك احسن من معرفتها لك . خذها من يدي . اذهبي فاريا ، ولا تخافي ، اركعي لزوجك (وجذبتها من يدها) وتبريكاتي . . .

* يا ابن عمي (بالفرنسية في الاصل) .

قاطعها لافريتسكي بصوت اصم ، ولكنه عنيف :

— توقفي ، ماريا دميتريبفنا . يبدو انك تحبين المشاهد المؤثرة (ولم يخطىء لافريتسكي ، فقد احتفظت ماريا دميتريبفنا منذ دراستها في المعهد بولعها بالاجواء المسرحية) ، فهي تسليك . ولكنها لا تريح الآخرين . وعلى العموم ، لا اريد ان اتحدث معك . فلست الشخصية الرئيسية في هذا المشهد . — واضاف وهو يخاطب زوجته . — ماذا تريدين مني ، يا سيدة ؟ ألم افعل لك ما استطعت عليه ؟ لا تقولي لي انك لم تدبري هذا اللقاء . فانا لا اصدقك . انت تعرفين انني لا استطيع ان اصدقك . ماذا تريدين ؟ انت ذكية ولا تفعلين شيئا بدون غرض . يجب ان تفهمي انني غير قادر على ان اعيش معك ، كما من قبل ، لا لأنني غاضب عليك ، بل لأنني صرت انسانا آخر . وقد قلت لك ذلك في اليوم الثاني من عودتك . وانت في هذه اللحظة توافقينني فى سرك ولكنك تودين ان تعيدي الاعتبار لنفسك في عيون الرأى العام . لا يكفيك ان تعيشي في بيتي ، فتريدين ان تعيشي معي تحت سقف واحد . أليس كذلك ؟

قالت فارفارا بافلوفنا دون ان ترفع بصرها :

— اريد ان تسامحني .

فكررت ماريا دميتريبفنا :

— تريد ان تسامحها .

وهمست فارفارا بافلوفنا :

— وليس من اجلي ، بل من اجل آدا .

فكررت ماريا دميتريبفنا :

— ليس من اجلها ، بل من اجل آدا .

فنبس لافريتسكي بجهد :

— ممتاز . تريدين ذلك ؟ تفضلي ، انا موافق .

القت فارفارا بافلوفنا عليه نظرة سريعة ، بينما هتفت ماريا دميتريبفنا : «آوه ، الحمد لله !» وجذبت فارفارا بافلوفنا من يدها مرة اخرى : «تقبل الآن من يدي . . .»

قاطعها لافريتسكي :

— اقول لك ، توقفي ، — ومضى يقول . — انا موافق على ان اعيش معك ، يا فارفارا بافلوفنا . اقصد انني سآخذك الى لافريكي ، واعيش معك قدر ما تسعفني قوة احتمالي ، ثم ارحل ، واجيء من

حين الى آخر . وها انت ترين انني لا اريد ان اخدعك ، ولكن لا تطلبي اكثر من هذا . انك نفسك ستضحكين مني ، لو سأنفذ رغبة قريبتنا المحترمة ، واضمك الى صدري ، واؤكد لك . . . ان ما مضى قد انقضى كأن لم يكن ، وان الشجرة التي قطعت ستزدهر ثانية . ولكنني ارى بأن الانسان يجب ان يذعن للمقدور وانت لا تفهمين هذه الكلمة ابداً . . . وهذا لا يغير من الامر شيئا . واكرر سأعيش معك . . . او ، لا ، هذا ما لا استطيع ان اعد به . . . سأعيش معك ، وسأعتبرك زوجتي من جديد . . .

– اعطها يدك عهدا بذلك ، على الاقل .

قالت ماريا دميتريفنا ، وقد جفت دموعها منذ وقت طويل .

قال لافريتسكي :

– انا لم انكث بفارفارا بافلوفنا ، حتى الآن . وهي تثق بي بدون ذلك . سآخذها الى لافريكي . اما انت يافارفارا بافلوفنا فتذكري ان اتفاقنا سيكون لاغيا حالما تغادرين لافريكي . والآن ، استأذن بالانصراف .

وانحنى لكلتا السيدتين ، وخرج على عجل .

صاحت ماريا دميتريفنا في اثره :

– لا تأخذها معك .

– اتركيه .

همست فارفارا بافلوفنا لها ، وطوقتها في الحال ، واخذت تشكرها ، وتقبل يديها ، وتسميها منقذتي .

تقبلت ماريا دميتريفنا الطافها بروح من التسامح . ولكنها ، في قرارة نفسها ، لم تكن راضية عن لافريتسكي ، ولا عن فارفارا بافلوفنا ، ولا عن كامل المشهد الذي اعدته . اذ لم ينجم عنه الا القليل من اللحظات المثيرة للمشاعر . فقد كان على فارفارا بافلوفنا ، حسب رأيها ، ان ترتمي على قدمي زوجها . قالت :

– كيف لم تفهميني ؟ لقد قلت لك : اركعي .

اكدت فارفارا بافلوفنا لها بقولها :

– هذا افضل ، ايتها العمة العزيزة . كل شيء ممتاز .

فانتبهت ماريا دميتريفنا قائلة :

– نعم ، فهو ايضا بارد كالثلج . لنفرض انك لم تبكي ،

ولكنني ذرفت الدموع امامه . انه يريد ان يحبسك في لافريكي . يعني محظور عليك حتى ان تزوريني ؟ الرجال جميعا بلا مشاعر .

قالت في الختام ، وهزّت رأسها بدلالة .

– وبمقابل ذلك تجيد النساء تقدير الطيبة ، والشهامة ، – قالت فارفارا بافلوفنا ، وركعت امام ماريا دميتريفنا على مهل ، وطوّقت جذعها الممتلئ بيديها ، وضغطت وجهها عليه . وكان هذا الوجه يبتسم خلسة ، بينما انهمرت دموع ماريا دميتريفنا من جديد .

ذهب لافريتسكي الى بيته ، واغلق عليه غرفة خادمه ، وارتمى على الاريكة ، واستلقى على هذا النحو حتى الصباح .

٤٤

كان اليوم التالي يوم احد . لم يوقظ رنين الاجراس الداعية لصلاة الفجر لافريتسكي – اذ لم تغمض له عين طوال الليل – ولكن الرنين ذكره بيوم احد آخر ذهب فيه الى الكنيسة نزولا عند رغبة ليزا . نهض مسرعا ، وصوت خفي في داخله يقول له سيلقاها هناك اليوم ايضا . خرج من البيت بسكون ، وامر بأن تبلّغ فارفارا بافلوفنا ، التي كانت ما تزال نائمة ، بانه سيعود وقت الغداء ، وتوجّه بخطى واسعة الى حيث كان يدعوه الرنين الحزين الرتيب . وصل مبكرا ، والكنيسة تكاد تكون خالية . كان الشماس يقرأ في كتاب الصلوات في ركن المرتلين ، وكان صوته المدندن الذي يقطعه السعال من حين لآخر ينخفض تارة ، ويعلو اخرى . جلس لافريتسكي غير بعيد عن المدخل . كان المصلون يأتون فرادى ، ويتوقفون ، ويرسمون علامة الصليب ، وينحنون في كل الجهات . وكانت خطواتهم ترن في الفراغ والسكون ، مرجعة الصدى بوضوح تحت سقف الكنيسة المعقود . وقفت عجوز عجفاء في جلباب رث له قلنسوة ، وركعت على ركبتيها قرب لافريتسكي ، وانغمرت بالصلاة . كان وجهها المتغضن الاصفر الخالي من الاسنان يعبر عن ضراعة مجهدة . وكانت عيناها الحمراوان شاخصتين الى الاعلى متسمرتين على صور الفاصل الايقوني ، وكانت تخرج يدها العظمية من جلبابها



باستمرار ، لترسم بها ببطء وقوة صليبا كبيرا عريضا على صدرها . ودخل الكنيسة ريفي ذو لحية كثة ، ووجه جهم ، اشعث الشعر ، ضاو ، وركع على ركبتيه دفعة واحدة ، وشرع على الفور يرسم علامة الصليب بسرعة ، دافعا راسه الى الوراء محركا اياه بعد كل انحناءة . كانت آثار مصيبة مرة على وجهه وفي كل حركاته ، حتى ان لافريتسكي عزم ان يتقدم منه ، ويسأله ما به . فتمتم الريفي بسرعة «ابني مات» ، وعاد يؤدي الانحناءات . وفكر لافريتسكي مع نفسه : «اي شيء يمكن ان يجلب لهم السلوان غير الكنيسة ؟» ، وحاول نفسه ان يصلي ، الا ان قلبه كان مثقلا ، ومغتاظا ، وافكاره بعيدة . كان ما يزال ينتظر ليزا ، وليزا لم تأت بعد . واخذت الكنيسة تمتلئ بالناس ، وليزا ما تزال غائبة . وبدأ قداس الصباح ، وصار الشماس يتلو الانجيل ، ودقت الاجراس للصلاة الاخيرة . تقدم لافريتسكي قليلا الى الامام ، وفجأة وقع بصره على ليزا . كانت قد جاءت قبله ، ولكنه لم يلحظها . كانت منكمشة في الفسحة بين الجدار وركن الترتيل ، لا تتلفت ، ولا تتحرك . ثبت لافريتسكي بصره فيها حتى انتهى القداس . كان يودعها . بدأ الناس يتفرقون ، بينما ظلت هي واقفة ، وكأنما كانت تنتظر انصراف لافريتسكي . واخيرا رسمت علامة الصليب الاخيرة ، وسارت دون تلفت بصحبة احدى الخادمات . خرج لافريتسكي من الكنيسة في اثرها ، ولحق بها في الشارع . كانت تسرع في مشيتها كثيرا ، مطرقة الراس ، مرسلة الحجاب على وجهها .

– مرحبا ، ليزافيتا ميخايلوفنا ، – قال لافريتسكي بصوت عال ، في عفوية قسرية . – هل ممكن ان ارافقك ؟

لم تقل شيئا ، فسار الى جانبها .

قال ، وهو يخفض صوته :

– هل انت راضية عني ؟ سمعتِ بما جرى يوم امس ؟

قالت هامسة :

– نعم ، هذا شيء حسن .

واسرعت في سيرها اكثر .

– انت راضية ؟

اكتفت ليزا بان هزّت راسها .

– فيدور ايفانيتش – قالت بصوت هادئ ولكنه ضعيف . –

اردت ان اطلب اليك ان تنقطع عن زيارتنا ، وان ترحل بأسرع وقت . وفيما بعد يمكن ان نلتقي ، بعد سنة او نحوها . اما الآن فافعل ذلك من اجلي . حقق رجائي ، من اجل الرب .

— انا مستعد ان اطيعك في كل شيء ، ليزافيتا ميخايلوفنا . ولكن هل من المعقول ان نفترق بهذا الشكل ؟ هل من المعقول ان لا تقولي لي كلمة واحدة ؟

— فيدور ايفانيتش ، ها انت تسير الآن الى جانبي . بينما انت بعيد ، بعيد عني . ولست انت وحدك ، ولكن . . .

هتف لافريتسكي :

— اكملي ، ارجوك ! ماذا تريدين ان تقولي ؟

— ستسمع ، ربما . . . ولكن انس ، مهما يكن من شيء . . . لا ، لا تنسني ، واذكرني .

— ان انساك . . .

— كفاية ، وداعا . لا تتبعني .

— ليزا .

انشأ لافريتسكي يقول . فكررت ليزا :

— وداعا ، وداعا !

واسبلت الحجاب اكثر الى الاسفل ، وانطلقت الى الامـــام كالراكضة .

شيّعها لافريتسكي ، وقفل راجعا في الشارع مطرق الرأس . فوقع في طريقه على ليم ، الذي كان يسير ايضا دافعا قبعته عـــلى وجهه ، مطرقا ببصره الى الارض تحت قدميه .

نظر احدهما الى الآخر صامتا .

واخيرا نطق لافريتسكي :

— طيب ، ماذا انت قائل ؟

ردّ ليم منقبضا :

— ماذا اقول ؟ لا اقول شيئا . مات كل شيء ، ونحن ايضا قد متنا (Alles ist todt und wir sind todt) . طريقك الى اليمين ، بالطبع ؟

— الى اليمين .

— وانا الى اليسار . وداعا .

* * *

في صباح اليوم التالي توجه فيدور ايفانيتش وزوجته الى لافريكي . استقلت هي مركبة في المقدمة ومعها آدا وجوستين ، وركب هو في عربة صغيرة وراءها . ظلت الصبية الحلوة تتطلع من نافذة المركبة طوال الطريق ، مندهشة من كل شيء ، من الفلاحين ، والريفيات ، والاكواخ ، والآبار ، وانيار الحيوانات ، والاجراس الصغيرة ، وكثرة غربان القيظ . وكانت جوستين تشاركها دهشتها . بينما كانت فارفارا بافلوفنا تضحك من ملاحظاتهما وهتافاتهما . كانت في مزاج رائق . فقد تكاشفت مع زوجها قبيل مغادرتها مدينة و. . .

قالت له :

– انا افهم وضعك . – وكان في وسعه ان يستخلص من التعبير المرتسم على عينيها الذكيتين انها كانت تفهم وضعه كليا . – ولكن وافقني على ان الحياة معي سهلة بالنسبة لك ، لن افرض نفسي عليك ، ولن اضايقك . لا اريد غير ان اضمن مستقبل آدا ، ولا احتاج الى شيء آخر .

قال فيدور ايفانيتش :

– اجل ، حققت كل غاياتك .

– الآن لا احلم الا بشيء واحد : ان اختفي الى الابد في مكان ناء . وساتذكر دائما افضالك الشهمة . . .

قاطعها :

– إخ ! يكفيك .

فاكملت عبارتها الجاهزة :

– واستطيع احترام استقلاليتك ، وسكينتك .

انحنى لافريتسكي اليها انحناءة واطئة . فادركت فارفارا بافلوفنا ان زوجها شكرها في سره .

قرابة المساء في اليوم الثاني وصلوا الى لافريكي . وبعد اسبوع توجه لافريتسكي الى موسكو ، بعد ان ترك لزوجته خمسة الاف روبل لنفقاتها المعيشية ، وبعد يوم من رحيل لافريتسكي وصل بانشين الذي كانت فارفارا بافلوفنا قد طلبت اليه ان لا ينساها في وحدتها . واستقبلته فارفارا بافلوفنا كاحسن ما يكون الاستقبال وظلت انغام الموسيقى والاغاني والعبارات الفرنسية المرحة تملأ الغرف العليا والحديقة نفسها الى ساعة متأخرة من الليل . وظل بانشين في ضيافة

فارفارا بافلوفنا ثلاثة ايام ، ولدى توديعه لها ، شدّ على يديها الجميلتين بقوة ، ووعد بأن يعود الى زيارتها قريبا ، ووفى بوعده .

٤٥

كانت لليزا حجرة خاصة بها متوسطة الحجم في الطابق الثاني من بيت امها ، نظيفة ، وضيئة ، فيها سرير ابيض ، واصص من الزهور في الاركان ، وامام النافذة ، ومنضدة كتابة صغيرة ، ورف كتب ، وعلى الحائط صليب عليه صورة المسيح مصلوبا . وكانت هذه الحجرة تسمى حجرة الاطفال ، وقد ولدت ليزا فيها . بعد ان عادت من الكنيسة ، حيث رآها لافريتسكي ، رتبت كل شيء في غرفتها اتقن من المعتاد ، وازالت الغبار في كل مكان ، ونظرت من جديد في كل دفاترها ورسائل صديقاتها ، وشدّتها بالشرائط ، واغلقت جميع الجرارات ، وسقت الزهور ، ومسّت بيدها كل زهرة . وقد قامت بكل ذلك بتؤدة ، ودون ضجيج . وقد ارتسم على وجهها روح العناية الحنون الهادئة . واخيرا توقفت في وسط الغرفة ، واجالت بصرها ببطء ، وحين اقتربت من المنضدة التي كان الصليب يتدلى فوقها ركعت على ركبتيها ، ووضعت رأسها على يديها المتشابكتين ، وظلت جامدة .

دخلت مارفا تيموفييفنا فوجدتها في هذا الوضع . لم تلحظ ليزا مجيئها . خرجت العجوز على اطراف اصابعها وراء الباب ، وسعلت بقوة عدة مرات . نهضت ليزا بسرعة ، ومسحت عينيها اللتين كانت تلمع فيهما دموع متلألئة عالقة بالرموش .

قالت مارفا تيموفييفنا ، وهي تنحني كثيرا على اصيص وردة غضة :

– اراك قد رتبت صومعتك من جديد . ما الطف رائحتها !

نظرت ليزا الى عمتها ساهمة . وهمست :

– اية كلمة قلتها !

– اية كلمة ، اية ؟ – اسرعت العجوز تقول . – ماذا تريدين ان تقولي ؟ هذه فظاعة ، – بادرت العجوز تقول ، وقد القت قلنسوتها بسرعة ، وجلست على سرير ليزا . – هذا اكثر من قوة

احتمالي . هذه هو اليوم الرابع ، وانا اغلي كالمرجل ، ولم اعد استطيع ان اتظاهر بانني لا الحظ شيئا ، ولا استطيع ان ارى كيف يعلوك الشحوب ، وتنحفين ، وتبكين ، لا استطيع ، لا استطيع .

نبست ليزا قائلة :

— ماذا اعتراك ، ياعمة ؟ لا شيء بي . . .

هتفت مارفا تيموفييفنا :

— لا شيء ؟ قولي هذا للآخرين لا لي . لا شيء ! ومن الذي كان يركع على ركبتيه الآن ؟ ومَنْ رموشه ما تزال مبللة بالدموع ؟ لا شيء ! حري بك ان تنظري الى نفسك ، وتري ماذا فعلت بوجهك ، واين غاضت عيناك ؟ لا شيء ! هل معقول انني لا اعرف كل شيء ؟

— سيزول هذا ، ياعمة . اعطيني مهلة .

— سيزول ، ولكن متى ؟ اوه ، يا إلهي العلي القدير ! هل معقول انك احببته بهذا الشكل ؟ ولكنه عجوز ، ياليزوتشكا . طيب ، انا لا اجادل في انه رجل طيب ، ولا يعض . ولكن اي شيء في ذلك ! نحن جميعا اناس طيبون . والدنيا واسعة ، وهذه الطيبة كثيرة دائما . !

قلت لك كل ذلك سيزول ، كل ذلك قد زال .

— اسمعي ، ليزوتشكا ، الى ما اقول لك ، — قالت مارفا تيموفييفنا فجاة ، وهي تُجلس ليزا جنبها على السرير ، معدّلة شعرها تارة ، ومنديل راسها تارة اخرى . — انت في سورة العاطفة فقط تتصورين ان حزنك لا يُغلب . آه ، ياروحي ، الموت وحده لا دواء له ! فقط ان تقولي لنفسك : «لن ارضخ ، تبا له !» وستندهشين بنفسك كيف تزول الغمة بسرعة ولطف . فقط ان تصبري .

ردّت ليزا :

— عمة ، زال ، زال كل شيء .

— زال ! ماذا زال ! حتى انفك قد نحل وتدبب ، بينما انت تقولين زال . لطيف «زال» !

— نعم ، زال ، ياعمة ، فقط لو ترغبين في مساعدتي ، — قالت ليزا بعاطفية مفاجئة ، وارتمت على رقبة مارفا تيموفييفنا . — عمتي

العزيزة ، كوني صديقة لي ، ساعديني ، ولا تغضبي عليّ ، افهميني . . .

— ولكن ماذا ، ماذا ، يا عزيزتي ؟ لا ترعبيني ، ارجوك . ساصرخ حالا ، لا تنظري اليّ هذه النظرة ، واسرعي وقولي : ماذا ؟

— اريد . . . — واخفت ليزا وجهها في صدر مارفا تيموفييفنا وقالت بصوت كامد . — اريد ان ادخل الدير .

نطت العجوز على السرير . وغمغمت في آخر الامر :

— ارسمي علامة الصليب ، يا عزيزتي ، يا ليزوتشكا ، وانتبهي الى ما تقولينه ، حفظك الله . استلقي ، يا حمامتي ، واغفي قليلا . كل ذلك من الارق ، ياروحي .

رفعت ليزا راسها ، وكان خداها متوهجين . قالت :

— لا ، ياعمة ، لا تتحدثي بهذا الشكل . عزمت امري ، وصليت ، وسالت الرب مشورة . لقد انتهى كل شيء ، انتهت حياتي معكم . لم يكن هذا الدرس جزافا . كما ان هذه ليس المرة الاولى التي افكر فيها بذلك . السعادة لم تكن من نصيبي . وحتى حين كانت لي آمال في السعادة كان قلبي يئن في صدري طوال الوقت . انا اعرف كل شيء ، ذنوبي ، وذنوب الآخرين . ورأيت كيف جمع ابي الثروة . اعرف كل شيء . وكل ذلك يجب ان اكفر عنه بالصلوات . وانا اشفق عليك ، واشفق على امي ، وعلى لينوتشكا ، ولكن لا مناص من ذلك . اشعر بانه لا حياة لي هنا ، وقد ودّعت الجميع ، وودّعت كل ما في البيت الوداع الاخير . ان شيئا خفيا يدعوني . اشعر بالقرف ، واريد ان احبس نفسي الى الابد . فلا تعيقيني ، ولا تحاولي اقناعي بعكس ذلك ، وساعديني ، والا فساذهب لوحدي . . .

اصغت مارفا تيموفييفنا الى ابنة اخيها بفزع .

وفكرّت مع نفسها : «انها مريضة ، تهذي ، ويجب استدعاء طبيب ، ولكن اي طبيب ؟ قبل ايام امتدح غيديونوفسكي احد الاطباء ، ولكنه يكذب . غير انه قد يكون صادقا في هذه المرة» . ولكنها حين تيقنت ان ليزا ليست مريضة ، ولا تهذي ، وحين صارت ليزا تجيب عن كل اعتراضاتها جوابا واحدا لا يتغيّر ، فزعت مارفا تيموفييفنا ، وحزنت حزنا شديدا . قالت تحاول اقناعها :

— ولكنك ، يا عزيزتي ، لا تعرفين اي حياة هي حياة الدير !

سيطعمونك ، ياحبيبتي ، زيت القِنّب الاخضر ، ويلبسونك ثيابا داخلية خشنة غاية الخشونة ، ويجعلونك تمشين في البرد . وانت لا تحملين كل ذلك ، ليزوتشكا . وكل ذلك من تاثير اغافيا عليك هي التي ضللتك . ولكنها فعلت ذلك بعد ان عاشت حياتها ، وفي متعة . فعيشي انت ايضا ، دعيني ، على الاقل ، اموت في راحة ، وبعد ذلك افعلي ما تشائين . مَنْ سمع او راى ان امراة تدخل الدير بسبب ابي لحية العنز ذاك ، الله يسامحه ، من اجل رجل ؟ ولكن اذا كنت قد سئمت العيش ، اذهبي ، وصلّي لشفيع من القديسين ، واقيمي صلاة الشكر ، ولا تضعي قلنسوة سوداء على راسك ، ياروحي ، يا طفلتي . . .

واخذت مارفا تيموفييفنا تبكي بمرارة .

هدأتها ليزا ، ومسحت دموعها ، وبكت هي الاخرى ، ولكنها بقيت على رأيها لا تتزعزع . حاولت مارفا تيموفييفنا ليأسها ان تعمد الى التهديد ، قائلة انها ستخبر امها بكل شيء . ولكن هذا ايضا لم يثنيها عن عزمها . وبضراعات العجوز الملحة وحدها وافقت ليزا على تأجيل ما عزمت عليه نصف عام ، مقابل ان تتعهد مارفا تيموفييفنا بأن تساعدها ، وتسعى الى الحصول على موافقة ماريا دميتريفنا ، اذا لم تغير قرارها بعد ستة اشهر .

* * *

وبحلول موجات البرد الاولى انتقلت فارفارا بافلوفنا للاقامة في بطرسبورغ ، رغم وعدها باللواذ في مكان ناء ، وقد اخذت معها احتياطات من النقود ، واجّرت في بطرسبورغ شقة متواضعة ، ولكنها جميلة وجدها لها بانشين الذي كان قد غادر ولاية و . . . قبلها . وكان في الفترة الاخيرة من اقامته في و . . . قد فقد كليا الحظوة لدى ماريا دميتريفنا ، فكف عن زيارتها فجاة ، ولم يغادر لافريكي تقريبا . وقد استعبدته فارفارا بافلوفنا ، بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، فما من كلمة اخرى غيرها تعبّر عن سلطتها عليه ، تلك السلطة المطلقة القاطعة غير القابلة للنقض .

قضى لافريتسكي الشتاء في موسكو ، وفي ربيع العام التالي بلغه خبر ترهب ليزا في دير ف . . . في احد اطراف روسيا القصية .

الخاتمة

انقضت ثمانية اعوام . وحل الربيع مرة اخرى . . . ولكن لنقل شيئا عن مصير ميخاليفيتش ، وبانشين ، والسيدة لافريتسكايا ، ونفترق معهم . وقع ميخاليفيتش على عمله الحقيقي اخيرا ، بعد سنين طويلة من التجواب . فقد حصل على وظيفة مراقب اقدم في احدى المدارس الحكومية ، ورضي عن مصيره كثيرا ، وتلامذته «يعبدونه» رغم مناكدتهم له . وارتقى بانشين في سلم الرُتب عاليا ، وهو يصبو الى ان يكون مديرا . انه يسير محنيا قليلا ، فلربما تحت وطأة وسام فلاديمير المعلق في رقبته . تغلب الموظف فيه على الفنان بشكل قاطع ، وقد اصفر وجهه الذي ما يزال فتيا ، وخفّ شعر رأسه ، وهو الآن لا يغني ولا يرسم ، ولكنه يمارس الادب خفية ، وقد الّف مسرحية كوميدية ، على نمط «الامثال» (٦٨) . ولما كان كل الذين يكتبون الآن «يصورون» احدا من الناس او شيئا من الاشياء ، فقد «صور» بانشين في مسرحيته امراة غنجة ، وقرأها سرا على اثنتين او ثلاث من السيدات المستأنسات به . ولكنه لم يتزوج ، رغم سنوح الكثير من الفرص الجميلة له . وفارفارا بافلوفنا هي الملومة في ذلك . اما فيما يتعلق بها فانها تعيش في باريس بصورة دائمية ، كما كانت من قبل . وقد حرّر لها فيدور ايفانيتش سندا نقديا عليه ، وحرر نفسه منها ، ومن احتمال ان تعود ثانية بشكل مفاجئ . وقد ظهر عليها الكبر ، وامتلأ جسدها ، ولكنها ظلت حلوة وانيقة . ولكل انسان مثاله ، وقد وجدت فارفارا بافلوفنا مثالها في المؤلفات المسرحية لدوما الابن . وكانت تثابر على مشاهدة المسرح ، حيث كانت تصوَّر غادات الكاميليا المسلولات والمرهفات ، وهي تتصور ان ذروة السعادة الانسانية تتمثل في ان يكون للمرء مصير السيدة دوش (٦٩) . وذات مرة اعلنت انها لا تتمنى لابنتها احسن من هذا المصير . فلا بد ان نامل في ان يجنب القدر المدموزيل آدا مثل هذه السعادة . تحوّلت آدا من طفلة موردة الخدين مترعة الجسم الى فتاة واهنة الصدر ، شاحبة اللون . كما ان اعصابها قد تضررت ايضا . وتضاءل عدد المعجبين بفارفارا بافلوفنا ، ولكنهم لم يختفوا كليا . ولربما ستحتفظ

اجابه صياح جماعي ، لا لأن هؤلاء الفتية كلهم سروا كثيرا بقدوم واحد من اقاربهم البعيدين ، يكاد يكون منسيا ، بل لمجرد انهم كانوا متهيئين لأن يضحوا ويغتبطوا لكل فرصة سانحة . احاطوا بلافريتسكي في الحال ، وكانت لينوتشكا باعتبارها تعرفه من قبل اول مَنْ سمت نفسها له ، واكدت له انها كانت ستتعرف عليه بالتاكيد لو مضت دقائق ، وقدمت له جميع الآخرين ، مسمية كل واحد منهم ، وحتى خطيبها ، باسم التصغير . تحرك الجمع كله عبر غرفة الطعام الى حجرة الجلوس . كان ورق الحائط في كل منهما مختلفا عن الورق القديم ، الا ان الاثاث بقي سليما . تعرف لافريتسكي على البيانو ، وحتى طرة التطريز عند النافذة . بقيت على وضعها السابق ، بل وتكاد تكون بنفس التطريز غير المكتمل الذي كان عليها منذ ثمانية اعوام . اجلسوه على مقعد وثير مريح ، وجلس الجميع حوله رصينين . وانثالت الاسئلة والهتافات والحكايات بعضها ياخذ برقاب الآخر .

قالت لينوتشكا بسذاجة :

– من زمان لم نرك ، ولم نر فارفارا بافلوفنا .

– اهوه ! – ردّ عليها اخوها – عندما اخذتك الى بطرسبورغ كان فيدور ايفانيتش ما يزال يعيش في القرية .

– نعم ، وماما ماتت خلال ذلك .

وقالت شوروتشكا :

– ومارفا تيموفييفنا ايضا .

واضافت لينوتشكا :

– وناستاسيا كاربوفنا ، ومسيو ليم .

فسأل لافريتسكي :

– كيف ؟ وليم توفي ؟

اجاب كاليتين الشاب :

– نعم . رحل من هنا الى اوديسا . يقال ان احدا من الناس اغراه الى هناك ، فتوفي .

– الا تعرفون هل خلّف بعض الموسيقى ؟

– لا اعرف . اشك .

وصمت الجميع ، وتبادلوا النظرات . ولفّت سحابة من الحزن جميع الوجوه الفتية .

وفجاة قالت لينوتشكا :

– بينما ماتروسكا ما تزال حية .

واضاف اخوها :

– وغيديونوفسكي حي ايضا .

ولدى ذكر اسم غيديونوفسكي صدر ضحك جماعي دفعة واحدة .

وتابع ابن ماريا دميتريفنا يقول :

– نعم ، انه حي ويكذب كالسابق . تصوّر ان هذه العفريتة (واشار الى طالبة المعهد ، اخت زوجته) نثرت الفلفل يوم امس في علبة نشوقه .

فصاحت لينوتشكا :

– وليتك رأيته كيف كان يعطس !

ومن جديد رنّ ضحك لا يكبح .

ومضى كاليتين الشاب يقول :

– قبل وقت قصير جاءتنا اخبار عن ليزا – وهدأ كل شيء حوله من جديد . – انها في حالة طيبة ، وصحتها تتعدل الآن شيئا فشيئا .

سأل لافريتسكي ولكن بجهد :

– اما تزال في نفس الدير ؟

– نعم .

– وهل تكتب لكم ؟

– لا ، لم تكتب قط . اخبارها تصلنا عن طريق الناس .

وساد صمت مفاجئ عميق . وفكر الجميع : «ملاك هادئ مرّ طائرا» .

خاطب كاليتين لافريتسكي قائلا :

– الا تريد ان ترى الحديقة ؟ انها لطيفة جدا الآن ، رغم اننا اهملناها قليلا .

خرج لافريتسكي الى الحديقة ، واول ما لفت اليه بصره هي المسطبة التي قضى عليها مع ليزا ، انذاك ، بعض اللحظات السعيدة التي لا تكرر . وقد اسودت الآن ، واعوجت ، ولكنه عرفها ، واستولى على نفسه ذلك الشعور الذي لا مثيل له في حلاوته ومرارته ، الشعور بالرثاء الحي للشباب الراحل ، وبالسعادة التي كانت بين يديه ذات مرة . سار مع الفتية خلال

الدروب المعرّشة . شاخت اشجار الزيزفون قليلا ، وشبّت فارعة خلال السنوات الثماني ، وصار ظلها اكثف ، ومع ذلك فان كل الخمائل قد ارتفعت هاماتها ، وشجيرات العليق صلب عودها ، وشجيرة الجوز قد اهملت وتسلق عليها العشب ، ورائحة الراتينج الطري ، والخشب ، والعشب والليلق في كل مكان .

— هنا تطيب لعبة الاركان الاربعة — قالت لينوتشكا فجأة ، وقد طلعت الى منبسط اخضر صغير محاط باشجار الزيزفون — وبالمناسبة نحن خمسة .

قال اخوها :

— وكأنك نسيت فيدور ايفانيتش ؟ أم لا تحسبين نفسك ؟

احمرّت لينوتشكا قليلا . وبادرت تقول :

— معقول ان فيدور ايفانيتش في مثل عمره يستطيع ...

اسرع لافريتسكي يقاطعها :

— تفضلوا ، العبوا . ولا تعيروا لي التفاتا . سيريحني اكثر حين اعرف اني لا اضايقكم . ولا حاجة الى ان تنشغلوا بي . . . ثم ان لنا ، نحن الشيوخ ، شغلا ما زلتم لا تعرفونه ، ولا يستطيع شغل آخر ان يحل محله . وهو استرجاع الذكريات .

اصغى الفتية الى لافريتسكي بروح من الاحترام الخفي ، والمشوب بشيء من السخرية — وكأنه معلم يلقي عليهم درسا — وفجأة تفرقوا عنه متراكضين الى المنبسط . ووقف الاربعة قرب اشجار اربع ، وواحد في الوسط . وبدأ اللعب .

اما لافريتسكي فعاد الى البيت ، ودخل حجرة الطعام ، ودنا من البيانو ، ومسّ احد مفاتيحه ، فصدر صوت ضعيف ، الا ان رنة الصوت الصافية ردّدت رجع الصدى في قلبه . فبهذه الرنة ذاتها بدأ ذلك اللحن الملهم الذي عزفه ليم ، المرحوم ليم ، في تلك الليلة السعيدة ، قبل زمن طويل ، وافعم قلبه بنشوة الفرح . ثم دخل لافريتسكي الى حجرة الجلوس ، ولم يتركها الا بعد وقت طويل . ففي هذه الحجرة التي كثيرا ما رأى فيها ليزا ، لاحت امامه صورتها اكثر حياة . وخيل اليه انه كان يحس حوله بآثار حضورها ، الا ان اساه عليها كان مضنيا وليس سهلا ، وخاليا من السكينة التي يخلفها الموت ، فليزا ما تزال تعيش في مكان ما ، معزول

وناء . فكان يفكر فيها ، حيّة ، وما كان في مقدوره ان يتعرف على الفتاة التي كان يحبها ذات مرة ، في ذلك الشبح المبهم الشاحب المتشح بثياب الرهبنة ، والمحاط بتموجات البخور الداخنة . وما كان لافريتسكي ذاته سيتعرف على شخصه ، لو انه تفحص نفسه ، مثلما تمعن ليزا في ذهنه . خلال هذه السنوات الثماني حصل تحوّل في حياته في آخر الامر ، تحول لا يمر به الكثيرون ، ولكن يستحيل بدونه ان يظل انسانا سويا لآخر العمر ، وبالفعل كف عن التفكير في سعادته الشخصية ، في اهدافه النفعية . وسكن روعه ، وشاخ — ولماذا تُخفى الحقيقة ؟ — لا بالوجه والجسد وحدهما ، بل شاخ بالقلب ايضا . والاحتفاظ بشباب القلب حتى الشيخوخة ، كما يقول البعض ، صعب ، ومضحك تقريبا . ومن هنا لا بد ان يكون راضيا مَنْ لم يفقد الايمان بالخير ، وثبات الارادة ، والرغبة في النشاط . وكان يحق للافريتسكي ان يكون راضيا . فقد اصبح ، بالفعل ، مزارعا جيدا ، وتعلم بالفعل كيف يحرث الارض ، ويكدح لا لنفسه وحده ، بل وليؤمن ويوطد حياة فلاحيه ، قدر مستطاعه .

خرج لافريتسكي من البيت الى الحديقة ، وجلس على المسطبة المألوفة له يواجه البيت الذي شهد كيف مد يديه ، للمرة الاخيرة ، وبدون ثمرة ، الى القدح المشتهى ، قدح خمرة اللذة الفوارة المتراقصة ، وراح في هذا المكان العزيز عليه ، يلتفت الى الوراء ، وهو الجوّاب الوحيد المتشرد ، لينظر في حياته ، وسط صيحات المرح المتوافدة عليه ، يطلقها جيل فتي صار يحتل مكانه . شعر بالاسى في قلبه ، ولكن بدون وقر او تفجع . كان له ما يرثى له ، ولم يكن له ما يخجل منه . «العبي ، وامرحي ، وانمي ، ايتها الحيوات الفتية — كان يفكر ، ولم تكن هناك مرارة في افكاره — الحياة امامكم ، وسيكون العيش اسهل عليكم ، فلن تضطروا الى البحث عن طريقكم ، كما اضطررنا نحن ، ولا الى الكفاح ، والسقوط والنهوض وسط القتامة . لقد سعينا نحن الى ان نجنّب انفسنا العطب ، والكثيرون منا فشلوا في ذلك ! اما انتم فيجب ان تؤدوا دوركم ، وتعملوا . وسنباركم ، نحن الشيوخ . . والآن ، بعد هذا اليوم ، بعد هذه المشاعر ، لا يبقى لي الا ان اقرأكم الوداع الاخير ، واقول في حزن ، ولكن بدون حسد ، ولا اية مشاعر

سوداء ، وانا ملاق ربي في نهاية عمري : «سلاما ، ايتها الشيخوخة والوحدة ، وانطفاء ، ايتها الحياة التى لا نفع منها !»

نهض لافريتسكي بهدوء ، وانصرف بهدوء ، ولم يلحظه احد ، ولم يوقفه احد . وترددت الصيحات المرحة اشد من ذي قبل ، وراء الجدار الاخضر الكثيف لاشجار الزيزفون العالية في الحديقة . وجلس في العربة ، وامر السائق بأن يذهب به الى البيت ، دون عجالة .

* * *

قد يسأل القارئ غير راضٍ : «والنهاية ؟ وماذا جرى للافريتسكي بعد ذلك ؟ ماذا جرى لليزا ؟» ولكن ماذا يمكن ان يقال عن اناس ما زالوا احياء ، وان كانوا قد انصرفوا عن العمل الدينوي ، وما الحاجة الى العودة اليهم ؟ يقال ان لافريتسكي زار الدير النائي الذي انقطعت فيه ليزا ، ورآها . مرّت هي به منتقلة من ركن للمرتلين الى آخر ، مرّت به في مشية المترهبة الموزونة ، الخاشعة العجول ، ولم تنظر اليه ، سوى ان رموش عينها المتجهة اليه ارتعشت قليلا ، ووجهها الناحل ازداد اطراقا ، واصابع يديها المتشابكة المضفورة بسبحة الصلاة انطبق بعضها على بعض بقوة اشد . فمن يعرف فيما فكرا ، وبماذا شعرا ؟ ومن ينبئ بالخبر اليقين ؟ فان هناك لحظات في الحياة ، ومشاعر . . . من الممكن الاشارة اليها ، وتجاوزها .

تعليقات

ذكريات ماريا تولستايا عن تورغينيف (كما رواها ستاخوفيتش)

١ - ص ٨

تعرف تورغينيف على ماريا تولستايا ، اخت ليف تولستوي في تشرين الاول ١٨٥٤ ، اثناء نفيه الى ضيعته سباسكويه ، واقامته فيها . وكان تورغينيف يريد ان يعرف شيئا عن مؤلف «تاريخ طفولتي» ، قصة تولستوي الطويلة التي سحرت تورغينيف ، فقادته هذه الرغبة الى بوكروفسكويه ، ضيعة آل تولستوي المجاورة . ويكتب نيقولاي اخو تولستوي الى اخيه في سيفاستوبول «ان ماشا مبهورة بتورغينيف» . كانت ماريا تولستايا — وهي الذكية الحدوب الصادقة والموسيقية الرائعة — تخفف متاعب تورغينيف في منفاه في سباسكويه . فهو يتحدث معها عن مشاريعه ومخططاته الادبية ، وهو امر كان امارة على ثقة تورغينيف بذلك الشخص . وفي بوكروفسكويه يقرأ لأول مرة فصولا من «رودين» ويستمع بانتباه الى نقاش تولستايا عن بطل روايته . وهو يسميها «احدى المخلوقات الجذابة» . وقد ترك ولعه بهذه الشخصية «البسيطة النفس الخالية من التصنع» اثرا حيا في سيرة الكاتب الانسانية والابداعية . وبها ترتبط قصة من اكثر ابداعات تورغينيف الشعرية ، الا وهي قصته الطويلة «فاوست» (١٨٥٦) . وقد تعرف معاصروه بسهولة على ملامح الكونتيسة ماريا تولستايا في صورة بطلة هذه القصة فيرا يلتسوفا . وهذا تؤكده ايضا «الذكريات» نفسها ، وهي تورد النقاشات الحامية مع تورغينيف عن الاشعار التي لم تكن ماريا تولستايا تحبها ولا تفهمها ، واعترفت له بذلك صراحة ، شأنها شأن بطلة

تورغينيف . وقضاء الوقت في بوكروفسكويه يشبه قضاء النهارات والامسيات في بيت آل يلتسوف . فتورغينيف يصغي الى عزف سيدة الضيعة على البيانو بشغف ، ويقرأ لها «يفغيني اونيغين» * كما يفعل بطل «فاوست» .

ترى تورغينيف في رسائله الى اصدقائه والى ليف تولستوي ، بعد سفره الى الخارج في عام ١٨٥٦ يستفسر باستمرار عن ماريا تولستايا التي آل مستقبلها الى نهاية بائسة . فهي في عام ١٨٥٨ ، وبعد تعرفها على الكاتب بوقت قصير ، تهجر زوجها ، وهو انسان فظ وغير نظيف خلقيا ، «هنري الثامن من نوع ريفي» على حد تعبير تورغينيف .

وما روته ابنة ماريا تولستايا عن امها ذائع مشهور اذ قالت : «ذات مرة قالت لي امي ، وقد اشارت الى صورة تورغينيف : « لو لم يكن مخلصا للحب الوحيد في حياته ، ولم يحب بولينا فياردو ذلك الحب اللاهب ، لكنت واياه سعيدين . . . لقد كان انسانا رائعا ، وهو في ذاكرتي على الدوام» . وكتب ايليا ابن تولستوي في مذكراته ان «ماريا تولستايا ظلت ، حتى آخر عمرها ، تحفظ لتورغينيف ذكرى شاعرية تماما ، وضيئة ، ساطعة ، لا تشوبها شائبة» .

وم . ستاخوفيتش صديق مقرب لعائلة تولستوي ، قد سجّل ذكريات ماريا تولستايا عن تورغينيف في عام ١٩٠٣ ، ونشرها لأول مرة في مجلة «اورلوفسكي فيستنيك» ، العدد ٢٢٤ ، عام ١٩٠٣ تحت عنوان «في عام ١٩٠٣ عن عام ١٨٥٣» موقعة بالحرفين م . س .

والطبعة الحالية للذكريات منقولة عن نص الطبعة الأولى .

٢ – ص ٨

هناك شهادات طريفة جدا لمعاصري تورغينيف عن الكيفية التي كانت تطبق بها هذه الرقابة : «كانت ادارة القضاء وادارة القرية تراقبان كل خطوة من خطوات تورغينيف ، بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة . فقد كان «رجل» يسير في

* رواية شعرية للشاعر الروسي العظيم الكسندر بوشكين . **الناشر** .

اعقابه سواء أخرج للصيد ، او زار جيرانه ، وكان هذا «الرجل» مزودا بتعليمات «ان يفتح عينيه كلتيهما في مراقبة السيد» و«لا يتثاءب» . . . وكان هذا «الرجل الصغير» يعرفه اصحاب الاراضي المحليون بكنيته «حارس متسينسك اللئيم» . ولا تزال محفوظة في ارشيف محكمة قضاء متسينسك يوميات هذا «المراقب» .

٣ – ص ٩

ليس تماما . عاش تورغينيف في سباسكويه من ٢٤/١٢ نيسان الى ١٥/٢ تشرين الاول ١٨٥٥ .

٤ – ص ١٠

كان مبعث قلق تورغينيف انتقاد اصدقائه – نيكراسوف وانينكوف ، وبوتكين ، الذين قرأوا الصيغة الاولى للرواية . فقد رأوا ان الكاتب «سوّد» صفحة بطله اكثر من اللازم . يلاحظ تورغينيف في احدى رسائله الى ماريا تولستايا (تموز – آب ١٨٥٥) : «انا شاكر لك كثيرا ما تكتبينه لي بخصوص شخصية ناتاليا . وكل ملاحظاتك صحيحة . وسآخذها بعين الاعتبار ، واعيد صياغة كل المشهد الاخير مع امها ...» .

«رودين»

٥ – ص ١٣

كتبت رواية «رودين» في سباسكويه خلال شهري حزيران وتموز من عام ١٨٥٥ . وفي منتصف تشرين الاول وصل تورغينيف الى بطرسبورغ ، وعرض مؤلفه لحكم اعضاء هيئة تحرير مجلة «سوفريمينيك» . وبناء على ملاحظاتهم ادخل الكاتب على الرواية تعديلات واضافات اساسية : طوّر موضوعة علاقات ليجنيف ورودين اثناء حياتهما الجامعية (حديث ليجنيف عن حلقة بوكورسكي – الفصل السادس) وغيّر نهاية الرواية الى غير ذلك .

نشرت الرواية ، لأول مرة ، دون الفصل المعنون «الخاتمة» ، تحت اشارة «رواية قصيرة» ، وذلك في مجلة

«سوفريمينيك» في العدد الاول والثاني لعام ١٨٥٦ ، وبتوقيع ايف . تورغينيف .

وقد ظهرت خاتمة الرواية التي تتحدث عن مقتل رودين على متاريس باريس ، في طبعة ١٨٦٠ لاول مرة . وفي تلك السنة نفسها ، غيّر تورغينيف عبارة رودين «اسافر الى قريتي للاقامة» وجعلها : «يرسلونني الى القرية للاقامة» ، مشيرا بذلك الى الصفة الاضطرارية لرحيل رودين ، بعد عمله غير الموفق في التعليم .

و«رودين» اول عمل كبير من نوع الرواية تحدد فيه طموح تورغينيف الى تصوير ماساة رجل غير اعتيادي في ظرف اجتماعي غير ملائم .

في شباط عام ١٨٥٧ كتب الشاعر الروسي العظيم نيقولاي نيكراسوف ، محرر مجلة «سوفريمينيك» عن «رودين» ان المغزى الجوهري لآخر رواية قصيرة للسيد تورغينيف ، هو فكرة تصوير نموذج اناس ما يزالون غير بعيدين عن رئاسة الحركة الفكرية والحياتية ، التي صارت تشمل بالتدريج ، وبفضل حماستهم ، دائرة متسعة باطراد في افضل جزء من مجتمعنا ، واكثره شبابا . لقد كانت لهؤلاء الناس اهمية كبيرة ، وقد تركوا لهم آثارا مثمرة عميقة . ولا يمكن عدم احترامهم ، رغم كل جوانبهم المضحكة ونقاط ضعفهم» .

وناتاليا لاسونسكايا ، بطلة قصة «رودين» تفتتح في ابداع تورغينيف معرض الشخصيات النسائية الساحرة «فتيات تورغينيف» .

٦ – ص ١٨

انعكست في شخصية لاسونسكايا بعض صفات الكسندرا اوسيبوفنا سميرنوفا (من مواليد روسيت : ١٨٠٩–١٨٨٢) وحقائق حياتها . وكانت حسناء ذات صيت انضمت في شبابها الى حاشية القيصرة ، فكانت على علاقة ودية مع جوكوفسكي ، وفيازيمسكي ، وبوشكين ، وليرمونتوف ، وغوغول وغيرهم . نظم شعراء كثيرون قصائد فيها . وكانت سميرنوفا تؤكد في كل وسيلة ، واحيانا تبالغ ، في تاثيرها في مستقبل معاصريها.

كان تورغينيف يعتبر سميرنوفا مزدوجة الشخصية ، ومنافقة .

٧ – ص ١٨

اشارة لكتاب غوغول «مقاطع مختارة من المراسلات مع الاصدقاء» . وكان لتورغينيف رأي سلبي في هذا الكتاب واجدا فيه دفاعا عن «الآراء الدينية والثوابت» و«تأثير اولئك الشخصيات من الاوساط العليا الذين خصص لهم جزء كبير من «المراسلات» . وفي كثير من فصول هذا الكتاب يخاطب غوغول سميرنوفا .

٨ – ص ٢٢

جوكوفسكي فاسيلي – الشاعر ومترجم الاشعار الروسي الرائع (١٧٨٣–١٨٥٢) .

٩ – ص ٢٢

المقصود هنا الكسندر سكارلاتوفيتش ستوردزا (١٧٩١–١٨٥٤) وهو كاتب اشهاري ورجل دولة رجعي .

١٠ – ص ٢٣

مقطوعات للبيانو من تاليف المؤلف الموسيقي وعازف البيانو النمساوي سيغزموند تالبرغ (١٨١٢–١٨٧١) كانت تتطلب من عازفها مهارة في التكنيك وتالقا .

١١ – ص ٢٥

هو معماري وابن نحات ايطالي عاش وعمل في روسيا (١٧٠٠–١٧٧١) . وقد بنى الكثير من القصور والمباني في بطرسبورغ وضواحيها . وكانت تصاميمه في مدن الاقاليم ينفذها معماريون من تلك الاقاليم .

١٢ – ص ٣٣

اورفيوس – شاعر اسطوري من اليونان القديمة زعمت الاسطورة ان اشعاره كانت لها قوة تاثير سحرية لا في الناس

فقط ، بل وفي الحيوانات ايضا ، وحتى على الاشجار والاحجار .

١٣ – ص ٣٤

تحوير للابيات الاولى من قصيدة ديرجافين (١٧٤٣–١٨١٦) «في مولد القيصرة غريمسلافا» «عش ودع الآخرين يعيشون . فقط على الاّ يكون على حساب آخر» .

١٤ – ص ٣٤

بيت الشعر الذي ورد في «المحنة من العقل» مسرحية غريبويدوف «وانت ، يا ابتي ، لا شفاء لك ، مهما فعلنا بك» .

١٥ – ص ٤٧

الكسيس توكفيل – كاتب اجتماعي فرنسي ١٨٠٥–١٨٥٩ .

١٦ – ص ٥١

هي اغنية شوبرت «قيصر الغابة» المبنية على انشودة غوته (١٧٤٩–١٨٣٢) – الشاعر الالماني العظيم . في اواسط الثلاثينات من القرن التاسع عشر كانت تحظى بذيوع معزوفة على البيانو . وكان الولع بموسيقى شوبرت صفة من صفات الرومانسيين الروس والحلقات الفلسفية في ذلك العقد .

١٧ – ص ٥٩

جورج كانينغ (١٧٧٠–١٨٢٧) رجل دولة انجليزي كان في سنواته الاخيرة وزير الخارجية .

١٨ – ص ٦١

ديوجينس – فيلسوف اغريقي قديم (القرن الرابع قبل الميلاد) اكد بطريقة حياته الخاصة مبدأ التحرر من قرارات الدولة ، والتخلي عن الملكية الخاصة . عاش في كوخ طيني سمّي برميلا للسخرية .

١٩ – ص ٦٤

الكسندر دوماس الابن (١٨٢٤–١٨٩٥) – روائي وكاتب مسرحي فرنسي ، مؤلف رواية «غادة الكاميليا» (١٨٤٨) وغيرها . وقد فاتت تورغينيف الدقة هنا ، فان ذيوع روايات دوماس لا محل له هنا ، لأن احداث رواية «رودين» تنتهي بعام ١٨٤٨ .

٢٠ – ص ٦٥

قمبيز ملك فارسي (القرن السادس قبل الميلاد) ولويس الرابع عشر ملك فرنسا (١٦٤٣–١٧١٥) .

٢١ – ص ٧٢

شطر من كوميديا «المحنة من العقل» لغريبويدوف ورد الكسندرا بافلوفنا على استشهاد ليجنيف «انت تغضبني» يتناسب مع السخرية الواردة في نص غريبويدوف ، حيث استخدم «ونحن نتنحب» .

٢٢ – ص ٧٣

بيتشورين هو بطل رواية ليرمونتوف «بطل زماننا» (١٨٣٩–١٨٤٠) . وقد قلّده الكثيرون في الادب وفي الحياة . وقد عبّر بيتشورين عن افكار مماثلة عن تناقضات الحب .

٢٣ – ص ٧٦

كان المثقفون الروس التقدميون في العقد الثالث وبداية العقد الرابع من القرن التاسع منغمرين في «العالم الرومانسي والفلسفي الالماني» . وكان تورغينيف يحب «فاوست» غوته ويقدره تقديرا عاليا ، كان ، حسب اقوال المترجم الالماني بودينشتيدت «يحفظ كل القسم الاول منه تقريبا عن ظهر قلب» . وقد ترجم تورغينيف احد مشاهد «فاوست» الى اللغة الروسية . وكان تورغينيف قد تعرف على بتينا فون ارن مؤلف كتاب «مراسلات غوته مع طفل» في سنوات دراسته في جامعة برلين . وقد ترجم «باكونين» صديق تورغينيف في تلك الاعوام هذا الكتاب الى اللغة الروسية .

٢٤ – ص ٨٢

طرطوف هو بطل كوميديا موليـــر «طرطوف» (١٦٦٤) المرائي والمنافق الذي يكسب بالخداع ثقة اورغون ، ويقيم في بيته ، ويتمتع بسلطة غير محدودة .

٢٥ – ص ٨٤

المقصود هنا فاسيلي ايفانيتش كراسوف (١٨١٠–١٨٥٥) وكان اشهر شاعر في حلقـــة ستانكيفيتش . وتورغينيف في إيراده هذين البيتين لا يقتبس مـن كراسوف ، بل بالاحرى تحاكي شعره متجنبا بهذه الطريقة احتمال وقوع تطابقـــات مباشرة .

٢٦ – ص ٨٦

ديموستينس – خطيب اغريقي قديم (القرن الرابع قبل الميلاد) تقول عنه الاسطورة انه كان يشحذ فنه الخطابي وسلامة نطقه بالقاء خطبه عند ساحل البحر محتميا بضجيج امواجه .

٢٧ – ص ٨٨

في هذا شيء من السيرة الذاتية . في عام ١٨٣٤ كتـــب تورغينيف مسرحية شعرية بعنوان «ستينو» اعترف فيما بعد بانها «عمل سخيف تمامـــا ، تقلّد «مانفريد» بايرون بجهل طفولي» .

٢٨ – ص ٨٩

يقصد في صداقة رقيقة بشكل خيالي وحب مثل بطلي رواية برناردن دو سانت بير «بول وفيرجيني» .

٢٩ – ص ٩٠

وهي عقدة لا يمكن حلها . تقـــول اسطورة ان هوردي قيصر فريجيا عقد عقدة قيل ان مَنْ يحلهـــا يصير سلطان آسيا . وقد شقها اسكندر المقدوني بضربة من سيفه .

٣٠ – ص ٩٨

هذه الفكرة قريبة من القول المأثور للكاتب الاخلاقـي

الفرنسي فرانسوا دو لاروشفوكو القائل : الثقة بالنفس هو اساس ثقتنا بالآخرين» .

٣١ – ص ١٠٢

هذه الابيات للشاعر روزين (وايبولات اسمه المستعار) .

٣٢ – ص ١٣٠

يورد رودين كلمات مقاربة لكلمات بطل رواية سيرفانتس «دون كيخوت اللامانسي» .

٣٣ – ص ١٣٢

اقتباس من «يفغيني اونيغين» لبوشكين .

٣٤ – ص ١٥٠

«مشاهد من اسير القوقاز» لوحات رخيصـــة في موضوع قصيدة بوشكين .

جورج دي جرماني هو بطل ميلودراما فرنسية لديوكانج ودينو («ثلاثون عاما ، او حياة مقامر») .

٣٥ – ص ١٦٢

اقتباس من قصيدة الشاعر الروسي كولتسوف (١٨٠٩–١٨٤٢) «مفترق طرق» .

٣٦ – ص ١٦٥

مطلع اغنية طلابية وامية بفضل نصها اللاتيني .

٣٧ – ص ١٦٦

او الجوّال . تقـــول الاسطورة ان الرب حكـــم على اهاسيوروس بأن يظل جوالا الى الابد لانه لم يسمح لعيسى المسيح بان يستريح عند بيته في طريقه الى مكان الصلب .

٣٨ – ص ١٦٧

اليوم الذي سحقت فيه انتفاضـــة بروليتاريا باريس ، واليوم الاخير «من ايام حزيران ١٨٤٨ الشهيرة ، الايام التي

سطرت على الواح التاريخ الفرنسي بمثل هذه الخطوط الدامية» ، كما كتب تورغينيف الذي شهد ايام حزيران في باريس بعينيه . في ٢٢ حزيران ١٨٤٨ كانت الحكومة الموقتة قد حلّت ما يسمى بالورش القومية ، مما كان يهدد بالبطالة ، وكان سببا مباشرا في انتفاضة بروليتاريا باريس التي كانت قد نضجت ، حتى قبل هذا .

٣٩ – ص ١٦٧

ضاحية سان انطوان مركز الانتفاضة الذي صمدت متاريسه اطول من اي مكان آخر .

٤٠ – ص ١٦٧

هو جندي من القوات الحكومية انهى تدريبه في المدرسة العسكرية ، في فنسن قرب باريس .

٤١ – ص ١٦٧

كان في فرنسا كثير من البولونيين الذين هاجروا بعد سحق الانتفاضة البولونية ١٨٣٠–١٨٣١ . وكان البولونيون مشهورين ليس في نضالهم من اجل استقلال بولونيا ، بل وفي مشاركتهم في الحركة التحررية للاقطار الاخرى . في مظاهرات باريس يوم ١٥ ايار ، اثناء انتفاضة ١٨٤٨ ارتفع مطلب مساعدة الحركة الوطنية التحررية البولونية . ولهذا تصور الثوار بان رودين بولوني .

عش النبلاء

٤٢ – ص ١٦٩

استمر العمل في هذه الرواية زهاء ثلاثة اعوام . في مسودة المخطوطة للرواية ، المحفوظة في المكتبة الوطنية في باريس توجد هذه الملاحظة للمؤلف : «عش النبلاء» رواية قصيرة لايفان تورغينيف . وُضعت فكرتها في بداية ١٨٥٦ . ظللت وقتا طويلا لا ابدأ في كتابتها . كنت اقلبها في ذهني طوال الوقت . وبدأت اعمل فيها صيف ١٨٥٨ في سباسكويه ، وفرغت

منها في يوم الاثنين ، ٢٧ تشرين الاول ١٨٥٨ ، في سباسكويه» .

عندما انتهى تورغينيف من الرواية سافر بها الى بطرسبورغ ليعرضها على حكم اصدقائه .

وقبل نشر «عش النبلاء» ادخل المؤلف عددا من التعديلات ، من بينها واحد مهم جدا ، وهو الفصل الذي كتبه عن طفولة ليزا المبكرة ، وعن حاضنتها اغافيا فلاسييفنا ، التي اثارت فيها ، بطرف خفي ، شعورا دينيا عميقا (جوابا عما لوحظ من ان مصدر «تديُّن» ليزا كاليتينا لم يكن ظاهرا في الرواية) .

نشرت الرواية لأول مرة في مجلة «سوفريمينيك» ، العدد الاول ، لعام ١٨٥٩ .

مرة اخرى عرض تورغينيف في محور الرواية بطلا ينتمي الى وسط المثقفين النبلاء للعقد الرابع من القرن التاسع عشر . وبطل رواية تورغينيف الثانية قريب الى رودين في جوانب عديدة . وتورغينيف ، حسب اقوال الناقد نيقولاي دوبرولوبوف (١٨٣٦–١٨٦١) خلق في هذه الرواية شخصية رجل من «نمط رودين» ولكنه «استطاع ان يطرح لافريتسكي بشكل يتحرج فيه الانسان ان يتهكم عليه . . . فان درامية وضعه لم تعد تتمثل في مصارعة عجزه ، ولكن في التصادم مع مفاهيم واخلاقيات لا بد ان ترعب مصارعتها ، حقا وفعلا ، حتى الرجل النشيط الجريء» (مقالة «متى ياتي اليوم المنشود ؟») .

قصة حب لافريتسكي وليزا ، ولا سيما النهاية الشاعرية الحزينة لهذه القصة تعد من افضل صفحات نثر تورغينيف . وقد اشار النقاد في ذلك العهد عن حق الى ان هذه الصفحات «لا ينقصها الا الشكل الموسيقي لتحتل مكانها بين افضل الاغاني التي قيلت بلغتنا القومية في كل الازمان» . وتورغينيف نفسه كتب ، وهو يتذكر فيما بعد ، الانطباع الذي خلفته «عش النبلاء» : «لقد ظفرت «عش النبلاء» باكبر نجاح نلته في اي وقت مضى . ومنذ ظهور هذه الرواية صرت أُعد من بين الكتاب المستحقين اهتمام الجمهور» .

٤٣ – ١٨١
هي مقدمة اوبرا «اوبيرون» لكارل ماريا فيبر (١٧٨٦–١٨٢٦) ، وكان عزفها على البيانو شائعا جدا في اعوام ١٨٣٠–١٨٤٠ .

٤٤ – ص ١٨٢
مقطوعة مهداة لخوفرينا . وقد اوردهـا تورغينيف في رسالة لصديقيه باكونين ويفريموف ، في ٨ ايلول ١٨٤٠ ، ولم تنشر هذه المقطوعة منفردة .

٤٥ – ص ١٨٧
هو اوغست ولهيلم شليغل المنظّر البارز للرومانسية الالمانية .

٤٦ – ص ١٩٧
هو فاسيلي فاسيليفيتش الثانـي الملقب بـ«تيومني» (المظلم) تربع على عرش موسكو من ١٤٢٥ الى ١٤٦٢ .

٤٧ – ص ٢٠٣
المقصود هنا ان ايفان بيتروفيتش بزواجه من ملانيا كأنما طبّق المقولة الاساسية في «اعلان حقوق الانسـان» وهي ان الناس متساوون منذ الولادة .

٤٨ – ص ٢٠٩
استرجعت القلعة اجاكوف من الاتراك واعيد ضمها الى روسيا في عام ١٧٨٣ .

٤٩ – ص ٢١٠
هو كتاب يحتوي على اقوال مأثورة ذات محتوى مجازي مصحوبة بالصور . وقد بقي هذا الكتـاب حياً في ذاكرة تورغينيف منذ الطفولة .

٥٠ – ص ٢١١
هن آلهات الاقدار الثلاث . تقول عنهن الاساطير الاغريقية القديمة انهن كن يغزلن خيوط حيوات الناس .

٥١ – ص ٢١٢
يصف تورغينيف في هـذه العبارات رد الفعل الذي حدث في روسيا بعد سحق انتفاضة الديسمبريين . فقد شمل التنكيل ايضا الذين رأت فيهم الحكومة «نَقَلَة» الجرثومـة اليعقوبية» ، اي افكار الثورة الفرنسية . ولهذا السبب منع ايفان بيتروفيتش لافريتسكي من السفر الى الخارج .

٥٢ – ص ٢١٥
موتشالوف (١٨٠٠–١٨٤٨) هو ممثل في مسرح «مالي» («المسرح الصغير») منذ عام ١٨٢٤ . وقد تفتحت موهبته الى اعوام ١٨٣٠–١٨٤٠ . واحسن الادوار مثلها موتشالـوف في تراجيديات شيللر وشكسبير .

٥٣ – ص ٢٢٢
هيراكليس او هرقل ابن الآلهة زوش والكمينا ، احد ابطال الاساطير الاغريقية ، مشهور بمآثره البطولية . وهو ، بالمعنى المجازي ، الرياضي القوي الجسم .

٥٤ – ص ٢٢٦
مارس (واسمها الحقيقـي آن فرانسواز ايبوليت بوت) (١٧٧٩–١٨٤٧) ممثلة فرنسية مشهورة كانـت خلال حوالى ثلاثين عاما تتبوأ مكانة بارزة في فرقة مسرح «كوميدي فرانسيز» ممثلة الادوار الرئيسية في الكوميديا الرفيعـة والدرامـا الرومانسية الجديدة . وقد تركت المسرح عام ١٨٤١ .
راشيل (يليزا راشيل فيلكس) (١٨٢١–١٨٥٨) ممثلـة فرنسية ظهرت على مسرح «كوميدي فرانسيز» لأول مرة في عام ١٨٣٨ . وقد ارتبط بأسمها انبعاث المسرحيات التراجيديـة على المسرح الفرنسي .

٥٥ – ص ٢٢٦
جاك شارل اودري (١٧٨١–١٨٥٣) – ممثل هزلي فرنسي ، وماهر في المسرحيات الهزلية الساخرة .

دورفال الاسم المسرحي لماريا – اميلي ديلوني . كانت منذ عام ١٨١٨ ممثلة في مسرح «بورت سان مارتين» في باريس . وكانت تمثل الادوار الرئيسية في المسرحيات الميلودرامية والرومانسية ، والعاطفية جدا والمشجية عن صدق .

٥٦ – ص ٢٢٦

كانت سلاسل المحاضرات في كوليج دي فرانس لا تماثل محاضرات الجامعة ، وكانت تستهدف المعالجة المعمقة لمسائل منفصلة .

٥٧ – ص ٢٢٧

اغنية للمؤلف الموسيقي فيرستوفسكي كلماتها مأخوذة من قصيدة بوشكين «الغجر» .

٥٨ – ص ٢٣٧

روبرت بيل كان رئيس وزراء انكلترا بين ١٨٤١–١٨٤٦ .

٥٩ – ص ٢٤٨

فريدولين قصيدة غنائية لشيللر . وفريدولين البطل الرئيسي فيها .

٦٠ – ص ٢٦٩

في هذين البيتين حوّر تورغينيف خطاب رئيس اساقفة زميفيا الى كلودفيغ الاول مؤسس الدولة الفرنسية (حوالى ٤١٦–٥١١) الذي اعتنق المسيحية ، اثناء تعميده . اصل البيتين في هذه الاسطورة : «اعبد ما احرقته ، واحرق ما كنت تعبده» .

٦١ – ص ٢٧٣

«اوبرمان» رواية لاتين بيفر دو سينانكور الكاتب الفرنسي (١٧٧٠–١٨٤٣) . وقد سمّى ليست احدى قطعه للبيانو «وادي اوبرمان» .

٦٢ – ص ٢٨٨

وصف معاصرو ليرمونتوف شعره بأنه شعر «شخصية مستقلة ناقدة محتجة» (تورغينيف) وبأنه رد على «اسئلة الحاضر المفزعة المرضة» (بيلينسكي) . وقال عنه غرتسين «انه ينتمي الى جيلنا كليا» . وتجاوب ابداع ليرمونتوف هذا التجاوب الملحوظ مع ميول روسيا التقدمية في نهاية الثلاثينيات وبداية الاربعينيات من القرن التاسع عشر قد حدد تفوقه على بوشكين في ذلك العهد . وتورغينيف يتحدث عن «الموضة» لتناسب نفسية بطله بانشين .

وقصيدة «هواجس» الشهيرة لليرمونتوف نشرت لأول مرة في عدد كانون الثاني من مجلة «اتتشستفنيه زابسكي («الوقائع الوطنية») لعام ١٨٣٩ .

٦٣ – ص ٢٨٨

الكسندر ستيبانوفيتش خومياكوف (١٨٠٤–١٨٦٠) احدى الشخصيات الرئيسية في النزعة السلافية . وهي مذهب فلسفي اجتماعي في روسيا في اربعينيات وخمسينيات القرن التاسع عشر .

٦٤ – ص ٣٢٠

على النقيض من ليزا بفهمها العميق للموسيقى الكلاسيكية جعل تورغينيف لفارفارا بافلوفنا ميلا الى موسيقى الصالونات الحاذقة التي تتيح اظهار التكنيك الباهر . وهيرتس (١٨٠٦–١٨٨٨) مؤلف موسيقي فرنسي ، ومعلم . وبهذا المعنى تذكر معزوفات تالبيرغ ، المؤلف الموسيقي النمساوي .

٦٥ – ص ٣٢١

لحن من «لوتشيا» موضوع على البيانو المنفرد نقلا عن اوبرا «لوتسيا دي لاميرمور» (١٨٣٥) لدونتسيتي .

٦٦ – ص ٣٢٣

كليمنس فنتسل مترنيخ (١٧٧٣–١٨٥٩) دبلوماسي

نمساوي مشهور . شغل منصب المستشار ووزير الخارجية في الامبراطورية النمساوية لفترة طويلة .

٦٧ – ص ٣٢٦

جورج ساند هو الاسم المستعار لافرورا ديوبن (١٨٠٤–١٨٧٦) وهي كاتبة فرنسية . دافعت منذ رواياتها الاولى عن حقوق المرأة بحماس . وقد حققت بالفعل مبدأ حرية الفرد ، حين انفصلت عن زوجها . وحنق فارفارا بافلوفنا على جورج ساند احد مظاهر تقواها الزائفة . وتظهر اذواق فارفارا بافلوفنا الادبية في انها تعتبر الروائي يجين سيو والكاتب المسرحي اوغسطين يجين سكريب «عليمين عظيمين بالنفس الانسانية» بينما هما سيكولوجيان سطحيان جدا ، واكثر ما يعجبها الادب المسلّي لالكسندر دوما وفيوال وبول شارل دو كوك .

٦٨ – ص ٣٥٣

يرتبط نوع كوميدية «الامثال الدرامية» باسم الفريد دي موسيه (الشاعر الفرنسي الرومانسي) . وهذه الكوميديات خلو تقريبا من المشاهد المسرحية ، والاهتمام الرئيسي فيها ينصب على بهرجة واناقة الحوار ، ورهافة المواصفات السيكولوجية . وقد مثلت لأول مرة في المسرح الفرنسي في بطرسبورغ في موسم ١٨٤٢–١٨٤٣ .

٦٩ – ص ٣٥٣

هي الممثلة الفرنسية ماريا شارلوتا – يفغينيا دوش (١٨٢٣–١٩٠٠) . كانت تمثل دور البطلة في مسرحية ديوما الأبن «غادة الكاميليا» .

ИБ № 901. Редактор русского текста *Л. Ф. Чеботкевич.* Контрольный редактор *Т. А. Правдина.* Художник *А. А. Костин.* Художественный редактор *Т. В. Иващенко.* Технические редакторы *Е. В. Мишина, О. Н. Черкасова.* Корректор *К. Х. Мохамед.* Сдано в набор 19.03.84. Подписано в печать 30.11.84. Формат 84×108/32. Бумага типографская. Гарнитура «Каирская». Печать высокая. Прив. печ. л. 19,74. Усл. кр.-отт. 20,42. Уч.-изд. л. 28,48. Тираж 8585 экз. Заказ № 164. Цена 2 р. 90 к. Изд. № 716. Издательство «Радуга» Государственного комитета СССР по делам издательств, полиграфии и книжной торговли. Москва, 119859, Зубовский бульвар, 17. Ордена Трудового Красного Знамени Московская типография № 7 «Искра революции» «Союзполиграфпрома» Государственного комитета СССР по делам издательств, полиграфии и книжной торговли. Москва, 121019, пер. Аксакова, 13.

ببعضهم الى آخر حياتها . واكثرهم لهفة في الآونة الاخيرة رجل يدعى زاكوردالو – سكوبيرنيكوف ، من ضباط الحرس المتقاعدين منْ حمَلة الشوارب ، وهو في الثامنة والثلاثين من العمر ، له بنيان قوي بشكل غير اعتيـادي . وزوار صالون مدام لافريتسكايـا الفرنسيون يسمونه « le gros taureau de l'Ukraine » * . وفارفـارا بافلوفنا لا تدعوه ابدا الى حفلاتها المسائية الراقية ، ولكنه يتمتع بعلاقتها الودية كليا .

هكذا . . . انقضت ثمانية اعوام . وعادت السمـاء تفوح من جديد بنعمة الربيع الآلِقـة ، وابتسم الربيع من جديد للارض والناس ، ومن جديد ازدهر كل شيء بنفحه الحنون ، وسطع بالحب والغناء . لم تتغير مدينـة و . . . كثيرا خلال هذه السنوات الثماني . ولكن بيت ماريـا دميترييفنا بدا وكأنه قد عـاد الى شبابه . كانت جدرانه المطلية منذ فترة قصيـرة تزهو بيضاء حفيّة ، وزجاج نوافذه المفتوحة تحمر وتلمع في الشمس الغاربة . ومن هذه النوافذ كانت تنبعث الى الشـارع رنّات خفيفة بهيجة لأصوات فتية صداحة ، وضحك لا ينقطع ، حتى ان البيت بدا كله دافقا بالحياة ، طافحا بالمرح . وكانت صاحبة البيت نفسهـا قد رقدت رقدتها الاخيرة في القبر منذ زمان . توفيت بعد سنتين من ترهب ليزا . ولم تعش مارفا تيموفييفنا طويلا بعد ابنة اخيها ، ودُفِنت بالقرب منهـا في مقبرة المدينة . كما فارقت الحيـاة ناستاسيا كاربوفنا ايضا ، وكانت هذه العجوز الوفية تصلي كل اسبوع على رفات صديقتها . . . وحلّ الاجل ، ورقدت عظامها ايضا في الارض الرطبة . ولكن بيت ماريا دميترييفنا لم ينتقل الى ايدي الغرباء ، ولم يخرج من اهلـه ، ولم يخرب العش . وعَمر بلينوتشكا التي صارت فتاة رشيقة جميلة ، وبخطيبها ، وهو ضابط خيالة كتاني الشعر ، وبابن ماريا دميترييفنا الذي تزوج لتوه في بطرسبورغ ، وجاء مـع زوجته الشابة ليقضي فصل الربيـع في مدينة و . . . ومع اخت زوجته ، وهي فتاة في السادسة عشرة ، طالبة في المعهد ، ذات وجنتين مضرجتين حمرة ، وعينين صافيتين ، وبشوروتشكـا التي كبرت هي الأخرى ، واحلوّت . وكل هؤلاء الفتية كانوا يملأون جدران بيت كاليتين بالضحك والكـلام . وقد

* ثور اوكرانيا الضخم (بالفرنسية في الاصل) .

تغيّر كل شيء فيه ، وصار على انسجام مع ساكنيه الجدد . وحلّ خدم شبان مُرْدٌ فكهون مرحون محل الشيوخ الرصينين . وفي المكان الذي كان الكلب روسكـا المسمّن يتهادى بعظمة ، صار كلبان نبّاحان يتوثبـان بجنون ، وينطان على الارائك ، وحفل الاسطبل بخيول عدّاءة مفتولة العضلات ، وخيول رئيسية مقدامة في جر العربات ، واخرى على الجانبين متوثبة ذات اعراف مضفورة * ، وافـراس للركوب من الدون . واختلطت ساعات الفطور والغداء والعشاء ، وتشابكت ، وحلّت ، حسب قول الجيران ، «انظمة عيش لا عهد للناس بها» .

في ذلك المساء المذكور كان اهل بيت كاليتين (واكبرهم سنا هو خطيب لينوتشكا لا يتجاوز الاربعة والعشرين من العمر) مشغولين بلعبة سهلة ، ولكنها مسليـة جدا لهم ، اذا حكمنا عليهـا بالضحك الذين كانوا يغرقون فيه . كانوا يركضون في الغرف ، واحدهم يمسك بالآخر ، والكلبان ايضا كانا يركضان ، وينبحان ، وطيور الكناري المعلقة في اقفاصها امام النوافذ . كانت هي الاخرى ترفع اصواتها بالتغريد الصداح العارم يقاطع بعضها بعضا مزيدة بذلك الهرج الجماعي . وفي ذروة هذا اللهو المُصم دنت عربة ركوب صغيرة موحّلة من بوابة البيت ، وترجّل منها رجل في نحو الخامسة والاربعين ، عليه ثياب السفر ، وتوقف مبهورا . وقف بعض الوقت جامدا ، والقى على البيت نظرة متقصية ،ودخل من البوابة الى الفناء ، وصعد الى واجهة البيت ببطء . لم يلتق به احد في الرواق ، الا ان باب حجرة الاستقبال فتح بسرعة ، وقفزت منه شوروتشكا محمرة ، وبعد لحظة خرج في اثرها رهط الشباب كله ، في صياح رنان . وتوقف الرهط فجأة ، وهدأت ضجته لمرأى الغريب . الا ان العيون الألقة المتفرسة فيه ، حدقت فيه بنعومة ايضا ، ولم تكف الوجوه الغضة عن الضحك . تقدم ابن ماريا دميترييفنا من الضيف ، وساله بترحاب ما الذي يبتغيه ؟

قال الضيف :

– انا لافريتسكي .

* تجر العربة الروسية المسماة «ترويكا» ثلاثـة خيول واحد في الوسط هو الرئيسي ، والثنان على جانبيه **(المعرب)** .